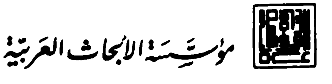
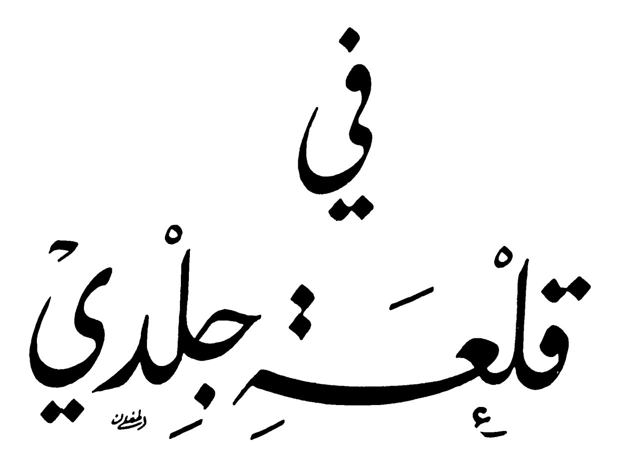
جورج لمينغ

في قلعة جلدي

ترجمة
سميرة خوري

١٦




في
قلعة جلدي

في قلعة جلدي .. هي رواية جورج لمينغ الأولى، إنها أقرب إلى مزيج فريد من الرواية والسيرة. فيها نعايش الطفل وهو ينمو وسط تحولات اجتماعية وسياسة عاصفة. إنها رواية التحول والوعي الذي يكتشف نفسه وسط عالم من المتغيرات.

في قلعة جلدي .. هي أكثر من شهادة، إنها عالم كامل بعيد بناء نفسه في لغة تتعرض هي نفسها للتحول. وتنمو مع نمو عالم متشعب ومتوحش. وسط الانتقال الصاحب إلى المرحلة الرأسمالية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

• جورج لمينغ : **في قلعه جلدي**

• الطبعة العربية الاولى : ١٩٨٤

الناشر : **مؤسسة الابحاث العربية** ش. م. م.

ص. ب. ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان

هاتف ٥٥.. ٨١ ـ تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا لبنان

• تصميم الغلاف : **نجاح طاهر**

• يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية : GEORGE LEMMING IN THE CASTLE OF MY SKIN

« هناك ما يفزع حيث ظننتني أوفر سلامة »

والت ويتمان

١

مكتبة
t.me/soramnqraa

مطر ، مطر ، مطر . . . مـدَّت أميّ رأسها من الشبَّاك لتخبر الجارة أنَّني بلغت التَّاسعة ، فأطرتني كلتاهما بعزاء أن عيد ميلادي جلب معه بركات غـزيرة وسرعان ما انقضى الصباح المثقل بالغيوم ، فحلَّ الظهر حيادياً وصامتاً وتلاشى ليحلّ محله عبوس مساء كالح موحل غارق في الماء . ذلك المساء علَّقت بصري في شقوق سقفنا المهترىء الذي تحوّل لون أخشابه الى سواد حِدَادِي ، وانتظرت الطقس لأعيد تلاوة أمنياتي . غير أن المساء استقر في وحل الطرقات التي تحوّل بعضها إلى برك طين ، فبكيت الضياع المائي ليومي التَّاسع المهمّ . ولكنني كنت مخطئاً ، احتجَّت أمّي : فالاعتراض على مشيئة الله أو رفض العزاء بأن عيد ميلادي جلب بركات غزيرة هو ضرب من عدم الخشوع أو الاحترام .

كان ذلك اليوم يوم احتفالي التاسع بهبة الحياة ، احتفالي التاسع بالانعدام المستديم لأي مناسبة للاحتفال . وراقبت ، من خلال شبّاك مَنَحَ الرَّذاذ حافَّته بعض الحياة المبتلَّة ، المياه تجري عبر الطرقات والأزقَّة التي تكثر وراء الأكواخ المجاورة ، انبطحتْ سوق الزنابق البيضاء تحت المطر المتواصل ، ثم أغرت جذورَها فاقتُلِعَت من الأرض وعامت فوق الطين المقلوب عبر الأقنية حتّى بلغت النهر الأسود العميق حيث اتَّفقت الفيضانات على التَّلاقي . ازداد ارتفاع المياه كثيراً حتَّى أغرقت الخنشار والأزهار على شرفتنا . وتسرَّبت المياه عبر شقوق الباب وتكدَّست في زوايا أرضنا غير المفروشة بالسجّاد . أحضرت أمّي أكياساً امتصَّت هذه المياه بسرعة ، ولكنَّ شقوقَ السَّقف فوق رؤوسنا كانت تبكي مطراً ، فَعَلاَ

سَطح السجَّادة وما ازدانت به مائدتنا من خنشار وأزهار ، متعرجاتٌ سائلة برَّاقة هي من نِعَم السَّواد الجِذَادِي لأخشاب سقفنا وبدا أنّ أحداً لم يلاحظ كيف تحوّل الظهر الى مساء ، والمساء إلى ليل ، ولم يقلق أحد لأن الطقس خدعني . فلا شيء يهمّ غير البركات الغزيرة والمشيئة الأبديَّة لمصدر الماء . ولعلّي كنت أقبلُ العزاء لو ان الفيضانات لم تختر أن تتبعني في احتفالاتي بأعيادي كلها ، باعثة صورة كل تلك المياه الأسطورية التي تجمّعت وارتفعت ذات يوم لتوجِّه لعنةً لمسار الانسان .

وبدا كأنَّ حياتنا ـ والمقصود مخاوفنا وما يقابلها من طموح وآمال ـ تقلِّد المياه الراكضة في الخارج تقليداً جدياً ، فتنسرب في مزراب وهمي هو مستقبلنا وقد نمت قدراتنا الشعورية واتَّسعت اتّساع الفيضان ، ولكنَّ صلوات قرية متواضعة بدت صلاحيتها غير مضمونة كالبيوت القائمة على الماء . ولا شك أن رؤ ية ما يحدث في الخارج كانت عسيرة ولكن كان ثمَّة أصوات رشاش ماء مترنِّح يصدر عن أقدام صبيان واختناق آلة غرزت في الوحل .

كانت القرية عبارة عن تجمُّع مدهش من البيوت الصغيرة المتراكمة تقوم منحرفة على أساسات من الكلس ، وتصطف صفوفاً على كل جانب من جانبي الطرق الكلسية الكثيرة . وكانت الطرق تتلاشى أحياناً ويتقهقر الكلس وتتقدم البيوت فتتخطى حدودها وتعانق البيوت التي تقابلها في الجانب الآخر عناق أسيجة من شجيرات الصبِّر والألواح الخشبيَّة . وكانت الطرق البيضاء الكلسية تتفرع أربعة طرق عند كل تقاطع ، إلّا إن ضاقت الطريق فأدَّت إلى زقاق أو ممر يؤدِّي إلى الساحة الخلفية لأحد البيوت . وهناك دكاكين عند كل تقاطع : دكان ، واثنتان ، وأحياناً ثلاثة ، وكانت تقوم في وضع يمكِّن أصحابها من ملاحظة زبائن الآخرين . وحيثما وجدت الدكاكين يوجد مصباح في الشارع يرتفع على عمود ، ويوجد دائماً حركة ونشاط كبيران ، كما توجد غالباً الرائحة الخاصَّة التي تميِّز الحياة البدائية . كانت المصابيح تُضاء بالغاز وتشعل في الساعة السادسة كل مساء . وحين تُضاء الأنوار ، كان الصبيان الصغار يتجمَّعون حول عمود المصباح ، كأسراب الذباب ، فيثرثرون ويروون القصص والحكايات . وفي الأمكنة الأخرى كان الرجال يتجمعون ، بطريقة مماثلة ، للعب النرد أو الورق أو لمجرد الحديث

وكان المشهد يتكرر عند كل تقاطع حيثما وجد مصباح في الشارع يرتفع فوق عمود . وكان للطرق أسماء - « مُورِيل » ، « أَلْكِنْزِ » ، « هَنْط » - ونما ودّ غريب من طرف واحد بين القروِيِّين والطريق التي يقيمون في كنفها ، تماماً كما نمت ، أحياناً ، كراهية متبادلة بين سكَّان إحدى الطرق وسكان طريق أخرى . فقد يحيك سكَّان « ألكنز » المؤامرة السرِّية تلو المؤامرة ضد سكان « موريل » ، وكانت النتيجة واحدة دائماً : إذ يصرِّح سكان « ألكنز » ، أن سكان « هنط » هم جماعة من الكذا والكذا .

وكان هناك حمّام عمومي للرجال وللنّساء ، تنبعث منه دائماً رائحة الدواء المطهِّر فتملأ الهواء ، وكانت هناك ، في كل مكان ، منشآت كلسية تشبه الأفران التي لا سطح لها ، ترمى فيها القمامـة . ولكن المشهد اللاّفت كان غابة أشجار الماهوغاني التي تقطعها القطارات في رحلاتها من المدينة إلى الريف . وكانت هناك أيام يسود الهدوء القرية خلالها : فيؤدي الإسكافي عمله بكسل ، وتنحني النساء الغسّالات فوق أحواض الغسيل مدندنات رضاهن دندنة رتيبة . وفي أحيان أخرى ، كانت هناك مشاهد عنف ورعب ، وحدث مرَّة حادث قتل .

ولكن موسم الفيضان كان يغيِّر كل شيء . فقد تسوِّي الفيضانات معالم القرية في مستوى واحد ، بل إنها قد تخفي هوية القرية . وقد حدث ذلك مرة اخرى مع انتهاء سنتي التاسعة . وتطلعتُ من الشبَّاك على خراب قرية في الليل في الماء . وقالت أمي هذا عيب ، كما هو شأن كل ما لا يرضيها . وحتى بعد مرور سنوات كثيرة أجدني أحاوِلُ تحديد مضمون تلك الدَّمغة . ما هو العيب تحديداً ؟ هل هو الطقس أو القرية أو الوضع الإنساني الذي أقسم الفقراء فيه ، وبالرغم عنه ، على الوفاء للحياة ؟ لكنها قالت ذلك : وبعد قولها ذلك ، كانت تمتنع عن إصدار الأحكام بل تذكّرني ، متخذة موقف الصلاة والرجاء ، بالبركات التي ربَّما فاتت ذاكرتي .

انسحبتُ بعيداً عن الشبَّاك ماراً فوق الأكياس المبتلة إلى ركن نسيه الطقس . وماذا تذكَّرتُ ؟ إن أبي الذي ليس له من الأبوة سوى فكرة وجودي تركني عبئاً على أمي وحدها التي كانت لي أبا حقاً . وما بعد ذلك يسود الفراغ

ذاكرتي . فقد غاصت ذاكرتي بحمولتها من الأحداث مثل ربّان يفضل الغرق هو وسفينته على مواجهة مترتبات البقاء والحياة . وعلاوة على ذلك ، بدأت أمّي بالغناء ، وهو ما يحصل دائماً حين أحاول أن أتذكر . كان صوتها صافياً ولا لون له . وكان يشير إلى النغم دون أن يضبطه ، وكنت أتعرّف إليه عبر الكلمات فقط .

قالت : « لا يمكنني إتقانه الليلة » .

لا جواب .

« كما تعرف ، لم نحصل على مثل هذا المطر منذ فترة طويلة طويلة » .

لا جواب .

« هل تسمع ؟ » .

« نعم » .

ثم انفجرت بنغمة ناعمة رتيبة كانت ترتفع مع كل دفقة شعورية جديدة حتّى أصبحت دويّاً قلقاً متناثراً حلّق عبر الليل ودخل بيت الجيران . وجاء الجواب أعلى وأفضل تنظيماً وأقدر على التواصل، ممّا جعل جارة جديدة تستجيب ، ثم جارة أخرى فأخرى حتّى بدت الأصوات كأنّما يجمعها جُهْد مفرد ، واهتزّت القرية بأسرها بالغناء فوق أساساتها المائيّة . وسُرَّت أمِّي بقيادتها غير المعلنة وإن تكن معترفاً بها عامَّة . وأضاءت المصباح النحاسي الكبير المتدلِّي من دعامة تُسْنِد منعطفات السقف . وكانت المساحة في السَّقف التي تعلو المصباح مباشرة تكتسي بطبقة من السُّخام تأرجح المصباح في مهده من الأسلاك ، صحن من النحاس اللمَّاع ، مع انتشار اللهب عبر طرف الفتيلة المحترق الأزرق . وقفت أمّي تحت الصحن النحاسي المنقوش بالأزهار الذي يحتوي الوقود ونظَّمت علوَّ اللهب . أدار الدخانُ اللهبَ دوائر داخل المدخنة ثم استقر على السقف المبتلّ . شقَّ الضَّوء طريقه حول زوايا البيت ، فبدت حيطانه في انعكاسات الضَّوء خراباً كئيباً . كان ذلك هو الضَّوء المتردِّد الذي يستشعره المرء في عبوره من النَّوم إلى اليقظة الواعية . تابعت الساعة الموضوعة الى رف في إحدى الزوايا دقّاتها . تراجعت أمّي إلى قسم

آخر من البيت حيث كانت تقوم بقلب ومراجعة وتغيير أشكال ورسوم الحرير والتَّافتاه التي تطرزها . سرعان ما تبعتُها مثل أثر باهت من الدخان يقتفي نصف قطر دائرة وصولا الى مصدره الأحمر . لقد استبدلت الذَّاكرة بالتَّساول :

« أين قلتِ ذهبتْ جدتي ؟ » .

أجابت امي : « إلى بَنمـا . كان ذلك وقت فتح القناة . إنها الآن في منطقة القناة . آن الأوان حتى تكتب لها رسالة » .

تابعتُ : « وجدِّي الذي كان أباك ؟ » .

« آه ، لقد مات ، يا ولدي ، مات قبل أن أولد » .

« وخالي ، الذي كان أخاك ؟» .

قالت أمي : « ذهب أخي إلى أمريكا . مضت سنوات كثيرة على رحيله . إن آخر ما سمعناه عنه أنه كان في باخرة ، ثم مرض ، وربما يكون قد مات ونحن لا نعرف » . كانت مشاعرها حياديَّة .

« وحين رحل خالي الذي كان أخاك ، وجدتي التي كانت أمك ، حين رحلا ، كم كان عمرك ؟» .

« سنتين » .

« سنتين ؟ »

« نعم ، سنتين » ، قالت أمّي .

بدأ مولدي في ما يشبه الغياب الكلي لأي أقرباء . لقد وُضِع والديَّ ، من كل الجوانب تقريباً ، في خانة الحسابات السَّيِّئة أو المشكوك فيها بالنسبة لكل علاقاتي المستقبلية ؛ وكانت الوحدة التي انبثق منها عزاء الحرية فيما بعد ، هي الإرث الذي افتتحت به سنتي الأولى .

لا بدَّ أن أمي الجالسة قربي وأمام ماكينة الخياطة قد لمست التغيّر الذي بدأ يعتريني . كانت الذاكرة تتابع من جديد خط الاكتشاف الذي تركه التَّساؤ ل .

رغم تأخّر الوقت ، كان عيد ميلادي ما يزال حيًّا . لقد افتتح الصباح بالغيوم التي أذابَت الظُّهر الى ليل مبتلّ وفجائي .

كنت قد تناولت الشاي وفطيرة في الغرفة الخلفية مع وعد بكعكة تزينها تسع شمعات . ولكنّ الشمعات قد أُطفِئت قبل وصول الكعكة ، ومن الأكيد أن الأمطار المنهمرة التي باركت هذا اليوم قد أذابت الوعد كما أذابت الظُّهر . ازدادت سحنتي طولاً وعلاها غضب قاتل .

قالت أمي : « لكنك لا تتوقع مني أن أصنع كعكة من الحجارة » .

وحين تذكَّرتُ اعترفتُ أن حتى الحجارة مفقودة . كانت الجارة قد مدَّت رأسها عبر الشبّاك لتتحدث مع أمي . وكان الوقت ظهراً .

« هل عرفتِ ما جرى لبيت « فوستر » ؟ لقد انجرف البيت كله ، كله ، كله ، الأساسات ، كل شيء ، لم يبق شيء . لقد وضعوا السيدة « فوستر » والأولاد في مقرّ الحارس ، وهل تعلمين كم عدد أولاد السيدة « فوستر » ؟ »

فسألت أمي : « والسيد « فوستر » ؟» .

« كنت سأخبرك . لقد أقسم « فوستر » ألّا يترك البيت القديم ، فذهب فوق سطح البيت يسبح منحدراً في النهر . وقد اضطروا أن يسحبوه بحبل من حائط الكنيسة » .

أغلقت الجارة شبَّاكها وحَشَت الشقوق بالورق البنّي .

مع انعدام التَّمييز بين الظهر والليل ، ذهبت إلى الغرفة الخلفية لألعب مع الحمامة . كانت نائمة على القضيب الذي يؤدي كل الوظائف التي تحتاجها الحمامة في سكنها . أنزلتها وربَّتُّ على رأسها وعنقها . تحلَّقت مخالبها حول سبَّابة يدي اليسرى ، بينما أجبرتُ منقارها على الانفتاح بيدي الأخرى . ثم أطعمتها حتَّى تمدَّدت حوصلتها فأصبحت ثنيات متعرجة من اللحم المكسو بالريش ، وانخفضت أكتافها وأُغْمِضَت عيناها على غشاء مائي . أفرغتُ فوراً أنبوباً من زيت الخروع في حلقها ، متذكراً أن القروِيِّين يقولون دائماً أن لا شيء أفضل من أن نأكل جيِّداً ثم ننظِّف معدنا أعدتُ الحمامة إلى القضيب ، وتطلعت من

خلال السقف المشقّق إلى السَّماء التي لم تستطع التمييز بين الليل والظّهر . تلك الليلة ماتت الحمامة ، وأنا دفنتُ بركاتي في الوسادة وفي رأسي عار حارق .

اضطجعت أميّ إلى جانبي تسرد أحداث اليوم السَّابق وتراجع خططاً جاهزة لليوم التالي . وفي الظلام اختفت شقوق السقف ، ولكن بعض النقاط كانت تتساقط فترتدّ عن أعمدة السرير رذاذا يتناثر فوق أنفي . فتحت عيني فرأيت أشباحاً هائلة لها عيون من نار وتتوِّجها قرون الثيران تمخر الظلام . أغلقت عيني فذهبت الأشباح . فتحتهما ثانية فتقدَّم أحدها يخيّم فوق رأسي بصمت ساخر . سدَّدت ضربة قصمت شبح الشيطان ، فارتطمت قبضتي بأعمدة السرير . تأوَّهت أمي .

قالت : « يا لحالة المطبخ المزرية ، ولعلّ ماء المطر تسرب إلى البرميل » .

كان البرميل هو الحوض الحديدي حيث نحتفظ بماء الشُّرب . مرَّة كل أسبوع كان يدس مفتش صحي بأنفه فيه ويكشط حافته بملعقته الطويلة المزخرفة بحثاً عن اليرقات . انتهرته أمي مرَّة : « أخرج رأسك من مائي . بإمكانك أن تضعه في المرحاض إن شئت ، لكن ليس في مائي » .

استاء المفتش وسجل ملاحظة في دفتره الصغير الأزرق .

« يوماً سعيداً » ، قال وهرب .

ضحكت وأنا أتذكر الحادثة . كانت ضحكة غريبة صغيرة قفزت في حلقي ، وتأوّهت أمي ثانية .

« يا لحالة المطبخ المزرية » ، كرَّرت قولها . « وآخر مرّة شربتَ ماء المطر أصابك وجع البطن . والمفتش قادم غداً » . كانت أمي ، أحيانا ، تتكلم بصورة آلية .

« أتساءل عما حل بأبي وأمي » ، قالت أمي .

« أبي » و« أمي » ، فكَّرتُ . وتساءلتُ عمّا قد حل « بأبي » و« أمي » . لا تربطنا بهما صلة القربى ، ولكنهما ، مع ذلك ، « أبي » و« أمي » . الجميع ينادونهم

« بأبي » و« أمي » . كانا أكبر زوج في القرية عمراً ، كبيرين لدرجة لا يعرف أحد معها عمريهما ، والقليلون يعرفون لهما اسماً غير اسميهما اللّذين ندعوهما بهما : « أمي » و« أبي » .

فُتِحَتْ عيناي ، وكانت الأشباح ما تزال موجودة . كانت ثابتة تحت نظرتي ، ولكنها ، حين أغمض عينيَّ تتبختر في الغرفة من زاوية إلى زاوية . كل ليلة تخرج هذه الأشباح التي تسكن دماغي لتخيفني بالحرية التي منحها إياها الليل . كانت ترقص وتتهكّم في الفضاء الكثيف الأسود في هذه الغرفة الضيِّقة . فُتِحَت عَيناي وأُغْلِقَت ، فتحت /أغلقت فتحت /أغلقت فتحت /أغلقت ، ولكنها لا تذهب . وضعت الوسائد فوق رأسي وشددت أطراف الشرشف على أذني .

وانساب عيد ميلادي في الخارج ، في ضباب من السَّواد غطى الأرض . الممرَّات والأزقَّة تقاطعت وتضاعفت تحت المياه التي جرفت الكلس والطين والخشب والآجر عبر القنوات والأنابيب إلى النهر الذي يجري بعيداً وعريضاً ليصبّ في البحر . في زوايا الشوارع كانت المصابيح تتأرجح أقفاصها الشبكيّة ، وكان الضوء المتسرّب عبر القبب الباردة يقع باهتاً فوق الماء . ولا بدّ أن يكون القمر قد ضرب مكاناً وراء أكمة الماهوغاني ، بعيداً وبدون تأثير . لكنَّ الفقراء الشجعان شأن أعزَّائهم الراقدين في المقبرة البعيدة ، ناموا بسلام تحت الرَّذاذ المتطاير . خمدت كل الأصوات ، وهُجِرَت البرك الطينية الصغيرة ، وحُجِبَت قرقرة الفيضان المتصارع . لقد تبارك عيد ميلادي في رحيله الأسود عن الأرض ، بأمطار عزاؤ ها هو بَرَكَتي .

٢

رُفِعَت الكيلة وأُميلَت فتدفق الماء شلالاً هادراً فوق رأسي وجسمي .

« جُوجِلْ ، جوجل ، يكفي » ، قلتُ : « جوجِل ، جوجل ، يكفي » . انزلق الحصى الذي انتزعته الرطوبة من التراب تحت قدميّ . كان ذراعاي ممدودين ، مسحوبين ، مضمومين في ضمَّة راجفة ، مفتوحين ثانية ، مطويين من جديد . تحرك الحصى تحت قدميَّ . ترنَّح جسمي بسبب الشهقات السَّريعة لاستنشاق الهواء . الآن هادئا ، مستقيماً ، التوازن كامل . الحصى أعيد تشكيله . القاعدة ثابتة . أصبحت جاهزاً . رُفِعَت اليد ونظَّم وضع الكيلة .

قلت : « نعم . هكذا أحبّه . بطيئاً . لا سريعاً . هكذا تماماً » .

كان الجسم متيناً ، صلباً ، مستقيماً ، طريقاً بُنِّياً مُعَبَّداً ينحدر الماء فيه ، خارجه ، حوله ، خارجه .

« أريد أن أتفرج » ، ارتفع صوت فوق سياج الجيران ، « أُمُّ « ج » . تحمِّمه » .

انتهره صوت أكبر سناً : « إنزل . أنت سريع جداً ولئيم . أدخل ، أيها الشيطان الأحمر » .

« معها حقّ » ، قالت أمي بلهجة منخفضة راضية . « إنه سريع جداً . يريد أن يرى كل شيء إلّا ما يعنيه . الأولاد اليوم ! يا إلهي ! » . انطلقت الكيلة حول رأسي وفوقه وسال الماء ببطء وثبات .

« إنهض بسرعة » ، ارتفع صوت من السياج المقابل ، « سينتهيان سريعاً » . ارتفعت الرؤوس بحذر فوق السياج ، واتّسعت العيون التي تحدق في المشهد ،فرحاً وحبوراً .

« انظري » ، قلت وأنا أشير إلى الصِّبيان « إنهم يتفرجون » .

استدارت أمي وهي تؤرجح الكيلة من مقبضها السِّلكي . هبطت الرؤوس تحت السياج المتهدِّم .

« يا صعاليك » ، قالت أمي ، « علام تتلصَّصون ؟ ألا تستحمُّون ؟ » .

اهتز السياج من الضَّغط مع وثوب الصبيان إلى الأرض . انخلعت دالية القرع ووقعت .

« انظر إلى ما فعلوه » ، قالت أمي ، وهي تُسقط الكيلة وتتجه إلى السياج . حملت الدالية بقلق حنون ، وتتبعت بأصبعها تعرجاتها الممزَّقة على السياج وصولاً إلى مكان الجذور المحتمل . أصبح صوتها الآن ممزقاً مرتعشاً بالكاد يُسْمَع .

« انظر إلى ما فعلوه » . قالت ، وجَعَلت الدالية المقتلعة تسقط من بين أصابعها . « قتلوها ، وكانت على وشك أن تحمل » .

فجأة تغيَّر مظهر الصباح بأسره . وبدا أن شيئاً قد انبثق لإيقاف كل شيء استعداداً لبداية جديدة .

« ماذا فعلوا ؟ » ، سألت الجارة وهي تحافظ على توازنها فوق السياج .

« قتلوا دالية القرع » ، قالت أمي وهي تغادر السياج بلامبالاة متصلِّبة . « الله وحده يعرف لماذا يكلّف أي شخص نفسه عناء زرع أي شيء هنا » .

تكلّم الصوت الآن كأنما يطلع من فراغ داخلي تكمن وراءه في داخل نفسها طبقات أعمق وأعمق من مشاعر لا تُحصى . ظهر الاستياء على الجارة .

قالت : « يا « بوب » ، أنظر ما فعلت بدالية الجارة » .

تسلق « بوب » السياج . اهتزّ السياج إلى الأمام وإلى الخلف . نظر إلى الدالية بشفقة ذاتية ، ثم نظر إلى حيث أقف فوق بركة الحصى ، عارياً ، منتظراً . انفرجت شفتاه لا إرادياً ، ولمعت الأسنان العريضة الصفراء في الشمس .

قالت أمه : « وتضحك ؟ تقتل دالية الجارة ، وفوق ذلك تضحك ؟» احمرّت عيناها ، وتمدَّد الجلد الأسود متصلباً فوق العظام .

هبطت نظرة « بوب » مطيعةً نحو الدالية . رَمَشَ بعينيه كأنَّما سيبكي .

صاحت أمه : « حسناً ، ماذا ستقول لها ؟ » . دسَّ « بوب » إبهامه في فمه محتفظاً بعينيه على الدَّالية .

قالت أمه : « لا تنظر مثل الحمار . ماذا ستقول لها ؟ » .

« سأقول لها ، متأسف » ، تأوّه « بوب » ناقلاً إبهامه المبتل بين أنفه وعينيه . أحسَّ بالرطوبة فوق وجهه ، ثم نظر إلى أمي .

« أنا متأسف » ، قال . ثم أمسكت نظرته بي حيث أقف عاريا ، منتظراً . غضَّ بصره إلى الأرض ، وضحك رغم إرادته . لم تُنْطَق أية كلمة ، ولكن القبضة هَوَت بقوّة على أذنه . ارتمى رأسه الى الأمام وسقط الجسم من فوق السياج إلى فنائنا . تخبَّط فوق الدالية المقتلعة بصرخات متشنجة .

قالت أمي وهي ترفع الجسم : « يجب ألَّا تضربيه بهذا الشكل » .

كان غضب المرأة يطعنها كالألم . مدَّت يديها لتمسك كتف « بوب » ، وتأرجح السياج . . . . إلى الأمام ، ثم الخلف ، الأمام ثانية والخلف ، وفي اقترابه النهائي انهار على الارض بارتطام مُدَوٍّ . بالكاد هربت أمي وهي تجرّ بوب بعيداً ، ولكن المرأة ارتمت في فنائنا ورقدت نصف واعية . اندمج الفناءان معاً . لقد استسلم المتراس الذي كان يصون أسرارنا الشخصية .

قالت أمي : « يا لمشاكل هذا الصباح » . وضعت بوب على الأرض ، ونظرت حولها بحثاً عن قوّة ما في داخلها أو حولها تملي عليها الخطوة التالية . كان

منظر أمي ، في مثل هذه المناسبات ، مثيراً للشفقة إلى أقصى حدّ . كثيراً ما رأيتها غاضبة أو مكبوتة تبكي ، غير أنها كانت تعاني حالات عاطفية أخرى لا تجدي معها الدموع . حين تتملكها فكرة وحدتها ، يَملأها طموح هادر لصالح طفلها ، وتحدٍّ أكبر للعقبات التي تعترضها . في مثل تلك الحالات تصمت كما هي الآن ، أو تتكلم بطريقة آليّة تبدو المعاني التي تقصدها فيها أبعد من الكلمات . كانت تتكلم عن الانتصار ؛ مهما حدث ستنتصر هي ، و« هي » معناها طفلها . وقفت هناك في الفناء وقد بدت الآن مستكينة قليلاً بينما ظهر الناس كأسراب النَّحل الناشط متسائلين عمّا جرى .

كانت أم « بوب » تحاول استعادة توازنها .

« أدخلي « بوب » ، بسرعة ، » قلت ، « أدخليه قبل أن تراه » .

« نعم » ، قالت أمي،« نعم ، بسرعة » .كنّا نعلم مبلغ حدَّة غضب أمه .

أومأت أمي إلى اثنين من المشاهدين فحملا « بوب » فوق السياج وأدخلاه من الشبَّاك . تناولته أمي من الدَّاخل وأوقفته في زاوية وراء أحد الأكياس .

قالت له : « إبقَ مكانك ، ولا تتحرك حتى أقول لك » .

في جانب مَنْ تقف أمي ، الوالدين أم الأطفال ، لَمْ أستطع أن أعرف مطلقاً .

عادت أمي إلى الفناء ، واستعادت أم « بوب » وعيها كاملا ، كما يظهر .

« أين أنت ؟ » قالت .

« أنا هنا » ، قالت أمي .

« أنا آسفة » ، قالت أم « بوب » بانفعال شديد ، « إني آسفة حقاً » .

لم تجب أمي .

« لكن إن وضعتُ يدي عليه هذا الصباح ، فلن يعيش ثانية واحدة » ، صاحت أم « بوب » .

من كل الجهات ، ناءت الأسيجة بحمل الناس ، صبيان وبنات وبالغين . كانت البنات يضحكن وينظرن إلى حيث أقف في بركة الحصى ، عارياً ، منتظراً . نظرن الى أم « بوب » وإلى السياج المنهار وإليّ . لقد نَشَّفتني الشمس كلية ، وظهر الآن كأنني لم أكن أستحمّ ، وإنّما عُرِضْت في وسط الفناء قصاصاً علنياً مثل مصلوبٍ ليهزأ به الناس .

« انظري » ، قالت إحدى البنات وهي تدل صاحبتها عليَّ .

« نعم . أرى » . قالت الأخرى ضاحكة .

تظاهرت أنني لم أسمع .

قالت أمي : « ماذا تفعل هناك عارياً كما ولدت ؟ » .

لقد نسيتني ، كما يبدو ، ثم أدركت فجأة وضعاً ظهرت فيه مذنبا لا مجال للصفح عنه .

« أنتظر » ، قلت ، « لم أعرف أنكِ انتهيتِ » .

« أيها الأبله الصغير » ، قالت ، « لا تريد صبياً صغيراً مثلك أن يراك ، ثم تستطيع أن تقف في وسط الفناء وتجعل العالم كله يتفرج عليك ! » .

تقدَّمت منيّ وفي يدها غصن مكسور . خطوت فوق الحصى على رؤوس أصابعي ، مراقباً الغصن بدقة .

« لا تتحرك » ، قالت ، « إن تحركت ضربتك » . قلت : « لكنني لم أعرف انك انتهيت » .

اقتربت أكثر ، مشدِّدة من قبضتها على الغصن ، إنّما مخفية أي تهديد .

قالت : « لا تتحرك ؛ إن تحركت ضربتك » . شدَّدت قبضتها على الغصن واقتربت أكثر . بالكاد أنهت قولها حتّى ارتفع ساعدها فوق رأسها وأهوت بالضربة . نقلت مكاني تحت الساعد المرفوع ، درتُ حولها مرَّتين ممسكاً خصرها بلين ، ثم انسللت من بين ساقيها وركضت إلى إحدى الزوايا . انفجر الضحك في كافة الجهات ، وتأرجحت الأسيجة .

« لا تتحرك » ، قالت « إن تحركت ضربتك » . اقتربت أكثر ، ولعبنا لعبة القط والفأر في الزاوية ، هي تسرع إلى إحدى الزوايا ، وأنا إلى زاوية أخرى . اهتزت الأسيجة بالضحك . ثم قفزتْ إلى الأمام ، ففقدتْ توازنها وسقطت بهدوء قرب السياج . خطوتُ فوق الحصى وركضت إلى داخل البيت . تأرجحت الأسيجة مع ارتفاع الضحك موجة إثر موجة منسابة عبر الأشجار .

« لا شيء يضحك » ،.احتجّت أم « بوب » ، « الأطفال هذه الأيام يجلبون المشاكل الكثيرة لوالديهم . انظروا إلى ما جعلني ذلك الآخر أفعله هذا الصباح ، لكن ليختبىء . قبل حلول الليل سأمسك به » .

صمتت أمي ، وتساءلتُ تُرى أي جانب تساند الآن ، « بوب » أو أمه . نظرت كأنها في ضياع . لكن سرعان ما جذب اهتمامها قدوم امرأة أخرى عبر السياج المنهار .

« صحيح » ، قالت المرأة ، « الأطفال لا يستحقون العناء والاهتمام . هل سمعتم ما حلّ بذلك الآخر في آخر الطريق ؟ » لقد أحضرت القادمة الجديدة أخباراً مشؤومة .

قال صوت من السياج : « المسكينة السيدة « فوستر » حتماً عندها قصة مهمّة » .

سألت أمي : « عمَّن تتحدَّثين ؟ » .

« جوردون » ، قالت السيدة « فوستر » .

سألت أمي : « جوردون ، مَنْ ؟ » .

« جوردون حفيد « بيس » ، » قالت السيدة فوستر ، « تلك التي عندها دجاج » .

« ماذا حدث ؟ » سألت أم « بوب » .

« سأخبركم » ، بدأت السيدة « فوستر » . « لقد ذهب إلى الطريق هذا الصباح ومعه ديك . يظهر أن « بيس » في ضائقة فقررت بيع الديك ، الديك

الكبير الأسود الذي كانت تعيرني إياه لتفقيس دجاجاتي . طيِّب ، « جوردون » وتظاهره بالرجولة ، قال إنه سيحاول أن يبيع الديك . تذكَّروا ، عمره ثماني سنوات فقط ، ويريد أن يتدخل في النقود وكل شيء . طيِّب ، رأى سيِّداً أبيض يقف في زاوية بيلفيل ينتظر الباص ، فذهب إلى السيد وسأله أن يشتري الديك . تذكَّروا ، السيد الأبيض يلبس لباس الشغل ، بذلة بيضاء ، وقبعة ، وقميصاً وحذاء مناسبين . طبعاً ، ارتبك السيد فرفع رأسه عالياً مترفعا وقال لجوردون » : وهل تتوقع أن آخذ معي الديك الى الشغل ؟ » ما اهتم « جوردون » بقوله . رفع الديك عالياً قائلا : أنظر الى عرفه الجميل . ثم أدار الديك وأداره وأداره في الهواء حتى أصبحت مؤخّرة الديك تحملق في وجه الرجل الأبيض » .

تهامست البنات ضاحكات على طول السياج ؛ فانتظرت السيدة « فوستر » مستاءة .

« صدِّقيني ، يا بنتي ، صدقيني » ، تابعت كلامها ، « كانت مؤخرة الديك في وجه الرجل الأبيض ، وقبل أن تقولي الكلمة ، نعم قبل أن تقولي الكلمة كان الديك قد تغوَّط في وجه السيد . أصاب البراز القبعة وانتشر فوق البذلة » .

انتظرت أم « بوب » وأمي بفزع .

« ليس هذا كل شيء » ، قالت السيدة « فوستر » ، « بعدئذ حضرت عصابة كاملة من الصبيان ، تعرفون صبيان طريق هنط ، العصابة كلها : « الورقة الرابحة » ، و« الصبي الأزرق » ، و« الضربة الكبيرة » ، و« اليد الضاربة » ، و« ملك البو » ، و« القط في الحذاء » ، و« مُصّ إصبع قدمي » . حضرت العصابة كلها وبدأت في الغناء :

أنظر ، أنظر ما صنع الديك ،

أنظر ما صنع بك الديك .

لم يعرف السيد الأبيض ما يفعل ، فأخذ يجري راكضاً طول الطريق إلى بيته كأنه كرة من نار . سمع الشرطة الضجيج فجاؤوا ، ولمّا سألوا عما حدث ، هل

تعرفون جواب أولئك الصعاليك ، قال أولئك الحقيرون إن السيد قد تغوَّط في بنطاله ولذلك ركض إلى البيت خجلاً وعاراً » .

قفز الصبيان والبنات من فوق السياج وذهبوا يبحثون عن « جوردون » الذي سيروي لهم الحادث بتفاصيل أكثر . وسرعان ما هُجِرَت الأسيجة ، ولم يبق غير النساء ينظرن إلى بعضهن البعض كما هي عادة النساء المشتركات في بلاء مشترك واحد .

تكوَّم «بوب» خلف الكيس، صبيّ صغير يرتدي بنطالاً وقميصاً مصنوعين من قماش كيس الطحين الأبيض . كان القميص مثبتاً بالبنطال بالدبابيس ، وكثيراً ما كان يفتح الدبابيس وينزعها ليرفع بنطاله فوق خصره . لم يعد خائفاً مما حدث . لمّا وقعت أمه عن السياج تغيّر لون جلده . لم يسبق لي أن رأيته خائفاً بهذا الشكل أبداً . أما الآن فقد سمع الأصوات في الخارج وافترض أن كل شيء على ما يرام . على الأقلّ في الوقت الحاضر .

سألتُه : « ماذا ستفعل ؟ » .

قال : « لا أعرف » . خفض رأسه وحملق في حواشي الكيس المهترىء .

قلت : « إنها تقول إنها سوف تطلع روحك منك حين تمسك بك » .

« ليست هذه أول مرّة تقول فيها ذلك » .

قلت : « لكنها ستفعل ذلك هذه المرة . انظر إلى الضربة التي ضربتك على أذنك ؟ » .

قال : « لم يعد عندي مشاعر بعد . لقد تَمْسَحْت » .

رفع بصره وابتسم . كان وجهه مبتلا ومثقلا وبعيداً .

قال : « ولكنني لن أضربها أبداً . مهما تفعل بي فلن أضربها أنا أبداً » .

قلت : « يجب ألّا تفعل ذلك . يقولون إنك تصبح ملعوناً إن ضربت أمّاً » .

قال « بوب » : « وهي لا تضربني تجنيا . هي لا تفعل ذلك تجنياً . إنما تفعله

لأنها تخاف الله . هي تقول دائماً إن التوراة تقول : « لا تخبّىء العصا فتفسد الطفل » . والسبب هو فقط أنها لا تريد أن تفسدني » .

قلت : « هذا ما تقول أمي أيضاً . إنها تتحدث دائماً عن شَوِي ذَنبي ، ولكنها تكثر الكلام وتقلل الشَّوِي » .

قال : « أمك تختلف . إنها لا تحب أن تراك تبكي ، الكلّ يقول ذلك . هي تحكي وتحكي ولكن قليلاً تضربك » .

تطلع من ثقب الباب ليرى إن كنَّ يرينه من الفناء . كان الظلام حالكاً في الزاوية حيث يجلس ، وكان الضوء من خلال الثقب يشبه خطاً مرسوماً بالطبشورة على لوح أسود . لم يستطع أن يراهن .

قال : « الأفضل أن تذهب وترى ما يفعلن . أريد أن أخرج من هنا » .

ذهبت الى غرفة النوم وتطلعت من خلال حصيرة الشبّاك . كنَّ ما يزلن واقفات في الفناء . كانت السيدة « فوستر » التي حكت قصة « جوردون » والديك تزوّدهن بالتفاصيل . وظهر كأنهن نسيننا .

قلت : « ما زلن هناك . سيكون صعباً عليك أن تخرج » .

« ألا تستطيع أن تفكر بطريقة ؟» سأل .

قلت : « لا أظن . الباب الأمامي مقفل ، ولا يمكنك أن تذهب من الشباك . وإلاّ فإنهن يرينك في الخارج » .

سأل : « ماذا عن المرور عن طريق الجهة الأخرى للبيت ؟ » .

قلت « سيرينك » .

قال « بوب » : « إلاَّ إذا فعلت ما أطلبه منك » .

سألت : « ماذا ؟ » .

قال : « إسأل أمك إن كان بإمكانك أن تلعب لعبة الدبّ » .

خفت ، تطلعت لأرى ماذا يحدث في الخارج . كانت أمي تضحك والسيدة

« فوستر » تتكلم . كانت السيدة « فوستر » تحرِّك يديها مقلِّدة أثناء كلامها وكنَّ جميعاً يضحكن معاً بهدوء . مرَّرت أم « بوب » يدها فوق ردفها حيث لا بد أن يكون الجلد قد تكشَّط . ابتسمت أمي والسيدة « فوستر » وابتسمت أم « بوب » أيضاً .

دفعت يدي خارجاً فوق الباب الواطىء فرأينني . كنَّ هادئات جداً الآن فكأنهم يتوقعن أن أقول الشيء الخطأ .

سألت أمي : « هل يمكنني أن ألعب لعبة الدبّ ؟ » .

لم تجب ، وراقبت الأخريان ونصف ابتسامة تشرق فوق شفاههما .

انتهرتني أمي : « هل نشفت رأسك ؟ » كانت نهرتها مخيفة .

قلت : « نعم . نشفته ناشفا ناشفا » .

ضحكت الأخريان وضحكت أمي أيضا .

« لكن من يظن أن الأطفال هذه الأيام يمكن أن يكونوا بهذه الوقاحة ؟ » قالت السيدة فوستر .

« صحيح » ، قالت أم « بوب » ، « يسبّبون لك الشيب في أيام صباك » .

قالت السيدة « فوستر » شيئاً عن الشعر الأشيب فضحكن بهدوء من جديد . لقد ظهرن أكثر رضاً الآن .

« هل يمكنني أن ألعب لعبة الدب ؟ » سألت مرَّة أخرى ، وكنت أتساءل طيلة الوقت عمَّا سيفعله « بوب » .

أدارت أمي ظهرها وضحكت ، وضحكت الأخريان أيضاً . كان سكوتها دليل موافقتها . كنت متأكّداً .

« ماذا سوف تفعل ؟ » سألت « بوب » .

كان قد أنزل الكيس . خفت .

قال : « يجب ألَّا تتكلم . أنت الآن دبّ . أحضر الكيس الآخر من هناك » .

قفز داخل كيس وطلب مني أن أضع الثاني فوق رأسه . هو أصدر التعليمات وأنا نفذتها . كان قد نزع الدبابيس من بنطاله فاستعملها لتثبيت الكيسين . كان مخبأً كلية تحت الكيس البنّي الخشن .

« ماذا ستفعل ؟ » سألته ثانية . كنتَ في غاية القلق والخوف .

قال : « يجب ألّا تتكلم . تَصَرَّفْ مثل دب » .

لم أكن أستطيع رؤيته تحت الكيس . وخرج صوته كأنه صوت من لا مكان . زحف من الزاوية عبر الباب فإلى الفناء . امتلأت رعباً . أخرج يديه ، ورفع ساقيه وقفز إلى الأمام قفزة إثر قفزة . تساءلت عما سيحدث .

ضحكن لما رأينه يزحف متقدما ويتحرّك أحيانا في اتجاههن . تطلعت السيدة « فوستر » إلى أمي وابتسمت .

قالت أمي : « يخطر لي أن أشوي ذَنَبه الآن » . أنا ارتجفت . تقدمت خطوة وبيدها الغصن المكسور ، فأحسست بجلدي يحترق من أثر الضربة التي سيتلقّاها بوب .

قالت السيدة « فوستر » : « دعيه . إنه يسلّي نفسه » .

أخذت أمي تعيد النظر في قرارها .

قالت أم « بوب » : « دعيه وشأنه . كلهم أشقياء ، لكن لا تهتمي » .

« صحيح » ، قالت السيدة « فوستر » ، « بعد قول كل شيء وفعل كل شيء ، هم لنا ونحن نحبهم . مهما قلنا أو فعلنا نحن الأمهات فلا أحد يحبهم مثلنا » .

قالت أمي : « يخطر لي أن أشوي ذنبه الآن » .

قالت أم « بوب » : « دعيه . الدب المسكين لم يفعل لك شيئاً . أمّا « بوبي » فهو الذي يجب أن تشوي ذنبه » .

زحف الدب على أربع مروراً بالحصى وعلى بعد ياردة واحدة من النساء .

راقبنه كأنهم أطفال في سيرك حتى مرَّ بشجرة الكرز وتحرك خلف السياج المنهار واختفى عن الأنظار .

قالت أم « بوب » : « يا للأشياء التي يفكّر هؤلاء الأطفال في القيام بها هذه الأيام » .

قالت السيدة « فوستر » : « صحيح . رؤوسهم لم تُصْنع للقبعات فقط » .

ابتسمن ، ثم تطلعن إلى السياج وأصبحن جادّات من جديد .

قالت أم « بوب » : « آسفة جداً بشأن السياج . كلما نظرت إليه لا يمكنني أن أصف شعوري » .

قالت أمي : « ولا يهمّك كان من الممكن أن ينهار في الفيضان كما حصل للكثير غيره » .

« وبمناسبة ذكر الفيضان » قالت أم « بوب » ، « كيف أحوالك ، يا سيدة «فوستر » وكيف الأولاد ؟ » .

« تلك قصة طويلة » ، قالت السيدة « فوستر » « لنذهب هناك حيث الفيء » .

جلسن في الفيء تحت شجرة الكرز التي تمتد فوق الأسيجة في كافة الاتجاهات . كانت جذورها في فناء ، ولكن جسدها امتد الى الأمام في فناء آخر . وتفرَّعت أغصانها مخيّمة فوق ثلاثة أو أربعة أخرى . تلاشى السياج المنهار من عقولهن. مسَّدت كل منهن ثوبها وراء ظهرها، جاعلة القسم السفلي من التنورة يتجمع في حزمة ثنيات جذبتها بين ساقيها . جلسن في حلقة متراخية مطمئنة ، يراجعن ، كلّ بدورها ، حكاية الخراب التي رُوِيت ألف مرَّة في الأسبوع الفائت .

السيدة « فوستر » . أمي . أم « بوب » .

كن يبدون ثلاث قطع في رسم يبقى ثابتا على حاله . لم يتأثر سير تاريخه بأي اختلاف بين القطع ، كما لم يتأثر اعتداله بأي تشابه . كان هناك اختلاف ولم يكن

هناك اختلاف . كان للسيدة « فوستر » ستة أطفال ، ثلاثة من لحّام ، واثنان من خبّاز ، وطفل لم يذكر أبوه أبداً . كان لأم بوب « طفلان » ، ولأمّي طفل واحد . والاختلاف بين ستة واثنين وواحد لا علاقة له بالقطعة بذاتها . وفي الزاوية حيث اندمج سياج بالآخر وحيث انتشرت الشمس المتسربة خلال أوراق الشجر انتشاراً غير محدود فوق الأرض ، نظّم الرسم نفسه بمنتهى اللاّوعي . وقد استوعب ، في الخارج حيث كان القرويّون ينبشون الدمار من القناة المسدودة ، ثلاثة أخرى ، وأربعة ، وأربعة عشر . بيد أنه لم يكن أي تغيير في الزيادة . هنا ، حيث اخترقت الأسيجة بعضها بعضا وأنتجت بتعاون صامت زاوية ، يوجد ثلاث . في الخارج حيث تتقاطع الطرق يوجد أكثر : ثلاثة عشر ، ثلاثون . كانت الثلاث يتناقلن الأخبار ويتبادلن الأسرار التي تسبغ على حياتهن معنًى . لم يكن المعنى واضحاً لهن . لم يكن ذلك يهمهن ، ولن يهمهن أبداً . لم تُسَرِّع وعيهن إطلاقاً حقيقة الحياة التي تقوم هذه الأسرار شاهداً حقاً عليها . في الخارج كان الآخرون ينبشون الأرض . هم أيضا تبادلوا الأسرار بينما فاضت الحياة فيهم . وقد اتسع الرِّسم في السهل الواسع حيث كان العشب المشذَّب يغني في الحرّ اللاّذع . لا ثلاثة ولا ثلاثة عشر بل ثلاثون . ربما ثلاثمائة . رجال . نساء . أطفال . الرجال يلعبون الكريكت . الأطفال يلعبون الغمِّيضة . النساء ينشرن غسيلهن المنشَّى ليجف . جعلت الشمس نورها يفيض عليهم كما أفاضت الحياة نفسها فيهم . ثلاثة . ثلاثة عشر . ثلاثون . ثلاثمائة .

لقد تمَّ تحويل إحدى مزارع حقول قصب السكر التي كانت تزحف مثل سِرّ مكشوف ممتدة في الأرض ، إلى قرية استوعبت ثلاثة آلاف شخص . لقد مات السيد « كريتون » مالك الأرض الانجليزي فانتقلت المزرعة الى ابنه الذي أورثها إلى ابنه الذي مات بدوره ، مورثا إياها إلى ابن آخر . لقد عاشت أجيال عديدة وماتت في هذا الركن القصي في مستعمرة بريطانية صغيرة هي أقدم المستعمرات البريطانية وأقلها تزييفا : باربادوس أو انجلترة الصغيرة كما كانت تسمَّى في الكتب المدرسية المحلية . في الشرق حيث ارتفعت الأرض قليلا مُشَكِّلة هضبة ، قام بناء كبير من القرميد تحيط به حديقة مشجَّرة كبيرة وجدار عال من الحجارة يحمل في أعاليه قطعاً من القوارير الزجاجية المكسرة . أقام المُلاَّك هناك بين الأشجار داخل

الجدار . وامتدت الأرض تحت هذا البناء وحوله في رتابة منبسطة غير متقطعة من البيوت الصغيرة والطرق الكلسية البيضاء . وتمكن رؤية البيت القرميدي الكبير المرتفع كالعلم فوق الهضبة من كل بقعة في الأرض في الأيام الصاحية . حين لم يكن الطقس دافئاً جداً ، كان الشاي يقدَّم على السطح العريض المنبسط ، وكان القرويون الذين يرون ، من خلال الأشجار ، الأشخاص يتحرّكون ، يزحفون وراء أسيجتهم أو يذهبون إلى الغابة مبتعدين عن الجدار حتى يروا كيف يتم ذلك . كان المالك ، يتبختر برفقة أصدقائه ، مشيراً إلى حدود الأرض في كافّة الاتجاهات . وكان معظم الاصدقاء من أصحاب المزارع الذين بقيت مزارعهم في الرِّيف زراعيَّة ، أو قد يكونون من الزوَّار الإنجليز الذين هم مُلَّاك غائبون لمزارع حضروا لتفقدها . وكان المالك يشرح ، حسب تخميننا ، خريطة الأرض وعادات القرويين والواجبات التي يؤدّيها بصفته الوكيل القيِّم على هذه المزرعة . وكان القرويّون المأخوذون بفكرة الشاي في الهواء الطلق يتطلعون غير مرئيِّين وفاغري الأفواه .

كانت الغابة كثيفة غير منظمة مليئة بالاعشاب والنباتات البرية المتشابكة الممتدة فوق الجذور السوداء المنتفخة لأشجار الماهوغاني . وكان نظَّار القرية يحرسون الأرض في كل ساعات النهار . وكان هؤلاء قرويِّين منحوا امتيازات خاصَّة مثل خدمة السيدة زوجة المالك أو امتلاك قطعة الأرض المشيد بيتهم فوقها بعد الإقامة مستأجرين هناك عشرين سنة . كانوا عنيفين وعدوانيّين وصارمين . لم تكن السرقة غير مألوفة ، وكان المُلَّاك يعتمدون اعتماداً كلياً على النظّار لإخافة القرويين الأكثر خطراً . كان النظَّار يحملون رزماً من المفاتيح المشكوكة حول سلك وكانوا يحركونها باستمرار مصدرين موسيقى ، وذلك لإنذار القرويين بمقدمهم ، ولإرضاء أنفسهم بالشعور بالسلطة أيضاً . وبدا هذا ضرورياً لأن القروي العادي أظهر القليل من الاحترام للنَّاظر ، إلَّا إن هُدِّد أو عنِّف فعلا . وكثيراً ما كان الفقر أو المغامرة أو تهديد المَلَل يقودهم إلى الغابة حيث باضت دجاجات السيدة وكانت الأرانب تقضم العشب الأخضر . كانوا يجمعون البيض وينصبون الشَّرك للعصافير والحيوانات . كان المالك يقدِّم شكوى حادَّة ، ويجد النظَّار أنفسهم في عمل دائم . وفي بعض الأحيان كان المالك يتهم النظار بالتآمر وإهمال الوظيفة ،

فكان النظار الذين لم يخاطروا مرَّة في الدفاع عن أنفسهم يطلقون العنان لمشاعرهم ضد القرويين الذين اعتبروهم حسودين وغيورين ولئيمين . وقد ابتدع النظار مصطلحاً خاصاً هو الناس الزنوج الدُّون . كان القرويون هم الناس الزنوج الدُّون لانهم لم يطيقوا رؤ ية واحد منهم يرتفع شأنه ويتقدم دون الإحساس بالحسد والكراهية . وخلق هذا علاقة متوترة بين الناظر والقروي العادي . كان كل منهما يمثل صورة العدو بالنسبة للآخر . وكان من الواجب تدمير العدو أو تهدئته واسترضاؤ ه . كان الناظر متسلطا أو ماكراً . والقروي عدوانيا أو خنوعاً . وكانت شكوى المالك تزيد حدَّة تلك الصورة وتزوّدها بحافَّة مسنونة تقطع بحدّة وعمق في كل طبقات الأرض ، وقد أصبحت هذه الصورة ، بالتوكيد المستمر ، أسطورة امتدت وانتشرت كالشائعة متخطِّية القرية . حتًّى من كانوا أفضل تعليماً إذ قد تعلّموا في أحسن مدارس الجزيرة وشغلوا فيما بعد وظائف مهمّة في سلك الحكومة ، حتًّى هؤلاء تأثروا بهذه الصورة للعدو التي انبثقت أصلاً من طبقة نشأ الكثيرون منهم فيها ثم نسوها بفعل مصادفات زمانية وحياتية . صورة العدو ، والعدو كان شعبي . شعبي هم الناس الزنوج الدُّون . شعبي لا يحب أن يرى ناسه يتقدمون . لغة الناظر . لغة موظف الحكومة . لقد أكلت الأسطورة وعيهم كما يأكل العثّ صفحات وثائق قديمة . لا مجال للمخاطرة معكم يا ناس ، يا شعبي . لقد خذلوك دائماً . ليقل الآخرون إننا لا نتحمل المسؤولية ، وإن حسّنا بالواجب معدوم . ذلك ما يفعله بنا الناس الزنوج الدُّون ، ناسهم . ثمَّ يقول الآخرون إنَّنا لا نتحمَّل المسؤولية . كأطفال يرزحون تحت التَّهديد بنار جهنَّم تقبَّلوا غريزياً أن الآخرين ، يعني البيض ، أفضل وأرقى ، ومع ذلك كان ثمَّة خوف دائم من التحقق من صحة ذلك . هذا العالم من كمال الآخرين المتخيَّل خيَّم فوق طاقاتهم كحمل ثقيل . لو لم يكن الناس الزنوج الدُّون كما هم لما استطاع الآخرون أن يقولوا شيئا ضدَّنا . الشكّ ، وعدم الثقة ، والعدوانيَّة . فعلت هذه فعلها في كل قرار . لا يمكنك التأكد أبداً من شعبي . كانت تلك لغة الناظر ، ولغة الموظف الحكومي ، وفيما بعد لغة المحامين والاطباء الذين عادوا مدموغين بختم كالمظروف بما أسموه حضارة **الوطن الأمّ** .

كان المالك في مأمن . كانت القرية في مأمن . ذلك التوتُّر الذي كان يحتد

أحياناً فيصبح مرارة متبادلة أنتج هذه الصورة للعدو ، ثم انبثق فيها بعد موقف ارتداه الناظر كالزي الرسمي وأصبح بديله عن الواجب . إياك والمخاطرة . كن حذراً دائماً وفي كل مكان . كن عنيفاً . كن صارماً . كن عدوانياً . ذلك هو الواجب . وكان الناظر ظلاً للشرطي الذي يحرس القرية ليلاً . كان يصل دائماً حذراً ، مستعداً ، جاهزاً . لم يكن يأتي ليشرح أو يُعْلِم أو يفسّر أو يشترك في الخبرة مثل الرجال الآخرين في مجرى التواصل الاجتماعي المألوف . كان يأتي ليعتقل . لا بد أن شيئاً خطأً قد وقع . قد تكون القرية نائمة ولكن كان يحلّق حوله وحوله وربما في داخله شبح مهدِّد غير مرئي ، صورة العدو . شعبي . كلما ظهر الشرطي ساد القلق وتوقع الشر . الناس الذين كانوا طيلة الوقت ينعمون براحة البال مسترخين يسودهم التوتّر ويتملكهم الشك في أنفسهم . كانوا أحياناً ينسلّون في الزقاق حتى الطريق المجاور لإنذار القرويين هناك . الشرطي هنا . لا شيء خطأ هناك ، لكن لا بد أن يكون قد وقع شيء خطأ . يجب أن يكون شيء خطأ . يختبىء الأطفال خلف الاسيجة أو يسترقون النظر من خلال حصيرة الشبابيك خائفين ، ينتظرون .

مرَّة كل فصل أو بعد كارثة كالفيضان، كان المالك وأسرته يسيرون في عربتهم من طريق إلى طريق في القرية . كان يتفقد الدمار ناقلا بصره من جانب إلى جانب من الطريق . كان أولئك غير مرتَّبي المظهر يسرعون الى الاختباء ، مما يثير مرحه وسخريته ، بينما كان الصبيان الصغار الذين يفاجئهم قدومه يقفون وقفة استعداد ويؤدُّون له التحية برشاقة . كان المالك يبتسم ، وتبتسم زوجته بجواره أيضاً . وتنظر الابنة الجالسة في مؤخرة العربة بترفع وازدراء .

كان حصانان مسرجان بالجلد اللمَّاع البرّاق يجرَّان العربة من طريق إلى طريق في القرية ، وكانا يتوقفان هنا وهناك وفق مزاج المالك . كان هذا المسح يستغرق الصَّباح بأكمله ، وقد رأى خلاله معظم الدمار الأشد وقدَّر تقديراً أولياً قيمة الترميم والاصلاحات الضرورية . وكانت الإصلاحات بسيطة في حالة الفيضانات . سيعاد تعليم مكان القنوات وسترفع الأنقاض من الطرق . حين ينتهي ذلك ، تفرغ فيها حمولات عربات من الحجارة والحصى لتصبح سطحاً جديداً . وتترك هذه الحمولات في وضعها الفجّ كما قُلِبت ، أسابيع عديدة حتى تقوم

العربات والمشاة الذين يسيرون فوقها يومياً بتسويتها لتصبح امتداداً أبيض متساوي العلو . ها قد أصبحت الطريق جديدة مرة أخرى .

حين تختفي العربة حاملة المالك وأسرته يظهر صبيان صغار لتقليد المشهد . يأخذ صبيَّان دور الحصانين فيقفزان في المقدمة بينما يشكِّل ثلاثة آخرون أنفسهم وراءهما على الشكل الذي اتخذه المالك وأسرته . يسير الصِّبيان الهُوَيْنى من طريق إلى طريق متظاهرين أنهم يقومون بمسح مماثل ، ويناقشون فيما بينهم الخطط التي يقترحون للإصلاحات والترميم . كانوا ، سابقاً ، بعد مراقبتهم للمالك وضيوفه فوق سطح البيت القرميدي قد أعادوا تمثيل المشهد وراء السياج في الهواء الطَّلق ، صنعوا فناجين وأطباقاً من خليط من التراب والماء واللعُّاب ، وتركوها في الشَّمس لتُخْبَزَ وتنشف . ثم قدَّموا الشاي من حنفية أحد الأنابيب القريبة . كان التمثيل مؤثراً . المالك . الناظر ، القروي . صورة العدو . عضد القانون ، صارم ، عنيف ، عدواني . اجتمعت هذه كلها لإنتاج فكرة **العظيم** .

قام عالَم السلطة في منطقة ما على هامش وعي القرويين . كان من شأن الاتصال المباشر بالمالك أن يساعد في نشوء بعض الفهم لماهية الآخرين ، يعني البيض ، ولكن الناظر الذي كان وسيطاً اسمياً كان يعمل كأنه جسر يمكن استخدامه إنَّما ليس للمرور من طرف إلى آخر . لقد كان العالم ينتهي في مكان ما فوق الجسر ، وما بعده منطقة أخرى من الواقع ، ما بعده يقع **العظيم** الذي يمثله المالك والبيت القرميدي الكبير فوق الهضبة . وفي الليل كان الضوء يَصُبّ خلال الغابة ، وكان البيت المشرف من الهضبة يبدو كأنه يمتلك صفات الحماية الخيِّرة الكريمة . كان قلعة تمتد حولها الأرض كأنها حديقة خلفية حقيرة . حين تطفأ الأنوار ، فتعتم الغابة ، يلاحظ القرويّون ذلك . لقد أُطفىء نور المالك . ذهب المالك الى النوم . آن الأوان ليفعلوا الشيء نفسه . لقد ترسَّخت عادة ومن ثمّ قيمة أصبحت ، بسبب التطبيق المستمر والاحساس المعتاد المتشدِّد ، معياراً مطلقاً للشعور . لا أشعر أن المالك سيحبّ ذلك . إن رأى الناظر ذلك فلا بد أن يعرف المالك . ساد ذلك كل نشاط . وقد عاش المطيعون على أمل ألاَّ يمتعض **العظيم** ، وغير الواثقين في خوف من أن يكون قد امتعض .

***

كان الرجال يجلسون فوق الرصيف المستوي الذي يؤدي الى مدخل الحمام العمومي ويتحدثون مستطردين عن الأمس واليوم والغد . وكان الدَّواء المطهِّر يدندن رائحته عبر الهواء . في الحمَّام كان الماء يتدفق من حنفيات ذات ثقب واحد فوق الأجساد العارية المتسلِّخة . إثنان لكل حنفية لمن هم فوق الخامسة عشرة . للآخرين الذين لا يقل عمرهم عن الثانية عشرة ، ثلاثة . ولا حمامات عمومية لمن هم دون الثانية عشرة . وكان المشرف يجلس وراء طاولة ضيقة متخذاً هيئة الصرامة والأهمية والعدوانية .

يا « جونسون » ، الوقت . يا « هيوارد » ، الوقت . ردَّد الصَّدى صوته وغنًّى الماء على الأجساد المتصلبة .

يا « جونسون » الوقت . يا « هيوارد » الوقت . غادر رجلان الرصيف ليحتلاّ مكان « جونسون » « وهيوراد » . كان المشرف يسير ، بين الفينة والفينة ، على اللوح الخشبي المستخدم كموضع لراحة الأقدام في وسط الحمام . كان يتفقد الحجرات ، دون أن ينبس بكلمة ، بقسوة ، دون تواصل مع أحد .

يا « سبونر » ، الوقت ، يا « جونز » الوقت .

سيتم احتلال مكاني « سبونر » و« جونز » بسرعة . لقد عاد المشرف الى مقعده خلف الطاولة ، وأخذت الأصوات تتكلّم عبر الماء . كان ثلاثة صبيان يزدحمون تحت إحدى الحنفيات في أحد الجوانب . أغرق الماء همساتهم .

« لا تعرفون ما أستطيع عمله ؟ أنظروا لتروا ما أستطيع عمله » .

رفع صبي قضيبه كأنه نبع متدفق .

« أنظروا ما أستطيع أن أفعل » . ضحك الصبيان وعلت ضحكاتهم على صوت رشرشة الماء .

مشى المشرف على رؤوس أصابعه على اللوح الخشبي ، ببطء وبسريَّة . الصبيان المنهمكون في عمليتهم تابعوا هذه العملية .

« أنا أيضا أستطيع أن أفعل ذلك » .

« وأنا كذلك » .

« أراهن أنك لا تستطيع » .

« بمَ تراهن انني أستطيع ؟ »

إنزلقت الهمسات عبر الماء .

« أنظروا ، أنظروا » . « لا ، لا » « انتظروا » « كلنا سوية » .

أدّوا العمل كلهم متزامنين ، والمشرف رأى ذلك ، دون دعوة . أخذت الحنفية الآن تنقّط ببطء ، حزينة . في دقيقة ارتدى الصبيان ثيابهم . مشوا فرادى وراء بعضهم ، متوترين ، صامتين ، ذليلين .

عجب المستحمون في الحجرات المجاورة مما يكون قد حدث ، غير أن المشرف ، ملتزماً الكتمان المناسب ، لم يتفوّه بشيء .

« ارتدوا ملابسكم وارحلوا . ولا تعودوا ثانية » .

كان ذلك كل ما قاله . لما عاد الى طاولته كتب في دفتر ملاحظاته بسرعة وبامتعاض . بدا كأن رأسه يترنَّح مثل القلم المخربش . هذا ما جاؤ وا هنا لأجله . ليوقعوني في ورطة . تلك هي طبيعتهم . يجب ألا تخاطر أبداً ، أبداً ، أبداً .

صورة العدو . شعبي .

« يا « هاينز » ، الوقت . يا « تومبسون » ، الوقت » .

غادر زوج آخر الرصيف . تنشف الرجلان ولبسا ثيابهما . جلس المشرف وراء الطاولة ، عنيفاً ، صارماً ، عدوانياً . كان يؤدّي وظيفته وهو يراقب الرجال يجرّون أرجلهم خارجين ، ويتحرَّك وراءهم الماء المكثَّف بأوساخهم ببطء وبحزن ، نازلاً في المجارير .

خارج الحمّام كانت العصافير تنتقل من شجرة إلى شجرة . عقدت أشجار الماهوغاني والفسطيط مع ما يلفّ جذورها من أعشاب بريَّة ، مؤتمراً هذا

الصباح . شقّت الشمس طريقاً عبر أوراق الشجر ، مروراً بالأغصان ، وصولاً إلى الأسفل حيث التمعت الأعشاب البرية الخضراء ، باهتة . أسرعت خطوط السكّة الحديد متعرجَة داخل وخارج وحول وبعد ووراء الغابة ، تحت بوابات القطارات ، فوق الهضبة وامتدت أبعد ، أبعد ، أبعد . . . انتظر الصِّبيان الصِّغار في الغابة يصيخون السمع بانتباه لنغم العجلات فوق الخطوط ، ويحدّقون خلال الأشجار على امتداد البصر لرؤ ية هَبَّة بخار تنطلق من هيكل الآلة . ربضوا تفصل بينهم مسافة خمس ياردات ، ثلاث ، أربع . تألقّت الدَّبابيس المعدنية فوق الخطوط . تطاير اللَّهب وانفجر في الريح . راقب الصِّبيان الرَّابضون على بعد آمن من خطوط السكة الحديدية ، الموضع حيث ظهر كأن المعدن يضرم النار في الخطوط . في هذا الصباح المشرق ، كان كل شيء يتوقَّف على الدَّبابيس . هنا صمَّم الصِّبيان تنفيذ مغامرة النهار ، وسرعان ما ستتشكَّل ، بارتطام الخطوط والمعدن والعجلات ، سكّين أو عدّة سكاكين . الدبابيس موضوعة فوق الخطوط . علا صفير الآلة وطار البخار في كل الاتجاهات . انتظر الصبيان كالحرَّاس . أسرع القطار فوق الخطوط ، كأنه لا يتحرك ، ولكنه كان يقترب ويقترب . شقَّ طريقه كالمستأسد السَّمين ، وجهه يلمع بالنحاس ، وأمعاؤه تتجشأ الدُّخان الكثيف الأسود عبر الغابة . وضع الصِّبيان أصابعهم فوق آذانهم وأغمضوا عيونهم . لقد مرَّ القطار ومضى . بدا لوهلة أن لا شيء قد حدث . باختفاء القطار ، هبط صمت غريب على شفاههم ، ثم فتحوا عيونهم فرأوا المعدن منبسطاً فوق الخطوط وقد تشكَّل حسب أهواء قلوبهم . لقد ضاق الوميض . تقافزوا منطلقين ، ملوّحين بالشفرات الضيقة الناعمة ، مقارنين بين نتائجهم ، مطلقين فرحهم طائراً على أجنحة صيحاتهم عبر الغابة .

ثلاثة . ثلاثة عشر . ثلاثون صبياً . ثلاثة . ثلاثة عشرة . ثلاثون سكيناً .

الدَّبابيس التي كانت بيضاوية الشَّكل متقوِّسة الرُّؤوس رفيعة الأطراف ، أصبحت الآن منبسطة من رأسها إلى طرفها . اندفع الصبيان مسرعين في أرجاء الغابة يبحثون عن مادَّة طرية ورقيقة تصلح لتجربة شفراتهم .

تقدَّم الصِّبيان الأكبر يتحرَّكون بوقاحة ، ويقارنون شفراتهم الأكبر

والأصلب . لقد وضعوا مسامير فوق الخطوط . لقد ارتطم الحديد بالحديد فوق الخطوط . سَنُّوا شفراتهم بالحصى وهدَّدوا الإجاص غير المقطوف والتفّاح ورؤ وس الصِّبيان الصغار كذلك . ضحك الصِّبيان الكبار . تطلّع الصبيان الصغار بحسد الى زملائهم في تجارة الصباح. كانوا يخافون استعمال المسامير لأنها ، كما قيل ، يمكن أن تحرف القطار عن خطِّه . كان الصِّبيان الصِّغار مطيعين وخوَّافين وغيورين . وسيمر وقت طويل قبل أن تتحول دبابيسهم الى مسامير ، وقت طويل قبل أن يستطيعوا التلويح مهدّدين بالشفرات الكبيرة .

الحمَّام مغلق . لن يعود القطار قبل الغد وحينها سيراقب صبيان صغار ودبابيسهم وصبيان كبار ومساميرهم ، شفراتهم تتشكل . الوقت الآن ليلاً والقمر يرش ضوءه على كل شيء . الغابة ملاءة كثيفة من الأوراق النائمة ، والنوم كالضباب يخفي أولئك الذين يجب أن يبقوا مستيقظين داخل الغابة . تهمس الضفادع وتنتظر . وعلى التَّقاطع حيث تُصبح الطُّرق أربعة تغرف البائعة الطعام القروي الشهي ، المقانق السَّوداء ولحم الخنزير المكبوس بالخلّ . تتشكَّل في الصحن كرشات الخنزير المطبوخة المحشوّة بالبطاطا ، لفائف كثيفة ثقيلة سوداء . وتسبح في صحن آخر آذان الخنزير وكعابه وعيونه ولسانه وذنبه أو أنها تعوم في مرق التخليل المالح . يتجمع القرويون حول المرأة وصينيتها المخفيَّة عن مرأى من هم خارج الدائرة .

« مقانق بِبِنْس ، من فضلك » .

« خبزاً ومخلَّلا ، من فضلك » .

تدوِّي الأصوات عبر اللِّيل . تفهم المرأة الطلبات وتستطيع أن تميِّز بعض الأصوات . تظهر عربة فجأة وتتوقف ، فيوسع الحشد طريقاً للمقتحِم .

« دعوا السيد الأبيض يمر » ، يقول أحدهم .

يتراجع القرويّون ، فيشق الشاب الأنيق طريقه ، مبتسماً ، ويطلب مبتغاه . هو لا يتطلب أو يفرض ، ولكنه يقبل امتيازاً يقدّمونه له . قد يقوم احتجاج صامت ، ولكن لا أحد غاضب حقاً . القبول هو كل شيء . يعود

الشاب الى السيارة ، ويحاول القرويون التعرف إلى الفتاة السَّوداء الجالسة خلف المقود . تصدر ضحكات مكبوتة ، لكن لا تَعَرُّف . وجهها ينسجم والليل . تقاد السيارة بعيداً وتنحدر في الطريق المؤدي إلى مكان ما في داخل الغابة . تخفض أنوار السيارة ، ثم تطفأ ، وتهمس الضفادع وتنتظر . بعض القرويين لا يأخذون الطعام إلى بيوتهم . فهم يطلبون ، ويلتهمون أجزاء الخنزير ، ثم يطلبون طلباً جديداً . قطعة أخرى ببنس ، من فضلك . مقانق ومخلّل ، من فضلك ، نصف من هذا ونصف من ذاك .

ثلاثة ، ثلاثة عشر ، ثلاثون . لا يهمّ . يأتون ويذهبون لتخليد تقاليد هذا الركن . مرة في الاسبوع ، مقانق سوداء ومخلّل الخنزير . لقد استوعبهم الرَّسم ، وفي الغابة حيث حلكة الليل على أشدها ، احتضن الرسم شخصين آخرين في ممارسة جنسية حميمة . تُطْفَأ الأنوار كلها ، تاركة القمر يرشح قليلا فوق الأوراق . تتعثَّر امرأة عجوز سكرانة في جانب الطريق . مرَّة في الأسبوع . فقط مرة في الأسبوع تكون سكرانة سكراً حقاً . تنعطف يساراً في اتجاه الغابة . يملأ الريح أذنيها المسنَّتين بأصوات لا تسمعها . أمامها يسقط الضَّوء أكثر حدَّة على الرَّابية المنبسطة . تتعثر فوق الرابية بكلبين متشابكي الأطراف الخلفية . تقطع الرابية وتدور حول الأشجار ، الأشجار نفسها عدة مرات . في الأمام ينتصب الحمّام مثل حارس في طرف الغابة . لقد استعادت خطواتها ، ومع إحساسها بالرائحة المألوفة لذلك المكان تغلق عينيها وتتراقص في سيرها قدماً . تتحرك الأشياء على البعد . على رصيف الحمَّام يتعانق رجل وامرأة ويبدوان في التصاقهما معاً كأنهما شخص واحد . تصنع المرأة بفمها دوائر فوق فمه . يتلوَّى الرجل حين يلحس لسانُها الدائر في الهواء ثقاسيمَ أذنيه . يتلوَّى كطفل في الماء البارد ، فتضحك المرأة . لقد دارت العجوز حول الأشجار ثانية . زوج آخر قد اتَّحد مع الجدار . يئن الهواء ، لا ألماً ولا فرحاً . انّما بفعل الإرهاق الذي ينبعث في انفجار الشهوات المغتذية بالنار . لقد سمعت العجوز هذا . تواصل التبختر ، وفجأة كأنّما قهرتها قوَّة خارج نفسها تنحني مستندة الى شجرة وتطلق بولها يتصبّب فوق الجذور . تنقط ملابسها الداخلية ، ويرشُّ القمر نوره على كل شيء . الكلبان أشعثان وفاحشان في هياجهما ، والازواج البشرية بدائية ودافئة في ممارسة جنسية ملتهبة . تتابع

العجوز سيرها ، ورأسها يدور بنشوة اللاشيء . تتقهقر الغيوم ، ويتقدم الضَّوء ، وترشح الحياة ، ثقلاً كثيفاً عبر هيكلها المكتظّ .

* * *

في الزَّاوية ، ضاق ضوء الشمس الى شعاع واحد ضرب الوجوه الثلاثة كأنه إصبع . السيدة « فوستر » وأم « بوب » وأمي . لا ثلاث عشرة ، لا ثلاثون ، إنما ثلاثة .

سألت أم « بوب » : « وماذا حصل بعد الرَّعد ؟» .

قالت السيدة « فوستر » : « طيِّب . رأينا سقفا يطير في الهواء مثل طائرة من ورق . فاستدرت إلى « فوستر » وقلت : يا « جيمي » ، من الأفضل أن نبعد الأولاد من هنا ، فَلْنُلَملم أنفسنا والقليل من الثياب ونذهب الى مكان آخر ؟ التفت إلي كأنما ليشتمني، ثم قال: "أنا لن أغادر بيتي؟" بالكاد أنهى كلمته حتى شعرت بالهزة وبدا كأننا نتحرك. قفزت من الشباك حاملة طفلين من أطفالي ، طفلاً تحت كل إبط ، وتناول أحدهم البقية . لم يتحرك « جيمي » . تدفقت المياه من خلال ألواح ارضيَّة البيت حتى بلغت ركبته ، فقرر عندها أن يصعد الى السطح . تسلَّق ، فذهب هو والبيت يسبحان في النهر ، بينما صاح الناس : "انظروا ، نوح في الفلك !" ظنَّ بعضهم ذلك رؤ يا دينية ، خطوة من الخطوات التي تمهد للمجيء الثاني ، فأخذوا في الصياح المتواصل : "انظروا ، نوح في الفلك ! "».

ضحكت الأخريان بهدوء .

« وماذا قال المالك ؟ » سألت أم « بوب » .

« طيّب . ذهبت لمقابلته في الصباح التالي » ، تابعت السيدة « فوستر » كلامها ، « لكن المراقب قال إنه لا يرى ضرورة حضوري . قال إنني لا أعرف أن لا حيلة للمالك بشأن الطقس ، وانني لن استفيد شيئاً غير مجرد مضايقته . أنا أعلم ، مثل العالم كله ، قال ، إن المالك لن يفعل أي شيء . ولكن الصُّدفة ، يا عزيزتي ، جعلت المالك يسمع صوتي في الخارج ، ولأنه سمع أنني و« فوستر » كنَّا الأسوأ حظاً في الفيضان ، أرسل من يقول للناظر أن يسمح لي بالدخول لمقابلته » .

انقطاع في الكلام . تألَّق وجه السيدة « فوستر » .

« لم أستطع الكلام » ، قالت . « أجلسني في كرسي هزَّاز وسألني عن الفيضان . قال إنه أسف جداً حين سمع بما حدث ، لكن يجب علينا جميعاً أن نصلِّي . لم أستطع تصديق أذني ، لأنني لم يسبق لي أبداً طول أيام حياتي أن أقمت علاقة بين البيض والله . لكنه كان جوهر اللطف ، ثمَّ فاجأني بأن نادى الخادم وقال له أن يقدّم لي قدحاً من الشاي » .

تلعثمت السيدة « فوستر » وهي تتذكر هذا الحدث .

« قدح شاي وطبقه ، يا بنيتي ، كما لم تري في حياتك . وفوق ذلك أعطاني نصف كراون ، ستِّين سنتاً ، صدِّقي أو لا تصدّقي . ركعت على ركبتيّ . وقلتُ : ليباركك الله القدير دائما ، يا سيد « كريتون » . اغفر لي قولي ، ولكني أعرفك قبل أن تولد ، وهذا دعائي لأجلك . بركة الله . ولم يستطع الكلام ، السيد «كريتون» لم يستطع الكلام بسبب الدمع في عينيه. مشيت طول الساحة ذلك الصباح ورأسي عالياً في الهواء ، ولم يكن الملك « جورج » على عرش إنجلترة أعظم مني . ولمَّا خرجت ورأيت سيِّىء النية الأسود ابن العاهرة الذي نسمّيه الناظر ، هززت مؤخرتي (سامحني الله) في وجهه ، فقط حتى أجعله يدرك أنني إنسان أيضاً » .

أحنت رأسها وحملقت في الأرض وعلى وجهها تعبير رضا غامر .

قالت : « لا تعرفين أبداً ما سيحدث لك في هذا العالَم . لا تعرفين أبداً ، يا بنتي ، أنت تحت اليوم ، أنت فوق غداً » . قفز الريح بخفة بين الأوراق . اختفت الشمس تحت الغيمة فتعمَّق الظل في الزاوية . بزغت الشمس ثانية ، وأشرق الضوء .

«لا تعرفين أبداً ما سيحدث لك في هذا العالم ، أنت تحت اليوم ، أنت فوق غداً » .

كأنَّ الكلمات تتفجَّر من بين شفتيها ، وتدور حول الأخريين وتنضمّ إلى النَّسيم الكسول عبر السياج وفوق الأشجار .

المالك . الناظر . الفيضان . السيدة « فوستر ». أم « بوب » ، وأمي . لا ثلاثة عشر ، بلا ثلاثة . كنَّ صامتات الآن . أنت تحت اليوم ، أنت فوق غداً . وفي ذلك الصمت القصير بدا كأنهن يتساءلن عما سيحدث غداً .



٣

في أحد الأركان حيث تلتقي الجدران كان هناك نخلة محملة بالثّمار ، وفي الأمام ، من كل الجهات ، كانت هناك مساحة من الحصى والكلس والحجارة . تلك المساحة الواسعة والمليئة بالحصى في كل أجزائها كانت تسمَّى ساحة المدرسة . وكانت المدرسة تقع في ركن آخر ، بناء خشبي من طابقين تحيطه الشبابيك من كل جانب مثل فم متثائب . فيما عدا الأيام الماطرة ، كانت الشبابيك دائماً مفتوحة ، مستندة الى عصي مكانس مركَّزة في حوافها . وفي ركن آخر تقع الكنيسة ، بناء من الحجر امتد عبر الساحة حتّى مسافة ياردات قليلة من المدرسة . وبدا كأن حجم الكنيسة هو ثلاثة أضعاف حجم المدرسة ، وكان لها شبابيك ملونة الزجاج بالألوان الغامقة لا تفتح أبداً . وفي الداخل كان الهواء مظلماً وثقيلاً وغريبا . وقد أخاف غموض الكنيسة الصبيان ، فلم يدخلوها مطلقا إلّا عند محاولتهم إغاظة القندلفت بقرع الجرس .

لم تكن الكنيسة هي كنيسة المدرسة كما كانت بعض الكنائس تسمَّى ، ولم يفهم الصبيان أبداً سبب إقامة هذين البناءين في المنطقة نفسها . كان مفتش المدرسة إنجليزياً وكان يفترض أن المدرسة تتبع الطائفة الانجليكانية . وكان القس المشرف على الكنيسة إنجليزياً أيضاً ، ولكنه كان من الطائفة المشيخيَّة (البرسبتيريانية) . كان المفتش يزور المدارس مرتين كل فصل دراسي حتى يسجِّل الدَّوام ويجري اختبارات الذكاء . وكان الخوف يعتري المعلمين والأولاد جميعاً في مثل هذه المناسبات ، وكان المدير الذي قلَّما يضحك ، يبتسم طوال زيارة

المفتش . أحيانا كان القس المشرف يأتي للزيارة ليلقي خطابات حماسية عن أعمال الكنيسة ، وحينها لم يكن يخاف أحد . لكن المفتش والقس لم يلتقيا أبداً في المدرسة . لم يرتب المدير لهما أي لقاء باستثناء أيام المناسبات الخاصّة مثل عيد الامبراطورية. وكان المدير ، بعد الاحتفالات والعروض ، يصطحبهما الى بيته الذي يشغل الركن الرابع من ساحة المدرسة . في ركن نخلة ، وفي الأركان الباقية ثلاثة مزارات للتّنوير تطلّ فوق الحائط مشرفة على جماعة المستأجرين الجهلة .

* * *

كان الأطفال منظَّمين في فرق مكتظة تصطف في ساحة المدرسة . كان فريق يمثل المدرسة التمهيدية ، والفرق الثمانية الباقية تمثل الصفوف التي امتدت من الصف الأول الأدنى إلى الصف السَّابع . وقد ضم الصف الأول الأدنى الصبيان بين سن الخامسة والسادسة الذين كانوا متقدّمين جداً في السن للانضمام الى المدرسة التمهيدية ولم يكونوا بالمهارة اللازمة للالتحاق بالمدرسة الأعلى . وفي المناسبات الخاصة كانوا يسمَّون الصف الأول الأدنى ، أما فيما عدا ذلك فكان الجميع يشيرون إليهم على أنهم

أ	ب	أب
أبجد		
ج	د	جد
جدجد		

كان ثمّة تسع فرق تضمّ حوالي الألف صبي . كانت الفرق متراصّة ، وكان المشهد يبدو من شرفة المدرسة مشهد سفينة ضخمة وُضِّبت حمولتها في صناديق ووضعت فوق سطحها . كانت الفرق مسترخية . وقف الصبيان مرتاحين ، وقد تلاقت أيديهم قبضات في مكان ما بين أردافهم . وقد اغتنم بعض الصبيان الفرصة ليحكّوا بسبَّاباتهم . سار المعلمون باعتزاز كبير بين الصفوف ، يتفقدون انتظام الصفوف واعتدالها ، وحين كانوا يتوقفون ويصرخون « انتباه » ! بحدّة عسكرية ، يرفع الصّبيان أرجلهم اليسرى وينزلونها بقوة الى جانب كعوبهم اليمنى . كانت رؤوسهم مائلة قليلا الى الخلف ، والأيدي الصغيرة مشدودة بحماس الى جوانبهم . وكان بعضهم يخفق في التمييز السريع بين اليمين واليسار فيرفعون الساق غير المطلوبة . كانت الكواحل العارية للزملاء المتجاورين تتصادم

فتتأذّى . غير أنه لم يكن أي منهم ليجفل . كان ذلك يوم الرابع والعشرين من أيار (مايو) ، عيد ميلاد الملكة .

ارتفعت الشمس في السماء وأشرقت ، ساطعة وثابتة ، فوق الحصى . تلألأت جوزات الهند الخضراء ، وشبابيك الكنيسة والصَّفائح الحديديّة المطلية بالزنك التي تغطي سطح المدرسة . بدا كل شيء كأنه صراع لاهث من الضَّوء . هبَّت الريح هبَّات حادة ولوّحت الأعلام . كانت المدرسة ترتدي زياً رسمياً من الأعلام : الأبواب والشبابيك والقواطع في كافة الاتجاهات تلونت بألوان علم الملك . كان ثمة أعلام صغيرة وأعلام كبيرة ، أعلام مستديرة وأعلام مربعة ، أعلام ترتفع على عصي وأعلام بدون عصي ، وأعلام لبست وجوه الملوك والأمراء ، والسفن والعروش والإمبراطوريات . في كل مكان الأحمر والأبيض والأزرق . في كل ركن من أرجاء المدرسة رفرف العلم الملكي الثلاثي الألوان حاملاً رسالته . وقد أنتجت الألوان ، رغم أن عددها لا يتجاوز الثلاثة ، شيئا ضخما ورهيبا ، بسبب التكرار المستمر ، انتجت نوعاً من الضغط أو الحضور كان الجميع مشتركين فيه . تطلع الأطفال في المدرسة الادنى بعجب . بدا كأنهم يرون سرّاً هو نفسه الكَشْف عن نفسه ، ولذلك لم يَكن هناك داعٍ لطرح الأسئلة . وتطلع الصبيان في المدرسة الأعلى بانتصار . لقد رأوا حقيقة هي نفسها تفسير نفسها . الأحمر والأبيض والأزرق . يا لقوّة الألوان وعمقها !

من كل الجوانب كانت الجدران تزدحم بالناس . كان هناك أقرباء الأطفال الذين في الفرق المصطفة ، أو أطفال لا يدرسون في هذه المدرسة . نظر الناس الأكبر سنا الى الأعلام وتحدّثوا عن الأيام الخوالي . منذ زمن بعيد بعيد ، لكن لم يتغير شيء حقاً . يوجد الآن أعلام أكثر ، والمدرسة أصبحت أكبر ، وصار الأطفال أكثر ذكاء ومهارة . إن بإمكانهم تلقي الأوامر وإصدارها ، والسَّير في موكب العرض أمام المفتش. وهم يفهمون معاني الكلمات الصعبة ، إلاّ أنه لم يتغيّر شيء حقاً . الأعلام ما تزال باللون نفسه . في أيامهم كان ثمة ملكة . أما الآن فهناك ملك . لكن العرش هو نفسه . انجلترة الكبيرة الطيّبة وانجلترة الصغيرة العتيدة ! لم يحدث أن افترقتا أبداً منذ لقائهما الموغل في الزمن أيام حكم « جيمس » أو لعله « تشارلز » ؟ لم يكونوا متأكدين ، لكنه كان « جيمس » أو

« تشارلز » . ليبارك الله اسمه . ثلاثمائة سنة ، أكثر مما يمكن للذاكرة أن تستوعب ، التقت انجلترة الكبيرة بانجلترة الصغيرة فاحتضنتها ، وانجلترة الصغيرة رضيت مثل طفل عاقل . ثلاثمائة سنة ، ولم تجرؤ أيّ أمَّة أخرى ، طيلة هذا الزمن الطويل ، على التدخل في شؤون هذين الاثنين . كانت باربادوس أو انجلترة الصغيرة أكبر أطفال إنجلترة عمراً وأنقاهم ، ولتبقَ كذلك إلى الأبد . لقد انتقلت الجزر الأخرى من يد الى يد . كانت مرّة فرنسية ، ومرَّة إسبانية . لكن إنجلترة الصغيرة بقيت ثابتة وفيَّة لانجلترة الكبيرة . حتًى الى يومنا هذا . بالتأكيد تلك مشيئة الله . لقد لعبت يد الله دوراً كبيراً في ذلك الاتحاد . ومن يدري ؟ لا يمكنك أن تعرف مطلقاً . لعلّ إنجلترة الصغيرة وإنجلترة الكبيرة اللتين مسحهما الله بالدُّهن على هذه الأرض ، تحكمان هذه الأرض معاً يداً بيد ، يوماً ما قبل أن يتحوّل الزمان الى الأبديَّة . لقد خاضتا حرب الأربعة عشر جنبا الى جنب ، وستخوضان اي حرب معاً في كل وقت . ما على إنجلترة الكبيرة إلاّ أن تقول الكلمة فتتبعها إنجلترة الصغيرة . تملك إنجلترة الكبيرة أقوى أسطول بحري ، وانجلترة الصغيرة أحسن الصيادين في دنيا الله هذه . معاً هما سيّدتا البحار ، وكلما ، كلّما ، التقتا في جانب واحد ، حرباً أو سلماً ، لا بدّ أن يتم الانتصار .

* * *

تقدَّمت سيارة ببطء عبر ساحة المدرسة يرفرف علم فوق مقدمتها ، وحينذاك لم يبقَ غير صوت الرِّيح بين الأشجار . ترجَّل المفتش من السيارة ، وقبل أن يطأ الأرض بقدميه جأر أحد المعلمين بالأمر . أدَّت كل فرقة التحية بدقَّة لا تصدَّق . وساد الصَّمت ما عدا صوت الريح بين الأشجار ، ثم انفجر الصمت المتنقل تدريجا من فرقة الى فرقة ، في رنين جادّ مفعم بالرجاء :

« ليحفظ الله ملكنا الجليل ،
عاش ملكـــــنا النبيـــــل ،
ليحفـــــظ اللـه الملـك » .

كفَّ الصبيان عن التحية لما أمرهم المعلمون بذلك . وقفوا وقفة انتباه ، ثم استراحوا لما صدر الأمر الثاني . قاد المدير المفتش نحو منصة مرتفعة تقوم في وسط ساحة المدرسة . كان المفتش يرتدي بذلة بيضاء تزدان قبة سترتها بِشارة حمراء

وبيضاء وزرقاء . كان يبتسم طيلة الوقت ، بينما كان المدير يبتسم ابتسامة عريضة مرحة كأنما هو والمفتش يشكّلان جزءاً من سرّ على الآخرين أن يحزروه . وقف المفتش في وسط المنصّة وتسمَّرت جميع العيون فيه . تطلّع حوله في كافّة الاتّجاهات ، ثم تكلّم . « أعزائي الأولاد والمعلمين ، ها نحن نلتقي ثانية لنحيي ذكرى ملكة عظيمة . كانت ملكتكم وملكتي ولم تكن ملكتكم بأقل مما كانت ملكتي . كلنا مواطنون ومشاركون في النظام العظيم ، الإمبراطورية البريطانية ، وإخلاصكم للإمبراطورية يظهر جلياً في الإنجاز الرائع الذي تمثّله زينة المدرسة والانضباط السائد في هذه الفرق . إننانعيش،يا أولادي الأعزاء ، في أوقات عصيبة . إننا ننتظر بأشد اللهفة أنباء ما يحدث في الجانب الآخر من العالم . لعلّ الذين يقرأون الصحف بينكم قد قرأوا عن الحرب في الحبشة. لعلكم قد رأيتم صوراً لملك الحبشة . ولعلّ الصبيان الكبار بينكم قد تساءلوا عما وراء كـل ذلك . إن الامبراطورية البريطانية ، يجب أن تتذكروا ، تعمل دوماً من أجل السلام في العالم . هذه هي المهمة التي أوكلها الله اليها ، وإن كانت الإمبراطورية قد أخفقت أحيانا في إحلال السَّلام فالسبب يعود إلى أحداث ومسبِّبات خارج نطاق سيطرتها . لكن ، تذكروا ، يا أولادي الأعزاء ، مهما يحدث في أي جزء من هذا العالم ، مهما يحدث لكم هنا في جزيرة باربادوس هذه ، وهي فخر الامبراطورية وكنزها ، فاننا دائما في جانب السَّلام ، أنتم معنا ، ونحن معكم . ومعاً سنسير دوماً وفق مشيئة الله . دعوني أخبركم عن مدى تأثري بالزينة . إنني لأرجو ألاَّ أبعث الغيرة بين مدارس الجزيرة التابعة لإدارتي حين أقول إن مثل هذا العرض والتزيين الذي أراه هنا لا يمكن للأولاد في الوطن أن يتفوقوا عليه » .

صفّق الصبيان والمعلمون وهتفوا فضاع صوته في الضجيج . انتظر المفتش حتى هدأ الصياح ثم اختتم بقوله : « باربادوس هي حقاً إنجلترة الصغيرة ! » . ترجل عن المنصة فتجدَّدت التحية والهتاف بحيوية أكبر . تقدم المدير وسلَّم على المفتش شاكراً ثم صعد المنصة مشرقاً بالبهجة وصاح : «ثلاث مرحات للمدرسة . مرحى مرحى مرحى . مرررررحى . . . مرحى ى ى ى ى ى
مرررررحى . . . مرحى ى ى ى مررررررررحى. . . . مرحى ى ى ى» .

* * *

وقف الصبيان وقفة انتباه ، وارتفعت أصوات المعلمين تصدر أوامر مضطربة مشوشة للفرق . تكلموا في الوقت نفسه ، ولكن الأوامر كانت مختلفة ، فكانت حركات الفرق متناقضة في الإجمال . فحين تلقى الصف السادس الأمر بالوقوف وقفة الاستراحة ، تلقى الصف الخامس الأمر بالسَّير . تطلع المفتش والمدير من المنصة الى ما يجري وابتسما بسبب هذا التنافس البريء . بعد إصدار الأوامر وترتيب الصفوف بالنظام الذي يرضي المعلمين ، سار الصِّبيان فرقة وراء فرقة وراء فرقةدائرين حول المنصة . وفي الدائرة الأخيرة ساروا سير تحيّة ، فردّ المفتش التحيَّة ثم راقبهم يسيرون في صف واحد داخلين المدرسة .لقد انتهى العرض .

* * *

عاد أربعة صبيان من المدرسة الأعلى لأخذ المنصة . حملوها الى داخل المدرسة حيث مكانها ، وبقي المدير والمفتش في ساحة المدرسة . وقفا في المكان الذي أخذت المنصة منه ، وتحدثا بهدوء . كانت يدا المدير متشابكتين وراء ظهره ، وقد بانت أسنانه تحت شفاه ثقيلة . وقف المفتش محدودباً قليلا وقد تراخت يداه على جانبيه ممتدة من الكتفين في استقامة واعتدال . كان وجهه ناعماً وباسماً . ظهر كأنَّهما مرتاحان جداً ومستأنسان في ترتيب المظاهر هذا المريح والرَّسمي . كان التباين في مظهريهما لافتاً ، غير أنه بدا كأنهما ينتميان بطريقة ما ، إلى شيء واحد . كان المفتش أبيض وناعما وبارداً كالحصاة . كان وجه المدير أكثر ثراء وأقوى ومحروقاً أسود في الشمس . كان مما يبعث السرور أن تراقبهما يتحدثان بتلك الطريقة التي يسميها القرويون حديث رجل مع رجل ، رغم أن الوضع لم يظهر أنه فعلا حالة رجل مع رجل . كانا أحياناً يراقب كل منهما الآخر كما تراقب القطة الفأر ، مداعبة إنما جادَّة . ابتسم المفتش ، فردّ المدير الابتسامة ، وابتسمت القطة الكامنة في كل منهما أيضاً . لم تكن ابتسامة تبعث الثقة . وليس من غير المحتمل أن تقفز القطة فتمص دم الآخر . وكان إيحاء مرعب بالمصّ حولهما . كان المفتش أنعم من أي شيء رأيته في حياتك ، ربما باستثناء القرْح . كان أحيانا يعلق برغوث دجاج بأصبع قدم أحد القرويين . وكان لا يكترث به فيفقس البرغوث في اللحم . وسرعان ما يتكَوّن تحت جلد اصبع القدم كيس صغير مخصب بالبراغيث . ينتفخ اصبع القدم فيصبح نعومة بيضاء ولامعة . لا يمكن وصف نعومة الجلد التي ترقد البراغيث تحتها . وحين يوخز اصبع القدم بدبوس ، يتشقق

الجلد ويفرز الصَّديد . لقد تلاشت النعومة ، غير أنك لا يمكن أن تنساها . لا يمكن أن تنساها عند رؤيتك المفتش يبتسم . ناعماً كقشرة الصَّديد . إنها تجمع وتفرز الكثير جداً بمنتهى الهدوء وبالغ الخلسة . كان المدير ناعماً أيضاً ، ولكن قشرته كانت خشنة وبرّاقة وسوداء مثل العلقة التي رآها القرويون موضوعة فوق ذراع السيد « فوستر » . فحين أصيب السيد فوستر بتسمم الدم ، أمر الطبيب بوضع علقة فوق ذراعه . ربضت العلقة فوق الذراع ، برّاقة وسوداء ، وراقبها الجيران تسمن بامتصاص الدَّم . اتخذ المدير في سيره بجانب المفتش ، نحو المدرسة ، هيئة العلقة البرّاقة السوداء الرابضة ، وكان حين يرد ابتسامة المفتش يرتفع لحم خديه كأنَّما امتصاص الشعور الجديد يسمنه .

* * *

بدأ النصف الثاني من الاحتفالات بتفقد الصفوف . أدَّت ثلاثة صفوف عرضاً خاصاً ، وتم ، فيما بعد ، الإعلان عمن ربح ترس المفتش .

كان الصبيان جميعا جالسين في مقاعدهم . جلس المفتش على كرسي على المنصة . المدير وحده كان واقفاً . كان يشير إلى كل صف بدوره حتى يقوم بالأداء . كان المعلم المشرف يأكله الخوف والقلق في انتظار إشارة المدير ، وحين تصدر كان يزود صفه بالتَّلقين الهادىء ويأمل خيراً . كان أقرب صفّ إلى المنصّة هو الصفّ الأول الأدنى الذي وقف وبدأ ينشد الدرس الذي قضى الأشهر الثلاثة الأخيرة في تعلُّمه . أعطاهم معلمهم الإشارة فأخذوا ينشدون كلهم سويَّة :

« أ ب أب أبجد
ج د جد جدجد
أ ب أب أبجد
ج د جد جدجد »

أنشدوه بلا غلط فصفق المفتش . ضحك المعلم المشرف وطقطق أصابعه للصبيان . وخز كل منهم الآخر بكوعه وابتسموا بهدوء . تغيّر المشهد وقام صف من المدرسة الأعلى بالأداء . وقف معلمهم إلى جانبهم وحين قدَّر أنهم جاهزون همس ، جاهز ، مستعد ، إبدأ ؛ وأنشد الصبيان الدرس الذي صرفوا الأشهر الثلاثة الأخيرة في تعلُّمه :

« أيلول عنده ثلاثون يوماً
وكذا نيسان وحزيران وتشرين الثاني ،
كل الأشهر الباقية عندها واحد وثلاثون يوماً ،
ما عدا شباط الذي عنده ثمانية وعشرون فقط
تصير تسعة وعشرين في السنة الكبيسة » .

سر المفتش وصفق ، وتغيّر المشهد ثانية .

كان الأداء التّالي اختباراً لضبط الصّوت . وكان الصف السابع في المدرسة الأعلى هو الصف المؤدِّي . كان للصف السابع معلِّمان ، غير أنه في مثل هذه المناسبات لم يكن يسمح بالظهور إلّا لأحدهما . وكان الآخر يقف بوصفه أحد الصبيان . كان معلم الصف السابع هو معلم الموسيقى أيضاً . وقف أمام الصف والمسطرة مرفوعة في يمناه ، وكانت يده اليسرى ممدودة . امتد الساعدان مشكلين نصف دائرة فوق رأسه ، وحين التقيا مستويين مشيرين إلى الصف ارتفعت الأصوات . كانت أصوات الصفوف الثمانية الأمامية من طبقة السوبرانو ، والصفوف الثلاثة الخلفية من طبقة الباس ، والصف الجانبي من طبقة الألتو . أنشدوا النشيد الذي كانت المدرسة تنشده كل صباح طيلة الأشهر الثلاثة الماضية .

« يا الله ، يا عوننا في العصور الغابرة،
ورجاءنا في السنين المقبلة ،
يا ملجأنا من العواصف الهوجاء ،
يا ملاذنا الأبدي » .

لقد انتهت العروض ، فجلس الجميع ما عدا المدير الذي ألقى خطاباً . لقد كان مسروراً بالحضور والدّوام ، وهو ، كما قال ، أفضل ما عرفته المدرسة منذ سنوات عديدة . وأعلن أن الصف الخامس قد ربح ترس المفتش . تقدم عريف الصف الخامس بين التصفيق والهتاف واستلم الترس . اعطاه للمعلم الذي علقه على مسمار على القاطع القائم مباشرة وراء الصف الخامس . ثم أعلن المدير أن ثلاثة صبيان سيتركون المدرسة هذا الفصل ويلتحقون بالمدرسة الثانوية . لقد

حازوا على بعثات تفوق ، وكان هو فخوراً بهم . تحدث بعاطفة كبيرة عن إنجازاتهم .

قال : « سيتابعون ما نسمِّيه الدراسات العليا ، الرياضيات والعلوم وما أشبه . هنا ، كما تعلمون جميعاً ، نعلِّم الحساب حتى موضوع الفائدة المركبة ، وأحياناً أبعد من ذلك قليلا . يستطيع الصبيان في الصف السابع أن يخبروكم كل شيء حول الأسهم والمبادلات التجارية . أما الجبر والهندسة فنتركهما للمدرسة الثانوية . غير أنه لولا ذلك الأساس المتين في الحساب الذي نزود الصبيان به ، لما أمكنهم فهم تلك الموضوعات . نحن فخورون بهم . المستقبل لهم ، وسيتذكرون دائما بامتنان المدرسة التي علَّمتهم الأشياء الأولى التي تعلّموها في حياتهم » .

صفقت المدرسة وهتفت ، وتقدم الصبيان الثلاثة وسلّموا على المفتش .

« كما تعلمون » ، تابع المدير كلامه ، « في كل عيد من أعياد الامبراطورية نوزّع البنسات على الأطفال . إنها هدية المللكة، ولقد كانت ملكة جليلة عظيمة . ومن عادتنا هنا ، كما هي العادة المتبعة في جميع المدارس ، أن نعطي بنساً لكل صبي في المدرسة الأدنى وفي المدرسة الأعلى حتى الصف الرابع . أما البقية فيحصلون على بنسين . أما الثلاثة المتفوقون فسيحصل كل منهم على ثلاثة بنسات . ويجب عليكم جميعا حين تذهبون لصرف بنساتكم أن تفكّروا قبل أن تضيِّعوها . لقد كانت الملكة « فكتوريا » ملكة حكيمة ، وهي تريدكم أن تصرفوها بحكمة . يظن بعض الصبيان في الصف السابع أنهم يعرفون معنى أن تكون ملكا . لقد كانت « فكتوريا » ملكة بكل معنى الكلمة » .

سُمِعَت همهمات ضاحكة عالية من إحدى زوايا المدرسة . تيبَّس المدير ، فشعر الجميع بالرعب من جراء التغيّر الذي انتابه .

قال فجأة بفظاظة : « والآن دور البنسات » ، ونزل عن المنصَّة .

أُحْضِرَت البنسات ، والمفتش الذي لم يكن أبداً ينتظر لمشاهدة توزيعها ، قام واستعد لمغادرة المكان . أطلق المدير صفارته فوقفت المدرسة بأسرها وأدَّت التحية للمفتش اثناء خروجه . أطلق المدير صفارته ثانية ، فجلس الجميع . كان

وجهه خشناً ومتوحشاً وحزيناً . كان من الصعب فهمه حين تكلَّم .

كان صوته خفيضاً ومختنقاً بنوع من الرُّعب . « لا أريد أن يقال مطلقاً إن صبياني قطّاع طرق مجرمون » ، قال : « يتهكمون ساخرين كالحمير في حضرة أناس محترمين . إن طموحي دائما هو أن يقال إن الصبيان في مدرسة « جرودِك » للبنين هم سادة مهذبون . لكنّ السادة المهذبين لا يهزأون ويتهكمون ويقهقهون كالمهرِّجين ، وفي حضرة أناس محترمين ، أناس من ذوي السطوة والنفوذ » . سكتت المدرسة ، وبدا كأن الجميع يرتجفون تحت وطأة تهديد لهجته . سأل : « من الذي ضحك حين قلت ما قلت عن الملكة ؟» لم يتحرك أحد .

« من هو ؟ إني أسألكم » ، صاح متناولاً الجلْد السَّميك من فوق مكتبه . كان ذلك الجلد عبارة عن قطعة من جلد البقر المملَّح المقدَّد بعد نقعه بالراتينج ، وكان يستعمله أداة عقاب . تقدم خطوة الى الأمام .

« من هو ؟ أسألكم ثانية » ، صاح ، « انطقوا وإلّا ضربت كل لعين منكم من رأسه حتى أخمصه » . تضاعف الرعب واحتد . كان الصمت ثقيلاً ورهيباً، كاليقين بالموت .

وقف صبي من الصف السابع وبدأ يتكلم .

« تعال هنا » ، قاطعه المدير بحدَّة وعنف فأخرسه . وقف الصبي مكانه محاولاً أن يقدِّم شرحاً . لم يتمكن أحد من معرفة ما إذا كان هو الجاني أو أنه كان يشي بأحدهم . خطا الصبي الى الأمام ، محاولاً أن يتكلم . وقف المدير يرتجف كأنما يخشى تحمل تبعة ما ينوي القيام به . تناول الجلد من حول رقبته حيث كان قد لفَّه وانتظر قدوم الصبي . رفض الصبي أن يخطو متقدماً إلى الأمام أكثر مما فعل فحملق المدير مشدوهاً . « تقدَّم » ، صاح ثانية وحدَّق في الصبي كأنه رمز إنساني لأفحش الخطايا . فجأة قفز الصبي مرعوباً فوق المكاتب والمقاعد ، وهو يدوس فوق رؤوس الصبيان الآخرين ، وهرب نحو الباب . أمسك المعلمون به وهو يحاول أن يقفز فوق الدرابزين وأحضروه الى المقدّمة . لم يستطع الكلام . أشير إلى اربعة صبيان فتقدموا وأوثقوا يديه وقدميه ثم مدّدوه فوق مقعد طويل وأمسكوه

مثبتين . خلع المدير سترته وأحكم قبضته على الجلد . مزّقت الضربة الأولى البنطال وتركت العجز الأسود عارياً معرَّضاً . ولول الصبي ولولة قصيرة كأنه حيوان ذبيح . لا يستطيع أحد أن يقول كم استمر ضربه أو كم يبلغ عدد الضربات التي تلقّاها . غير أنه لما وقف يساندُه الصبيان الأربعة الذين مدَّدوه وثبَّتوه كان ضعيفاً واهناً . كانت ركبتاه تصطكّان وانزلق خراه على ساقيه . رفعه الصبيان خارج المدرسة وحملوه الى تحت الأنبوب في ساحة المدرسة .

* * *

« لماذا هربت ، يا أبله ؟» .

« نعم ، إن لم تكن أنت ، لماذا هربت ؟ » .

« عرفت أن لا فرق » ، قال الصبي ، « كان عليه أن يضرب شخصا ، وشفى غلّه مني » .

« لكن من كان ؟ » .

« لست أنا » قال ، « كان الصبي الأزرق . لما حكى المدير عن الملكة إنها ملكة جليلة عظيمة وليس كالملوك في الصف السابع ، سأل الصبي الأزرق . . . » .

« ماذا سأل ؟» استحثه الصبيان .

« سأل إن كان لون سروال الملكة أحمر وأبيض وأزرق » .

وضع الصبيان ساقيه تحت الأنبوب ثانية وغسّلوه فنظّفوه .

الصبي الأول : « ما رأيته أبداً أبداً يضرب أحداً هكذا . أبداً أبداً » .

الصبي الثاني : « ولا أنا في حدود ما تتذكره ذاكرتي رأيته يخلع سترته بهذا الشكل حتى يضرب شخصا . لم أفعلها ، لكني تقريباً شخّيت تحتي لمّا شفته ينزل ذلك الزنار عليك طاخ طاخ » .

الصبي الثالث : « يظهر كأنه كان ينوي ضربك ومخبِّئاً القتلة لك وحدك لا يمكن أن نقول عنها إنها كانت قتلة عادية طبيعية » .

الصبي الرابع : « أنا أقول لنفسي الشيء نفسه . ما كانت طبيعية الطريقة التي تصرَّف بها . كأنك كنت تشغل باله ، ولقي هناك وفي تلك اللحظة فرصته حتى يتخلص منك . هكذا كنت أفكر وأنا أثبتك » .

الصبي الثاني : « إياك أن تفكر أننا ، لأننا ثبتناك ، كنا نشجعه على الضرب وإلّا كان توقَّف أسرع » .

الصبي الأول : « وحياة الله لا تظن ذلك . كل الوقت كنت أقول لنفسي ماذا وماذا سأعمل به لو كنت محلَّك » .

الصبي الرابع : « كنت أخبر أبي . كنت أعمل هذا ، أخبر أبي ، الأب فقط يقدر أن يتعامل معه » .

الصبي الثالث : « ستخبر أباك كيف ضربك ؟ »

« لا أعرف » ، قال الضحية ، « لا أعرف » .

الصبي الرَّابع : « ما معنى لا تعرف . أنت غير راض بما حصل ، أو أنت راضٍ ؟ راض أو غير راض ؟ تترك القصَّة تنتهي وخلص ؟ » .

الصبي الأول : « لن تتركها تنتهي وخلص ، أراهن بحياتي ، لن تتركها خلص » .

الصبي الرابع : « لو كنت محلك أخبر أبي . يلزم أب لتدبير مثل هذه الأشياء . معي ، لن تنتهي القصَّة وخلص . أبي ، ضروري ، يعرف » .

الصبي الثاني : « ستخبر أباك كيف ضربك ، أو لا ؟ » .

الصبي الأوّل : « لن تخبر أباك ؟ لماذا عندك أب ؟ أليس الأب لمثل هذا الشيء حين يحصل ؟ » .

« لا اعرف » ، قال الضحية ، « لا أعرف » .

الصبي الثاني : « ماذا تظن جعله يضربك هكذا ، ماذا يمكن أن يكون ؟ » .

الصبي الأول : « ماذا تظن ؟ هناك شيء غير ما حصل هذا الصباح . أراهن بحياتي ، هناك شيء أكثر من الملكة وكل ذلك » .

الصبي الثالث : « ما هو هذا الشيء في رأيك ؟ لازم أنك تعرف شيئاً » .

الصبي الرابع : « ما هو ، قل ما يدور في بالك يا رجل ، ما هو؟ »

« لا أعرف » ، قال الضحية ، « لا أعرف » .

الصبي الرابع : « لو كنت محلك لخبَّرت أبي ، مثل ما الله موجود في السماء كنت أخبر أبي » .

الصبي الثاني : « وأنا أيضا . لو كان هذا أول شيء إطلاقا أخبره لأبي ، لأخبرته إياه . كنت أخبرته » .

الصبي الأول : « من لا يخبر . كنت أخبر بالتأكيد . لهذا السبب عندك أب . أبوك نوع من الحارس للبيت » .

الصبي الرَّابع : « لو كنت محلك لأخبرت أبي » .

الصبي الثالث : « لست أكيداً كثيراً أنني أخبر أبي . لست أكيداً أبداً » .

الصبي الرابع : « ما تعني ؟ ما تعني أن تعني لَّما تقول ما تقول ؟ » .

الصبي الأول : « هرب مخك من رأسك . هذا رأيي أنا » .

الصبي الرابع : « أو رأسك عن رقبتك ما تعني أنك لن تخبر أباك ؟ لماذا عندك أب ، إن كان عندك أب ؟ » .

الصبي الثالث : « إن كان هناك شيء لازم ما تعمله فهو أن تخبر أباك أن المعلم ضربك . ليس ذكاء أن تعمل هذا . ورحمة جدتي ، ليس ذكاء » .

الصبي الرابع : « لماذا هو ليس ذكاء أو صحًا أو ما تقول إنه ليس هو ؟ » .

الصبي الثالث : «لأن أباك يقول إنه كان عند المعلم سبب . هذا ما يقوله أبوك . ولما تقول له إنك لا تعرف السبب لماذا عمل المعلم ما عمل ، حينها يخبرك

أبوك لماذا . ولن يخبرك لماذا فقط ، وإنما سيقول لك إن المعلم ما ضربك منيحاً وسيضربك هو مرة ثانية . سيريك كيف يلزم أن يضربك المعلم في المرَّة القادمة . ليس ذكاء أن تخبر أباك مثل هذه الأشياء . أعرف ما أقول . أعرف أن ليس ذكاء » .

الصبي الأول : « ليس عدلا   ليس عدلا أن يعمل أبوك هكذا . كنت أخبر أمي » .

الصبيّ الثاني : « مع الأم هناك فرق . عندها عواطف أحسن . الأم ناعمة جداً . عواطفها رقيقة » .

الصبي الأول : « صحّ . لكن يمكن أن تخبر هي أباك . أنت تعرف كيف تحكي النساء . لا يمكن أن تحفظ الواحدة منهن شيئاً في داخلها ، ليس لأنها تريد أن توقعك في ورطة ، هي لا تريد ، لكن لا يمكن لأي واحدة أن تحفظ شيئا في داخلها ، من الماء إلى أي شيء ، مهما كان . عليها أن تخرجه ، وحين تسمع الصراخ اعلم أن أمك أخبرت أباك ، ويكون الحال نفسه كأنك أنت أخبرته . لا فرق أبداً . لا أعرف الآن من أخبر » .

الصبي الرابع : « لا مشكلة عندي . لا يعيش أبي معنا في بيت واحد » .

الصبي الأول : « لكن أمك ستخبره حين تراه . هكذا هي الأم . رغبتها قوية قوية قوية حتى تقول أي شيء ، وحتى لو لم تكن صُلْحاً مع أبيك ، فقط من أجل أن تقول أي شيء حتى تخرجه من داخلها لأنها لا تقدر أن تبقيه في داخلها . لذلك فقط ستخبره   » .

الصبي الرابع : «لا يمكن أن يضربني أبي لأنه لا يصرف علي. لذلك لا مشكلة عندي . لن تتركه أمي يضربني لأنه لا يصرف علي ، ولن تسمح له المحكمة بهذا أيضا . يقول القانون إن الأب لا يستطيع أن يضرب إذا كان لا يطعم . أشكر الله على القانون » .

الصبي الأول : « أبي لا يصرف علي ، لكن إن ضربني ستقول أمي إن معنى هذا انه ما زال عنده اهتمام بي » .

الصبي الثاني : « لن تقول أمي هذا » .

الصبي الرابع : « ولا أمي » .

الصبي الأول : « الأمهات غبيَّات ، لهذا السبب معظمنا بدون آباء . يمكن بسبب غباء الأمهات لا يأتي الآباء بعض المرَّات حتى يعرفوا ماذا يجري . شيء سيء أن تكون غبياً » .

الصبي الرابع : « أفضل ألا يكون عندي أب يعيش معي . صدِّقوني أعمل أي شيء متى يكون الأب خارج البيت في كل أوقات النهار . الأب في البيت مثل الدب أو النمر أو الأسد . لا يمكنك أن تحكي وتضحك كما تحب ، ومرَّات إن بقيت في المرحاض مدَّة طويلة يأتي وراءك . بعض الآباء لا يريدونك حتى أن تعمل ما هو طبيعي . لا يريدون » .

الصبي الثالث : « أبو « رات » ، وهو الخياط ، مثل ما قلت . هو يصرف عليهم كلهم مليح مليح مليح ، وهم غير محتاجين أي شيء في دنيا الله هذه . لكن ما عندهم أي حرية . حين لا يكون في البيت ، يكون البيت مثل الحفلة ، لأن الأم امرأة طيبة تحكي نكات كثيرة ، لكن لمَّا يظهر ، يسكت الجميع عن الكلام . تسمع الحديث الحديث الحديث ، وفجأة يقول أحدهم مهلا مهلا جاء أبي ، وفجأة يصير كل شيء مثل التعتيم على الآذان . لا تسمع شيئاً أبداً . ولا صوت غير صوت دعسة أبيهم القادمة في الساحة . ويبقى السكوت هكذا حتى يخرج ثانية » .

الصبي الرابع : « أحسن نكون بدون آباء إن كانوا مثل ذلك . أنا أعيش بدون أبي بلا مشكلة . ومن جهة ثانية مليحة ، حين لا يكون هناك أب في البيت ، تشعر بشعور انك الرجل في هذا المكان . هذا شعور طيب . حين يأتي أي شخص مثل المفتش الصحي أو الشرطيّ ويسأل من الرجل هنا ، وتقدر أن تقول ، هنا يوجد رجل واحد فقط ، وهو أنا » .

الصبي الأول : « لا أرى أبي كثيراً ، لكنْ أبو أخي الثاني مليح . هو لا يفرّق بيننا ، بيني وبين أخي ، لأننا نحن الاثنين ، هو يقول ، أولاد أمنا . كم أب عندك في عائلتك ؟» .

الصبي الأول : « انتبهوا انتبهوا انتبهوا ، المدير يتطلع من الشبّاك . ضعوا قدمه تحت الماء مرة ثانية . بسرعة ، بسرعة ، بسرعة ».

حملوا الصبي الى موضع لا يمكن أن يراه أحد فيه من داخل المدرسة وتركوا الانبوب يصبّ الماء عبر القناة .

الصبي الرابع : « أقفلوه » .

الصبي الأول : «لا . دعه يحسبنا ننظف المجرور » .

الصبي الثالث : «نعم . لكن مضى الوقت ، وجاء وقت التفكير فيما علينا أن نعمل » .

الصبي الثاني : « صحيح . يجب ألاَّ يفلت بما عمل . هذا غير عادل لا في نظر الله ولا الشيطان . ولا حتى إبليس يقول إنه عادل » .

الصبي الرابع : « سأرجمه بالحجارة . إنه يمر في طريق « هنط » في وقت متأخر كثيراً في الليل » .

الصبي الأول : « وحياة المسيح ، أرجمه بالحجارة . أرجمه بالحجارة . أنا أقول ارجمه بالحجارة ولا تفكر فيما تعمله أو لا تعمله بعد ذلك » .

الصبي الرابع : «انتظره قرب سياج « فوستر » . احشر نفسك في الفسحة التي في السياج واكمن هناك وانتظر حتى يمرّ ، وحين يصبح أمامك بمسافة كافية ، صوّب عليه وأصبه في مؤخرة رأسه » .

الصبي الأول : « ستعمل ذلك . ألن تعمل ذلك ؟ » .

الصبي الرابع : « أكيد سيعمله . عمله سهل سهل » .

الصبي الثاني : « لا مشكلة فيه . نقدر أن نساعدك . سننتقي الحجارة لك . كل ما عليك أن تعمله هو قذفها . ستعمل ذلك ؟» .

« لا أعرف » ، قال الضحية ، « لا أعرف » .

الصبي الرابع : « ما تعني أنك لا تعرف ؟ ليست مشكلة أن تعرف . هي

مشكلة أن تعمل . هو لم يعرف لماذا ضربك بهذا الشكل . أو يمكن يعرف ، لكن لا فرق . أن تعرف وأن لا تعرف هما شيء واحد . المشكلة هي أن تعمل » .

الصبي الثاني : « لماذا يضرب رجل صبياً بهذا الشكل ؟ إنه يستغلّ المناسبة ، هذا رأيي . أي رجل يضرب صبياً بهذا الشكل هو مستغل .إنه يستغل استغلالاً كبيراً غيره » .

الصبي الرابع : « وهناك طريقة للتعامل مع أولئك . هناك طريقة للتعامل مع المستغلِّين . في أي وقت قابلتهم . هنا أو في السماء ، هناك طريقة للتعامل معهم » .

الصبي الثاني : « نرجمهم بالحجارة ، هذا ما نعمله ، نرجمهم ».

الصبي الرابع : « لن يكلفك عمل هذا ولا بنس . ولا بنس حتى ترجمهم » .

الصبي الأول : « صحيح . الحجارة بالمجان . مجانا مجانا مجانا . لا تكلف ولا بنس » .

الصبي الثالث : « هذا عمل كبير . هذا عمل كبير كبير كبير الذي تعملونه » .

الصبي الرابع : « ما هو العمل الكبير ؟ لماذا هو عمل كبير كما تقول ؟ » .

الصبي الأول : « ما الذي يجعله بهذا الكبر ؟ لماذا تقول إنه كبير ؟ » .

الصبي الثالث : « بسبب من هو المدير . تذكروا من هو هنا . هو مدير مدرسة كبير مهم . لا أحد في قرية « كريتون » هذه كلها يفكر أن يرجمه . هو يملك قوّة وسلطة هنا . يحترمه الجميع هنا ، ومهما عمل أو لم يعمل سيقف الناس في صفه . في قضية مثل هذه لن يكون عندنا أنصار أبداً . سنكون نصنع التاريخ لو نحن رجمناه » .

الصبي الرابع : « سنصنع التاريخ . أنا دائما أرغب في صنع بعض التاريخ » .

الصبي الثاني : « وأنا أيضا . قرأت عن كل الذين صنعوا التاريخ ، « وليام » الفاتح و« ريتشارد » وكلهم . قرأت كيف صنعوا التاريخ ، وأنا أقول لنفسي جاء الوقت حتى اصنع أنا أيضاً بعض التاريخ » .

الصبي الأول : « سنصنع التاريخ قرب سياج « فوستر » . دعونا نصنع التاريخ » .

الصبي الثالث : « إن كنت تنوي أن تصنع التاريخ يجب أن تفكر كيف تعمل ذلك . تذكر من هو المدير . يستطيع أن يعمل أي شيء هنا ويفلت دون حساب » .

الصبي الرابع : « ليس أي شيء . لا يستطيع أن يورِّط فتاة . هذا شيء لا يستطيع أن يعمله ويفلت » .

الصبي الثاني : « صحيح ، لكنه يستطيع أن يعمل أي شيء آخر . إلاَّ ذلك . إنه يشرب وكل ذلك ، لكن لا أحد يقول أي شيء . لكن لا يستطيع أن يورّط فتاة. من المضحك أنهم وضعوا هذا القانون » .

الصبي الأول : « الوضع يختلف في المدرسة الثانوية . يستطيع المعلم في المدرسة الثانوية أن يورّط فتاة ، ولا يستطيع أحد أن يحاسبه ، لأن ذلك من شؤونه الخاصَّة . لكن ليس في المدرسة الابتدائية . فلو أوقع معلم فتاة في ورطة يخسر وظيفته » .

الصبي الثالث : « يجب ألّا يراه أحد قريباً جداً من أي فتاة . وإن كان عندهم دليل على أنه على علاقة عابثة مع واحدة فربما سألوه أسئلة » .

الصبي الأول : « لماذا الوضع هكذا في هذه المدارس ؟ » .

الصبي الثاني : « بسيطة . ليس عند المدرسة الثانوية قسّ مشرف . أما نحن فعندنا . وعندنا مفتش المدرسة أيضا . المدرسة الثانوية ما عندها ذلك . فهم مستقلُّون . يعملون ما يحلو لهم » .

الصبي الثالث : « والسبب أيضا هو أن المفتش إنجليزي . ففي إنجلترة ما

عندهم عادة أن الرجل يعبث مع الفتاة . بل هو يكتب رسالة رأساً إلى أبيها ويقول إن نواياه هي كذا كذا . وهذا كلّ شيء . لكن لا مداعبة ومعابثة » .

الصبي الرابع : « هذا يصحّ بالنسبة للانجليز . فهم بيض ، وهذا معناه أن ليس عندهم دم كثير في شرايينهم ، وإن لم يكن عند الرجل دم كثير فهو لا يعرف كيف يلعب ويعابث فتاة . أو لعله يعرف كيف مع واحدة ، لكن ليس اثنتين أو ثلاث . هذا يلزمه دم كثير » .

الصبي الثالث : « أنا أقول فقط إنه يجب أن تتذكروا من هو المدير . يمكنكم أن تجعلوه يظهر كطفل لو علمتم أنه ورّط فتاة ، وقلتم له إنكم ستخبرون المفتش . سيكون كل أهل القرية في صفكم . لأنهم لن يتحملوا هذا السلوك العاطل . أما أن ترجموه وهو راجع إلى البيت بعد شرب القليل من الخمر ، فلن يسامحوكم » .

الصبي الرابع : « ما عندنا دليل أنه يعمل ذلك ، فإذن سنرجمه بالحجارة . وما يقولون بعد ذلك هو شغلهم . وإن ما أعجبهم ، عليهم أن يبلعوه . وإن مات يستطيعون الحصول على مدير غيره . هناك الكثيرون يتمنون هذه الوظيفة . سنرجمه » .

الصبي الأول : « سنعملها . لن تكلفنا شيء . لا شيء . »

الصبي الثاني : « الأحجار بالمجان . لا تكلف شيء . ولا بنس » .

الصبي الرابع : « ولا سنت . ولا سنت حتى نشق جمجمته نصفين . نصفين » .

« لا أعرف » ، قال الضحية ، « لا أعرف . ربما كان بنس وسنت سبب ما حصلت عليه . ربما . لا أعرف » .

الصبي الأول : « ما تعني ؟ » .

الصبي الثاني : « ما الشيء الذي تعنيه ؟ » .

الصبي الثالث : « قل ما تعني » .

الصبي الرابع : « ما تعني بالبنس والسنت ؟ قل ما تعني ؟ » .

استند الضحية الى الجدار وخفض بصره الى المجرور حيث كان الماء يقرقر في انسيابه . مرَّ بيده فوق جلده العاري حيث أحدث السَّوط تمزقاً بسيطا . كانت عيناه مشوبتين بالدموع ووجهه في غاية الإرهاق . لكنه ابتسم لمّا ابتدأ الكلام ، واقترب الصبيان منه حتى يسمعوا .

قال الضحية : « إسمعوا ، إن أمي هي خادمته . هي تطبخ وتنظّف له ولزوجته ، وهي تعرف كل ما يجري في بيته . لا يهمّ ما هو ، فليس من السهل إخفاء شيء عن آذان الخدم . هم يسمعون كل شيء ، ما يحصل في البيت وخارجه . وهكذا الحال مع أمي التي هي خادمته . كل الخدم مثل بعض ، خدم الناس البيض وخدم السّود أيضا ، وهذا ليس خطأهم . لا يمكن أن يمنعوا أنفسهم من السماع ، كما لا يمكنهم أن يمنعوا أنفسهم من التذكر . ويظهر أن المدير قرّر أن أمي تخبرني ما تسمعه حين تعود الى البيت في الليل . لا لأنها تخبرني أنا خصوصا ، ولكنني أسمع حين تخبر أبا أخي . هكذا الحال في كل مكان . مع أم « توم » التي تعمل عند الطبيب الأبيض ، ومع جدَّة « الصبي الأزرق » التي كانت طبّاخة الحاكم . فهم يسمعون بما يجري ، وكأن لهم جميعاً مقاعد أمامية يرون منها شؤون الناس البيض . هم يعرفون من يحب من ، ومن لا يحب من . وأحياناً يأتمنهم الناس البيض على الأسرار فيخبرونهم أشياء يجب ألا تسمعها آذان غير أصحاب العلاقة . وهكذا الحال مع المدير . هو يشعر أن أمي تعرف لأن زوجته ليست قدّيسة . إنها حارّة ، كما يقولون . وزوجته لا تخفي شيئا . هي لا تكتم شيئا ، وقد أخبرت أمي ، ليس مرّة أو مرتّين ، بل مرَّات ومرَّات كثيرة ، عن عيوبه . ولعله قرَّر أنني أجيء وأخبركم بما أسمعه من أمِّي . ولعله لا يحب الشعور بأننا نعرف عنه » .

« نعم هذا ما حسبته » ، قال أحد الصبيان ، « لكن البنس والسنت . ما قصة البنس والسنت ؟ » .

« طيب » ، قال الضحية ، « كما سمعت أمي تخبر أبا أخي الثاني ، القصة كالتالي . هو وزوجته معاً جيـدان لكل واحد منهما نقطة ضعف . هو لا

يستطيع العيش بدون الخمر كما نعرف كلنا ، وهي لا تستطيع العيش بدون السعوط . تقول أمي إنها تتعاطاه طول النهار ، في الصباح ، والظهر ، والليل . فأنت تراها تضع يدها تحت فسطانها وتخرج كيساً صغيراً وقبل أن تقول أي كلمة تبدأ بالعطس كالقطة . هي تحب العطس . تقول إنه يصفّي الرأس ، ويساعدك حتى ترى كل شيء أكبر وأجمل » .

« ماذا عن السعوط » ؟ سأل أحد الصبيان « « ماذا حصل للسعوط ؟» .

قال الضحية : « يظهر ، كما تقول أمي ، يظهر ما كان عندها سعوط ، وكان الوقت متأخراً ، فطلبت منه ، يعني المدير ، أن يذهب ويشتريه لها . وأعطته بنسا ونصف بنس » .

سأل أحد الصبيان : « ما هو نصف البنس ؟ » .

قال الضحية : « نصف البنس هو السنت : أعطته بنسا وسنتا وطلبت منه أن يشتري بها السعوط . ذهب ليشتريه ، لكن قبل أن يذهب الى دكان السعوط قرر أن يذهب إلى « كيرتون » ويشرب البيرة . كما تعرفون هو يحب الخمر . ويقولون انه يكون على ما يرام حتى غياب الشمس ، لكن بعدما تبحر الشمس وراء البحر يشعر بعطش رهيب . كأنك وضعت كرة من النار في حلقه ، ولا ينفع شيء في إطفاء هذا العطش غير أحسن بيرة عند « كيرتون » . هو يشرب من النوع الملصق على علبته صورة قطة سوداء تلبس ربطة عنق معقودة ، مكتوبة تحتها هذه الكلمات ، **القوة هي الحق** . لا أعرف أبداً لماذا وضعوا هذه الكلمات على الملصق عن الحق والقوّة . لا يعرف أحد بوجوده هناك ، لأنّ « كيرتون » لا يجعله يجلس في البار العام حيث يجلس الجميع . عنده طاولة صغيرة خاصّة أجلسه إليها ، ربما مع صديق أو صديقين . هم يشربون هناك في زاوية خاصة حيث لا يمكنك أن تراهم يسكرون . يظهر أنه شرب وشرب حتى نسي السعوط كلياً . ولمّا استعدَّ للخروج من « كيرتون » ، كان بالكاد يرى أين يمشي ، كان يرفع كعبيه كأنهما ليسا له ويسير نحو دكان السعوط . هكذا تقول أمي إن زوجته قالت إنه قال لها فيما بعد . هكذا يقول الواحد إن الآخر قال » .

سأل أحد الصبيان : « ماذا جرى في دكان السعوط ؟ هل وقع ؟ » .

قال الضحية : « كلا ، ليس هو . الذي وقع هو السنت . حين كان يمشي في اتجاه دكان السعوط وقع منه السنت كما تقول . يظهر أنه ما كان معه أي نقود غير ما أعطته زوجته ، فصار خائفاً كالخوف من جهنم . وقع السنت من يده وتدحرج في المجرور . ظن أنه رأى أين تدحرج ، لأن القمر كان كبيراً ، كان كبيراً بحيث يمكنك أن ترى من وراء الزجاج بوضوح على أي جانب يجلس الرجل . كان القمر كبيراً كبيراً ، وكان المجرور كله ضوء . يظهر أن السنت تدحرج تحت الحجر في المجرور ، لذلك زحف بهدوء وأزاح الحجر ليطلع السنت من تحته ، لكن السِّنت ما كان هناك . فتش وفتش وفتش ، لكن السنت ما كان هناك . وأدار عينيه في كل مكان ، بلا فائدة . ما كان هناك شيء تحت الحجر غير ضوء القمر . صار خايفا ، لأن ما كان معه نقود غير البنس . وفكر أنه لا يليق به أن يشتري السعوط بالدَّين ، خاصة في حالته . لذلك خطر في باله أنه يجب أن لا يضيع البنس . وحتى يتأكد أنه لن يضيع البنس رفع الحجر مرة ثانية وحطَّ البنس تحته سالماً صحيحا . وبعدها راح يفتش عن السنت ، ولما رجع ما قدر أن يلاقي البنس أيضا . فتش هنا وفتش هناك ، لكن ما شاف لا البنس ولا السنت . يمكن تدحرج البنس لما دحرج هو الحجر . لكن هذه كانت النتيجة ، ضاع الاثنان . وكيف ؟ خبّأ الواحد حتى يفتش عن الثاني » .

سأل أحد الصبيان : « ماذا جرى بعد ذلك ؟ ماذا جرى ؟» .

قال الضحية: « هذا ما جرى . كان عليه أن يروح الى البيت بدون البنس والسنت ، والأسوأ من هذا سكران سكران . أخبر زوجته بما جرى ، وتقول أمي إنها ما شافت أبداً امرأة هي زوجة المدير تتصرف بهذا الشكل . خلعت زوجته بنطاله عنه . وضربته بشكل . كان سكرانا لدرجة ما قدر معها أن يقف جيداً . فكانت متمكِّنة منه تماماً . ضربته كأنه تلميذ مدرسة . وكل الوقت وهي تضربه ، كانت تقول انها ما سمعت في كل أيام حياتها ، أن رجلاً كبيراً ، بل مدير مدرسة ، يضيع البنس حتى يفتش عن السنت . لا يمكنها أن تصدق أذنيها ، قالت : هذا شيء لم يسمع مثله من قبل . ظلت تضربه حتى وعي من السكر ، وتقول أمي انه حين ما عاد يقدر أن يتحمل أكثر ، ركض الى البلكون وصار

يصيح أمام الجيران ، "ولك ، ولك ، حطّتهم فوقي ! ولك ، ولك ، حطّتهم فوقي " ؟ سأله الجار أين ترك قواعد اللغة ، لكنه ما قدر يسمع أي شيء غير صوته هو يقول ، " ولك ، ولك حطّتهم فوقي ! " . » .

إنساب الماء ، حاملاً معه ضحك الصبيان في القناة خارج ساحة المدرسة .

أما في المدرسة فقد تمّ توزيع البنسات ، وكان المدير الذي عَاد إلى المنصة يجلس وراء مكتبه يقلب صفحات سجل الدوام . ارتعشت أصابعه القصيرة السَّمينة وهي تمسك ورقة في منتصف الطريق بين صفحة وأخرى . لقد أعاد الجلد إلى مكتبه ، وبدا الجميع في مزاج أسعد ، باستثناء المدرسة الأدنى التي كان موضع جلوسها هو الأقرب إلى المنصَّة . كانوا يبعدون أقل من ياردة عن المنصة ، وقد اسبغ عليهم هذا القرب شعوراً بالذنب . يتضمن الاحتفال فترة من الوقت بين توزيع البنسات وانصراف المدرسة . وقد بدت هذه الفترة كأنها جزء من برنامج الاحتفال . جلس طلاب المدرسة الأدنى هادئين ثابتين . وكانت العادة أن يطالع المدير ، خلال هذه الفترة ، سجل الدوام ، ويدوِّن ملاحظة أو أكثر في دفتره الأسود الصغير . وحين يطلق صفَّارته إيذاناً بالانصراف ، كان من عادته أن يدلي ببعض التعليقات استناداً الى الملاحظات التي دوَّنها في دفتره .

وفي هذه الاثناء كان المعلمون الذين يجلسون في المقاعد الخلفية لكل صف من الصفوف ، يشغلون أنفسهم بأي شيء يلهيهم . كان بعضهم يبرد أظافره ، وآخرون يرسمون على قصاصات ورق صغيرة . وكان معظم الصبيان ينهمكون في تفحص البنسات . كانت من النحاس اللامع . وكان الصبيان يتفكَّرون فيما اذا كان من الممكن إنتاج مثلها ، وقد قاموا بمحاولات عديدة لإنتاج مثيلاتها مرسومة بالقلم الرصاص . كانوا يضعون البنس فوق الدُّرْج ، ويضعون فوقه صفحة ورق بيضاء ، ثم يظلِّلون بالقلم الرصاص تظليلاً كثيفاً ، ذاك الجزء من الورقة الذي يغطي البنس . ثم يقطعون الدائرة التي صنعها البنس بعد أن تكون صورته قد انطبعت بحدَّة على تلك الدائرة . كانوا يتفحصون هذه الورقة المطبوع البنس عليها ويفكرون ملياً وبجديَّة في كيفية صنع البنسات . وكان بعضهم يتجادل

بهدوء حول حجم وجه الملك ، وكيف تمَّ طبع هذا الوجه على النحاس . ذلك في منتهى الذكاء والبراعة ، كانوا يظنون . كان وجهاً حقيقيا ، هو الوجه نفسه الذي رأوه في صور أخرى . قال بعضهم إنها في الحقيقة صورة شمسية للملك تمَّ لصقها على خلفيَّة ما ثم لوِّنت بالنحاس . كان هذا الوجه على البنس أخاذاً ومحيّرا جداً . هل يمكن الحصول على بنس بدون الوجه ؟ تطلَّعوا فيه بدقَّة ناقدين ، ودوَّنوا ملاحظات حول نتائج ذلك . كيف وصل الوجه هنا ؟ هذا السؤال حيَّرهم . قال البعض إنه رسم للملك تمَّ بواسطة دبّوس حين كان النحاس طرياً . لقد رأوا الرصاص مذاباً . كانت القطعة الصَّلبة التي لا لون لها توضع في الإناء وحين تنظر إليها ثانية تراها سائلاً بلورياً لامعاً يتحوّل تدريجاً الى مادَّة صلبة مرَّة ثانية . تجري العملية نفسها للنحاس. عليك أن تذيبه ، وحين تصل صلابته الى درجة معينة يتم الرسم عليه بالدبوس . تلك عملية طويلة شاقة تحتاج الى صبر كثير . ولكن لا بدّ من القيام بها إن كان للنقود أن توجد ، وكان الجميع يدركون أهمية النقود . عمليَّة صعبة ولكنها ضروريَّة . لكنَّها غير ممكنة ، ظن بعضهم . بل الواقع أن من البله أن نجادل أن مثل هذا العمل يقوم به أناس عاقلون . والإنجليز ، وهم النَّاس الوحيدون في العالم الذين يتعاملون بالبنسات ، هم عاقلون جداً . لا يمكنك أن تشغل ملكاً في كل هذا السخف من إذابة للنحاس ورسم صورة . ومن أين له أن يجد الوقت الكافي للجلوس حتى يتم صنع كل تلك الملايين من البنسات ؟ ذلك سخيف جداً . قال آخر إن من المستحيل استخدام النحاس السائل لمثل هذه الأغراض ، وعلاوة على ذلك لقد قام شخص واحد بصنع كل تلك البنسات . تلك مهمَّة مستحيلة لشخص واحد . وافق آخر على أن شخصاً واحداً قد صنع كل البنسات . كان وجه الملك هو نفسه بكل تفاصيله على كل بنس . وليس من الممكن أن يستطيع عدد من الناس يشتغلون في رسم الوجه نفسه أن يحصلوا على الشَّبه نفسه . الأنف ، ربما ، أو العين والأذن ، لكن ليس الوجه بتمامه ، وكان من الواضح للجميع أن الوجه هو الوجه نفسه بالذات . في كل تفصيل من تفاصيله ، لا يختلف أي شيء فيه . قال أحدهم انه البنس ذاته مكرراً كل الوقت . بنس واحد ، هو أول بنس صنع إطلاقاً ، هو البنس الحقيقي . وكل البنسات الأخرى تمَّ صنعها بنوع من الأختام . ما عليك ببساطة ، إلّا أن تحصل على البنس الأول والمواد اللازمة ، فيمكنك صنع الآلاف . ذلك معناه ، قال

أحدهم ، أن ليس بإمكانك أن تصرف البنس الأول . أراد أحدهم أن يعرف كيف تمَّ صنع ذلك البنس الأول . فلو صدَّقنا انه كان ثمة بنس واحد أولاً صنعت منه كل البنسات الأخرى ، فلا بدَّ من أن هذا البنس الأول قد صنع في وقت من الأوقات . ليس ذلك صعباً ، شرح الصبي . لقد صنع البنس كما ترونه بدون وجه الملك . لقد تمَّ تسخينه على نار خاصَّة بحيث يستقبل العلامة المدموغة عليه ويحتفظ بها . لقد تمَّ تشكيله وغسله جيداً ، وأخيراً أُرسل إلى الملك الذي ضغط به على أحد جانبي وجهه . فنتجت الصورة كما نراها . وهذا هو سبب رؤ يتنا لجانب واحد من الوجه فقط . وأحياناً كان يضغط به على أنفه . ثار المزيد من الصعوبات . فإن كان بعضها قد ضُغط على الوجه وبعضها على الأنف فلا بد من وجود أكثر من بنس . لا بد من وجود بنسين على الأقل . وقد احتج البعض ان ليس لدى الملك الوقت الكافي لضغط كل البنسات التي في العالم . لا يمكنه أن يضع كل تلك البنسات على وجهه ، لأن ذلك يقرحه . انه سيمرض من ضغط النحاس . لا يمكنه أن يفعل ذلك . ذكَّرهم الصبي أن عليه أن يصنع واحداً فقط ، أما الأخرى فتتبع عن طريق أسلوب الاختام .

لكن كل الحجج التي في صالح الاختام والرسم اّطّرحت جانبا اذ أن أحد الصبيان كان يعرف من مصدر موثوق أن رؤ ية الملك مستحيلة .

ربما حين كان طفلا وصبيا فيما بعد . أمّا حين أصبح ملكا فلم يعد أحد يراه إطلاقا . لا يمكن لأحد أن يراه . لهذا السبب يسألك الناس أحيانا إن كنت تحسب نفسك ملكا . ولقد قال المدير ، منذ فترة ليست بعيدة ، شيئا عن صبيان معينين يشعرون أنهم ملوك . شيء كبير ومهم أن تكون ملكا . ذلك يعني أنك يغمرك الشعور أنك تعيش في غرفة كبيرة بمفردك وحيدا حيث لا يستطيع أحد أن يراك وأنت مستقل كل الاستقلال . حرّ ووحيد . أراد أحدهم أن يعرف كيف يظهر وجه الملك في الصحف . لقد رأوه مراراً في الصحف ، وقد رأى بعضهم من الذين ذهبوا الى السينما ، صوراً للملك وهو يؤ دي التحية ويتفقد الجنود . رد الصبي محتجاً إن الصحف لا تعرف ما تفعل أو تقول . الصحيفة هي دائماً وراء الأخبار لا أمامها . يجب ألاَّ تفتش عن المعلومات في الصحيفة إطلاقاً . فهم يطبعون ، عادة ، ما يظنون أن الناس ترغب في رؤ يته ، وليس عندهم أي شرح

ليزودونا به . فليس هو الملك الذي رأوه . ذلك ليس الملك إطلاقاً . إنه ظل الملك . ضحك بعض الصبيان . فقد ظنوا أنه عنى بذلك أن ظل الملك يتبعه حيثما ذهب وأن الصور الشمسية قد التقطت للظل وليس للملك . فشرح الأمر مطولا . هناك ملك ظل يفعل كل ما يجب أن يفعله الملك . وملك الظل هو الذي يذهب الى العروض العسكرية ، ويؤدي التحية ويقوم بكل تلك الأشياء التي نربط بينها وبين الملك . وملك الظل هو جزء من التقاليد الانجليزية . فالانجليز ، قال الصبي ، يحبُّون الظلال . فهم لا يقومون بأي عمل صراحة وعلانية أبداً . بل إن كل شيء يعمل في الظلّ ، وحتى الملك ، وهو أعظمهم ، يعمل من خلال ظلّه . سأل أحدهم إن كنت تدري حين تحدِّث رجلاً إنجليزيا هل أنت تتحدث الى رجل حقيقي أو الى ظل ، وقال الصبي نعم . إن البعض منهم هو الرجل والظل في وقت واحد ، إنما هم ظل أكثر منهم رجل . لذلك عليك أن تلتزم الحذر حين يكون عليك التعامل مع الناس الانجليز . ذلك أنه من العسير دائماً أن تميز بين الرجل والظل ، وأحياناً يكون كله ظلاً . ذلك أن الرجل يضيع بطريقة ما فلا يبقى شيء غير الظل . لم يستطع معظم الصبيان أن يستوعبوا هذا الحديث عن الظل. قال أحدهم إن من غير الصحيح القول إن الملك لا تمكن رؤ يته لأن عنده زوجة وأولاداً . فهو ليس حقاً وحيداً وفي عالم منفرد مستقل لأن عائلته دائما موجودة هناك . فهم بشر مثل جميع البشر. والأولاد هما الأميرتان اللتان رآهما الكثيرون في الصور مع أبيهما وأمهما . اعترض الصبي . قال ان الجهل المتفشِّي بينهم أكبر مما كان يعتقد ممكناً . ذلك كله جزء من التقاليد أن يكون عند الملك بنات وأبناء يطلق عليهم الأميرات والأمراء . وتلك الكلمات هي جزء من التقاليد ايضا . ولكنهم يقترفون غلطة كبيرة إن هم ظنوا أن للملك أي دخل في كل ذلك . هناك ملك حقيقي . هو يلبس ثيابه بنفسه ويقوم بجميع الأعمال اللازمة لنفسه بنفسه . لا تمكن رؤ يته . تلك هي التقاليد . أما ما نراه فهو الظل . لذلك السبب يشير الأولاد اليه في حضرة الآخرين بقولهم جلالته . لا يستطيعون أن ينادوه أبي كما أفعل أنا وأنت . فليس صوابا أن يقولوا ذلك . هو ليس أبي لأنه وحيد . ولكنهم أولاده ؟ سأل أحد الصبيان . نعم ولا ، قال الصبي : هم كذلك وهم ليسوا كذلك ، تقصد أن تقول ، يسأل أحد الصبيان ، تقصد أن تقول إنه ملك الظل أيضا . . . ؟

أطلق المدير الصفارة فساد السكون . أغلق دفتر الملاحظات . بقي جالساً ففهم الجميع أنه ليس مستعداً بعد للإيذان بالانصراف . فحين يكون مستعداً ، ينتصب واقفاً ويتخذ هيئة جدية حزينة . لقد نمت هذه العادة بينهم . فكل منهم يعرف الإمارات . وكل منهم يتبع التعليمات غير المنطوقة . فحين تطلق الصفارة صوتها الصَّارخ ، يفهم الجميع شيئاً معيناً من ذلك . فإن أطلقها مرّة واحدة فلذلك دلالة معينة ، وإن أطلقها مرَّتين فالدلالة مختلفة كل الاختلاف . لقد تكوَّنت العادة واستتبَّت . لم يكن مستعداً أن يصرف المدرسة بعد . لقد عرفوا ذلك . فلقد أطلقت هذه الصفَّارة لإعادة السكوت. لقد ارتفع الهمس عالياً جداً ، فأطلق الصفارة ليذكرهم أنه ما يزال هناك . فهم الجميع . حلَّ السكوت حاضراً مثل رجل دخل غرفة لإلقاء نظرة خاطفة وسرعان ما يرحل . تطلع الصبيان بعضهم إلى بعض مبتسمين أو معابثين . كان الهمس يعود بطيئاً . لقد عاد مثل رأس يختلس النظر من وراء جدار . ببطء شديد . فهو لم يظهر رويداً ومتدافعاً في سبيل الظهور . بل لقد ظهر حين ظهر ، أي أنه ظهر حين أصبح حضوره في غاية التَّمام . وسيبقى إلى أن تطلق الصفارة ثانية . حينذاك يخفي نفسه مثل حلزونة تزحف سلسة منسابة الى داخل صدفتها باحترام وخوف غريبين . لقد فهم الجميع .

في صف آخر كان الجميع يتهامسون حول الملكة . الملكة التي ذكرها المدير . الملكة « فكتوريا » . ويبدو أن أولئك الذين كانوا يقفون على أقرب مسافة من الجدار قد سمعوا الناس الكبار يتحدثون عن الملكة . كانت ملكة عظيمة صالحة . لقد قال المدير ، ولقد قال الناس الكبار شيئا مماثلا . لم يفهموه تماما . لقد فهموا الأعلام . لقد فهموها إذ لم يكونوا في حاجة الى السؤال عنها . فالأعلام تشرح حضورهم ، والعرض والمفتش . وكل هذه الأشياء بسيطة . فهي موجودة ببساطة . لكن الناس الكبار فوق الجدار قد تحدثوا عن الملكة بطريقة أخرى . لقد تحدثوا عنها بوصفها ملكة صالحة لأنها حررتهم . هذا ما قالوه ، كان صبي صغير يكرِّر . قالوا إنها حرَّرتنا ، أنا وأنت وهو وأنت . سمعتُهم يقولون ذلك . كيف حررتهم الملكة . أنا سمعت ذلك أيضاً ، قال صبي آخر . ظننت الأمر في غاية الغرابة ، غير أني لم أقلق ، لأن الإشارة لا تشملني . الملكة حررتهم . لا بدّ أنهم

قد كانوا فيما مضى محبوسين في ما يشبه السجن . هذا هو الواقع ، قال أحد الصبيان بهدوء . لقد كان معظمهم محبوسين في السجن في وقت ما في الماضي . ويظهر أنه حين اعتلت هذه الملكة العظيمة الصالحة العرش أصدرت أمرها بتحرير أولئك الذين لم يكونوا أحراراً . لقد بدأ الأمر يتضح . الآن بامكانهم أن يدركوا معنى هذا الحديث عن الحرية . قال أحد الصبيان إنه قد سأل المعلم ، لكن المعلم قال إنه لا يعرف عما كان الناس الكبار يتحدثون . لعلهم كانوا على شيء من الهذيان . فلم يقم أحد بتحريره أبداً . لقد كان ذلك هو ما قاله المعلم . لا بد أن الناس الكبار كانوا محكومين بالسجن ، وعند اعتلاء الملكة العرش تم تحريرهم . لا علاقة لكل ذلك بهم . يا لَلقلق . يا لَفكرة أنك لست حراً . كيف تقدر أن تتحمّل ؟ إن أُبلغت أن ليس باستطاعتك أن تفعل كذا أو كذا . ولا بإمكانك أن تذهب هنا أو هناك . يا للقسوة ! تكلم صبي آخر بهدوء . لم يكن مقتنعاً بشرح الآخرين . القضية هي قضية البنسات والملك من جديد . قال إنه سمع شخصاً يقول شيئا عن العَبْد . امرأة عجوز قالت إنهم كانوا فيما مضى عبيداً ، أما الآن فهم أحرار . وقالت إن هذا هو ما فعلته الملكة العظيمة الصالحة . لقد حرَّرتهم . كان الصبي الصغير حائراً . فهو يفهم معنى السجن والمسجون . لقد رأى المساجين مرات عديدة . كانوا يمرّون جماعات مقيدة بالسلاسل في الصباح الباكر في طريقهم الى العمل . وكان يعرف معنى ذلك . كان ذلك عقاباً لهم . وبعد أن يتموا مدَّة الحكم يصبحون أحراراً من جديد . لكنَّ المرأة العجوز فوق الجدار لم تكن تتكلم عن ذلك . كانت تتكلم عن شيء مختلف . شيء أكبر . هكذا بدا الأمر له . سأل المعلم عن معنى عبد ، وقام المعلم بالشرح . غير أنه لم يكن معقولاً . فهو لا يفهم كيف يمكن لأي شخص أن يشتري شخصا آخر . كان يعرف أن بالإمكان شراء الأحصنة والكلاب وتشغيلها . لكنه لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن يشتري إنسان إنساناً . أخبر المعلم بما قالته المرأة العجوز . كانت عبدة . وقال المعلم إنها مصابة بالهذيان . كان ذلك في الزمان الغابر الغابر . كان الناس يتحدثون عن العبيد في الزمان الغابر . لا علاقة لذلك البتَّة بالمرأة العجوز . فهي ليست متقدمة في السن إلى ذلك الحد . وعلاوة على ذلك لا علاقة لذلك بأهل باربادوس . فلم يكن أحد هناك عبداً إطلاقاً ، قال المعلم . لقد

حدثت تلك الأشياء في جزء آخر من العالم . لا في إنجلترة الصغيرة . لم يعجب هذا الكلام الصبي الصغير . لقد طرد من ذهنه الحديث عن العبيد . ولكنه ظل قلقاً بشأن المرأة العجوز . فمن الذي غرس في رأسها أنها كانت عبدة ، هي أو أمها أو أبوها من قبلها ؟ كان واثقاً أن المرأة العجوز تجهل القراءة . فلا يمكن أن تكون قد قرأت ذلك في كتاب . لقد أخبرها شخص بذلك . وفوق ذلك لقد قالت انها هي كانت واحدة . واحدة من هذه الأشياء . عبدة . كان الصبي الصغير يسمع هذه الكلمة لأول مرّة في حياته ، وعندما شرح المعلم معناها ، تملّكه شعور غريب . ذلك الشعور الذي يعتريك حين يحدثك أحدهم بجريمة قتل . الحمد لله ، على أنه لم يكن يوماً عبداً . هو أو أبوه أو أبو أبيه . الحمد لله ، على أنه لم يكن أحد في باربادوس يوماً عبداً . ليس ذلك قسوة . إنه ببساطة غير واقعي . فكرة الملكيَّة . رجل مُمْتَلَك من قبل رجل آخر . ضحكوا بهدوء . تخيلوا أي رجل في أي جزء في العالم يمتلك رجلاً أو امرأة من باربادوس . سوف ينسون كل شيء عن ذلك لأنه حدث في الماضي الموغل في القدم . علاوة على ذلك . لم يُخبروا أي شيء عن ذلك . لقد قرأوا عن معركة « هاستنجز » وعن « وليام » الفاتح . لقد حدث ذلك منذ مئات السنين . وكانت العبودية قبل ذلك بآلاف السنين . إنها موغلة بالقدم بحيث لا يَجدر أن يهتم أحد بتعليمها بوصفها تاريخاً . ذلك حقا هو سبب عدم تعليمها . إنها موغلة في القدم . على التاريخ أن يبدأ في موضع ما ، على ألاَّ يكون موغلا في القدم . ولم يكن أحد يعرف أين حدثت قصة العبودية هذه . لقد قال المعلم ببساطة ، ليس هنا ، في مكان آخر . من المحتمل ألّا تكون قد حدثت أبداً . المرأة العجوز ، البلهاء المسكينة ! عليك أن تغفر لها . لا بدَّ أنها رأت حلماً . حلماً سيئاً ! ضحكوا بهدوء . أُطلقت الصفارة . سكوت ، سكوت ! انبثق كشبح ، وسرعان ما تلاشىَ .

***

كانت الشمس تصنع انحرافاً جديداً . اخترقت الشباك بأشعة قوية مستقيمة تركَّزت بحدَّة فوق رأس المدير . فلمعت الجمجمة حيث خفَّ الشعر وتألَّقت . كان يقرأ في الدفتر الأسود الصغير . كان وجهه متجهِّماً وصارماً . كان يقرأ ويدوّن الملاحظات أثناء القراءة . لم يكن من عادته أن يقضي مثل هذا الوقت الطويل مطالعاً للملاحظات ومدونا لها ، إلَّا أن أحداً لم يلحظ ذلك على ما يبدو .

لقد وجد الصبيان أشياء عديدة تشغل بالهم . البنسات ومن ثم المرأة العجوز التي تحَدَّثت عن الحرية . وكان المعلمون منهمكين في ما يشغلهم أيضاً . وقد أخذ بعضهم يقطع الوقت ببري الأقلام ، وكان الآخرون يقرأون . وفي المقاعد الخلفية للصف الرابع كان المعلم يمسك مظروفاً بعصبية وقلق . إنه يخص زميله في الصف الخامس . لقد أخرجه من جيبه ، ونظر اليه بشيء من السُّرور ، ثم كتب على أحد وجهيه : السيد « سلايم » .

كان معلم الصف الخامس يبرد أظافره بينما يتابع الصبيان تهامسهم . كان شاباً في غاية الاناقة . كان الأفضل لباساً بينهم جميعاً، وكان يلبس أربطة عنق صارخة الألوان . لم يكن المدير واثقاً من إعجابه به . ولكنه يؤدي عمله بصورة مرضية . كان لباسه بالغ الزخرف ، يكاد يكون مبتذلاً . جلس في المقعد الخلفي وقد عقد أصابعه ، وكان يتحدث إلى الصبي الجالس قربه . كان المدير يكتب في الدفتر الأسود الصغير . حطَّت ذبابة على أنفه . ظل ثابتاً . ظلت الذبابة واقفة مكانها فأخذ جلده يحكّه في الموضع الذي مسحته أرجلها مسحاً خفيفاً . مرّ بيده فوق وجهه فاختفت الذبابة . كان الهمس ثابتاً وخفيضا . من الممتع تتبُّع درجات الهمس . كان أحيانا أشبه ما يكون بصلاة جماعية بصوت منخفض . فكانت الأصوات كلها تتحدث بتلك الرتابة الهامسة التي تسمعها في الكنيسة . وفي أحيان أخرى تدب الفوضى . كنت تسمعهم بين فترة وأخرى ، ولو كانت أذنك حادَّة السمع لأمكنك أن تميِّز الصف المتحدث . كانوا يتحدثون الآن بطريقة الصلاة ، بهدوء وثبات وجديَّة . كانت رؤوسهم تتجه نحو الدُّروج . ما الذي يقلقهم ؟ البنسات والملك ؟ أم أنها المرأة العجوز وحديثها عن العبودية ؟ كانوا جميعا جادِّين بطرق مختلفة وحول أمور متباينة ، ولكنهم كانوا هادئين . كان الهمس هادئاً .

وقف معلم الصف الخامس ، وحاول أن يشير إشارة تلفت انتباه أحد زملائه . فحين يريد أحد الأساتذة أن يذهب إلى الحمَّام ، عليه أن يجد شخصاً يحل محله مشرفاً على صفه حتى عودته . سار في جانب صفه وهو يغمز بعينه . لم يلق أي استجابة ، فسار عائداً الى المقعد الخلفي . سار مرَّة ثانية مكررا الغمز بعينه ، ورآه زميله هذه المرة . كان معلم الصف الرابع . كانا على غاية التفاهم والانسجام . جلس معلم الصف الخامس على المقعد قرب الصبيان ، وانتظر . لم

يكن من المأمون أن يتهامس المعلمون فيما بينهم . فعندما يطلق المدير صفارته ، فان السكوت يعني سكوتهم أيضاً . وهذا سيبعث الصبيان على السخرية والتهكم . كانوا يتكلمون مع الصبيان بهدوء . فلو أطلقت الصفارة ، وتوقف المعلم عن الكلام ، فإن انطباع الصبي سيكون أن ذلك له وليس للمعلم . أما إن كان معلمان يتحدثان ، وتوقفا عن الكلام كلاهما ، فإن القضية مختلفة . ستراود الصبيان أفكار معينة .

حين سار المعلم الآخر في اتجاه معلم الصف الخامس ، قام هذا من جديد واتجه نحو الباب . كان يبدو غير مرتاح في حركاته . سار معلم الصف الرابع نحو الباب محاولاً أن يلفت انتباه المعلّم الآخر إلى المظروف الذي في جيبه . كانا معاً حين رفع معلم الصف الرابع يده بحذر من جيبه . ولكن معلم الصف الخامس ركض ، رغم إرادته ، عبر الباب في اتجاه المرحاض . وقع المظروف بينهما . ولم يَرَ أحد متى حدث ذلك ؛ بل حتّى ماذا حدث .

انحنى الصبي بطيئاً وتناول المظروف . كان يجلس في نهاية المقعد الذي قام عنه معلم الصف الخامس . لم ير متى سقطت الرسالة ، لكنه حين تزحزح في المقعد لتوسيع المكان لأولئك الجالسين في الطرف الآخر ، جذب المظروف نظره . تطلع اليه بهدوء تحت الدُّرج ، وفكَّر فيما عساه يصنع . سيقرأه بالتأكيد . لكن هناك أموراً أخرى يجب أن يقومٍ بها . غمره الفرح بهذه الملكية الجديدة . لقد حصل على معرفة ليست من حقّه . ماذا يفعل بعد أن يقرأها ؟ هل يعيدها الى الشخص الذي كتبها ؟ لا يعرف . من المحتمل جداً أن يكون أحد الصبيان قد كتبها . فهم يكتبون الرسائل . كانوا أحيانا ، يكتبونها للتدريب الدراسي ، ولكن الأغلب هو أن يوجِّهوا رسائلهم الى فتيات يرغبون في كسب ودّهن . أمسك بالمظروف وتطلع اليه بتركيز تحت الدُّرج . رآه جاره فأشار إليه بإشارة .

لم يعد وحده في هذه المعرفة . لقد رأى جاره الرسالة وبدأ يهمس بهدوء . إنها ليست لك ، همس الجار . أثار ذلك سخط الصبي . أحكم قبضته على المظروف بشدَّة أكبر . أراهن بحياتي أنها ليست لك ، ألحّ الجار . ازداد غضب الصبي ، بماذا تراهن ؟ ردَّ هامساً . بماذا تراهن ؟ أرني العنوان ، همس الجار . راهِنْ أولاً ،

قال الصبي . إن كنت شديد التأكّد أنها ليست لي، إذن راهن . هيًّا راهن . لماذا لا يستطيع أن يراهن إن كان شديد التأكّد أنها ليست له ؟ من كتبها ؟ سأل الجار . أقصد ، من الذي يجب أن يتلقّاها ؟ هل كتبها الى فتاة ، أو هل هو يستلمها من فتاة ؟

كان حب استطلاع الجار شديداً . فذلك مهم . فلم يسبق أن استلم هذا الجار أي رسالة من فتاة أبداً ، ولذلك خشي أن يصبح هذا الصبي في مركز التفاخر والتّباهي بالنجاح الكبير الذي حققه . ولنفترض أنها الفتاة نفسها . لو تبيّن أنهما يلاحقان الفتاة نفسها ، فما عساه يفعل ؟ كانوا يحملون هذه الأمور على محمل الجد البالغ . وذلك من أثر دربتهم الباكرة في الاستجابة الغيورة . تطَلَّع الجار بتآمر ، وأمسك الصبي بالرسالة ، مبتسما . لم يقلبها بحيث يظهر الجانب الذي كتب العنوان عليه . ألحّ الجار . رفض الصبي أن يقلبها الى الجانب الآخر . ازدادت قناعة الجار . ليست لك، قال هامساً . لقد أعطاه إياها أحدهم حتى يسلمها لغيره . إنه يعرف ذلك . قد يكون المعلم . المعلمون يفعلون ذلك أحياناً . يعطون رسائل للصبيان لتسليمها ، وبعضها موجّه الى فتيات ، وبعضها الى المدير . ذلك أمر مألوف . ابتسم الجار . هو يعرف الآن كل شيء . لقد قام بعمل مماثل فيما مضى . كان المعلمون أحياناً يطلبون قرضاً من المدير ، ولم يكونوا يعرفون كيف يذهبون اليه مباشرة ويقدّمون الطلب . كانوا يكتبون رسالة قصيرة ويرسلونها مع أحد الصبيان . كان الصبي يعرف محتويات تلك الرسالة من غير أن يقرأها ، لأن المدير لم يكن يخفي شيئا . كان جوابه نقوداً . كان يعطي حامل الرسالة شلناً أو شلنين ، ويأمره بتوصيلها الى المعلم . كثيراً ما كان يحصل ذلك . وهذه رسالة من هذا النوع . ضحك الجار . غضب الصبي . لوّح بالرسالة أمام الجار . تودّ أن تعرف ممَّن هي . ما أشد رغبته في أن يعرف ! بإمكانه أن يعرف إن رغب في ذلك . إن كانت رغبته في أن يعرف قوية جداً فبإمكانه أن يعرف . عليك أن تقول ، سيدي . إن قلت سيدي ، بإمكانك أن تعرف . تطلع الجار غاضباً . لم يكن متأكداً . لنفترض أنها ليست رسالة موجهة الى المدير . لعلها فعلاً من فتاة . لا يهمّ . يفعل الصبيان ذلك أحياناً . يكتبون رسائل الى أنفسهم . هذه هي الحقيقة . إنه يعرف الآن . هذه هي الحقيقة . لقد كتبها هو إلى نفسه .

ولذلك السبب يرفض أن يقلبها على الجانب الآخر . إنه يخشى أن يكتشف خطّه . يا لها من حيلة سخيفة ! امتلأ الجار حماسة . لقد كتبتها أنت إلى نفسك . هذه هي الحقيقة . أنت كتبتها إلى نفسك . امتلأ الصبي غضبا . فهو لا يحب هذا النوع من الإهانة . ازداد غضبه واحتد . هو لم يكتبها إلى نفسه . ذلك كذب . هو يعرف ذلك . لم يكن الكذب يقلقه ، ولكنّ الأذى لحقه بسبب الشك بأنه يفعل ذلك . فهو لم يفعل شيئا من ذلك طيلة حياته إطلاقاً ، ولن يفعله أبداً . ازداد جاره حماسة واهتماماً . لقد لاحظ غضب الصبي . تلك هي الحقيقة ، قال بإلحاح . لقد كتبتها أنت الى نفسك . كان على الصبي أن ينتقم . كان عليه أن يجد جوابا لاذعاً . سأريك ممن هي ، إن أردت أن ترى . ماذا يفعل ؟ عليه أن يفعل شيئا في غاية التطرف . من ؟ ألحَّ الجار . أختك ، همس الصبي . إنها من أختك ، وإن أردت أن ترى ما تقوله فبامكانك ذلك . فذلك في نطاق العائلة ، أنا وكل شيء . أنا في العائلة أيضا . صار الجار هادئا . كان يغلي بهذه الإهانة . أخته ! كان يعرف أنها لم تكتبها . لم يكن متأكداً إن كانت أخته تعرف هذا الصبي ، لكنه لا يظن أنها تكتب إليه رسالة . أو هل تكتب ؟ لن تكون متأكداً أبداً بالنسبة إلى أختك . فالأخوات لهن حياة خاصة ، وربما كنّ يتلهفن على شيء يثيرهن في اتجاه ما بينما هو يثيرك في اتجاه آخر . لا تستطيع أن تجزم ، لكنَّ فكرة الزج باسم أخته في هذا الحديث لم تعجبه . ألحَّ الصبي . أستطيع أن أريك إن كنت فعلا ترغب أن ترى . لوّح بالرسالة تحت الدرج . اشتد غليان دم الجار . لم ينطق بكلمة منذ ذكر الصبي أخته . بل جلس هادئاً متجهِّماً يتطلع الى إلرسالة . أخذ الصبي يلعب بها تحت الدُّرج . انظر . انظر . اختلس نظرة . خط أختك خط جميل . وبعد قول كل شيء وفعل كل شيء ، أختك ليست سيِّئة . لم يعد يطيق ذلك . سيرفع شكوى بالأمر ، أو يلكم الصبي لكمة على أذنه . لم يعد معلم الصف الخامس بعد . والمعلم الآخر بعيد جداً . لم يرغب في القيام والسير حتى الناحية الأخرى . قد يراه المدير ، وذلك يعني الشرح الكثير . تطلع الى الرسالة بغضب . كان الصبي سيد الموقف . فهو يعرف الاَّ أحد يستطيع الرد على هذا الاتهام . لقد كان اتهاماً . فحين تخبر أحدهم انك تعرف أخته معرفة معينة تسير الأمور سيراً سيئاً بعد ذلك دائماً . فالصبيان لا يحبون فكرة الحكي عن أخواتهم . هم يحكون عن أخوات غيرهم من الصبيان . إلاّ أنك يجب ألاَّ تحكي

أي كلمة عن أخواتهم إطلاقاً . ذلك يجرح . إنه يجرح كثيراً . كان الصبي يعرف أنه قد جرح ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يتوقف عن مواصلة الجرح . أنا لست سيِّئا كصهر . في التحليل الأخير ، هل تملك شيئا لا أملكه أنا ؟ لدي الذكاء والجمال . ماذا تريد أختك أكثر من ذلك ؟ أستطيع أن أوفر لها كل شيء . كل شيء . لن ينقصها شيء معي . همس برقّة . اشتاط الجار غضبا . راقب الرسالة تحت الدُّرج . كان الصبيان يتهامسون . بدا كأن لا أحد يلاحظ ما يجري بينهما . كان صبيان الصف الخامس الآخرون منهمكين في محاولة اكتشاف من هو ملك الظل . كان الحديث دائراً . وما كل هذا الكلام عن العبودية ؟ راقب الرسالة بدقة . ظهر أن أفكار الصبي شاردة . الآن حانت فرصته . عليه أن يخطفها . الآن سيعرف لمن هي . هل هي من أخته ؟ يشك بذلك . انها من معلم إلى آخر . إنه متأكد . لقد طلب منه معلم الصف الخامس على الأرجح أن يسلِّمها الى المدير . كانت الاقتراحات تقفز وحشية في رأسه ، الآن سيعرف . تقافزت الكلمات متصادمة . أخت . معلم . من معلم إلى معلم . أخت . من معلم إلى معلم . تملكه الغضب وحب الاستطلاع . من معلم الى معلم . حاول أن يخطفها . حصل سقوط على المقعد أحدث ضجّة .

لقد رأى المدير ذلك . رفع بصره عن دفتره الأسود الصغير باحثا في زوايا المدرسة عن معلم الصف الخامس . سار الصبي بطيئا حاملا الرسالة . سلَّمها ، فأشار إليه المدير أن يعود الى مقعده . استقرت الرسالة على المكتب . لم يكترث أحد بما حدث . لقد رأوا الصبي يسلم الرسالة ويعود . لعلها رسالة أخرى من تلك الرسائل . من أحد المعلمين إلى المدير . علا الهمس كأنه صلاة يتلوها كل من في الكنيسة بهدوء .

أغلق المدير الدفتر الأسود الصغير وفتح المظروف . سقطت منه صورتان شمسيتان . زُمَّت شفتاه كما تزم الشفاه بعد أن يتناول المرء جرعة من زيت الخروع . فأنت تنتظر بملامح يغشاها الامتعاض المحيِّر حتى يتم تطهير ذلك الشيء غير المرغوب الذي لا يسمَّى . لم يستطع أن يفهم ما قد حدث . تطلع بإمعان ! وأشاح ببصره ، ثم تطلع من جديد . زيت الخروع . أنت لا تريد أن تتجرعه . لكنهم قالوا إنه مفيد . كنت مضطراً أن تتجرعه . لقد أصبحت الآن

تعاني آلاماً في المعدة ، وستبقى كذلك حتى يتم التطهير . نظر الى الصورتين . كانت أولاهما صورة زوجته تجلس في جوار رجل لم يستطع التعرف إليه . كان وجه الرجل مدفوناً في حضنها وهي تكسو مؤخر رأسه وعنقه بقبلة . رمى الصورة بسرعة والتفت الى الثانية التي أظهرت رجلاً وامرأة من البيض . كان واثقا أنها لم تلتقط في الجزيرة . ذلك مستحيل . كانا عاريين ومتخذين وضعاً بذيئاً . زيت الخروع ! زيت الخروع ! وكان على ظهر الصورة التي تضم زوجته ملاحظة تقول : « أرجو ألاّ يرى الرئيس هذه ، يا بربارة » . وكانت الملاحظة الأخرى في مثل قصرها غير أنها قد كتبت بالقلم الرصاص بخط كأنه مطبوع بحيث لا تكشف الحروف عن هوية صاحبها : « كما كنّا مساء أمس ، ستيفن » . حافظت الشفتان على زمتهما المتعضة . بدا كأن هذه الزمة ستكون دائمة . زيت الخروع . متى يأتي التطهير ؟ يا لهول إخفاقه في المجيء ! جلس المدير ورأسه بين يديه يتحرّى الاسم « ستيفن » أي « ستيفن » تراه يكون ؟ فمعلم الصف الرابع ومعلم الصف الخامس يحمل كلاهما الاسم الأول نفسه ؟ ولم تكن الصور والملاحظات المكتوبة مساعِدة . لم يكن واضحاً غير شيء واحد فقط هو الاسم الذي كتبه معلم الصف الرابع على أحد جانبي المظروف : السيد « سلايم ». قرأ المدير الاسم مرّة ثانية ، وأثناء هذه القراءة ظهر كأن جزءاً آخر منه يبني الحُكْم . ثم نظر في اتجاه الصف الخامس ولاحظ أن السيد « سلايم » غائب . تمَّ إصدار الحكم .

تهامس الصبيان . الملك الظلّ . البنسات . العبوديّة . لم يدركوا ما حدث . كان المدير يجلس ورأسه بين يديه كما سبق له أن جلس مرّات كثيرة . لا بد أنّه يفكر في الصبي الذي ضربه هذا الصباح . ظهر كأنه لم يعد واثقاً بنفسه بعد أن ضرب ذلك الصبي . كانوا يهمسون . سيكون كل شيء على ما يرام . سيحاولون عمل البنسات بعد عودتهم إلى البيت . ولا داعي للقلق بشأن المرأة العجوز التي تحدثت عن العبودية. كانت تهذي ، تلك المسكينة . كان الصّبيان اللذان تخاصما حول الرسالة هادئين . لقد اعترف الصبي انها لم تكن من أخت الآخر ، ولكنه لم يقل شيئا عن موضوعها . لم يكن يعرف ، وقد احتفظ بجهله سراً . كان الآخر أكثر ارتياحاً . إنها للمدير . ذلك واضح . فلم تثر أي ضجة . وحين يعود معلم الصف الخامس ، سيتكلم المدير معه . سيعطيه النقود

التي طلبها . لا غرابة في ذلك . الملك الظل . البنسات . العبد . الرسالة . كان كل شيء هادئاً . الهمس هادىء . المديريجلس هادئاً . ولم يكن أحد يدرك ما يدور في رأسه . لم يعد معلم الصف الخامس بعد . رفع رأسه خلسة من بين كفيه وتفحص المدرسة . كان واثقاً ألاَّ أحد يعلم بما جرى . كانت الرسالة مختومة . وافترض ، عن حقّ ، أن الصبيين لم يطلعا على محتوياتها . تساءل برهة عن كيفية حصولهما عليها ، ثم سرحت أفكاره في اتجاه شيء آخر ، ولكنها ما لبثت أن عادت الى قضية معرفة الآخرين . لم يكن واثقاً من شعوره . كان شعوره بالراحة فورياً حين أدرك ألاَّ أحد يعرف بما حدث ، ولكنه في الوقت نفسه كان يرزح تحت وطأة المفاجأة الرهيبة لهذه المعرفة التي اكتسبها وغرابتها . لم يفكر في زوجته جدياً . سيفعل ذلك فيما بعد . أما في الوقت الحاضر ، في هذه اللحظات التي يبدو أنها تتحرك ومع ذلك تبقى ثابتة ، فقد كان همّه ينصرف إلى معرفة الآخرين . عزَّى نفسه بفكرة ألاَّ أحد غيره يعرف ، غير أن هذا العزاء لم يكن موثوقاً ، لأن المعرفة كانت لا تطاق . كانت تركض كأرنب بري في عقله طولاً وعرضاً . كان الصِّبيان يتهامسون ويبدون سعيدين في همسهم . لم يعد معلم الصف الخامس بعد ولكن الآخرين كانوا يتلهَّون بطريقة أو أخرى . في هذه الخلفية كان وحيداً مع هذه المعرفة بما حدث . تمنَّى أن يعود المعلم . سيكون لديه شخص يشترك معه في هذه المعرفة . ثم فجأة تمنى ألاَّ يعود المعلم لأنه كان يخاف مما قد يقوم به . ما تراه يعمل ؟

طرح السُّؤالُ نفسه للمرة الأولى . عالجه بسطحيَّة وتشويش . فقد عاد ذهنه إلى موضوع معرفة الآخرين من جديد . كان يعلم ألاَّ أحد قد اطلع على ما تحتويه الرسالة ، لا أحد في المدرسة . كان يعلم أنهم لا يعرفون ، وكانت تلك المعرفة المزدوجة تخيفه . لم يكن يعرف ما يفعل بها . كانت مثل قرح يلهب جلد الرقبة حيث تحتكُّ القَبَّة به . هذه المعرفة بأن الآخرين لا يعرفون ما يجري . فلو كانوا يعرفون ، لو عرف أنهم يعرفون ، لصرف المدرسة بسرعة وبقي وحيداً يفكر في مخرج . لكنهم لا يعرفون ، فلبث ينتظر ما قد يحل به نفسه . كان يشعر بعجز غريب يشله عن العمل . كان يرغب أن يعود المعلم ، وفي سلسلة الافكار نفسها كان يتمنى ألاّ يعود . أمسك رأسه بين يديه . كان يرغب في التفكير بزوجته ، غير

أن تلك الفكرة أكبر كثيراً من هذه المناسبة . لو أخبره أحدهم أن مثل هذا العجز الغريب الذي يشل التفكير والعمل قد تملك رجلاً في مثل هذه الورطة لكان ضحك منه . كان يظن أنه يتوجَّه رأساً إلى زوجته أو المعلم أو كليهما ، ويحاسبهما . كان سيعالج المشكلة كقضية مدرسية بحزم وتعقل . لكنه لا يستطيع الآن . جلس بهدوء خافضاً رأسه بين يديه يسمع همس الصبيان . كان يرتفع بهدوء ، وينخفض بهدوء ثم يأخذ بالارتفاع ثانية . كان ذلك أشبه بسرب من الذباب الأسرى يرتب عزاءه . كان الصبيان يتفحصون البنسات . تطلع اليهم لحظة من خلل الفسحة بين أصابعه . هم لا يعرفون . كان يعلم انهم لا يعرفون ، لكنه لم يكن متأكداً من معنى معرفته . كان الصبيان يضحكون بهدوء ، وكان يعرف أنهم لا يضحكون منه . لا يمكن أن يفعلوا ذلك لأنهم لا يعرفون ما يحدث . فكَّر أن يدعو الصبي الذي سلمه الرسالة . لعله يخبره كيف حصل عليها . رفع رأسه ثم خفضه ثانية . لن يدعو الصبي . لقد رأى ما في داخلها وهذا هو كل ما يهمّ . قد ينتاب الصبي حب الاستطلاع . كان يبحث عن ما يعمل . لم يكن يعرف ماذا يفعل ولكنه كان يعرف أن عليه أن يفعل شيئا . تمنى أن يعود المعلم . من الواضح أن المعلم لا يعرف ما قد حدث . لا يمكن أن يكون على علم بأن تلك الرسالة قد سلِّمت اليه . لو يعود فسيدعوه إليه . سيطرح عليه أسئلة قد تساعده في فهم العلاقة بين زوجته وهذا الرجل . رفع رأسه ثم خفضه ثانية بسرعة . لا شيء هناك حتى تفهمه . من الواضح أن هناك علاقة قائمة بينهما . « إياك أن يعرف الرئيس » . كرَّر الكلمات . مركزاً على الرئيس . لا حاجة الى المزيد من المعرفة . عليه أن يفعل شيئا . غلى غضبه لحظة وفار ، ثم اندفن عميقا في داخله بمثل السرعة التي ثار فيها . إنه لا يستطيع حتى أن يغضب مدَّة طويلة كما يشاء . ماذا عساه يقول لزوجته ؟ ذلك أمر أكبر من أن يعالجه الآن . عليه أن يتعامل مع المعلم اولاً . فالمسألة بينه وبين زوجته هي مسألة خاصة . ولكن المعلم يوسع نطاقها . فالمعلم قد وسَّع الحدود لتشمل المدرسة ، والصبيان ، والقرية نفسها . ماذا عليه أن يفعل ؟ فرك عينيه بقبضتيه وتطلع خلسة من خلل الفسحة بين أصابعه . يا له من يوم مشؤوم . ذلك الصبي الذي ضرب ، والآن هذا المظروف . شعر بالخوف مما قد يحل بعد ذلك . هذا شعور لم يسبق له أن شعر به . سيحدث شيء . شيء أنت متأكد من حدوثه ، ولكنك لا تستطيع التنبوء به . حاول أن يتذكر بما كان

يفكر حين حاول الصبي خطف المظروف فرآه . لم يستطع . ظهر كأن ذلك الجزء من نفسه قد انتهى . لم يكن يعرف ماذا يفعل الآن . أو ماذا سيحدث بعد دقيقة أو دقيقتين ، ولكنه كان واثقاً أن شيئاً سيقع .

كان شيء ينخره . منذ دقيقة واحدة كان قوياً وصلباً . والآن يجري نخره . كان غير قادر على الفعل ، لأنه لم يكن يدري ما يفعل . حاول أن يفكِّر فيما يمكن أن يفعل . لم يكن الحال هكذا دائماً . كان يملك ، في ما مضى ، الردَّ الجاهز ، والكلمة أو العبارة المحبوكة ، والوجه المهذَّب . كان يملك هذه الأشياء دائماً جاهزة لأي مناسبة كانت . لقد استخدمها ضد المعلمين ، والقسس ، والمفتِّش . كانت هذه هي الأمور التي عليهم أن يتعاملوا معها . والآن انسحبت هذه الأشياء . لقد أصبحت جميعها غير عمليَّة . أصبح الوضع تقريبا كأنه عاد صبياً من جديد . كان كمن يمر في فترة صحو صافٍ وظنَّ أنه رأى ، لأوّل مرَّة، كل ما فاته خلال تراكم السنوات . كان كل شيء سهلا وثابتا ونظيفا إلى أن رأى الصور . والآن انقلب العالَم رأساً على عقب . ما أشبهه بصبي صغير يحاول أن يستجدي وقتاً ليحضِّر جوابه . لقد ضرب ذلك الصبي هذا الصباح كما يتوجب على مدير المدرسة أن يضرب صبياً . لقد قابل المفتش كما يتوجب على مدير المدرسة أن يقابل المفتش . لقد تكلم واشتغل كما يتوجب على مدير المدرسة أن يشتغل في عيد الامبراطورية . لقد قام بذلك اليوم كما كان يقوم به منذ سنوات . كان ذلك سهلاً مثل تحريك يدك على ياقتك . تمَّ التفكير به وتأديته في اللحظة نفسها . الآن ضاعت طلاقة الفعل تلك . لقد نخره شيء . ما أشبهه بمجنون يدَّعي بانفعال أنَّه بقي في عمر واحد طيلة حياته . لم يدرِ ماذا يفعل . كان ذلك لا يطاق . نظر في اتجاه الصف الخامس ، ولكن المعلم لم يعد . خفض رأسه وحاول أن يفكِّر . لا شكَّ أن نسيان القضية كان ميسوراً . لا أحد يعرف بأمر المظروف . لا أحد إلاَّ هو والمعلم . كان بإمكانه أن يتخلص من المشكلة بسهولة لو كانت تتعلق به وبالمعلم ، لا بزوجته . كان من الصعب جداً أن يتركها خارج اعتباراته . كانت هي فكرة أكبر من المناسبة . فإن هو لم يفكّر بها بعد ، فالسبب ـ ببساطة ـ هو أنها كبيرة جداً . لقد وجب إبقاؤ ها حتى النهاية . سيتحدث والمعلم . سيحاول التخلص من ذلك أولا . سيطلب منه تفسيراً ،وينذره بألاّ يحدث أي شيء من هذا القبيل ثانية مطلقاً .

تشتّتت أفكاره .

ليس ذلك ممكناً . لا يستطيع أن يلتزم بمعلم بهذه الطريقة . يعرف ماهيَّة المعلمين . لا تستطيع أن تثق بمرؤوس . لم يكن يعرف ما إذا كان هذا المعلم قد اتخذ من القضيَّة نكتة . قد يروي الحكاية بأكملها للآخرين . كان المدير في ورطة . لم يدرِ ما يعمل بشأن تلك المرأة ، زوجته ، لذلك طلب إغلاق الموضوع . لا يستطيع أن يخاطر بهذا إنه يعرف المعلمين . لقد كان هو نفسه معلماً . لقد هجر خطة العمل تلك . مهما يفعل ، عليه أن يتذكر أيضاً ما هو واجبه . إنه ليس مجرد معلم في تلك المدرسة . إنه معلم القرية . لا يستطيع أن يشجع ذلك النوع من اللاَّأخلاقية الذي يمثله المعلم . في القرية يثقون به . يطلب القرويّون البسطاء نصيحته في كل الأمور . الزواج ، والدين ، والخطيئة ، والعمل . . . كان يقول لهم ما يفعلون وكانوا يتبعون نصائحه دون استثناء . كانوا يلتمسون العذر لعيوبه كالشرب مثلاً . لقد تقَبَّلوا ذلك على أنه أمر مسموح به لمن كان في مركزه ، ولكن لا دخل له في عمله . ولا دخل له في احترامهم له . لقد احترموه كما يحترمون من يعرف عاداتهم . لقد شبّ في القرية . صبيّ فقير عمل جيّداً ونجح . كان محبوباً كمعلم مساعد . نال رضا السلطات ، ونال إعجاب القروِّيين . لقد قرأ الكتاب المقدَّس في الكنيسة الكبيرة ، وقام بدفن الموتى أحياناً . لقد أحبَّه القِسُّ المشرف . كان رجلاً معروفاً بهذا المعنى البسيط . لم يكن لدى القرويين أي قوَّة . كانوا ضعافاً في كل شيء باستثناء ثقتهم . وهُو لا يستطيع أن ينسف تلك الثقة . فلو علموا أنه عالج لاأخلاقيَّة هذا المعلم بليونة لاختلف موقفهم تجاهه . هذا غريب . إنهم يحترمون أقصى الاحترام كل ما يخالفون . فالكثيرون منهم لاأخلاقيون على شاكلة هذا المعلم ويمثل ممارسته ، ولكنَّ الظاهر أنهم يعتبرون لاأخلاقيتهم عادة سيِّئة . ذلك أمر يختص بهم وحدهم . أما حيث تثبت لاأخلاقية شخص كالمعلم ، بالممارسة ذاتها ، فإنهم لا يغفرون . ويمثِّل مدير المدرسة في القرية المثال الذي لا ينال. كان عليه ان يعيش بطريقة تنال اعجابهم واحترامهم ، ولكنهم لا يبالون كثيراً باتباعها . لقد قبل بالمسؤولية التي تساير احترامهم اللاّمتناهي ، ولا يستطيع أن ينكرها الآن . فلو فعل ذلك لوجب عليه ان يعترف انه جبان او منافق. لقد أعطاهم الانطباع بأنه كل ما يتوقعون منه ان

يكونه . لو فشل في أن يعيش محققاً لتوقعاتهم لتحوَّل فوراً إلى واحد منهم .

كان كل شيء بسيطا إلى أن رأى الصور . التعليم ، والأكل ، والحب ، والكراهية . قام بها جميعاً بنوع من الاعتياد . الآن عليه أن يقرّر . عليه أن يفعل شيئا ، ولم يكن يدري ما هو . هزَّ رأسه بين يديه وتساءل . هل الأمر كذلك بالنسبة للآخرين ؟ هل تحصل هذه الأشياء للآخرين ؟ لقد واصلوا حياتهم ، بسلاسة ونظافة كما يسير القطار على خط سكَّة الحديد . وفجأة تبرز هناك عقبة . إختلَّ شيء أدَّى الى نوع من الانفجار في الرأس وخلق من الأشياء التي كانت عادية مألوفة حتى السَّاعة صعوبات شاقة هائلة ، ترى ماذا يفعل .

هزَّ رأسه ثانية . تمنَّى ألاَّ يحلّ أمر مشابه لذلك بأي من هؤلاء القرويّين البسطاء . أبداً . فإذا كان هو ، مدير المدرسة ، مدير المدرسة العظيم ، كما يعتبرونه ، لا يستطيع مواجهة هذه الحال الطَّارئة ، فكيف يستطيعون هم ؟ كيف يُتَوقَّع من قروي أن يملك استجابة جاهزة ، وتكتيكا جديداً لمواجهة مشكلة لم يسبق لها أن ظهرت أبداً ؟ شيء كبير ، شيء ينخر جذور الحياة مثل هذه العقبة بدا كأنه ينخر ثقته بنفسه . تركَّز ذهنه في المشكلة ثانية . ترى ماذا يفعل ؟ لقد قرّر مرَّة أخرى . سيرفع تقريراً حول الأمر إلى المفتش . توصَّل الى ذلك القرار بمنتهى اليأس . إنه آسف ، ولكنه لا يملك أن يفعل شيئا . كان يعرف ما سيقوله المفتش . لا شكَّ في ذلك . لقد عاش معلم الصف الخامس آخر أيام بحبوحته . فالمخالفة التي من هذا النوع لا تقوَّم إلاّ بنوع واحد من العقاب . فكَّر لحظة برد فعل المعلم . لم يستطع أن يمنع نفسه ، لم يستطع أن يمنع أفكاره من الشرود . بدأ يفكر بالآخرين بطريقة لم يسبق له أن اتبعها . لعلَّ هول معرفته الرهيبة هو الذي جعله يضع الآخرين ضمن حدود قراراته . فكَّر بالمعلِّم . تطلَّع صوب الصف الخامس . ولكن المعلم لم يعد بعد . ماذا عساه يقول للمفتش ؟ كان القرار صعباً . لن يكون المعلم وحيداً في العقاب . لقد كان متزوجاً . له زوجة وثلاثة أولاد . عليهم أن يشتركوا معه في ذلك العقاب . كان يعرف هذا القدر عن حياة المعلم الخاصة ، وقد حملت هذه المعرفة في طيَّاتها نوعاً من الإدانة . بأي حق يفكر هذا الشاب في إقامة علاقة مع أية امرأة أخرى ؟ إنه يستحق أي حكم يصدره المفتش . الطرد . لن يكون أقل من الطرد . كان واثقاً . وكان واثقاً أنه يستحق

ذلك . فكر في الصور وحاول برهة أن يفكر في زوجته . ولكنها كانت تبدو دائما أكبر من المناسبة . يجب أن تترك حتى النهاية . سيخبر المفتش .

لقد قرَّر . شردت أفكاره ثانية . لقد تمسَّك بقراره إلى أن تذكر زوجة المعلم وأولاده . فطرده يشمل زوجته وأولاده ، ولم يكونوا بأي حال مسؤولين عن خطأ المعلم الفادح . لا علاقة لهم بذنبه . ومع ذلك عليهم أن يتقاسموا معه ما سيحل به من سوء . لا يستطيع تنفيذ ذلك القرار . لا يستطيع . فعقاب المعلم سيكون عقاباً لهم أيضا . لا يطيق التفكير بذلك . لعل من الأفضل التغاضي عن القضية . سيتغاضى عنها . شرد فكره ثانية . لا يستطيع . سيرفع تقريراً إلى المفتش ، ولكنه سيعرض القضيَّة عرضاً متساهلاً . وسيطلب من المفتش أن يعالج القضية بتساهل . سيجعل من هذا المعلم مَثَلاً وهذا نوع من العقاب يستثني الزوجة والأولاد . وربما كان لذلك أثر في ترقيته . ولكن ذلك أيضا قد يؤثر على زوجته وأولاده ، ولكنه أثر أقل سوءاً. فكّر من جديد . لا يمكنه أن يضمن المفتش . لا يمكنك أن تعرف أبداً . إنه لا يثق في المفتش . لا يثق في الابتسامة الناعمة النظيفة . لم يكن يعرف ماذا قد يفعل المفتش . فلا نفوذ له في مثل هذه القضايا . قد يمدحه المفتش . وقد يفضح السر ، لا يمكنك الوثوق به . فقد كان متعالياً في القضايا المتعلقة بعمله . لن يستشير معلم مدرسة أو يتأثر برغباته . كلهم كذلك . كل المسؤولين الرسميين الإنجليز هم كذلك . كان يعرفهم . يعرفون كيف يسيِّرون الأمور . يعرفون كيف ينجزون أعمالهم . يبتسمون . كانوا متمدِّنين . كانوا يتصرفون تصرفات لائقة مع من يعملون معهم . ولكنهم لا يمخضونهم الثقة إطلاقاً في أي قضية تختص بعملهم . فهؤلاء الرسميون الإنجليز يملكون حسّاً غير إنساني تقريباً فيما يتعلق بالمسافة المناسبة التي يجب المحافظة عليها في العلاقة الإنسانيَّة . فطريقة إصغائهم تلفت الاهتمام . لا يمكنك إطلاقاً أن تقول إنك حائز على ثقتهم . إطلاقاً . كانوا يصغون ، وهم أثناء إصغائهم ، يتعلَّمون . وفي مثل هذه القضيَّة هو يناصر المعلم . ولو حاول ضمان مصلحة المعلم ، فسيجد حتماً أن المفتش ضدهما معاً . لا يمكنك أن تعرف أبداً . فلم يبد من هذا المفتش ما يدّل على اختلافه عن أولئك الذين عرفهم في الماضي . فكر في عائلة المعلم ، وهز رأسه من جديد . سيتغاضى عن القضية . من أجلهم سيتغاضى عنها .

حدَّد عقله المشكلة بدقَّة أكثر الآن . لقد بدأ يرى الأمور بوضوح أكثر . هل يستطيع أن يثق في المعلم حقاً ؟ هل يستطيع أن يأمل حقاً أن تنتهي القضيَّة عند هذا الحد ؟ هل من المأمون أن يثق بشخص على مثل هذه الدرجة من عدم الاستقرار العاطفي ؟ قد يحدث ذلك مرة ثانية. قد تنشأ صعوبة مماثلة مع معلم آخر. ما عساه يفعل حينذاك؟سيكون عليه أن يتصرف في ضوء قراره الرَّاهن. فما يصلح لواحد يجب أن يصلح للجميع . ويجب أن يفكر بنفسه قبل كل شيء آخر . قوته في القرية . سلطته في المدرسة . ماذا يفعل ؟ أصبح ذهنه أكثر تشتّتاً الآن . لقد أصبح أبعد كثيراً عن التوصل إلى قرار ممَّا كان حين بدأ التفكير في قرار . اختلس النظر من خلل الفسحة بين أصابعه ورأى الصبيان . كانوا يهمسون مسرورين . لم تكن لديهم أدنى فكرة عما يحدث . هل الأمور على هذه الصورة بالنسبة لغيره ؟ تفيض الحياة سعادةً أو غباءً كالبحر ، بينما هنا ، في بقعة معينة ، كان شيء هائل يحدث . ارتفع الهمس بثبات . كان أحد الصبيان يشرح ، هنا الملك . الملك يعيش هنا . والملكة تعيش هنا . ارتفع الهمس . في غرفته ملك الظل . . .

أطلق صفارته فحلَّ السكوت كرجل ذي سلطة يتفحص الغرفة . ورحل بالسرعة نفسها .

* * *

أنا أعرف ما هو ، كان أحد الصبيان يقول ، أنا أعرف ما هو . كان يتكلم بطلاقة . المرأة العجوز ليست بلهاء مسكينة . انها تعرف عما تتحدث . كانت عبدة . نحن جميعاً عبيد . لقد حرَّرت الملكة بعضنا ، ولكن معظمنا ما يزال عبداً .

أصغى الصبيان بانتباه في حين ارتفع الهمس في زاوية أخرى . جلس المدير هادئاً ، وقد التصقت يداه بجبهته .

لم تكن بلهاء ، تلك المرأة العجوز . لديها ذاكرة جيدة . فحين طُرِد إبليس ، أي الشيطان ، حين طرد الشيطان من حديقته ، أخذ معه ملائكة كثيرين . فقد قال الملائكة الذين أيدوه إنهم سيذهبون معه ، وقد تركوا السماء إلى الأرض . وهذا هو المكان الذي نعيش نحن فيه الآن . كان مشهداً رهيباً كيف

هجروا تلك الحديقة . لكنهم قالوا إنهم لا يبالون . سيدبِّرون أمورهم جيداً بدون الله . أصغى الصبيان . كان كلامه أشبه بدرس من دروس مدرسة الأحد . هبطوا إلى الأرض ، تابع الصبي كلامه ، واستوطنوا وسكنوا هنا في الأرض . لكن ذلك لم يدم طويلا . فلقد كانوا معتادين جداً على الحديقة بحيث لم يتحمَّلوا البعد عنها ولم يستطيعوا نسيانها . ظنوا أنهم يستطيعون ، لكنهم كانوا مخطئين . كانت الحديقة مثل شيء في الدم . فحين يكون شيء في الدم لا يمكنك أن تتخلص منه إلاّ إن تخلصت من الدم . لم يستطيعوا أن يتدبروا أمورهم جيداً في الأرض لأنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من الحديقة . كانت الحديقة في أذهانهم طوال الوقت . حاولوا أن يديروا لها ظهورهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يديروا ذاكرتهم . كانت مغروسة فيهم عميقا ، عميقا . وبعد ذلك أصبحوا حزانى جداً . لم يعودوا يتحملون بعضهم بعضا . كان منظر كل منهم في الأرض يبعث المرض في الآخرين . ولم يمض وقت طويل قبل أن يبدأوا القتال فيما بينهم . كان ذلك بداية الحرب . لم يتحمل ملائكة الشيطان ، وهم الرجال الأوائل ، أن يرى واحدهم الآخر في الأرض . كان ذلك خارجاً عن إرادتهم . فلم تكن القضية أن كلا منهم يريد أن يقتل الآخر . لم تكن كذلك إطلاقاً . لقد كانت ببساطة أنهم لم يعودوا يتحملون وكان الأمر خارجاً عن إرادتهم . ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف الحرب أبداً . لقد أورثونا إياها من جيل إلى جيل . وكلما كبرت الأرض سناً ازدادت كراهيتنا لمرأى بعضنا بعضاً . فازدادت الحرب اشتعالاً . قال بعض الملائكة إنهم سيرجعون إلى الحديقة . وامتلأ آخرون خجلاً . وقال الشيطان إنه يفضل أن يموت قبل ذلك . يفضل أن يموت قبل أن يرضخ للعودة . لكن الله لم يقبل أن يرجعهم . قال إنه لن يعيدهم قبل أن يتوبوا كلهم . كان عليهم أن يقولوا إنهم آسفون . كان عليهم أن يصبحوا عبيداً بطريقة ما . كان ذلك حسناً بالنسبة للذين لا يريدون البقاء في الأرض . استطاعوا القيام بذلك بمنتهى السهولة ، ولكن الآخرين وجدوا ذلك صعباً جداً . لم يستطيعوا القيام به بسهولة . كانوا عبيداً . وسرعان ما أصبحوا كلهم عبيداً . فكما ترون ، كانت الرغبة في الخروج من الحديقة دفينة في أعماقهم . لقد أرادوا أن يروا أشياء جديدة ، أشياء مختلفة . لكن عندما رأوا تلك الأشياء لم يستطيعوا تحمّل ذلك . لقد زوّدتهم المعرفة بأن هناك أشياء أخرى بنوع من الفرح . فإن طردهم الله مرة ثانية سيكون لديهم مكان

يذهبون إليه . لكنهم كانوا خائفين . فهم لم يتحمَّلوا الوحدة في الأرض . أرادوا شيئا يلوذون به . واتفقوا جميعاً على العودة . قالوا إنهم سيتوبون ويعودون . وكانوا في غاية الخجل . كانوا خجلين لأنهم لم يرغبوا حقاً في التوبة . شعروا أن بإمكانهم تدبير الأمور . ولكن المشكلة هي الحديقة . لم يستطيعوا أن ينزعوا الحديقة من أذهانهم . وكلما ازداد تفكيرهم في الحديقة ، ازداد خجلهم وازدادت توبتهم . صاروا كلهم عبيداً . وقد جعلونا عبيداً أيضاً . لقد حرَّرت الملكة بعضنا لأنها جعلتنا نشعر أن الإمبراطورية أكبر من الحديقة . هذا هو ما قصدته المرأة العجوز . لقد حرَّرت الملكة بعضنا بطريقة ما . لقد بدأنا نفكر في الإمبراطورية أكثر مما نفكر في الحديقة ، ومن ثم لم يعد شيء يهم سوى الامبراطورية . ولكنهم جمعوا هاتين الاثنتين معاً الآن . الامبراطورية والحديقة. علينا أن نتحدث عنهما بطريقة واحدة . فهما تخصّان شخصا واحداً . كلتاهما تخصَّان الله . فالحديقة هي حديقة الله والامبراطورية هي امبراطورية الله الوحيدة . وكلتاهما تعملان معاً لصالحنا . وليحفظ الله الملك الذي سيساعدنا حتى نرى الحديقة ثانية . هذا كل ما يجب أن نفكر فيه الآن ، الامبراطورية والحديقة . لكن المرأة العجوز لم تكن مخطئة . نحن عبيد . ما تزال عبيداً لهاتين الاثنتين . الامبراطورية والحديقة . ونحن سعداء في كوننا عبيداً . فذلك ليس مثل أن تكون سجينا . لا أحد يريد أن يكون سجيناً . فأنت لست حراً حين تكون سجينا . لكنَّ الأمر مختلف حين تكون عبداً . فحين تكون عبداً للامبراطورية والحديقة في وقت واحد ، يمكنك أن تكون حراً في الانتماء لكلتيهما . ويمكنك أن تكون حراً في أن تخجل لأنك لا تفكّر كفاية فيهما . فكلما ازداد تفكيرك فيهما ازداد خجلك ، وكذلك كلما قلَّ تفكيرك فيهما ازداد خجلك . لقد شرحت أمي ـ وهي معلمة في مدرسة الأحد ـ كل ذلك جيداً . وهي تقول لي ، ألاَّ شيء يمكننا أن نفعله سوى أن نفرح بوثاقنا . هذا هو الاسم الذي تدعوه به . فهي لا تقول عبداً . بل تقول وثاقاً . وحين يحين الأوان سيتم تخليصنا من الوثاق بفضل ما تسمِّيه النعمة . وهي لا تتكلم عن فتاة . بل عن شيء آخر . إنه نوع من الخلاص . هذا ما تقوله أحياناً . الخلاص عن طريق النعمة . سنعود كلنا إلى الحديقة ثانية ، أحراراً من جديد وخصوصاً أولئك الذين انتموا ، هنا في هذه الأرض ، الى الامبراطورية ! سنصبح أحراراً من جديد . وسيفنى الآخرون . أولئك الذين يرفضون العودة الى الحديقة بسبب عنادهم ،

سيصيبهم الفناء . وليس عن طريق النار فقط . تقول أمي إنها الوحدة . سيكونون وحيدين بشكل لا يطيقون احتماله . وستصيبهم الوحدة بالدُّوار . الدوار والمرض . بسبب عنادهم . لا تستطيع أن تعيش بدون الله ، تقول أمي ، لا تستطيع إلا إن كنت مستعداً أن تصبح وحيداً ومريضا . وهذا أكثر مما يطيق الرجل العادي احتماله . أما أولئك الذين يختارون الحديقة فسيجدون الأمور مختلفة . سيكونون عبيداً حقاً ، كما تقول العجوز . سيكونون عبيداً ، ولكن كل شيء سيكون أفضل وأسهل . أسهل كثيراً جداً .

لقد أصغى الصبيان صابرين . كانوا يعرفون أن أم هذا الصبي هي معلمة في مدرسة الأحد ، وشعروا أنها تتحدث من موقع السّلطة . اعتراهم بعض الخوف . وافقوا على أنه إن كانت الأمور كما وصفها الصبي ، فمن الأفضل الانتماء إلى الامبراطورية والعودة ، في النهاية ، إلى الحديقة . وبعد تقدير كل الأمور ، لا خسارة هناك في الانتماء الى الامبراطورية . كانوا جميعاً فقراء جداً . وعلاوة على ذلك فان الامبراطورية تتيح لهم إقامة أشياء مثل العروض . كانوا يتمتعون بالعروض والأعلام والخطابات . فذلك يوفر لهم الشعور بأنهم أهم قليلا مما هم . الاستماع إلى خطاب يلقيه المفتش ! ذلك يزودك بالشعور بأنك كبير ، وحين تسير في العرض وتؤدي التحية ، فإنك تشعر كأنك جندي . جندي حقيقي . سيختارون الامبراطورية والحديقة . فلا مأخذ عليهما . بل إن كل شيء في صالحهما . الأزهار . الاعلام . البنسات .

* * *

أنزل المدير يديه ووقف . وقف وحيداً على المنصة والصفارة بين شفتيه . كان الجميع يدركون أنه قد أوشك أن يكون مستعداً لصرف المدرسة . كانت السَّاعة الواحدة ، كان الجو شديد الحرارة في المدرسة ، ولكن الصبيان أصبحوا معتادين على الحر . كانوا يمسحون جبهاتهم بأكمام قمصانهم ، ويغرفون العرق عن رقابهم من غير جهد . جلسوا بهدوء ، محاولين تجنب نظرة المدير . كان يقف وقد أدار ظهره إلى المدرسة . تطلع إلى القرية . وحين كان يتحرك كأنما هو على وشك أن يدير وجهه نحوهم كانوا يغضون أبصارهم . لا يريدون أن تلتقي عيونهم بعينيه . فهم لا يتحملون أن يتطلعوا في عينيه . لا بدَّ أن هناك شيئا متحدياً أو حميماً جداً في النظرة التي تمتد قوية ومباشرة بين العين والعين . وكان

ذلك ينطبق على الصبيان وعلى المعلمين على حدّ السواء . فقلما ينظرون في وجوه بعضهم مباشرة . وعندما يتحدثون تتواجه رؤ وسهم مستوية ، لا عيونهم . لعل الأمر كذلك مع الجميع . فقد يصدف أحيانا أن يسرح معلم ببصره شارداً في الممر حيث ينهمك أحد الصِّبيان كلية في دفاتر التمارين ، وظهره ناحية المعلم . الصبي مستغرق كلية . فهو يراقب دفاتر التمارين أو يصححها بتركيز جـدّي . والمعلم لم يلاحظه كان شيء يدور في رأسه فكان يتطلع شارداً في انتظار أن ينتهي . لكن قد يرفع الصبي بصره فجأة ، فإن التقت عينه بعين المعلم يشعر كأنما وقع في الأسر . هو لم يرتكب أي خطأ ، ولا ينوي ارتكاب أي خطأ . انما ، ببساطة ، قد رآه المعلم . لا بد أنه قد شعر ، في انهماكه ، أنه وحيد . لا يمكن أن يكون هناك من يلاحظ وجوده . ولكن فجأة ، انهار تركيزه ، فرأى أنه قد رُئي . لم يرتكب أي خطأ ، لكن ذلك لا يهم . لقد رآه المعلم . وذلك لا يحدث بين الصبي والمعلم فقط . إذ لا علاقة له بالسلطة . بل هو يحدث أيضا بين المعلم والمعلم . فقد يتجه أحد المعلمين مبتسما الى معلم آخر ويعلق أنه لاحظ أنه قد رُئي . يفعل ماذا ؟ لا شيء . لقد لاحظ ببساطة أن الآخر قد رآه . سأل ما الخطأ . كان واثقاً من أن لا خطأ هناك ، ولكنه استغرب أن يكون الآخر يراقبه . ما هي أفكاره بشأنه ؟ ويحتار الآخر . لقد رآه ولكنه لم يلاحظه . لقد رآه واقفاً هناك ، إنما لا خطأ هناك . يبتسمان ويفترقان ، ولكن المعلم الذي ظن أنه قد رئي لا يشعر بالطمأنينة . في أعماقه يشعر بعدم الارتياح . لقد رآه آخر . لقد أصبح جزءاً من عالم الآخر ، ولذلك لم يعد كامل السيطرة على عالمه . عين الآخر تشبه القفص . حين تراك ينزل الغطاء ، فتقع في المصيدة . ذلك ما يحدث دائماً . أحياناً حين تقف وحيداً في الساحة العامة حيث تقف الباصات والناس حولك يروحون ويجيئون يشترون الجوز ، يحدث أن تلتفت فينتابك الشعور أحياناً أنهم يتطلعون إليك ، ولو كنت مرهف الحساسية تتملّكك الرغبة في الاختباء . أو في السينما قبل أن تطفأ الأضواء . فانت تسير في الممر المفروش بالسجاد وكل أولئك الناس يجلسون حولك وأعلى منك ، يجلسون مرتاحين ناقدين بين آذانهم وجيرانهم . ويبدو لك كأن السينما بأسرها ، مثل الساحة العامة ، قد تحوّلت إلى عين ضخمة ورأتك ، قفص كبير أُقفل غطاؤه فأسرك . غالبا تفضل أن تنتظر في الخارج إلى ما بعد انطفاء الأضواء كلها . تنتظر حتى يسود الظلام بحيث لا يمكن لأحد أن يراك ، ثم تسير

في الممر المفروش بالسجاد ، شكل أسود بين أشكال سوداء . ذلك شعور طيّب . شيء في غاية الرّوعة يكتنف عدم تمكّن أحد من أن يراك . يمكنك أن تلوّح بيديك . أو أن تحكّ حيث شئت بلا خجل أو حرج . وذلك كالشعور الذي تحس به في مرحاض المدرسة بعد أن تغلق بابه . تصبح الغرفة الصغيرة رقعة سوداء ، وبإمكانك أن تمدّ لسانك متهكما في وجه الجدار ، أو أن تنشد بهدوء الأشعار التي تحفظها غيبا . لقد أعدت ترتيب أبياتها في ذهنك ، بحيث تنتهي كلٌّ منها بقافية مناسبة . لا يستطيع أحد أن يراك أو يسمعك . فكنت تتمتم حراً طليقاً. الأشياء التي قد تقولها وتفعلها . الأشياء التي تستطيع أن تقولها وتفعلها ! يوفر الظلام نوعاً غريباً من الانطلاق . وأنت ترغب ، سرًّا في أعماق قلبك ، لو يخيم الظّلام على الأرض كلها حتى تتوفّر لك الفرصة لتكتشف كمية الطاقة المخزونة في نفسك الصغيرة . ستتوفر لك الفرصة للإفلات من القفص . ستكون حرًّا .

ما زال المدير يدير ظهره للمدرسة ، وهو يتطلع الى برج الكنيسة . كان السكوت حاضرا في المدرسة ، ولكنه يبدو متردِّداً الآن . تحرّك الصبيان قليلاً . كان الهمس في غاية الهدوء ، يكاد لا يسمع . ظهر كأن جسد المدير يملأ فسحة الشباك حيث يقف والصفّارة بين شفتيه . كان يبدو شديد التعب . وبدا ، لوهلة ، أنه قد هرب من قفص العين . بإمكان الجميع أن ينظروا اليه ، فلا قيمة لذلك . كان ظهره يوحي بكبر غير إنساني . لم تكن عين الآخر ، في هذه المدرسة ، قفصاً بالنسبة له . بدت المدرسة صغيرة جداً . كان من الصعب جداً القول بماذا يفكر الآن . لعلّ السؤال قد التصق ببساطة في ذهنه . ماذا أفعل ؟ لم يعد معلم الصف الخامس بعد . ما عساه يقول له ؟ بدا ، وقد أدار ظهره بقوة ناحية المدرسة ، كالمستأسد . ربّما كان مستأسداً . لم تكن تستطيع أن تنظر إليه حتى وقد أدار ظهره . ليس هو شيئا تكن له الاحترام . بل هو مستأسد كبير . أنت تخاف منه . لا تستطيع أن تنظر إلى ظهره لأنك خائف . بدا في غاية التعب . ماذا يفعل ؟ ماذا يفعل ؟

أطلق الصفارة فساد السكوت التام . أطلقها ثانية فوقف الصبيان . استدار فواجههم . أطلقها من جديد فجلسوا جميعا . كانوا يعرفون الأوامر . كانوا

مدربين . لكل نفخة في الصفارة دلالة معينة ، وهم يعرفونها . كانوا مدربين جيداً . فقد حصل أكثر من مرَّة أن أعاد النفخ في الصفارة مثنى وثلاث ورباع إلى أن يفهموا ما يريدهم أن يفعلوا . كانوا يقفون ويجلسون حتى يأمرهم بالانصراف . ولم يكن بإمكانهم أن ينصرفوا قبل أن يفسّروا أوامر الصفارة بلا أي خطأ .

أطلقها ثانية ، فوقفوا جميعاً . بدا كأن الأحتفال قد انتهى . كان من عادته أن يلقي خطاباً . لكن التعب بادٍ عليه . سار حتى نهاية المنصة وتفوه ببضع كلمات . طلب منهم ألّا يصرخوا في الشوارع ، ألَّا يقطعوا الطريق قبل أن يلتفتوا يمينا ويساراً ، وألَّا يعاملوا من هم أكبر منهم بوقاحة . ثم طلب منهم ، بصوت مرهق جداً ، أن يتذكروا ما قاله المفتش . لقد سُرَّ بالعرض . ستكون باربادوس دائما انجلترة الصغيرة . طلب منهم أن يتذكروا ذلك ، ويضعوه ريشة تزين قبعاتهم . أثارت هيئته حيرة الجميع . كان يبدو في منتهى الإرهاق والحزن . وحين تكلم ظهر كأنه يتكلم بصعوبة . هناك خطأ ما ، لكن لايعرفه أحد . شعروا بارتياح غامر حين نزع صفارته من بين شفتيه وقال هادئاً : « لننشد نشيد المدرسة » .

اتخذ معلم الموسيقى موقعه على المنصة . أشار إلى المدرسة ، فارتفعت الأصوات تدريجاً . بدأوا يسيرون وهم ينشدون ، رافعين أقدامهم وفقاً للنغم ومنتظرين إشارة الانصراف . ازداد ارتفاع الأصوات مع ازدياد حماسة السير . استداروا يمينا ويسارا في اتجاه الأبواب وتوجهوا في صف واحد نحو ساحة المدرسة . وقف معلم الصف الخامس قرب الباب أثناء مرور الصفوف الأخيرة من صفه . لقد عاد لتوِّه . تطلع نحو الصف الرابع متسائلا عن السر الذي يدعوه زميله « ستيفن » الآخر ، لمشاركته به . لقد رأى محتويات جيب زميله ، غير أن الثقل الرهيب في داخله الذي كان يستعجل الإخلاء قد أجبره على الذهاب قبل الحصول على الدَّليل . ظهر هادئاً على عادته . لم يحدث أي شيء له . كان المدير يدير ظهره . كان يتطلع الى ساحة المدرسة كما يفعل دائماً حين يسير الصبيان منصرفين . سار معلم الصف الخامس نحو المنصة . كان يريد أن يقول لماذا طالت غيبته . كانت أطول قليلا من المعتاد . غير أنه لم يحل به أي مكروه . وهو لم يفقد

شيئا ولم يكتشف شيئا . انتظر صابراً حتى يدير المدير ظهره .

كانا وحيدين في المدرسة .

وفي ساحة المدرسة كان الصبيان يتفحَّصون البنسات . أصلحوا وضع قبعاتهم ورتبوا قمصانهم . رفرفت الأعلام طليقة . تمايلت النخلة يمنة ويسرة ، وظهر كأن برج الكنيسة يصغي والريح تحمل نشيدهم الجماعي عبر القرية الى البحر .

٤



الرجل العجوز : « أمي » .

المرأة العجوز : « نعم يا أبي » .

الرجل العجوز : « مرَّت سنة كاملة على الفيضان ، وأنا أقول لنفسي الآن وأنا جالس هنا كيف سيكون عند الأولاد شيء يخبرونه لأولادهم عن كيف مشت هذه البيوت كلها فوق الماء . كان منظراً لا يمكن أن يتركك أبداً أبداً سواء أردته أو لا ، كيف انقلبت المياه وتدحرجت في المجارير حاملة معها علب التَّنك وكل شيء ومهللة هلّلويّا بصوت عال » .

المرأة العجوز : « أبي » .

الرجل العجوز : « نعم يا أمي » .

المرأة العجوز : « هل تفعل هذا عن قصد ، حين تقول أشياء تربك روحي ؟ لأنك لمّا تحكي مثل ما حكيت الآن تذكرني بالأغنية التي يغنيها الأولاد ، واحد اثنان ثلاثة ، الشيطان لاحقني ، أربعة خمسة ستة ، ما أكثر حيله ، هلّلويا ، هللويا . قبل صياح الديك ، في صباح يوم الاثنين هذا المشرق الكبير كنت تقول شيئا عن المالِك وكيف أنه قد كبر في العمر ، وأنه ربما مات قريبا ، وإن كنت أنا وأنت لا نقدر أن نقول ذلك ، ثم تابعت قولك إننا لا نعرف من أي نوع من الناس سيكون المالك الجديد ، لأن « كريتون » ما عنده أبناء . قلت هذا من قبل صياح الديك ، والآن والسماء مشرقة صافية تتذكر أنك تتذكر وتخبرني عن

شيء فات ومات قبل سنة بالتَّمام والكمال . قل لي بصراحة ، يا أبي ، هل تفعل هذا عن قصد ؟ هل تفعله عن قصد ، يا أبي ؟» .

الرجل العجوز : « أنت عارفة مليح أني لست من هذا النوع من الرجال ، يا أمي . أنا لست من هذا النوع من الرجال ، ولم أكن كذلك أبداً . ولكني أرى أحياناً كيف تتغير بعض الأشياء ، خصوصاً حين لا نتوقع ذلك . نرى كيف تتغير أمام أعيننا ، وأتعجب وأسأل نفسي هل هذا التغيير للأحسن أو للأعطل . فمنذ وصلتنا الأخبار عن معلم المدرسة السيد « سلايم » أشعر بنوع من التغيير يحصل ، وأنا أشعر بذلك مع أني لا أملك الكلمات لأردّد ما في فمي . وهم يقولون إنه كان أحسن معلم في المدرسة من أولها لآخرها ، وقلبي يوجعني لما أفكر فيما سيحدث للأولاد . فليس عند كل واحد الموهبة حتى يعلِّم وكلهم يقولون بأجمعهم إنه عنده هذه الموهبة . والآن شوفي ما فعل . فتح جمعية الصداقة وبنك البنس ، وفي غمضة عين ، يا أمي ، قبل أن تقولي أي كلمة ، حلَّق بهما في نجاح كبير . قبل سنة لم نكن نسمع أبداً حتى مجرّد سماع بمثل هذه الأشياء ، والآن لا يوجد شخص واحد في كل قرية « كريتون » لا يشترك في الجمعية وبنك البنس ، في الاثنين معا في نفس الوقت . كل واحد يضع بنساته ، بنس وراء بنس ، أسبوع بعد أسبوع . والله وحده يعلم إلى أين سيوصلنا مثل هذا الشيء . وفوق كل ذلك ، شوفي ما يقول إنه سيعمل بعد ذلك . شوفي ما يقول إنه سيعمل » .

المرأة العجوز : « أبي » .

الرجل العجوز : « نعم يا أمي » .

المرأة العجوز : « خَلِّه يعمل ما يقول إنه سيعمله ، وفَّقه الله العلي القدير . أنا وأنتِ ، نحن الاثنان ، من أعضاء الجمعية وبنك البنس ، وهذا شيء نحمد الله عليه ، لأننا حصدنا فائدة منه أكثر من مرّة . حتى الآن الأمور بخير ، لكني سأقول هذا القول لا أكثر ، أنا امرأة عجوز قليلة المعرفة أو حتى بدونها ، لكن أحياناً يظهر كأن نوعا من الفهم يدخل راسي رأساً . اتطلَّع الى الخارج فوق هناك أمامي فأرى كيف تفرد الحمامة جناحيها وتطير أحسن من أي طيارة في السماء الزرقاء الكبيرة . وهذه الحمامة المسكينة ما عندها آلة ، ولا نفط ، ولا قبطان ،

يحركها من هنا إلى هناك ، ومع هذا فهي تتحرك حركات رائعة في الهواء ، حركات أروع من كلماتي أو كلماتك ، أو كلمات أي واحد من الذين يدرسون الكتب الكبيرة الضخمة . فأقول لنفسي إن أعمال الرب آيات رائعة حقاً . إنها فوق حكمة الحكماء ، وإن كان الله القدير يمد يده ليساعد حمامة مسكينة لا يهتم بها أكثر مما يهتم بروحي وروحك ، أقول لنفسي لا يوجد أي سبب حتى لا يخلصنا في الوقت الذي يراه مناسباً . وأنا أصلي أن تكون نعمة الله مع السيد « سلايم » في كل ما يعمل ولا يعمل ، لكن مع بنك أو بدون بنك ، إن ثروات هذه الحياة لا تساوي شيئا في نظر مخلِّصي . لأن هذا العالم هو شرير ، يا أبي ، شرير كثيراً . هذا كل ما عندي قلته » .

الرجل العجوز : « ربما كان ما قلتِ صحيحاً ، وربما لا . لكن كنت دائما تحكي لي قصة ، عن الرجل « موسى » يا أمي ، وكيف قام ليخرج شعبه من أرض مصر ، لما ما توقَّع أحد هذا . أنا لا أنسى أبداً أبداً أن أتذكر هذه القصة لأنك لمّا حكيت كيف جاءت الضفادع من محلّ ما جاءت لتدمّر الملك « فرعون » ، تذكرت كيف جاءت كل السَّراطين وقت الفيضان وزحفت في كل الطرق ولو وصلتنا لكنّا كلنا في رحمة الله . أتذكر هذا الهجوم السَّرطاني مليح ، مليح ، مليح ، وأقول لنفسي وأنا قاعد هنا ، لعل السيد « سلايم» هو « موسى » آخر جاء ليخلص شعبه ، لأني أعرفه من قبل أن يولد ومن بعد ، وهو يركض ويلعب هنا لابساً ثياب الأطفال . وشفت كيف كبر . ولما سمعت كيف رحَّب به الرجال والنِّساء ليلة خطب خطابه عن المستقبل وماذا وماذا يخزن لنا المستقبل وكيف ستتحسَّن أحوالنا كثيراً بعد أن يكمل عمل ما قال إنه سيعمله ، أقول لنفسي هذا هو « موسى » من جديد » .

المرأة العجوز : « أنا لا أفهم مليح ما تعني السياسة ومثل هذه الأشياء ، ولكني أعرف مليح كثير ما يعني السيد « سلايم » لمّا يقول ما يقول عن بيوت أحسن ومثل هذه الأشياء . لا يمكنك أن تتطلع فوق رأسك من غير أن تشوف السقف القديم وفيه حفرة هنا وحفرة هناك ، وهناك بعض الناس ، صدق أو لا تصدق ، لا يعرفون أبداً أين يدعسون بسبب اهتراء ألواح الخشب في الأرضيَّة ، كل هذا أنا أفهمه تماماً ، وأنا لا أحتاج كلاماً وأخباراً كثيرة حتى أقدر أن أفهم .

كل ما يقوله عن بيوت أحسن صحيح ، ولكن ليس من حقي ، يا أبي ، ليس من حقي أن أحطَّه الى جانب « موسى» ، لأن « موسى » كان مختار الله . الله نادى « موسى » من محل ما ناداه حتى يخلِّيه يعمل ما خلاَّه يعمله ، وهذا أكبر نداء يمكن لأي رجل أن يتوقعه . لكننا لا نعرف أن الشيء نفسه حصل للسيد « سلايم » مع أني أتمنى له بركة الله من أعماق قلبي . عليك أن تنتبه يا أبي لَمّا تقتبس كلمات الكتاب المقدس ، لأن الرب نفسه يقول إن البعض سيدَّعي النبوّة باسمه واسم قطيعه المختار ، لكن احذروا من مجيئهم ، عند الشيطان حيل أكثر من التي قرأ عنها « يوحنا » ؛ لهذا السبب عليك أن تنتبه كيف تذكر أسماء من اختارهم الرب » .

الرجل العجوز : « هذا الشيء مثل ذلك ، أقول لنفسي ، مع فرق أني ما عرفت « موسى » . أنا ما عرفته شخصيا ، بسبب أني ما شفته أبداً وجها لوجه ، وكلنا نعرف السيد « سلايم » بطريقة من الطرق . كلنا نشوفه . أنت تعرفين مثلي كيف كان يركض ويلعب وهو لابس ثياب الأطفال وقد راقبتِ كيف كبر وصار معلماً مهماً يحترمه كل الناس الاحترام اللازم . ولا يوجد شيء جديد أخبرك إياه لانك تعرفين . كنّا نسمع كيف يحكي الأولاد عنه ، والآن عندنا بنك البنس وجمعية الصَّداقة . ما هو الشيء الأكثر من هذا الذي نريد أن نعرفه عن رجل تربىً بيننا وعاش من يوم ليوم أمام أعيننا ؟ ماذا في رأيك دخل في رأسه حتى يترك وظيفته كمعلم مدرسة مهم ـ وأنت عارفة مثل ما أنا عارف ما معنى هذا ـ ماذا دخل في رأسه حتى يترك كل هذا ويبدأ هذا الشيء الجديد ؟ ماذا يمكن أن يكون قد أدخل هذا في رأسه حتى يعمله ، وشوفي ، شوفي الطريقة كيف ينجذب الناس اليه . لا يوجد ولا شخص لا يحترمه الاحترام الواجب اللازم بسبب ما عمله من أجلهم . فكلّهم عندهم دفتر حسابهم في البنك ، ولا يهمّ المبلغ حتى لو كان قليلا جداً ، وعندهم بطاقة الجمعية ، وكلهم متأكدون أنهم إن كانوا ملتزمين ستكون لهم جنازة لائقة محترمة لّما يأتي وقت انصرافهم من هذا العالم . وليس هذا كل شيء ، لأنه قال في الخطاب الذي خطبه في تلك الليلة كيف سيجعلنا مالكين لهذه الأرض . أنا تقريبا ما قدرت ألقط نفسي لما سمعت هذا ، لكنه شيء كبير مهم نتوقعه ، وكلهم قالوا له ، كل واحد بدوره ، وهذا هو ما يجب عليهم أن يقولوه له ، إنه

زعيمهم ، وانهم سيتبعونه حتى يموتوا . إنه زعيمهم الآن وإلى الأبد . ولمّا يحين الأوان ويصير في الإمكان أن يعيِّنوا واحداً منهم ليحكم ، سيكون هو ، ولا أحد غيره » .

المرأة العجوز : « أبي » .

الرجل العجوز : « نعم يا أمي » .

المرأة العجوز : « أنا غير مهتمة كثيراً بما قلت لأنني أعرف في أعماق قلبي أنه ستقوم العداوات إن كانت هذه نيته . هو سيجعلني أنا واياك مالكين لهذه الأرض وما قال بعد ماذا سيعمل بخصوص السيد «كريتون» . ستقوم العداوة بين الاثنين ، لأن ليس من طبع أبناء الأرض أن يقعدوا ساكتين ويتنازلوا عن كل الممتلكات بدون أن يثيروا ضجّة كبيرة حولها . أحلف لك بأن السيد « كريتون » ، مهما كان كبيراً في العمر كما تظن ، لن يقبل بهذا ، لن يقعد مكتوف الأيدي ويسمح للسيد « سلايم » أن يطرده من القرية مثل الكلب . هو أعظم من القبول بهذا ، ولو شاف أن الأمور تزيد سوءاً سيبيعها . اراهنك بحياتي يا أبي ، مثل ما أنا قاعدة هنا ، سيبيعها . ولن يبيعها لِـ « سلايم » ، ليس لأنه لا يقدر أن يشتريها ، لكن بسبب العداوة . سيبيع القرية ، يا أبي ، وسيقوم القتال والخصام من ذلك الوقت حتى تقوم القيامة ، صدقني . ليس من طبع أبناء الأرض أن يقعدوا مكتوفي الأيدي ويتخلوا عن كل شيء مثل ما يعمل المسيح لو كان مالكا وشاف المشاكل آتية . أنا أقول خلّينا نحصل على سقف مليح وهذا يفرح قلبي . لماذا لا يساعدنا حتى نحن نصلح البيت ، لا حتى نشتري الأرض . ماذا نعمل بها ؟ أعطني مأوى مليح ؛ لكن لمّا تريد الأخذ من هنا حتى تعطي هناك ، على قدر ما أحب أنا أن أملك قطعة الأرض ، فأنا أقول انتبه ، وهذا ما أقوله لكل رجل ، السيد « سلايم » أو غيره ، يفكر في عمل شيء من هذا النوع ، انتبه أين تحط رجلك » .

الرجل العجوز : « من في رأيك على حق في نظر الله ، أي واحد منهما ، السيد « سلايم » أو السيد « كريتون ؟ » .

المرأة العجوز : « ليس من شغلي أن أوجع رأسي بمثل هذه الأشياء . أنا لن

أعارض ما يقرره الله لأنه يعرف أحسن من الكل ، وما عندي القدرة على معرفة ما يعتبره الله الحق . لذلك أنا دائما أقول لك ، صلِّ ، كل ما عليك عمله هو أن تصلي ، ولتكن مشيئة الله » .

جلس الرجل العجوز قرب الشباك ينظر إلى الدكاكين وإلى الناس وهي تعبر الطرقات . وجلست المرأة العجوز وقد غاصت في كرسي كبير ظهره من الخيزران ومسنداه من الجلد ، وسرحت ببصرها عبر الباب إلى السماء . كان كل منهما يدخن غليونا مصنوعا من الطين ، وكانت أعينهما ، حين يتصاعد الدخان في نفخات رقيقة ، تمتلىء دموعاً داخل جلد جفونها المتغضن . كان رأس الرجل العجوز أصلع باستثناء خصل من الشعر الأبيض حول صدغيه وفي مؤخرة جمجمته . كان لونه بنياً جميلاً . وكان ناعماً نظيفاً . وكان حاجباه طويلين كثّين ، وقد برزت عظام وجهه صلبة عالية تحت جلده . وكان رأس المرأة العجوز أصلع تقريباً أيضاً ، ولكنها كانت تغطيه دائما بقطعة من القماش الأبيض تتهدل متثنية من أعلى رأسها وتجمعها إلى الخلف بدبوس مشبك . كانا يجلسان سوية منذ تناولا وجبة الظهر التي يسميانها الفطور . لقد أطعم الرجل العجوز الحَمام وصنع مزيجاً من الماء ودقيق الشوفان طعاماً للمعزاة البيضاء . وبعد ذلك جلسا في كرسيهما وتحادثا . لقد استرخت المرأة العجوز وغاصت في مقعدها ممدِّدة ساقيها فوق مقعد ، في حين أمال الرجل العجوز الجالس قرب الشباك كرسيه على القاطع بحيث ارتفعت رجلا الكرسي الأماميتان عن الأرض . جلسا وتحادثا طوال بقية النهار ، وكان يتخلل حديثهما وقفات صمت قد تمتد ساعة أحيانا . نامت المرأة العجوز وجلس الرجل العجوز صامتا يفكر . لقد غيّر النهار لونه بحدّة ، وتحوَّل الشَّفق المخيم فوق البيوت فجأة الى ليل . في بعض الأحيان كان أحد الأشخاص يدق على الشباك ليسأل إن كانا في حاجة إلى أي غرض ، ولكنهما في العادة يبتاعان طعامهما في وقت مبكر من النهار . كانت المرأة العجوز تخرج فتتسوق في الصباح بينما كان الرجل العجوز يعمل في فناء البيت فينظف حظيرة المعزاة ويطعم الحمام . ومرة كل أسبوع ، في أيام السبت ، كان الرجل العجوز يذهب الى البلدة حتى يجلب نقود تقاعدهما التي كانت تبلغ بضع شلنات قليلة في الاسبوع . لكن المعزاة كانت تدرّ الحليب فيبيعان بعضه ، وكان الحمام دائم التفقيس . كانا يبدوان في صحة

جيدة ، ويبدوان سعيدين دوماً باستثناء أوقات الكوارث كالفيضان .

* * *

تحت الشباك بالقرب من سلم الدرج الضيق الذي يؤدي الى الباب كانت هناك نخلة صغيرة تحمل حبات صغيرة صلبة من جوز الهند في حجم الخَرز . كانت الأغصان الصغيرة ترتفع مجتمعة في الوسط كأنها مظلة مغلقة وكانت الأوراق الكبيرة تنفتح كالمروحة . لم تكن رؤ ية الأغصان أو الأوراق ممكنة الآن في الليل . وفي زاوية فوق طاولة من الماهوغاني كان مصباح الكاز يضيء باهتا منخفضا . ظل الشباك مفتوحاً أثناء تحادثهما فكانت الريح الداخلة من الجانبين تلوِّح بالشعلة إلى الأعلى وإلى الأسفل في المدخنة . وكان الضوء يسقط باهتاً على الألواح الزجاجية التي في الباب الأمامي . وكان مدهونا على كل لوح منها من الجهة الداخلية للباب ، عصفور واقف على غصن صغير ، وكانا حين يلوذان بالصمت يغيّران جلستيهما بحيث ينظران متأملين إلى العصافير المدهونة على الزجاج . وفي الخارج كانت مصابيح الشارع المضاءة بالغاز تشتعل بخمول ، وكان الرجال يجلسون باسترخاء حول العمود ويتحدثون عن جمعية الصداقة وبنك البنس الجديدين . كانت الدكاكين ما تزال مفتوحة ، ولكنها كانت خالية من الزبائن . كان أصحابها يجلسون وراء طاولاتهم يجمعون حساباتهم ويرتِّبون العلب على الرفوف . أنزل الرجل العجوز كرسيه مستوياً على الأرضية ، فارتعش جسد المرأة العجوز التي لم تتكلم فترة لا بأس بها ، كأنما قد فوجئت . لقد صدمها الصوت المفاجىء الذي أحدثه ارتطام أرجل الكرسي بالأرضية ، فنظرت الى الرجل العجوز كأنما تنوي أن توبِّخه . كانت عيناها مرهقتين وبدا التعب على محيَّاها . أنزلت ساقيها عن المقعد وحاولت أن تجلس معتدلة في كرسيها . وقف الرجل العجوز وأغلق الشباك العلوي ثم جلس ثانية . كان يلهو بالعصا التي نزعها من الشباك . كان ينقر بها على رافدة الكرسي ويصفر نَغَما . وكانت تتطلع المرأة العجوز اليه بين الفينة والأخرى كأنما الصوت يزعجها. توقَّف ، وانتظر ريثما استقرت ثانية في كرسيها ، ثم عاود النقر على الرافدة بصورة آلية . أمال الكرسي إلى الخلف مرة أخرى ، وأخذ يبحث بالعصا عن قبقابه . دفع العصا داخل القبقاب تحت الوجه المصنوع من الخيش وسحب النعال الخشبية السميكة على الأرضية حتى أوصلها أمامه . جلست المرأة العجوز جلسة مستقيمة ومصَّت أسنانها . عصفت الريح بقوة أكبر

فانطفأ الضوء . مصّت المرأة العجوز أسنانها ثانية ، وتلمّس الرجل العجوز الكبريت في جيبه وأشعله من جديد . قلّما توبّخه ، غير أنه إن فعل شيئا لا يرضيها يتجهم وجهها ، أو هي ترميه بنظرة يفهمها ، وكان مطيعاً . كان يوقف أي عمل يقوم به ، أو ينتظر ويتحيّن الفرصة التي يعتقد أنها غير منتبهة أثناءها .

الرجل العجوز : « ترى كم الساعة الآن ؟» .

المرأة العجوز « تطلّع إن كان هناك الضوء على الهضبة » .

أغلق الرجل العجوز الجزء السفلي من الشباك وسار ومعه العصا التي نزعها منه إلى الباب الخلفي . على البعد أمكنه أن يرى بصعوبة عبر الأشجار أنوار البيت القرميدي على الهضبة . جرّت المرأة العجوز قدميها متثاقلة نحو الباب وحين وصلته انطفأ الضوء في ساحة المالِك . عادت الى الطاولة قرب كرسي الرجل العجوز وحملت المصباح . قرّبت الطاولة الصغيرة المصنوعة من خشب الماهوغاني من السَّرير ووضعت المصباح فوقها . ظل الرجل العجوز واقفاً على الباب ينظر عبر الليل المخيِّم كثيفاً وثقيلا فوق الغابة . كانت الدكاكين مغلقة والشوارع مهجورة . كان الهدوء سائداً باستثناء صفير الريح عبر الأشجار . خفضت المرأة العجوز الضوء وبدأت تخلع ثيابها . حافظ الرجل العجوز على موقعه وقد أدار ظهره ، وهو يتلمّس عن طريق أذنيه حركات الطيور في ركن الفناء . كان الحمام يتنقّل من زاوية إلى أخرى في القنّ ، فدفع رأسه الى الخارج مستشعراً سبب الإزعاج . غالباً ما كان يخرج في أي ساعة من ساعات الليل ليكتشف إن كانت الجرذان قد دخلت الأقنان ، وكان كلما سمع ضجيجها يحمل عصاه . وقف هادئا يصغي . تابعت المرأة العجوز خلع ثيابها . كانت قد سمعت حركة الحمام المتنقلة فذكرت شيئا عن كلب . عند أحد الصبيان كلب جديد يسرح في القرية ليلا . أخرج الرجل العجوز رأسه أكثر وأصغى ثانيةً . هناك شيء يقتحم السِّياج . قُذِفَ حجر على السياج فنبح الحيوان . شعر كلاهما بالاطمئنان . إنه كلب. تطلّع الرجل العجوز صوب حظيرة المعزاة وأصغى لحركات هذا الحيوان . لا شيء ، فأدخل رأسه الى داخل البيت وتابع التطلُّع إلى السماء .

بعد خلع ثوبها ارتدت المرأة العجوز قميص نومها ثم خلعت بقية ملابسها

من تحته . أدخلت يديها تحت قميص النوم تتعارك مع الدبابيس المشبك الكبيرة . أخرجتها ببطء ووضعتها على الطاولة الصغيرة . ثم وقعت الملابس الداخلية على الأرض . وضعت الملابس الداخلية تحت الوسادة وخلعت غطاء رأسها . بدت البيوت الأخرى في الليل ، من السياج إلى السياج ، كأشكال سوداء فارغة . ظل الرجل العجوز واقفاً بالباب ، يحاول أن يجمع الأشياء معاً . كانت ذاكرته أحيانا ، حين يقف بالباب في هذه الساعة ، تنتفخ فتخرج الكلمات متزاحمة . هناك أشياء كثيرة جداً يتذكرها . وقد اكتسب ، في سنواته الأخيرة نوعاً غريباً من القلق . كان يبدو أحياناً حين يتكلم في منتهى الخوف مما يستدعي أن تضع المرأة العجوز يدها على رأسه لتذكره أنه ليس وحيداً . جلست على السرير تراقبه وهو واقف بالباب . كانت دائما تكره أن يظل هناك مدة طويلة ، غير أنها كانت تحسّ أنه يجب أن يتطلع الى الليل ، ولم تكن ترغب في حرمانه من ذلك . ومع ذلك كانت ، كلما سنحت الفرصة ، تحاول أن تحوّل انتباهه عن الظلام والبيوت في الخارج . غالباً ما كان يخبرها في الصباح بأحلام غريبة حلمها ، فكانت تقول إن ذلك خطؤه . فلا حقّ يخوِّله أن يصرف الليل محدِّقاً في الظلام . كان يحلم بالفضة ولحم الخنزير وأحيانا بالأعراس ، وكانت تقول إنها جميعا سيئة . فالأعراس ولحم الخنزير في الأحلام تعني الموت دائماً ، وكانت تنذره باستمرار بأن معنى الفضة هو خيبة الأمل . لكنه كان يحلم دائما بهذه الأشياء ، خصوصاً الفضة . وقد كانت تشعر أحياناً أنه يستعمل المواد الخام نفسها لإنتاج أحلام مختلفة . قرَّبت جلستها أكثر من أسفل السرير محاولة أن تلفت انتباهه دون أن تزعجه . أَمَرَّت يدها فوق الشرشف الأبيض وما فُرِش تحته من أكياس ناشفة . وقفت ثانية لترفع قميص النوم إلى وضع أعلى حول صدرها . ظل الرجل العجوز واقفاً بالباب . كان ينقر بالعصا على الأرضية في حين كانت المرأة العجوز تتلهّى بتحريك قميص النوم . أرادت أن تناديه ، لأن الريح كانت تعصف بين الحين والآخر فتعبث بالضوء المنبعث من مصباح الكاز . سارت الى الباب الأمامي وتفحصت القفل . إنه آمن . فتحت قفل الشباك ثم أعادت إغلاقه . سمعها لكنه لم يتحرك . كان غريباً كيف تستحوذ على طاعته اثناء النهار . ما عليها غير أن تتجهم تعابيرها أو تحملق فيه ، فيفهم . غير أنها ، في الليل تمنحه نوعاً من الحرية . كانت تقنعه وتدلله ، وأحياناً ، حين يروي أشياء تثير خوفه ، كانت تمسك بيده وتصغي بهدوء . أثناء

تحركها نحو السرير اصطدمت بالطاولة فوقع أحد الدبابيس . أعادته الى موضعه ، وهزّت الوسادة .

حملت الثياب الداخلية بيديها لحظة وتمتمت بشيء ما . أعادت الثياب الداخلية إلى مكانها وتابعت التمتمة . تطلع الرجل العجوز نحوها وطلب منها أن ترفع صوتها . تطلعت الى الدبابيس ثانية ، وبدأت الكلام ووجهها الى ناحية القاطع . كان الرجل العجوز يصغي .

المرأة العجوز : « إنها القصة ذاتها ، قديمة ولكنها جديدة دائماً كيف تسير الحياة وتستمر ، مهما قالوا . من زمان كان ذراعاي كلهما قوة ، لكن الآن عليَّ أن أتحسَّس ببطء مثل الجراذين على الرف ، وسيكون الحال نفسه مع الشباب الذين بَعْدَنا . يوما بعد يوم أفكّ دبابيس هذه الثياب الداخلية ذاتها بالطريقة ذاتها ، وقلبي لا يتوجع لما أسمع كيف تقول الصبايا ماذا وماذا عندهن ، السَّحّابات واللاَّصقات والقطع على شكل «V» المصنوعة بشكل مرتفع كثير يمكنهن الدخول فيها والخروج منها بطرفة عين . في الزمان القديم ما كنّا نعرف عن مثل هذه الأشياء ، لأن ليس عدد الذين يعيشون طويلاً أطول من المقسوم كبيراً . ما تزال عيناي تفتحان لرؤ ية النور وقلبي لقبول إحسان الله » .

الرجل العجوز : « مع هذا هناك تغيير عن حق ، يا أمي . قصدي السَّحّابات واللاصقات التي حكيت عنها . هذا تغيير وبالطريقة نفسها تماماً أنا أقول لنفسي بدون أن أجرّب أن أشوّش روحك ، بنفس الطريقة ذاتها أنا أقول إنه تغيير مع السيد « سلايم » .

المرأة العجوز : « أبي » .

الرجل العجوز : « نعم يا أمي » .

المرأة العجوز : « يدخل الفرح في جسمي وروحي لو أنت دلكتني قليلا حول الضِّلع قرب القلب . الوجع يروح ويجيء مرَّة بعد مرَّة مثل عادته دائماً » .

الرجل العجوز : « أتمنى ألاَّ يكون كثير الألم ، يا أمي » .

المرأة العجوز : « لا ليس شديد الألم ، ليس أسوأ من أي مرة سابقة » .

الرجل العجوز : « لأن ما بقي عندنا دهون أدلّك لك به ، يا أمي . في الليلة الماضية خلص الزيت الشافي الكندي ، وما بقي منه ولا حتى نقطة » .

المرأة العجوز : « إذن أنتظر حتى الغد ، لكن أغلق الباب الخلفي وتعال إلى ركنك سريعا ، لأني أريد أن أطفىء الضوء » .

كانت المرأة العجوز قد تلمّست طريقها إلى ذلك الطرف من السرير الذي تدعوه ركنها . وضعت كيساً فوق قدميها واضطجعت ساكنة تنتظر حتى يغيّر الرجل العجوز ثيابه . وقف بالباب يرتجف قليلاً وهو يستند إلى عصاه . أدار رأسه في اتجاه بيت المالك وحدَّق فوق الأشجار فترة . ما يزال هناك بعض الضوء ينبعث من شبابيك البيت ، لكن الضوء في الساحة قد انطفأ . وكان الضوء في البيت ينير خفيضاً فوق طاولة الماهوغاني قرب السرير ، وقد اضطجعت المرأة العجوز ووجهها صوب القاطع بعيداً عن بقية البيت . كانت تأمل أن يغيّر الرجل العجوز ملابسه سريعاً ويأوي الى الفراش . وحين كان الألم يعتصرها كانت تفرك بكوعها البقعة المؤلمة في جانبها الأيسر . كان الرجل العجوز ما يزال يرتعش كأنما رأى شيئا في الظلام . سمَّر نظره في اتجاه بيت المالك . كان يرتعش كأنما تذكَّر شيئا . لم يكن يخاف الموت ، ولم يكن يقلق أبداً مخافة الألم ، غير أنه وقع ، في السنوات الأخيرة ، في شرك نوع من حب الاستطلاع يجعله يرتعش ويبرد . ولم تستطع المرأة العجوز أن تفهم ذلك . وحين كان يرتجف في الفراش ، ليلاً ، وهو يروي تجاربه هذه ، كانت تمسك يده وتنصت بهدوء . لا داعي للقلق ، كانت تقول ، لأن الرب يعلم أفضل من الجميع . كانت تدلك جمجمته العارية ، وسرعان ما ينامان كلاهما . أغلق الباب وعرج نحو السرير محتفظاً بالعصا ليتكىء عليها . تنحنحت المرأة العجوز وسحبت نفسها أكثر نحو ركنها . كان ضوء القنديل أكثر إشراقاً الآن ، فخفض الفتيل قليلاً . ارتجف الفتيل وانطفأ الضوء . يبدو أنه خفض الفتيل أكثر مما يجب . تنحنحت المرأة العجوز وقالت شيئا عن الكبريت ، لكنه لم ينتبه . وضع العصا على الأرض وبدأ يخلع ثيابه . تلمَّس باحثاً عن قميص نومه وخلع بقيّة الثياب في الظلام . تنحنحت المرأة العجوز مرَّة ثانية واضطجعت على ظهرها . كان السَّواد يخيّم على البيت . وضع سرواله ممدَّداً على الأرض في موازاة السرير ، وكوَّم فوقه قميصه وسترته . ثم اندسّ تحت الشرشف . كانت يداه

باردتين ففهمت المرأة العجوز ما يحدث. إنه يفكر من جديد بالمستر « سلايم » والأرض ، أو لعله قد تذكّر شيئاً حدث حين كان مسافراً في الخارج . ارتعش بهدوء في جوارها فانتظرت أن يقول شيئا . حين يعتريه الخوف سيتكلم ، وستمسك يده وتنصت بهدوء . استدار ، فأحست بجسده لصق جسدها يرتعش بهدوء تحت الشرشف . استدارت لتواجهه . وضعت يدها على رأسه ، فتنحنح وأدار نفسه مرَّة أخرى . تدفقت الكلمات من بين شفتيه .

الرجل العجوز : « هل تظنين الأمر يهمّ ، بعد كل شيء ، هذا التَّعب والجهد والكدّ من أجل هذه الحياة والحياة الأخرى . طبعا لن تقولي ذلك ، لكن يأتي وقتٌ أحيانا ترغبين فيه أن تشعري بشعور يختلف عن شعورك ، ويبدأ الشعور ببعض القلق حول ما يقوله الآخرون وما يعملونه ، وحول ما هم عليه . وأنا أتطلع فوق هناك إلى البيت فوق التلة ، وأتساءل كيف يشعر من يكون كبيرا وعظيماً » .

المرأة العجوز : « كنت عظيماً يوما ، يا أبي ، أليس كذلك ؟ كنت عظيماً مثل أي رجل يمتطي صهوة الأرض . كان عندك أموال وكل شيء آخر يقدِّمه هذا العالم ، ولذلك فليس عندك أي سبب أبداً حتى تتذمَّر . ولا سبب واحد أبداً في دنيا الله هذه . كل ما عليك هو أن ترجع بذاكرتك قليلاً الى الوراء فتتذكر ماضيك ، يا أبي ، وتسأل نفسك في أعماق قلبك إن لم يكن هذا صحيحاً . كنت غنياً ، في الماضي ، يا أبي » .

الرجل العجوز : « هذا ما أقوله لنفسي أحياناً . وأنا أجلس هنا أو هناك يخطر في بالي كيف تتغير الأشياء . كان هناك زمن تتدفق النقود خلاله مثل الطوفان بين يديَّ هاتين ، نقود تختلف كل الاختلاف عن كل ما عرفناه قبلها . كنَّا نغني في تلك الأيام الماضية أن النقود تزهر في أشجار التفاح في بَنَما . وترجعني ذاكرتي إلى بنما ، بين فترة وفترة ، حيث ساعدت بيديَّ هاتين في بناء القناة ، أكبر وأحسن قناة في العالم الواسع العريض . أنا وأختي التي ماتت . الله يرحمها في قبرها ، وكان هناك ناس كثيرون لا تحفظهم ذاكرتي . وصادف مرّة أنني كدت أربح الجائزة الكبرى في اليانصيب الوطني البنمي ، وهي تفوق كثيراً قيمة جائزة

أيّ يانصيب آخر ، وأنت تعرفين معنى هذا . لكنهم يقولون دائما إنك إذا كنت قريبا جداً من الربح ولم تربح ، فإنك ستواجه أياماً قاسية في المستقبل . لكنًا كنا عظماء في تلك الأيام ، كما تقولين . كنّا نعرف معنى ركوب العربة وكل ما يفعله العظماء علانية . كنا عظماء ، كما تقولين . كنا عظماء ، حقيقة » .

المرأة العجوز : « نحن بحاجة الآن إلى بنما أخرى للشباب . أجلس هناك أحيانا وأتساءل ماذا سيحل بهم ، الصغار الذين يكبرون بسرعة ليأخذوا مكان الكبار . نحن بحاجة الى بنما أخرى ، يا أبي ، وإلاَّ فستحل بناحيتنا أيام قاسية » .

الرجل العجوز : « هذا ما يقوله السيد « سلايم » . لقد أخبرهم منذ ليلتين أن عنده خطة في رأسه ، وإن سار كل شيء كما يقول إنه سيسير ، فإن أيّاماً زاهرة ستحل بناحيتنا . إنه يستخدم كلمة تسمّى الهجرة تعبِّر عما سيفعله هنا والآن لهذا الجيل الحاضر . وقد أعطى شرحاً طويلا كاملاً لكل ذلك ، ماذا سيحدث وماذا وماذا عليهم أن يعملوا . وهو يقول إن في هذه الجزيرة من الناس أكثر مما تتحمّل الأرض أو مما يسمح به القانون . ومن العار الفاضح المثير أن يوضع في قطعة أرض لا تزيد عن مائة وبضع أميال مربعة ، هكذا يسمِّيها ، أميال مربّعة ، من العار كما يقول ، وضع مائتي ألف شخص فيها . بعد ذلك أعطاهم كل الحقائق والأرقام مثلما يفهمها ، وبدأت رؤوسهم تسبح في الحقائق والأرقام . أنت وأنا وكلنا سوى ، هو يقول ، حين نوضع معاً مجتمعين بلا استثناء نساوي هذا المجموع من الناس ، شيء مائة ألف ، وهو يقول إن هذا الرقم رقم قياسي للسكان بالنسبة لحجم قطعة الأرض في أي مكان في دنيا الله هذه . وأكمل حديثه فقال إن الطريقة الوحيدة الممكنة لحلّ هذا الشيء هي التخلص من بعض الناس ؛ وبما أنه ليس في وسعك ولا وسعي ولا وسعه ، كما أنه ليس عدلاً في نظر الله أن نطلق النار عليهم ، فهو يقول إن أحسن طريقة هي إرسالهم إلى حيث يوجد الكثير جداً من الأميال المربعة لعدد قليل جداً من الناس يعيشون فيها . وهو ما يقول إنه سيعمله » .

المرأة العجوز : « ستكون بَنَما جديدة مرَّة أخرى . ستذهب وسترجع ،

وسيجلسون تحت عمود المصباح ليلة بعد ليلة ويتحدّثون عن ماذا وماذا كانوا يعملون . ستكون بنما من جديد ، يا أبي » .

الرّجل العجوز : « ليس هذه المرة ، هو يقول . هذه المرّة ، هو يقول ، ستكون أمريكا ، أرض يفيض فيها ، مثلما يقول ، اللبن والعسل مثلما كان فيضانهما في الزمان القديم . وأخبرهم في تلك اللحظة وذلك المكان بأخبار التاريخ الداخلي لأمريكا . لكنه ما سمّاها بهذا الاسم كل الوقت . لقبها بلقب إضافي هو ما يسمِّيه الولايات المتحدة حيث يقولون إن النقود تفيض أسرع من الطوفان . مثل بنما مضروبة بسبعة سبع مرات ، وسينتج عن ذلك ما لا يعرفه غير الله في السماء » .

المرأة العجوز : «سيكون الأمر مثل ما كان في بنما ، يا أبي . النقود تأتي والنقود تذهب ، وهي شيء يتحرك خلال أصابعك تماماً ، مثل الماء الذي تحدثت عنه . صدِّقني ، سيكون الحال مثل ما كان في السابق » .

الرجل العجوز : « هذه غلطة عمرك ، يا أمي ، سيكون مختلفاً . ستكون نقود الولايات مختلفة بسبب ما يقوله السيد «سلايم» . وهو يقول إنه لا يوجد أي شيء يمنعك أو يمنعني أو يمنع أياً كان بعد أن يحصل على المال ، لا يوجد أي شيء يمنعه من الحصول على الأرض . والوقت سيأتي بسرعة حين يملك كل واحد قطعة الأرض التي يقوم عليها بيته . هكذا يقول . وهو يتصوَّر أن الوقت قد حان لبدء العمل » .

المرأة العجوز : « يا أبي » .

الرجل العجوز : « نعم ، يا أمي » .

المرأة العجوز : « يظهر لي أنك لقيت خلاصك في السيد « سلايم » . اغتنمَ الفرصة ودخل راسك مثل ما تدخل الخمر راس السكران ، والآن بعدما سمعت النداء لا تفكر أو تقول أي شيء لا يتصل به . لكنني أقول لك ، وسأقول لك مرة ثانية ، لن أكنز الأموال هنا على هذه الأرض ، يا أبي . لن أكنز الأموال هنا حيث يقوم الفيضان دون أدنى توقع ، مثله مثل الجوع وكل الأوبئة التي ينزلها الله بالأرض . هذه الأرض مكان غير صالح لكنز الأموال . ولن أوجع رأسي

بالأرض لانها دائما همّ أكثر منها نفع ، وفي شيخوختك وشيخوختي هناك أشياء أخرى حتى نفكر فيها . فكّر بالأرض الأخرى ، يا أبي . قد تظن أني بلهاء وخرفة حين أخبرك بهذه الأشياء ، لكنني غير ذلك . وأخبِرْني ، يا أبي ، أخبرني أيضا من قلبك الى وجهي رأساً لماذا تريد شراء هذه الأرض . ماذا يقبع في قاع قلبك أو قلب السيد « سلايم » أو قلب أي واحد منهم حتى ترغبوا في ملكيتها ؟ أخبرني ، يا أبي ، هات الحقيقة » .

الرجل العجوز : « لا أعرف بالضبط ، يا أمِّي ، ولم يقل السيد « سلايم » شيئا أبداً غير أنه يشعر أنك أنت وكل الباقين العائشين هنا من زمان قديم ، حان الوقت حتى نملكها . إن كان يحق للسيد « كريتون » وكل أسلافه من آل « كريتون » أن يملكوها من زمان ، فلا سبب يمنع أن نملكها نحن . هكذا يقول السيد « سلايم » . ليس من العدل لك ولي أن نستمر سنة وراء سنة ، لسنين طويلة لا يذكر عددها أحد ، ندفع الأجرة أسبوعاً وراء أسبوع . ومع أنها أجرة بسيطة ، لانها فعلا اجرة بسيطة ، لكنه يقول هذا غير عادل . الحق والعدل ، هو يقول ، أن يملك كل شخص قطعة أرضه في يوم من الأيام . وهدف كل شخص هو أن يعمل هذا العمل نفسه ، وهو يقول إن هذه ليست طريقة الناس البسطاء الفقراء مثلك ومثلي ، بل هي طريقة تفكير الناس الأكابر أيضاً . فهم يعتقدون أن الأمان يوجب ملكيتها أيضا ، وثم هو يحكي عن تاريخ بعض الأمم ، فهم كلهم ينشغلون قبل أي شيء آخر بتملك الأرض التي يعيشون عليها أو أقرب أرض إليهم . من حسن الحظ أن يكون الرجل في القيادة يعرف عمّا يتكلم ، لهذا السبب أنا أضع بعض الثقة فيه . لأن العلم هو الذي يقوده هنا وهناك ، والذين ما عندهم علم يجب أن يظهروا الاحترام اللازم والواجب للّذين عندهم علم كثير ، والسيد « سلايم » واحد منهم » .

المرأة العجوز : « أنا أقول لنفسي ، يا أبي ، وأقول لك مراراً وتكراراً ، انك لا تقدر أن تحمل هذه الأشياء معك . أنا ما حصلت على شرف حشر أنفي في الكتب الكبيرة الضخمة التي تخبرك بكل شيء تريد أن تعرفه ، ولكنني أفهم بطريقتي الخاصة أن الإنسان لا يقدر أن يحمل كل هذه الأشياء معه . فحين نحزم أنا وإياك متاعنا ونصبح حاضرين للذهاب في سبيلنا فسوف نترك كل هذه الأشياء

التي نملكها هنا وراءنا . وغيرنا من الذين لا نعرف شيئا عنهم ولا يمكن أن نعرف لاننا أموات ، سيأتي غيرنا هؤلاء ويأخذون هذه الأشياء ، ويحتفظون بها حتى يحين وقتهم ليفعلوا مثل ما فعلنا . هذا هو ما أعرفه بدون مساعدة الكتب الكبيرة . أنت وكل الباقين تعدّون العدَّة الكبيرة الكبيرة من أجل يومكم ، ولا تفكرون أبداً أبداً ، ولا حتى فكرة واحدة ، عما سيحصل في غدكم . ولا تهتمون ، ولكن يظهر لي أن ما سيحصل غداً ، وإن كان في المستقبل ، له علاقة بما يحصل اليوم . هذا رأيي أنا . وأنا لا أهتم بمن يريد الأرض أو من أخذ الأرض ، الشعوب أو غيرها ، لكن أريد فقط أن أسألهم كلهم ماذا سيفعلون بها . حين يأتي وقتهم ليتركوا هذه الأرض هل يمكنهم أن يأخذوا معهم الأرض التي يشترون ؟ هل يمكنهم أخذها معهم إلى حفرة الأرض التي قدر طولهم . لن تستطيع أن تحملها معك ، يا أبي ، هل تستطيع ؟» .

الرجل العجوز : « أقول أحيانا مثل هذا القول لنفسي ، وليس لأي إنسان آخر . لا تستطيع أن تحملها معك ، وهذا هو ما يخوِّفني . يخوِّفني حتى الموت أحياناً . لمَّا أجلس هناك بجانب الشباك ، أو أقف بالباب في الليل ، يَركبني هذا الخوف أحياناً مثل إبليس في جهنم نفسها . فأتمنى أن أهرب . أحيانا أتكلم وأتكلم حتى أملأ الوقت ، وحتىً أصرف فكري ، بطريقة من الطرق ، عن ما أراه ، ولكنه يعود إلي كل الوقت : هذا الشيء نفسه الذي تتكلمين عنه . لا يمكنك أن تأخذ أي شيء معك ، وأسأل نفسي لماذا . لماذا لا يمكنك أن تأخذها معك ، وهل يهم ما تعمل وما لا تعمل إن كان كل شيء سينزل في الحفرة الضيقة . هل فعلا تظنين أن لا يهم ، يا أمي ؟ » .

المرأة العجوز : « لا يهم ، يا أبي ، لأن كل شيء سينتهي في الوقت الذي يحدده الله . لازم تتذكر هذا في عمق عقلك ولا تنساه أبداً . لازم تفكر في الغد ، لأنه جزء من اليوم ، وقبل ما تعمل ما تقول إنك ستعمله اليوم ، لازم تسأل نفسك ماذا سيحصل غداً . أنا أفكر في الغد ، يا أبي ، الغد حين تزول الغيوم وينادى في السِّجل وأكون أنا هناك في حضرة سيدي ومخلصي يسوع المسيح » .

الرجل العجوز : « إذن لا يهم ، يا أمي ، حقاً لا يهمّ » .

المرأة العجوز : « لا شيء يهم ، يا أبي ، غير دم الحمل المسفوك من أجل خطاياك وخطاياي . هذا هو الشيء الوحيد المهمّ . فتش عن خلاصك في المسيح » .

الرجل العجوز : « أنا ما استسلمت لشيء يا أمي ، لكنني ، مرَّات ، أقول لك الحقيقة ، أفكر كيف يكون الموت . أحياناً تركبني هذه الفكرة وتهزني كأنها رجل . يقول بعض الناس إن الشيوخ يريدون أن يموتوا لأنهم عاشوا حتى تعبوا ، وهناك بعض الناس مثلك أنت ، يا أمي ، يقولون إن الموت لا يهم لأنهم يعرفون ، بطريقة من الطرق ، ما ينتظرهم في الجانب الآخر . لمّا يفكر الإنسان بهذه الطريقة ، أنا أعترف يمكنه أن يريّح عظامه ويرتاح ولا يفكر بما يحصل أو سيحصل ؛ لكن الأمر معي ليس كذلك ، يا أمي ، ليس كذلك أبداً . أحياناً أصير خائفا جداً لمّا أسأل نفسي : وبعد ؟ ولا أجد أي جواب يساعدني . أحياناً تريد هذه الفكرة أن تلازمك مثل المرض ، والهرب منها يكون في التظاهر بعمل شيء ثانٍ . يحاول الإنسان أن يحكي عن كذا وكذا وكذا، وإن كان شاباً يخرج من البيت ويسكر ويعيش كما يعيش بقية الناس لأنها الطريقة الوحيدة للهرب ، ولكن الكبير في العمر يكتشف بعد فترة ألّا مكان يذهب اليه . وأنا أخاف كثيراً جداً ، يا أمي ، أحياناً؛ كأنَّك وضعت طفلا في الغابة وحده ثم طلبت من هذا الطفل المسكين أن يجد بنفسه طريق الرّجوع . ليست المشكلة أني خائف من الموت ، لأني شفت الكثيرين يموتون ، لكن المشكلة هي فكرة ما سيحدث بعد ذلك . وإن كان لن يحدث شيء فالفكرة الأسوأ هي كيف أن الواحد منا أقلق نفسه بسبب ما لا يعرفه . الواحد لا يقلق ، ومع ذلك لا يمكنه أن يتوقف عن القلق » .

المرأة العجوز : « لا داعي للقلق ، يا أبي ، لا يوجد شيء مهم حتى ترتجف كما ترتجف . ماذا يخيفك غير أنك قد قَسَّيت قلبك وأدرت ظهرك ؟ ماذا يخيفك في سنك هذه ؟ ما هو الشيء الذي يخيفك بهذا الشكل ؟»

الرجل العجوز : « أنا ما خبَّرتك بهذا من قبل ، يا أمي ، أبداً أبداً ، لا أتذكر أني خبّرت أي شخص غيرك أبداً أبداً . لكن ، مرَّة من زمان زمان ، في بنها ، لمست رجلا ميتا . كان صديقا نعرفه كلنا مليح ، وأنا لا أعرف ما أثارني ، لكن حين كان هو في الصندوق وما كان أحد يتطلع ، رفعت الغطاء الزجاج

ولمسته . ولما لمسته شعرت كأنه شخص آخر . صحيح أنه كان ميتاً ، وكان الجسم نفسه الذي كنت أشوفه كل يوم ، الذي كان يسلم علي بيده في الصباح والظهر والمساء ، ولكن كان شعوري ، ولا يمكن أن أفسِّره ، أنني لمست شخصا آخر غيره . لا الرجل الذي أعرفه مليح مليح . وخفت ، يا أمِّي ، خفت كثيراً بشكل ما خفت مثله أبداً من قبل . هذا الجسم الميت نفسه في الصندوق ظهر كأنه شخص مختلف . ما سبق أن خفت من قبل على نفسي كأن فكرت أني سأجنّ أو أي شيء مثل هذا ، أبداً أبداً ؛ لكن لما لمست ذلك الجسم وشعرت بالشخص الآخر صرت بارداً . ويخوّفني كثيراً أني أعرف كيف سأكون إن لمسني أي شخص وأنا ميت . ليس الجسم الميت هو ما يخوفني ، يا أمي ، بل الشخص الآخر . وانغرس في راسي أنه إن كان الشخص الذي أشعر به موجوداً في الجسم الميت ، فمعنى هذا أن ذلك الشخص موجود دائما بين الأحياء ، وهذا يخوّفني . فأنا أخاف لمّا أتأمل أنني الآن حيّ وفي كامل إدراكي ، إذن فمن هو الشخص الآخر ؟ هذا هو الرعب ، يا أمي ، أن تعيشي وشيء موجود في داخلك وأنت لا تعرفينه . أنت لا تشعرين بذلك أبداً ، يا أمي . أنت لا تفكرين أنك تخافين الموت ، يا أمي ؟»

المرأة العجوز : « يا أبي » .

الرجل العجوز : « نعم ، يا أمي » .

المرأة العجوز : « كفاك ارتعاشا ورجفة ، وقل لنفسك لحظة قصيرة ، قل لنفسك إنك عدت طفلا من جديد » .

الرجل العجوز : « نعم ، يا أمي » .

المرأة العجوز : « غمِّض عينيك وقرِّب مني ، يا أبي » .

الرجل العجوز : « نعم ، يا أمي » .

المرأة العجوز : « أعد ما أقول :

يا يسوع الحنون ، الوديع الرَّؤوف ،
إِعْطِف على طفل صغير ؛

أنا أنام في فراشي الصغير
فاسمعِ دعائي ، أبانا الذي في السَّماء :
إن متّ قبل أن أفيق ،
فليأخذ روحي الإله الرَّفيق » .

٥

في الساعة ذاتها من كل صباح ، كان صفير الصفارة ينطلق كأنه صوت الإنذار ، بين خشخشة عجلات العربة . كانت الصفارة أداة معدنية صغيرة لها فتحة مُزَوَّاة توضع في الفم بشكل متساوٍ بين الشفتين ، ولها حلق مجوَّف مفتوح من أحد جانبيه . كان في داخلها كرة على شكل حبة الفاصولياء ، وحين ينفخ في الصفارة تطير هذه الكرة من جانب إلى آخر بجنون ممًّا ينتج صوت الصفير . وكان الصَّدى ينتشر في الهواء فكان كل من في الطريق يفسح المجال لمرور العربة . وكانت السرعة تزداد ، ويعلو صوت الخشخشة على صوت الصفير مع اقتراب العربة من أولئك الذين تستهدفهم في محطتها التالية . صاح أحدهم : « سافوري » ، وسرعان ما ظهرت العربة دائرة حول المنعطف . وكان « سافوري » وهو رجل قصير القامة يمسك بمقبضي العربة ، محجوباً بعض الشيء وراء العربة . كان رأسه يصل حتى غطاء العربة ، ولكن ساقيه ، من ركبتيه حتى قدميه ، كانا يظهران للعيان من خلال الفسحة بين العجلات . ركض القرويُّون نحو المحطة وتحلقوا حول العربة . رفع « سافوري » جانبا من الغطاء وأبقاه مرفوعاً حتى انتهاء العمل . تسربت الروائح المختلطة : أرغفة مالحة ساخنة ، وكعك جوز الهند ، وفطائر المربى ، والسَّمك المقلي بالزيت ، والحلوى : وكل الأسماء المحليَّة التي أطلقوها على هذا الخليط من الطحين والماء والسَّمن والزبدة والملح ومختلف أنواع الزيوت .

أخذوا يلفون حول العربة يتشمَّمون ويكحّون ويصيحون ملهوفين . ومع

ازدياد الازدحام أخذت الأصوات ترتفع عالية بحيث لم يعد « سافوري » يسمع أي طلب بوضوح . وكان الذين يقفون في الأماكن الأبعد عن العربة يصيحون بأعلى الأصوات ، إذ لم يتمكنوا من رؤية « سافوري ». أما الصبيان الصغار فكثيرا ما كانوا يزحفون ، دون أن يشعر بهم أحد ، فيمرون زاحفين بين أرجل النساء والرجال الطوال ، ثم ينبثقون في الصف الأول الأقرب الى العربة . وكان صبيان آخرون يرفعون أنفسهم فوق أكتاف الرجال ويمشون من كتف إلى كتف وصولا الى العربة . وكان الصياح يستمر إلى أن تبحّ الأصوات أو يخف الازدحام . حينها يستعاض عنه بنكتة أو تعليق يسمعه الجميع . وكان سافوري يركض من ناحية إلى ناحية : رجل قصير ممتلىء الجسم يغرق في عرقه .

قال أحدهم : « يا "سافوري" ، لماذا الأرغفة يابسة بهذا الشكل ؟ » .

وقال آخر : « لقد قليت السمك أكثر من اللازم ، يا "سافوري" كأنه محروق » .

وقالت امرأة عجوز تشق طريقها وسط الزحام : « لا شيء يرضيكم ، يا ناس » .

فردّ " سافوري " بقوله : « هذا أحسن شيء قلته في حياتك » .

كان من عادة « سافوري » ألاَّ يتكلم إلاَّ مؤكداً أو ناصحاً ، وذلك في الشؤون المتعلقة به مباشرة . كانت التعليقات تتوالى والنكات أيضاً : وكثيراً ما يختلط التعليق بالنكتة فلا يتمايزان . أصبحت الحركة أكثر انطلاقاً الآن ، مع تضاؤل حجم الجمهور ، وأصبحت الأصوات أكثر هدوءاً . تتلو النكتة التعليق ، ويتبع التعليق النكتة ، وسرعان ما يندمج كلاهما في النَّسق المنتظم للحديث الذي يملأ حياة القرويِّين . كان الحديث مرحاً . غالباً ما ينضوي على الثرثرة والحكي عن الآخرين. أحيانا كان أحدهم يتحدث عما قرأه أو سمع به مما نشرته الصحيفة فينقل الأخبار إلى الآخرين . وكانت هذه الأخبار ، عادة ، غير سارَّة . تسير الأمور من سيِّء إلى أسوأ ، كانوا جميعاً يوافقون على هذا ، فكان حديثهم يكتسي فجأة نوعاً من الغضب المصطنع . إنهم فعلاً قلقون . كانوا يكنُّون للكلمة المكتوبة الاحترام الذي يكنُّه لها الأميُّون . فللكتاب مهابة خاصَّة ،

بل قدسيَّة . فلا يمكن أن يتضمن الكتاب ، في ظنهم غير الحقيقة . كان التعليق يتلو النكتة ويندمجان في نسق الحديث الذي ما يلبث أن يتلاشى ، ليحل محله الصخب الجماهيري المعتاد بأصوات أكثر ارتفاعاً وأشد جاذبية . كان « سافوري » ما يزال مشغولا ، وكان الجمهور يتزايد عدداً مرَّة أخرى .

« هل تعرفين » ، قالت إحدى النساء وهي تقرّب رأسها من أذن جارتها ، « أن "كَتْسي " ستلد ابنا لِـ " بويسي " » .

« غير صحيح » ، أجابت الأخرى ، وإن كانت ترغب حقا في تصديق الخبر .

« صدقيني » ، أكَّدت المرأة ، ودسّت يدها تحت ثوبها لتصلح حمَّالة صدريتها فوق كتفها ، « إنها حامل ثلاثة أشهر » .

سألت المرأة الثانية : « وماذا قال القس "بانِسْترِ " ؟ »

أجابت الأولى : « لقد حاولوا طمس الموضوع . لكن الله يستطيع أن يرى النملة الأكثر سواداً الواقفة على قطعة الفحم الأكثر سواداً في الليلة الأكثر سواداً » .

أجابت الثانية غاضبة : « ونحن نستطيع أن نرى أيضا . إنهم يحاولون أن يجعلوا كنيسة الله تبرّر عيشتهم الخاطئة من زمان » .

تسرب هذا الحوار الهامس تحت وخلال رنين النقود وحفيف الأوراق التي يستعملها « سافوري » للف البضاعة . كانت الأوراق مقطعة الى صفحات رقيقة شفافة يكفي حجمها لتغطية الأرغفة . وكانت الأرغفة تظهر واضحة من تحت الأوراق التي سرعان ما يزيدها رقَّة الزيت السَّائل من الكعك . لكن ذلك غير مهم ، لأن دخل كل فرد كان يساوي دخل الآخرين . وكان كل منهم يشتري المقدار نفسه من الطعام . لقد ازدادت كثافة الزحام من جديد ، فأخذت الأصوات ترتفع تدريجاً . كان « سافوري » ينتقل بينهم بخفة ، رزينا صامتا خلوقا ناشطا . كان يحسب النقود ، ويلف الأرغفة ، ويركض ، أحياناً ، إلى الجهة الخلفية من العربة ليطرد الصبيان الصغار عن العجلات ويتفحص الكابح . كان

قليل الكلام . كان يعمل بهمَّة وحماسة ، ملتفاً داخل طقمه الأزرق الذي كان يبين من تحت مريوله الخيش الأبيض ، فكان يكح ويصفر ويمسح العرق عن جبينه بابهامه المقوَّسة . كان يلبس طاقية زرقاء لها حافة أمامية قصيرة ، ويرتفع من وسطها ريشة بيضاء . كانت هذه الريشة البيضاء هي الأكثر جاذبية .

جلست الفتاة « كتسي » على الهضبة المعشوشبة في جوار عمود النور ورسمت دوائر بعصا في يدها على طبقات الرمل الأبيض . كانت الريح تذرو الرمل فتندمج الدائرة بالسطح المتجعد للقناة . سَوَّت الأرض بيدها وحاولت من جديد ، حتى أصبحت الدائرة مخطَّطة بوضوح وعميقاً ، فارتفعت القطعة الداخلة في الدائرة بوصة أو بوصتين أعلى من خط قطرها . وكان صبيّ في الشارع قبالتها يلهو بطريقة أخرى . لقد اتكأ إلى عتبة الدكان مسنداً جسمه بكلا ساعديه الممدودين خلفه ، وأخذ يحشر أصبع رجله في ثقب ضيق للسَّرطان . كان هذا الثقب مدوّراً أملس حتى وصول الصبي ، وقد أصبح الآن مسدوداً كلية بالتراب المقلوب . استمر في حشر اصبعه داخله ، والتراب ينهال ، وسرعان ما أصبح ثقبا داخل ثقب . كان « بوب » يجلس قربـه . كان يعزف الموسيقى على مشط ملفوف في ورقة بنية اللون . كانت الورقة تغطي أسنان المشط التي يعزف عليها نافخاً لحناً بفمه فتصدر الموسيقى. وكثيراً ما كان يغيِّر نفخه ، فيصبح الصوت ، مع كل تغيير ، كأنه صادر عن آلة موسيقية مختلفة .

واصلت « كتسي » الرسم على الرمل دون اهتمام ، واستمر الصبي يحشر أصبع قدمه في التراب أعمق فأعمق ، في حين صدح « بوب » بموسيقاه عبر الجوار . كانت هذه النشاطات أدوات اللهو المعتاد . هذه هي الأسلحة التي يستعملها القروي في قتل الوقت كان هؤلاء الثلاثة ينتظرون حتى يخف الزحام .

على بعد منعطفين كان الإسكافي يجلس وراء طاولته في دكانه الصغيرة . كان يجلس وقد ألصق ركبتيه معاً ، وأحنى جسمه مشتداً فوق الحذاء الذي يحضن . كان ثلاثة رجال آخرين يجلسون في زوايا الدكان . نقب الإسكافي ثقبا بالمسلَّة ثم خاط قطبة صغيرة في حافَّة النَّعل ثم شمَّع الخيط . فعل كل ذلك بخفة ورشاقة فظهر كأنه عمل واحد . رفع بصره فابتسم الرجال .

قال أحدهم : « إن "سافوري" مشغول هذا الصباح » . وكان القائل أخا أحد المراقبين .

قال السيد « فوستر » : « الحال دائما هكذا . هو كذلك كل صباح » .

تطلع الإسكافي عبر الباب المفتوح إلى الجمهور المتحلق حول العربة . تطلع ثانية بنظرة طويلة ثابتة والناس يتزاحمون حول العربة . ثم انحنى بسرعة فوق الحذاء وقطب قطبة أخرى ، بدون كلام وبتركيز جدي . تشمَّم الرجال الرائحة التي ملأت الدكان ونظروا إلى بعضهم بعضا . بدا كأنهم يريدون أن يقولوا شيئا . رفع الاسكافي بصره ثم خفضه فتشمم الرجال بهدوء . كانت الساعة حوالى التاسعة وقد أخذت الشمس تصب ضوءها عبر الأشجار داخل الدكان . وكان الرجال ، بين الفينة والفينة ، يلتصقون أكثر بالزَّاوية هرباً من وهج الشمس . خرجت المرأة العجوز « أمي » ، من منزلها في زاوية الطريق واتجهت صوب العربة . لمس صبي صغير الرجل الواقف أمامه ، فأشار هذا إلى جاره بأن « أمي » بين الجمهور . أفسحا بهدوء ممراً ضيقا مشت « أمي » خلاله الى العربة . رآها « سافوري » فأخذ سلتها وقبض النقود ووضع البضاعة في السلة دون كلام . كان يعرف ما تريده لأن طلبها لم يتغير أبداً عبر السنين الطويلة . إنها تأخذ دائماً كعكتين من كعك جوز الهند ، واحدة لها والأخرى للرجل العجوز ، وكعكتين من السمك المقلي . انسحبت إلى آخر حدود الجمهور وتحدثت مع أحدهم ، بينما عاد الناس إلى أماكنهم يجددون طلباتهم .

« كم الساعة الآن ؟ » سأل الإسكافي وهو يقطب قطبة جديدة .

نظر الرجال إلى الساعة المنبهة الصغيرة الموضوعة على الطاولة فوجدوا أنها تشير إلى التاسعة والنصف . نظر كل منهم إلى الآخر كأنما يريدون الكلام . نهض السيد « فوستر » ومطَّ جسده إلى أقصى طوله . دقَّ أحدهم على القاطع الذي يفصل الدكان عن بيت الإسكافي ، ففتح الإسكافي الباب وانسل إلى داخل البيت .

سأل السيد « فوستر » : « ما رأيك حقاً بـ « سلايم » ؟ » .

ابتسم أخو المراقب . كانت ابتسامة واثقة سعيدة مؤكدة . ثم قال : « رأيي في « سلايم » ؟ إسأل ذلك الصغير رأيه في « سلايم » .

نادى السيد « فوستر » الصبي الصغير ليسأله رأيه في السيد « سلايم » . اعترت الدهشة الصبي .

سأل أبو « بوب » : « أي صف كان يعلّم ؟ » .

أجاب الصبي : « الصف الخامس . كان معلما جيداً جداً » .

سأل السيد « فوستر » : « لماذا ترك التعليم» ؟ .

قال الصبي : « لا أعرف . ولا أحد منا يعرف » .

نظروا إلى الصبي كأنهم يستجوبونه . لا بدّ أنه شعر لحظة أن له علاقة باستقالة السيد « سلايم » .

قال الصبي : « نحن لا نعرف ، إلا أنه يريد أن يكوّن جمعيّة الصداقة » .

سأل السيد « فوستر » : « هل أنت عضو في الجمعية ؟ » .

قال الصبي : « أنـا وكل أخوتي » .

سأل أبو « بوب » : « أنت متأكد أنه كان معلماً جيداً ؟ » . ابتسم الرجال .

قال الصبي هازاً رأسه : « متأكد ، متأكد ، متأكد » .

قال أخو المراقب : « عظيم . شكراً » .

قفز الصبي فوق القناة وركض نحو العربة .

نظر الرجال إلى الساعة ، ثم إلى بعضهم بعضا . لن يطول بهم الوقت قبل أن يعرفوا إن كان الإضراب قد أُلغي . لقد اجتمع بهم السيد « سلايم » بالأمس وشرح لهم الوضع . لقد تكلم بصفته ممثلهم أمام سلطات الشّحن وقد أوضح لهم وجوب عدم عودتهم حتى يقرر هو أن الوضع مرضٍ . كانوا يعرفون أن الوضع معناه الأجور وما شاكل ، ولكنهم كانوا يجهلون التفاصيل . ولكن كل واحد منهم كان يدرك أن الإضراب يتضمن زيادة محتملة في أجره . هذه هي المرة

الأولى التي يلتزم أي منهم بعمل كهذا ، وكانوا غير واثقين من أي أمر ، باستثناء أن لديهم زعيما يستطيعون ائتمانه . إنهم يثقون بالسيد « سلايم » . لكن هذه التجربة كانت مثيرة جداً وخطرة جداً أيضا . بإمكان والد « بوب » أن يعود إلى صيد السمك ، إذا ما فشل الإضراب وخسر وظيفته ؛ أما السيد « فوستر » فانه يربّي الماعز والخنازير . كما أنه قد تمكن من شراء بيت آخر . تصبح الحياة أسهل دائما ، إن كان لديك ملجأ معيَّن . أما أخو المراقب فلم تكن لديه أي مهنة أو موارد ، غير أن أخاه ، بصفته مراقباً ، يستطيع أن يساعده إن أراد . لم يظهر عليه القلق الشديد . لن يلبث السيد « سلايم » أن يحضر ، كما وعدهم ، ليخبرهم بالاتفاق الذي توصل إليه مع سلطات الشحن .

« حسنا ، ماذا ستعملون ؟ » سأل الإسكافي ، وهو يتخذ مكانه خلف طاولته . كان بعض الشاي يسيل على ذقنه ، وكانت الحفرة التي تركها سن مخلوع في فكه ملأى بالخبز . جلس الرجال هادئين متأملين باحثين عن جواب . حمل الإسكافي الحذاء فوق ركبته . كان جلد جبهته السميك بالغ التغضن ، وحين كان يمضغ بقايا الخبز أثناء التكلم كانت عظام وجهه تتحرك تحت جلده حركات طالعة نازلة مضحكة . كان سلوكه يتسم دائما بالشجاعة والقيادة ، وخصوصا هذا الصباح. لعل السبب يكمن في أنه غير متورط فعليا في الإضراب . فهو ابن مهنة يتقنها إتقانا جيداً ويمارسها بنجاح . إنه المشاهِد حقاً . فلو نجح الإضراب ، سيعرف الاسباب ، ولو فشل وفقد الرجال وظائفهم ، فسيخبرهم عن سبب حصول كل الأحداث ، بتعاطف المشاهد . يبدو أن مزايا المشاهِد هي رفاهية بالغة . نظر الرجال إليه كأنما أرادوا أن يقولوا ألاَّ بـأس عليه من الكلام ، ولكنهم هم سيعانون نتائج الوضع . نظروا إلى الساعة .

قال السيد « فوستر » : « لا أعرف . علينا أن ننتظر ونرى » .

نظر الإسكافي بثبات إلى السيد « فوستر » وقال : « ألن تعود إلى العمل ؟ » .

أجاب السيد « فوستر » بسرعة : « لا ، لن أعود إلى أن يقول الزعيم عودوا » .

قال أبو « بوب » : « ولا أنا . لن أعود » .

رفع الإسكافي الحذاء من حضنه وأسنده في الركن .

ثم قال : « أحبكم هكذا . هذه هي الطريقة الوحيدة لتحسين وضعكم » .

قال أخو المراقب : « تضامنوا معاً ، هذا هو رأيي » .

قال أبو « بوب » : « والآن لا يمكن أن تفشلوا ما دام الناس المتعلمون وراءكم يدعمونكم » .

قال السيد فوستر : « هذا صحيح . العلم هو أهم شيء . أنا دائما أقول الرجل هو كلب إن لم يحصل على القليل من التعليم » .

قال الإسكافي : « بالاضافة الى كمشة من حسن التقدير » .

كانوا شديدي الحماسة وشديدي الثقة .

قال الإسكافي : « أنتم الثلاثة رجال حقاً . إن لم تكونوا حاضرين لتفريغ تلك السفن ، وحياة المسيح ، لن تستطيع أن تفرغ نفسها بنفسها . ولن يستطيع العظماء أن يفرغوها . بإمكانهم إصدار الأوامر وما يشبه هذا ، لكنهم لا يقدرون أن يعملوا عمل يوم واحد شريف » .

قال السيد « فوستر » : « هذا صحيح . بدوننا يتوقف العمل تماماً » .

« هذا يعطي مالك الأرض شيئا حتى يفكر به » ، قال أخو المراقب ، ووضع يديه في جيبه وأخذ يحكّ ؛ « لقد سبق أن هزَّه الفيضان » .

نظر إليه الرجال حائرين . كانوا دائما يتوقعون منه أن ينطق بما لا يعرفه الشخص العادي . ذلك أنه أخو المراقب .

سأل الإسكافي : « ما دخل ذلك بالمالك ؟» .

قال أخو المراقب : « هو شريك في الشركة . شركة « جونز وكريتون » للشحن المحدودة . هو الشريك « كريتون » .

نظر الرجال إلى بعضهم بهدوء .

قال أخو المراقب : « وحياة المسيح ؛ سيشخ في بنطلونه. أقول لكم إنه لما اضطر إلى صرف النقود لتصليح الطرق بعد الفيضان بكى كثيراً . يقول أخي إنه بكى سطولاً من الدموع » .

جلس الرجال هادئين يتفكرون في الوضع الجديد .

« هذا أمر مضحك » ، تابع أخو المراقب قوله ، « إنه حقا أمر مضحك . المالك رجل لطيف ، هو حنون ، وهو يعطيك إن اعتقد انك فعلا في حاجة ، هو حقا كذلك ؟ ولكن إذا كان عليه أن يصرف مبلغا كبيراً من المال فذلك يسبب له جلطة قلبية . وهو عنده أكثر مما يستطيع أن يصرفه في دنيا الله هذه . ما رأيكم ؟» .

أمعن الرجال التفكير .

قال أخو المراقب : « لو طلبت منه شلنا أو شلنين أو ثلاثة فهو يعطيك بكرم بكرم ، لكن إذا عرف أن عليه أن يصرف كم مائة دولار ، وهي ليست أكثر من ثلاثة شلنات بالنسبة لما عنده ، فانه يا رجال ، سيبكي سطولا من الدموع » .

سأل أبو « بوب » : « ماذا يحصل إن لم نفرغ السفن ؟ » .

قال الإسكافي : « تبقى في مكانها . هذا كل شيء . وحين يصير أهل السفن حاضرين للرحيل فإما أن يرجعوا البضاعة معهم إلى حيث جلبوها ، أو إن كانت تعفّنت ، يرموها في البحر » .

قال أخو المراقب : « والأسوأ هو أن علينا تحميل السفن بالسكر . هذا هو الأسوأ . إن ما يخسره المالك من حمولة السكر التي لن نعبئها يكفي لتصليح الطرق سبع مرات في سبع مرات » .

قال السيد « فوستر » : « سيطردنا من بيوتنا » . حَدَّق الرجال بحدَّة في بعضهم بعضا . هذا وضع جديد يختلف كلية عن فشل الإضراب أو فقدان الوظيفة .

أجاب الإسكافي غاضبا : « إذن سيطرد المستأجرين كلهم » .

قال أبو « بوب » : « كفى سخافة . لا يستطيع أن يطرد الجميع . فلن تكون هناك قرية إن عمل هذا » .

قال السيد « فوستر » : « هذا صحيح . لا تستطيع أن تحتفظ بالأرض بدون القرية » .

قال أخو المراقب : « ولا يستطيع أن يستغني عن القرية أبداً » .

« لن يستطيع أن يكون سعيدا في أي مكان في دنيا الله هذه مثل سعادته على رأس هذا التل وهو ينظر إلينا من عليائه » .

قال الإسكافي : « صحيح ما تقوله ؛ فالمكان يدخل في الدم . وأنا لا يمكن أن أقبل بأي مكان لهذه الدكان القديمة ، غير مكانها هذا هنا » .

قال السيد « فوستر » : « لذلك إن استلمت إنذاراً بترك البيت فلن أعرف ماذا أعمل » .

« بل إني لن اعرف ماذا أفكّر » .

قال الإسكافي : « اتركوا المشكلة للزعيم . هذا هو سبب وجود الزعيم » .

سيتركون المشكلة للزعيم . رفع الإسكافي الحذاء ووضعه فوق ركبتيه ، في حين تطلع الرجال من خلال الباب إلى الجمهور المزدحم حول العربة . ماذا سيحدث عند عودة السيد « سلايم » ، كانوا يفكرون . إن نجح الإضراب وازدادت أجورهم ، فإنهم ما يزالون ، كمستأجرين ، تحت رحمة المالك . قلَّبوا المسألة في أذهانهم مراراً محاولين العثور على أفضل حلّ في حالة الطوارىء. لا مجال هناك أبداً للرحيل عن القرية . صحيح أن هذه القرية مثل تلك ، ولكن عاداتهم قد تشكَّلت ومن العسير عليهم جميعاً أن يبدأوا من الصِّفر وسط جماعة جديدة من الناس . مهما يكن لن يخيِّبوا أمل السيد « سلايم » فمنذ استقالته من المدرسة وهو يعمل بكل جهده لتحسين أوضاعهم .

لقد فاز في الانتخابات العامة بأغلبية ساحقة ، بعد تركه المدرسة بسنة

واحدة . وقد ظن الجميع أنه استقال من المدرسة بغية أن يقوم بعمل أكبر وأفضل في مجال آخر . لقد كان مسؤولاً عن تعليم الأطفال ، غير أنه وسَّع هذا العمل ليشمل تعليم العمَّال . لم يسبق لهم أن تدخلوا في السياسة ، ولم يكونوا أبداً فريسة سهلة للوعود ، غير أن السيد «سلايم» قد نال تعاطفهم كليا . لم يسأل أحد عن سبب استقالته ، إذ ظهر كأن السبب جلي واضح في الدور الجديد الذي يلعبه . لقد كان زعيمهم وزعيم الكثيرين غيرهم الذين يعيشون بعيداً عن القرية . كان الإسكافي يفكر أيضاً . فقد ظن أن المسألة في غاية البساطة إلى أن أخبرهم أخو المراقب عن المالك . لقد ضعفوا لحظة ، ولكنهم كانوا قادرين على اتخاذ القرار ؛ ومهما يكن جهلهم ، فإنهم يفهمون جيداً معنى الثقة . وهم يفهمون معنى الثقة بمعلم مدرسة فهما أفضل .

لم يستطيعوا أن يدركوا ، ولا حتى لحظة ، أن الأرض هي غير القرية ، ومن هنا أظهر التفكير الدقيق أن التهديد بالإنذار بالإخلاء للقرية بأكملها هو أمر مضحك . لعله تهديد للمالك نفسه . فسعادته ، مثل سعادتهم تماماً ، تعتمد عليها . هذه هي حالة المقيم الإنجليزي في الجزيرة دوماً . فلأسباب مختلفة تسربت الأرض إلى دمهم . قد يعودون إلى إنجلترة مدَّة شهر أو ستة أشهر أو سنة ، غير أن أولئك الذين أقاموا في هذه الجزيرة فترة كانوا يرجعون إليها دوماً ، فينسلون بهدوء إلى مواقعهم متخذين من الجزيرة وطناً بعيداً عن الوطن . خصوصاً في هذه الجزيرة . لقد جعلوها وطنهم إلى حد أنهم لم يكتفوا باستيراد عاداتهم إليها ، بل لقد أسبغوا عليها اسم وطنهم الأصلي . لقد سمّوها إنجلترة الصغيرة ورافق ذلك فخر القرويين الذين ظنوا أن هذا الاسم يحمل في طياته امتيازا مشرفا خاصّاً . كانوا يتفكرون فيما قاله أخو المراقب . لا يستطيع المالك أن يستغني عن القرية ، مثلهم تماما . كان الإسكافي يفكر بذلك أيضا ، غير أنه كان يرتاب في العلاقة . وبينما فكر الآخرون في إنجلترة الصغيرة ، كان الإسكافي يفكِّر أن هناك ما يريب في علاقات الرجل الإنجليزي . هذا ما فعلته به القراءة . كان يقرأ الصحف دائما ، وكان يقرأ كتابا كلما سنحت له الفرصة . كان أحيانا يدعو طلاب المدرسة الثانوية إلى اللقاء في دكانه لمناقشة الأخبار التي قرأوها ، وكان يدوّن في ذاكرته ملاحظات حول ما يقولون . كان يطلب منهم إعارته كتاباً معيناً ذكره

أحدهم . وقرأ مرة كتابا لمؤلف اسمه « بريستلي » . لم ينسه أبدا . وقد ألصق على القاطع في إحدى زوايا الدكان ورقة كتب عليها الاسم : « ج . ب . بريستلي » وحين كان يُسأل من هو « بريستلي » كان يفيض بالحديث متحمساً عما قرأه في ذلك الكتاب . لم يكن أحد يعرف شيئا عن « بريستلي » ، وكثيراً ما كان الصبيان يسخرون منه لاستخدامه أسماء كاذبة . أما طلاب المدرسة الثانوية الذين كانوا يتوقفون عنده للحديث فلم ينتبه معظمهم لهذا المقطع الذي كتبه « بريستلي » ، ولكنه حسب أنه يتضمن مفتاح سر مهم ، واشتد تعلقا بـ « بريستلي » . لم يكن « بريستلي » يعرف شيئا عن المالك ، ولكنه قد كتب في هذا الكتاب أشياء عن الحكام الاستعماريين ، وكان الإسكافي يفهم معنى هذه العبارة .

كانت تلك هي المرة الأولى التي بدأ يفكر فيها بإنجلترة الصغيرة كجزء من شيء جبار هائل يسمى استعماري . لقد قال « بريستلي » إن بعض المشكلات الكبرى التي عليهم أن يواجهوها ، من حين لآخر ، في إنجلترة ، هي ضرورة مساعدة الحكام الاستعماريين في إعادة التكيف مع أوضاعهم . فبعد انتهاء مدة عملهم في المستعمرات كانوا يعودون بأفكار غريبة تختص بعلاقتهم بالخدم وبطبقة الخدم . وقال « بريستلي » أيضاً إن هذا الأمر قد يستفحل . فهؤلاء الحكام الاستعماريون الذين لم يكونوا دائما على درجة عالية من التعليم ، بل هم لم يكونوا قابلين للتعلُّم ، قد يقنعون أنفسهم بضرورة أن يتحول ما كان امتيازات مؤقتة إلى حقوق دائمة . لا امتيازات ، كان الاسكافي يكرر لنفسه مراراً ، لا امتيازات بل حقوق . لقد شاهد في السينما ، وفي العروض والاحتفالات ، وفي كل مكان زاره الحاكم ، الولاء الذي يقدَّم له . لم يكن الحاكم في إنجلترة الصغيرة ممثلاً للملك في إنجلترة الكبيرة فقط ، بل لقد كان مساوياً له . وقد أمضى برهة من الزمن يفكر في الحاكم لا كحاكم في إنجلترة الصغيرة ، بل كحاكم سابق يعيش بين الإسكافيين في إنجلترة الكبيرة . وقد شعر بتعاطف غريب نحو أولئك الإسكافيين الذين لن ينظروا إلى حاكم إنجلترة الصغيرة كأنه ملك إنجلترة الكبيرة . وهذا هو ما قاله هذا الكاتب . لديك مشكلة تكمن في تذكير هؤلاء الناس أن ما كان مجرد امتيازات لا يمكن أن يكون في زمن مختلف وأمكنة مختلفة حقوقاً لهم . رفع الإسكافي نظره عن الحذاء وقال شيئاً عن « ج . ب . بريستلي » . ضحك

الرجال بهدوء ، وقال السيد « فوستر » مازحاً إنه يستأهل ما يلحق به لو علم من أفضل المتعلمين ألاّ وجود لمثل هذا الرجل . لم يستطع أبداً أن يقتبس كلمات هذا الكاتب نفسها ، ولم يكن يتذكر اسم الكتاب . ولكنه لم يكن يكترث . لقد كان لديه ذلك المقطع الذي يشكل المفتاح لسر عظيم .

« ألم تقرأوا الصحف اليوم ؟ » قال الإسكافي هادئاً . كانوا قد تعبوا من تكتيكاته الجدلية ، فلم يجيبوا . ضحكوا بهدوء وتابعوا التفكير فيها عسى أن يقوله السيد « سلايم » . ابتسم وحيداً وفكر فيما قرأه في الصحيفة . لقد نشرت صحيفة الصباح مقالة طويلة تصف الأحداث التي حصلت في العصيان المدني القائم في « ترينداد » . لقد نشبت حرائق عديدة ، وقد تظاهر الناس حاملين الحجارة والعصي سائرين نحو المباني الحكومية . وكان هناك تهديدات باعتقال زعماء هذا الشغب ، كما أبدى المسؤولون تخوفهم من نشوب انتفاضات مماثلة في الجزر الأخرى . تفكر الإسكافي بهدوء في هذه المقالة وفي المقطع المقتبس من كتاب « بريستلي » وفي غيره من الكتب التي قرأ . ولو أنه كان سياسياً لقلنا إن خطاباً قد بدأ يتشكل في رأسه . كان على جهل بتفاصيل العصيان المدني في « ترينداد » ، ولكنه كان يدرك أنه لا بد أن يكون من نوع الإضراب الذي يوشك أن يبدأ على نطاق واسع في « بربادوس » . كان يعرف « ترينداد » من خلال المباريات السنوية في لعبة « الكريكت » التي كانت تقام في كلتا الجزيرتين . كانت « بربادوس » تدعو « ترينداد » لإقامة المباراة عندها في إحدى السنين ، وفي السنة التالية تدعو « ترينداد » « بربادوس » للعب في « ترينداد » . وقد ساعد هذا التقليد في إقامة المباريات في تذكير الناس في « بربادوس » أن هناك أناساً لهم عادات وتقاليد مماثلة يعيشون في « ترينداد » ، أكثر مما فعلت الكتب والتقارير الصحافية ودروس التاريخ في المدرسة . وقد تضم المباراة أحياناً « جويانا » البريطانية ، وقد تضم « جامايكا » أحياناً أخرى . لكن « جامايكا » كانت الجزيرة المجهولة أكثر من غيرها لدى أهالي « بربادوس » . فهي الأبعد ، وكانت فرق « الكريكت » الجامايكية الأقل مجيئاً إلى « باربادوس » لأسباب عديدة . ومع ذلك سيطر « الكريكت » الجامايكي على مخيلة أهالي « بربادوس » . وكان كل صبي معتد بنفسه كلاعب كريكت يدعو نفسه « جورج هدلي » . وكثيراً ما تجد أن الشيء

الوحيد الذي يعرفه الكثيرون عن « جامايكا » هو أن « جورج هدلي » قد ولد فيها . تطلع الإسكافي إلى القاطع القائم خلفه مباشرة . كان قد ألصق على لوحين من ألواح القاطع صوراً صحافية للاعبي الكريكت قصها من الصحف اليومية . كان بعضهم يرتدي قبعات وقمصانا وسترات تحمل ألواناً لا يرتديها إلاّ من اشترك في تمثيل المقاطعات معاً ضد انجلترة أو أوسترالية . تباينت ألوان جلد اللاعبين . فهناك صورة فوق اللوح الأعلى مباشرة هي صورة « جورج شالينور » الذي قد يكون مالك زراعي أبيض في « باربادوس » . وكان في جوارها صورة « جورج هدلي » وقد كتب إلى جانب اسمه بالقلم الرصاص ، « البطل الأسود » . تطلع الإسكافي إليهما وتذكر القصص التي كثيراً ما رواها عن كل منهما. وهناك « ليري كونسطنطين » ، و« ديرك سيلي » الذي كان يسميه الصبي الأعجوبة في لعبة الكريكت ، و« كليفورد روش » ، و« ماني مارتنديل » ، و« برتي كلارك » الذي سيصبح أعظم لاعب في العالم . تلك هي النبوءة التي أطلقها العرّاف « فلانجان » ، وهو لا يخطىء أبداً . قطب الإسكافي قطبة جديدة في الحذاء وتطلع إلى الجمهور المتزاحم حول العربة . كان يفكر في الإضراب وفي الشغب في « ترينداد » وفي لاعبي « الكريكت » ، وقد ظهر له بطريقة لم يستطع تفسيرها أنهم جميعاً ينتمون إلى خط واحد من الأحداث . وضع الحذاء على الأرض ونظر إلى الرجال . كانوا يراقبون القرويين يبتاعون أرغفتهم وكانوا يتبسمون ، بين آن وآخر ، من حيلة الصبيان الصغار في المرور بين سيقان الكبار . كانت المرأة العجوز ، « أمي » ، ما تزال تتحدث إلى امرأة أخرى . لقد فقد جلدها المتغضن بريقه حتى تحت شمس هذا الصباح المشرقة . تطلع الإسكافي إلى العربة والرجال والحذاء المرمي على الأرض . كان ينوي أن يقول شيئاً ، لكنه ينتظر اللحظة المناسبة حتى يبدأ . كان الخطاب يتشكّل في رأسه . كان يفكر في الكتب التي قرأها ، وخصوصاً بالكاتب الإنجليزي الذي اعتقد انه يملك المفتاح لكل ما يحدث في « ترينداد » وفي إنجلترة الصغيرة . فكّر في إمكان حصول شغب في « بربادوس » . لم يستطع أن يتخيل أي جمهور من القرويين يتظاهر حاملا الحجارة والعصي حتى بيت الحاكم . فالقرويون مسالمون . لم يكن لهم أية مطالب سوى العيش المحتمل ، خبز أكثر ، ومأوى أفضل ، وطمأنينة نفسيّة حتى يعبدوا الله إلههم . بدأت الكلمات تفيض . لا يستطيع ذهنه أن يحتويها بعد . تطلع إلى

العربة بسرعة ، ثم إلى الرجال . كانوا قلقين . قال : « يجب أن يكون هناك شخص ما للقيام بعمل ما » . نظر إلى العربة مرة أخرى وهزَّ رأسه . حملت هزة رأسه هذه تسليماً لا يُطاق . إن ما يتخيله يبدو مستحيلاً .

« انظروا إليهم » ، قال وهو يشير إلى العربة ، « هذا كل ما يعملون » . أشار إلى النساء اللواتي شكَّلن الأغلبية . « يقضين الصباح في الشراء ؛ ويتحدثن عن الأولاد طيلة النهار ، ما عملوه وما لم يعملوه ؛ وفي الليل يطبخن كمية كبيرة من الطعام » . استأنى برهة يستجمع أفكاره . « حسناً ، يجب أن يكون الشخص مهما حتى يعمل عملاً مهماً » .

قال السيد « فوستر » : « هذا صحيح . للرجال عمل معين ، وللنساء غيره » .

قال الإسكافي : « وعلى الآباء أن ينهضوا ويعملوا . لن يعمل أحد عملنا بدلنا » . كان مفعماً بالحماسة والكمات تتدفق . قال أبو « بوب » : « عليك أن تفكر بالأولاد . لا يمكنهم أن يكبروا في أحذية آبائهم . فما يحلو لنا لا يحلو لهم » .

قال الإسكافي مؤكداً : « هذا صحيح . عليك أن تفكر بأولادك . لا تخليهم يشردوا مثل الكلاب التائهة التي لا أصحاب لها . ليست أمامهم الفرصة للالتحاق بالمدرسة الثانوية والحصول على وظيفة لائقة مثل الناس المحترمين . ولكنك تقدر أن تعطيهم شيئاً جيداً . مهنة جيدة وبعض الحقائق عن العالم » .

قال أخو المراقب : « هذا ما أقوله لابني . أقول لـ « الورقة الرابحة » كل يوم إن عليه أن يفكر بالمستقبل . إن لعب الكريكت في الصبح والظهر والليل ، والذهاب إلى البحر في أيام العطلة طيلة اليوم كله ، لن يصنع منه رجلاً » .

قال الإسكافي : « إن الزمن يتغير ، إن كان لا شيء يتغير أبداً في قرية « كريتون » ، فإن الزمن يتغير . وكل ما عندي حتى أقوله لكم هنا والآن ، هو : إن استمر الزمن يتغير يتغير ، ونحن هنا لا نعمل أي تغيير بطريقة أو أخرى ، فان النتيجة أن الزمن سيمشي ويتركنا كلنا هنا وراءه في الانتظار » .

قال السيد « فوستر » : « سنجلس وننتظر حتى يأتي ملكوتك » .

قال الإسكافي : « لا يمكن أن نأمر الزمن أن يقف مكانه . كأنك تتكلم مع الحجارة » . وضع الحذاء على ركبتيه من جديد ، وانتظر الرجال بهدوء ورصانة . وضع الحذاء على الأرض من جديد .

قال : « أنا لم أتعلم . ولكنني أتذكر ما التقطته من هنا وهناك . ومنذ أن جاء عندنا « ماركوس جارفي » العظيم وقال لنا إن الله لن يضع المن والسلوى في فمنا ، بدأت أفكر » .

قال السيد « فوستر » : « أنا أتذكر « جارفي » . الله يبارك اسمه » .

قال الإسكافي : « الأشياء تتغير . وكذلك الزمن . هذا كله في التاريخ » . راقبه الرجال بجدية في حين رقصت عيناه الصغيرتان البرّاقتان تحت جفنيهما .

قال : « من زمان كان هناك امبراطوريّة عظيمة . امبراطورية عظيمة يملكها ناس يسمّون اليونان وغيرهم ، وكان هناك رجل اسمه الإسكندر الكبير » . أشار إلى القاطع حيث توجد صورة للإسكندر الكبير . كانت ورقة منتزعة من أحد كتب التاريخ . تطلع الإسكافي إليها برهة ثم فرقع أصابعه .

قال : « كان رجلاً . لم يكن راهباً ، وقد عمل كل شيء وحده . بنى امبراطورية كبيرة عظيمة وحكم كل العالم الذي خلقه الله . لكن الزمن تغير ، فتغير هذا أيضا . فجاءت نهاية الامبراطورية مثل كل شيء غيرها . ثم قامت امبراطورية جديدة كبيرة عظيمة ، هي الامبراطورية الرومانية ، هذه هي الامبراطورية التي نقرأ عنها مع إنجلترة . كل صبي صغير في المدرسة يعرف سنة « ٥٥ » قبل الميلاد ومعركة « هاستنجز » . كانت هذه السنة ، « ٥٥ » قبل الميلاد، سنة المعركة الرومانية مع القيصر . وكلّهم كانوا يملكون كل العالم الذي خلقه الله ، وما كان أحد يقدر أن يقول لهم أن يرجعوا لأن كل العالم ملكهم . كل العالم لهم . لكن لما تغير الزمن والأشياء تغيروا هم أيضا . فانتهى كل شيء . وبعدهم جاء غيرهم . الامبراطورية الإسبانية والامبراطورية البرتغالية ، أنا قرأت قصة هنا وقصة هناك عنها كلها » . تنفس ملء رئتيه . ثم ، قال : « جاءت الامبراطورية البريطانية الكبيرة العظيمة . ونحن ، هنا ، جزء منها . « باربادوس » أو انجلترة الصغيرة ، ليبارك الله روحها ، هي جزء منها . ولكن

الزمن سيتغير مرّة ثانية ، وكذلك الأشياء ، وستتغير هذه الامبراطورية البريطانية الكبيرة كذلك ، لأن الزمن لا يهتم أبداً بهذه الامبراطوريّات . الله لا يحب القبح . وعندما تبدأ هذه الامبراطوريّات الكبيرة العظيمة بأن تصير قبيحة في الاعمال التي تعملها ، يضع الله القدير يديه فوقهم مرّة واحدة . يقول لهم ، بدون كلام ، يا ناس انتهى يومكم » .

سأل السيد « فوستر » : « ماذا يحل بنا في إنجلترة الصغيرة لما يحصل التغيير الكبير ؟ »

قال أبو « بوب » : « ربما بدأنا نفكر في الحصول على امبراطورية نحن أيضا » .

ضحك أخو المراقب بهدوء .

قال السيد « فوستر » : « لكن الغريب انهم يعطون إنجلترة الصغيرة أحسن تعليم . أنا لا أعتقد أن هناك أي مكان في دنيا الله هذه ، ما عدا إنجلترة نفسها ، وصل التعليم فيه إلى هذه الدرجة العالية » .

قال أبو « بوب » : « هذا صحيح . أنا سمعت مرة رجلاً إنجليزيا كان يعلم في المدرسة الثانوية ، يقول : إن كلية « هاريسون » هي كلية عالية المستوى مثلها مثل أي مكان يعلم الأشياء نفسها في أي مكان في العالم . وهذا الرجل قد سافر في كل العالم » .

قال الإسكافي : « لكن إن أنتم فكرتم مليح ، وإن تذكرتم مليح ، تتذكرون أنهم لم يخبرونا أبداً عن « ماركوس جارفي » . إنهم لم يخبرونا أبداً حتى بوجود مكان يعيش فيه يسمى أفريقية . وفي الليلة التي تكلم فيها في منتزه الملكة وأخبرنا أننا إخوته الذين لسبب أو آخر ذهبنا إلى مكان آخر ، أنا شفت معلما معينا من تلك المدرسة الثانوية نفسها يترك الاجتماع » .

سأل أبو « بوب » : « ما سبب تركه الاجتماع ؟ »

قال أخو المراقب : « لأنه لم يحب أن يخبره « جارفي » أنه أخوه وأخونا » .

ضحكوا .

قال الإسكافي : « هذه ليست نكتة . لو أنتم أخبرتم نصف الناس الذين يعملون في تلك الأماكن أن لهم أي علاقة بأفريقية لشخُّوا رأساً في وجوهكم » .

قال السيد « فوستر » : « لكن لماذا تخبر الناس ذلك ؟ لماذا تقول للرجل إنه أخو شخص آخر هو ليس أخاه » ؟

قال الإسكافي : « هذا قصدي . أنت أيضا تقول إنه غير صحيح ، وهو ما يقولونه هم ، لكن بطريقة ثانية » .

قال أبو « بوب » : « هذا صحيح . لا يحب أي رجل أن يعرف انه أسود » .

قال الإسكافي : « هذا قصدي . هذا هو قصدي تماماً » .

أدار رأسه ونظر نظرة طويلة ثابتة في المرآة المعلقة على القاطع .

كان الحوار يدور .

* * *

قالت إحدى النساء : « بعضهم يقول إنه « بويسي » ، وبعضهم يقول إنه « سوني » ، ولكن الحقيقة هي أنها حامل ستة أشهر » .

قالت أخرى مصححة : « أربعة أشهر » .

أكَّدت الأولى : « أنا أقول ستة . انت دائما متخلفة شهرين عن الوقت الصحيح » .

لم يكن توقيت هذا التعليق موفقاً . لم تستحسن المرأة لهجة رفيقتها ، كما استاءت من التحدِّي المبطَّن . غير أن هذا هو أسلوب القرويين . لا يملكون الصبر لاختيار اللحظة المناسبة لأي شيء . إن ما حدث لهو أشبه بهجوم على رزقهم اليومي أو حتى على الحياة نفسها .

« لا يقدر غير أحد من عائلة « باركر » على معرفة شؤون كل الآخرين » . قالت المرأة الأولى . لقد أغضبها ادعاء الأخرى أنها تعرف معرفة أفضل .

أجابت الأخرى بانفعال : « ماذا تعرفين عني ، قولي لي في وجهي ، يا

« شيلا » ، ماذا تعرفين عني ! » كانت طريقة كلامها ملأى بالثقة . ما على « شيلا » غير مجاراتها . هذا ما تقتضيه الأعراف غير المكتوبة للخناقات العلنية . لقد اشتعل الحوار وتفجّر خناقة حامية . لقد أصبح ملكاً عاماً .

قالت « شيلا » : « العالم كله يعرفك يا « بيبي » . أنت آخر إنسان في دنيا الله هذه يحق له الكلام عن غيره » .

اتضح أن « بيبي باركر » تستجمع قواها . انقسم الجمهور بين تحالفات صريحة وجهود مستورة لاكتشاف ما حدث . أغلق « سافوري » العربة بأن أنزل الغطاء المرفوع إلى مكانه ، ثم استرخى فوق العجلة .

شرحت « شيلا » : « إن « بيبي باركر » مشهورة . كل الناس تعرف « بيبي باركر » . كانت قد أدارت ظهرها للمرأة الأخرى وأخذت تتحدث إلى الجمهور بلهجة الخطيب . وكان التكرار في حديثها ، بين الحين والآخر ، يعزّز مشاعرها ويؤكدها .

قالت : «بإمكاني أن أنشر قصتك بين العالم . ولكن الناس الذين هم ناس لا يعملون مثل هذا الشيء . أما أنت يا « بيبي باركر » فلست من الناس . لم تلبس قدمك أي حذاء أبداً في حياتك ، ولم يلبس راسك أي قبعة أبداً . أنا أقول انك انت لست من الناس » .

سرت همهمة بين الجمهور . لقد ارتدّت « بيبي باركر » إلى سكوت مشرِّف . كانت صامتة ، لكنها لم تكن خائفة . لقد بدت ، تحت أشعة الشمس المبكرة ، قاسية ومتحدية .

« هات كعكي ، يا سيد « سافوري » ، ودعني أذهب » . لقد تجاهلت « شيلا » . تهامس الجمهور . فتح « سافوري » العربة وابتدأ العمل . جمعت « بيبي باركر » أغراضها وشقت طريقها بين الزحام .

قالت وهي تشق طريقها نحو الدكان : « من الناس أو من غير الناس ، أنا لست قاتلة الرجال . أنا نظيفة مثل الثلج يا « شيلا » ، نظيفة . وأنت لا ، لا » .

سألت المرأة الأخرى وهي تتقدم لمجابهتها : « ماذا قلت ؟ أنا ما سمعتك » .

لقد حزر صاحب الدكان كيف ستتطور الأمور فمنع الاثنتين من دخول الدكان . استدارت « بيبي » ورجعت إلى حيث تنتظرها « شيلا » . وقفتا متقابلتين ، يفصل بينهما ذراع واحد . تحلق الجمهور حولهما .

أصدرت « شيلا » التحدي ثانية : « خبّريني ماذا قلت » .

« أنت امرأة خبيثة . أنت وسخة » كانت لهجتها كمن يكشف سراً . ضاقت الحلقة لأن الجمهور كان يزدحم حول المرأتين . وقفتا قريبتين ، على بعد ذراع واحد من بعضهما ، وكانتا تتنفّسان تنفّسا سريعا وثقيلا فيما تتبادلان النظرات القاتلة .

قالت شيلا : « أعيدي ذلك » .

« أنت وسخة » .

ازداد ازدحام الجمهور . صاح أحدهم : « يا « سوزي » ، إرجعي ، الأشياء تحدث هنا » .

والحقيقة هي أن الواقعة قد وقعت . لقد اشتبكت المرأتان في عناق قاتل فوقعتا على الأرض وأخذت كل منهما تعضّ أعضاء الأخرى . أخذتا تتدحرجان وتتدحرجان حتى أصبح وجهاهما في غاية البياض بسبب انغماسهما في الكلس ، واحمرت عيونهما ودمعت بسبب الغبار . وبفعل حركاتهما المتوحشة تكسرت الأصداف وتطايرت فمزقت ثيابهما، وأخذت قطع القماش تتساقط ويلتصق بدلاً منها الكلس القاسي المبتل بعرقهما ، بجلدهما . اتسعت حلقة المشاهدين حتى يمر الهواء ويتسع المكان للمتبارزتين . لقد وقعتا في القناة ، غير أن قوة جسديهما رفعتهما إلى الطريق من جديد . جاهدت كل منهما حتى تقوّي قبضتها فكأن مصير المعركة يعتمد على قوّة سواعدهما . لكنهما أنهشتا أسنانهما مثل الكلاب . وكانتا تغرسان أظافرهما كل في جلد الأخرى ، كلما سنحت الفرصة . صاح الجمهور صياحاً هستيرياً . والتحمت هذه الأصوات بالرِّياح فرحلت بين الأشجار وفوق

أعالي البيوت . وتصارعت المرأتان الممدَّدتان على طولهما في عناق مرير ، منهوكتين ، تشتمان وتبكيان . أسرع الصبيان حول المنعطف ، وكان بعضهم يرتدي الزلاجات ، وبعضهم يركض متسابقاً على العجلات . وكانت أصواتهم تصخب بانفعال مبتهجة بهذه المناسبة الرائعة . فكأن المناسبة هي احتفال راقص عامّ دعي إلى حضوره الجميع بدون أي شرط أو قيد . اختلط الريح بالصياح بأصوات الصبيان الصغار وامتزجت بحيث يستحيل تمييزها عن بعض . جلس « سافوري » فوق عربته المغلقة صامتاً وقوراً يتطلع إلى القرية التي ظهرت كأنها جهنم نفسها .

حضر شرطي ، فتلاشى الجمهور . وقفت المرأتان باسترخاء يكاد أن يكون تحدياً قاسياً ، وانتظرتا أن يبادرهما بالكلام . كانت ثيابهما ممزقة شر تمزيق ، وبانت علامات سوداء وزرقاء على جسديهما من تحت قطع القماش المتطاير . لقد تركت أسنانهما وأظافرهما علامات عميقة وواسعة في جلدهما ، وظهر في بعضها مساحات تنزف دماً . وقفت كل منهما وقفة تنمّ عن التحدي بل الانتصار . توجه الشرطي نحوهما . كانت طريقته سريعة ومناسبة ، وقد ظهر ، من تحت زيه الأسود والأبيض ، في غاية الرسمية . كانت خوذته وزناره وأزراره الفضية التي تصطف على صدر جاكيتته تتوهج تحت أشعة الشمس . أخذ دفتر الملاحظات الأسود من جيب صدريته وسحب قلماً من وراء أذنه . وقد كان القلم مخفياً تحت حافة الخوذة .

قال وهو يقلب صفحات دفتره : « لماذا لا تقدرون يا ناس ، كلكم ، أن تعيشوا مثل الناس في « بلفيل » . كل يوم تتقاتلون وتتشاتمون وتتعاركون وتخلقون لي شغلاً كثيراً أكثر مما أقدر عليه . ما الغلط الذي فيكم يا ناس ، ما الغلط » ؟

لم تتكلم المرأتان .

« ما هو اسمك » ؟ سأل دون أن يرفع نظره عن الدفتر .

قالت إحداهما : « شيلا جرايمز » .

قال : « تهجِّيه » .

وقبل أن تتكلم بدأ هو يتكلم ثانية : « لقد كنت مناوباً الساعة السابعة في الناحية الأخرى من البلد ، والناس البيض كأنهم لا يتكلمون . انهم في منتهى الهدوء » .

« هم أعظم من أن يتكلموا » ، قال صبي صغير . كان يضحك ساخراً . استدار الشرطي نحوه متحدياً ولكن الصبي كان قد هرب مثل الجرذ .

« تعالا معي » ، قال الشرطي وهو يستدير ليواجه المرأتين . أعاد الدفتر إلى جيبه ووضع القلم وراء أذنه . بدا عليه الغضب الشديد . هنا وهناك كانت بقايا الجمهور تمشي متظاهرة أنها لا تتلكأ . لقد نفخ « سافوري » في صفارته ، فكان في صفيرها وفي صدى خشخشة عجلات العربة ، إنذار جديد لمن ينتظرونه في المحطة التالية .

لقد تابع الرجال كل ما جرى هادئين من مكانهم في دكان الإسكافي . لقد حلا لهم ، في البداية ، أن يقتربوا من زاوية الشارع ليشاهدوا العراك مشاهدة أفضل ، ولكن الإسكافي اعترض . لم يكن يثق في الشرطي ، ولم يكن واثقاً أنه لن يعتقل أحدهم لأنه يتلكأ أو لأنه أثار المعركة . فقال لهم أن يجلسوا هادئين ويروا ماذا يحدث في قرية تفتقر إلى من يقودها . كانوا ينظرون كمشاهدين ، وقبل أن يصل الشرطي بقليل ، كان السيد « سلايم » قد وصل بسيارته . أوقف السيارة خارج دكان الإسكافي وتحدث إلى الرجال من داخلها . قال لهم أن يعودوا إلى عملهم عند الظهيرة . لم يزودهم بأي شرح تفصيلي ، غير أنه أكد لهم أن الوضع مرض في الوقت الحاضر . لقد اجتمعت سلطات الشحن ، وكان بينها السيد « كريتون » ، المالك . كانوا يعيدون دراسة الوضع ، وقد وُعِد السيد « سلايم » أن الأجور ستتغير في الأسبوعين القادمين . وستدفع الأجور الجديدة للرجال ابتداء من يوم الإضراب . بدت هذه النهاية لانتظارهم غير مثيرة إطلاقاً . لم يكن أي منهم يعرف ما يتوقعه بالتحديد ، غير أنهم شعروا بخيبة الأمل حين علموا بما حدث . يعودون جميعاً إلى الميناء عند الظهيرة . فكأنما لم يحدث شيء أبداً .

أصبح الهواء هادئاً ومنعشاً من جديد . وظهرت فوق رؤوس البيوت البعيدة طبقات رقيقة من الدخان بدت كأنها تسير وتتسع ثم تنحل في الهواء .

زحفت بين رؤوس الأشجار وتداخلت مع أوراقها ثم رحلت . وفي البيوت كانت عمليات الطبخ والغسيل على أشدها . كان أحدهم يغني . كان الصباح ينبعث إلى الحياة بهدوء وانتظام ، رغم فجره المضطرب . توسط الشرطي المرأتين ، وسار ثلاثتهم الهوينى في محاذاة سكّة القطار متجهين نحو السور العالي الذي يفصل بين نوعين من المستأجرين . كان القرويون يسمون الأحداث التي من نوع ما قامت به المرأتان الضرب والإهانة وذلك يستدعي حتماً الاعتقال السريع للمعتدين . لكن طريقة هذا الشرطي في تأدية مهماته مختلفة . كانت له طريقة تبعث على الاحترام دائماً . لم يكن يتخلى عن رسميته أبداً حتى حين كان يتقصد التودد والمسايرة والأنس .

قال أحدهم : « إنه رجل شرير لا قيمة له . إنه يحب نساء السوء » .

وأضاف غيره : « لن يعمل لهما أي شيء . سيصلح بينهما ويرتب أموره معهما » .

حينذاك قالت المرأة العجوز التي كانت تتلكأ في جانب الطريق متعثرة : « هذه هي طريقتنا في الحياة » .

وقف الرجال خارج باب الدكان يعيدون التفكير في ما يعملون . ما يزالون قلقين بسبب المالك ، غير أنهم لم يعبروا حتى الآن عن ذلك القلق . من الواضح بالنسبة إليهم أن القضية لم تنته بعد . قد ينتقم المالك ، غير أن السيد « سلايم » قد أشار إلى أن القضية لم تنته بعد ـ سواء انتقم المالك أم لم ينتقم . وقد قال لهم إن هناك قضايا أكبر أهمية حتى من الإضراب . لكن عليهم العودة إلى أعمالهم . أصبحت الطرق آمنة الآن . راقبوا الشرطي والمرأتين يعبرون وراء السور العالي ويختفون عن الأنظار . سارت الفتاة « كتسي » و« بوب » في طريقهما كأن شيئاً لم يحدث . كانت الفتاة ما تزال تحمل العصا التي استخدمتها في إثارة غبار القناة ، وكان « بوب » يحمل المشط الذي يعزف عليه . بدا كل شيء نقياً ونظيفاً وهادئاً .

سأل « بوب » : « لماذا قامت المعركة » ؟

قالت « كتسي » : « الله أعلم . أما أنا فلا أعلم » .

هب الريح هادئاً غير عابىء بما حدث . سار في طريقه ، مثل « بوب » و« كتسي » ، جاهلاً غير مكترث وفي غاية السرور .

سألت « كتسي » : « لماذا لا يعمل أبوك اليوم » ؟

قال « بوب » : « الله أعلم . أما أنا فلا أعلم » .

٦

كانت الببغاوات تصيح من فوق أعالي الأشجار ؛ وكان الندى ينقط عن الأسوار وعن الحشائش الطويلة التي كنا نسير فوقها . وقد ارتمت الحشائش وراءنا مذبوحة بخطانا وكان الماء يرتعش على حواف أوراقها . ارتفعت الحشائش عالية أمامنا ، وتجمّع الندى بحراً من النقاط فوق سطوح أوراقها فظهرت كأنها آلاف العيون في غموض الصباح القريب البزوغ . كانت الساعة الخامسة وكان الجرس يقرع في ساحة المالك ونحن نتخطى حدود القرية في طريقنا إلى البحر . لفّ « بوب » ثياب استحمامه حول معصمه فبدت مرتبة ملمومة كأنها قفاز ملاكم . وكنت أنا ألبس ثياب الاستحمام تحت بنطالي وأحمل منشفتي فوق ساعدي . قرع الجرس وبين دقاته كنا نسمع صياح الببغاوات متداخلة مع رجع الرنين . توقف الجرس ، فلم يبق غير صياح الببغاوات تعلو مثل عويل مذبحة نحو السماء . وكانت ترتفع فوقنا نجمة الصباح قاسية وبعيدة كالماسة . كانت تتمتع ببعض الضوء مثل الندى ولكنها لم تكن تتوهج . ظهرت كأنّها شعلة صلبة رباعية الشكل ستنكسر تحت المطرقة وتتناثر بفعل هذه الضربة إلى ملايين الشظايا التي يبقى كل منها صلبا وثابتا مثل النجمة نفسها . رأينا النجمة ولكننا لم نتكلم ، وفجأة عرفت أن ثمّة في الأمر سوءاً . غير أن ذلك ما همني ، إذ فجأة تشققت الغيوم في الجانب الآخر من السماء وانبثق الضوء من ذلك الشقّ الممزق مشرقاً براقاً . وقد ظهر كأنّه ، على البعد ، يتلمس طريقه كالأعمى في ظلام الشوارع . لقد وصلنا الآن إلى « بلفيل » حيث يسكن البيض ، وحيث تسمى الشوارع المحددة بأشجار النخيل أحياء .

البيوت هنا كلها بيوت مستقلة ، عالية وواسعة ، ولها نوافذ مطلة وشرفات واسعة . كانت زجاجات الحليب مجموعة فوق العتبات ، وكان الضوء ينبعث ، أحيانا ، من المطابخ حيث يعد الخدم قهوة الصباح الباكر .

سرنا في هذا الحيّ نضرب الأسوار بأيادينا ونرفس الأصداف من الرصيف إلى الشارع . كان الصباح قد بدأ يتشكل ، وحين طلبت من « بوب » أن ينتظرني ريثما أنسلّ خلف نخلة لأتبوّل ، صار بإمكاني أن أرى ما يحدث بكل وضوح . رأيت الببغاوات من جديد تقفز من جذع إلى آخر وتصدح بصراخها عبر الضّوء . مشينا الحيّ كله حتى انتهينا إلى تقاطع طرق يضيق في أحد جوانبه إلى زاروب يفضي إلى بيوت صغيرة رثّة . انحنى « بوب » وتناول صدفة وضعها تحت لسانه . ثم واجه الشرق وانتزعها من فمه ورماها فوق رأسه . كان ذلك فألاً حسناً . ثم همس لي وقد عوج رأسه بحدّة بأن يأخذ كل منّا درباً مختلفاً . كان يريد أن يكتشف أي الدربين أقصر ، وقال إنه سيسير في الزاروب الذي يمر عبر البيوت الرثة . قال : « بدون ركض . سنمشي كما كنّا نمشي طول الوقت » . وافقت ، فسار في الزاروب . انتظرت مراقباً كيف يحشر هذا الزاروب المتلوّي نفسه بين البيوت . اعترى وعيي بعضُ التوقف ، ثم سرعان ما أدركت انني واقف في الزاوية أقلّب فكرة « بوب » في عقلي . فجأة ركضت في الزاروب إلى حيث كان بوب قد لف نحو اليسار . مشيت في محاذاة السور حذراً ، ثم أخرجت رأسي فجأة عند المنعطف ، فاصطدم برأس آخر يبدو أنه قد تحرك حركة مماثلة من الناحية الأخرى . كانت صدمة رجّت دماغينا في الضوء الباهت . قال « بوب » وهو نصف دائخ ، إنه لم يتوقع أن أتجسس عليه ، أمّا أنا فسألته ، وأنا أستعيد بعض وعيي ، لماذا رجع ليتجسس علي . نظر كل منا إلى الآخر دون أن ينطق أي كلمة ، وعلمت أن ثمة خطأ .

كانت تشقُّقات الغيوم قد اتسعت الآن ، مشكِّلة أودية يفيض الضوء عبرها مثل نهر عريض فوق السهول المنحدرة . لقد كنت أسير في الطريق الذي يبتدىء عند نهاية الحيّ . كانت البيوت هنا شديدة التشابه شكلا وحجماً وحركة . صار الصباح الآن علامة واضحة لقدوم النهار . لقد سكن صراخ الببغاوات أو انه امتزج بغناء غيرها من الطيور ، وقد كانت متعدِّدة الأنواع . كانت السنونوات

تغنّي غناء سريعاً متقطعاً تبدو أشبه بالصُّدفة منها بالقصد والتعمّد . أما الشحرورات التي كانت تتمسك بالأوراق بمخالبها فكانت تعول عويلا حاداً مرتفعاً تعيساً أسود في سواد ريشها . وحدها الحمائم وجدت بعض السَّلام في هذه البيئة ، على ما يبدو . كانت كلها ، تقريباً ، على الأرض ، تطير من الرصيف إلى الشارع وبالعكس ، وتنطنط فوق الأسوار ، وتقفز إلى الأغصان المنخفضة ، ثم تعود إلى الطريق . كانت تسير في مواكب مكتظَّة فوق ملعب التنيس . وقد بدا كأن أبدانها البنيّة اللون ترتفع مرّة واحدة لملاقاة رقابها الزرقاء المطوقة ورؤوسها التي لم تكن مستديرة ولا مسطحة . ركَّزت الشمس أشعتها فوق هذه الحمائم فمشت حلقات حلقات فوق الملعب . لم يميز الانتظام سيرها ، ولكن حركتها كانت متناسقة منتظمة ، وهي تقطع المرج الأخضر من طرفه إلى طرفه ، موقِّتة سيرها بهديلها وحاملة في عيونها ألوان قوس قـزح كلها . لم تتنازل السنونوات ولا الشحرورات إلى الطيران المنخفض والاشتراك مع الحمائم ، وخطر لي فجأة أن معظم الضحايا التي كانت تعلق في شباكنا كانت من السنونو والشحرور ، وقلما اصطدنا الحمائم .

ترنحت نحو نهاية الطريق وأنا أراقب الغيوم . لقد شردتها الشمس في عدة اتجاهات مانحة إياها أشكالاً مختلفة . وقد تجمع بعضها فوق بقعة ممتدة من السماء مشكِّلاً موجة بيضاء كثيفة . وظهر كأن هناك قوّة خارجية تدفع هذه الموجة ، غير أنها سرعان ما تفجرت من داخلها ، وتحرك الانفجار بطيئاً نحو السطح . أصبحت أكثر بياضاً ورقّة ، ثم تحوّلت إلى أشكال عديدة من الجزر والرجال والوحوش ، ثم انحلت هذه الأشكال إلى أشكال صغيرة تطايرت كالرَّذاذ في وجه السماء الضاحكة . وكانت السماء أشبه بشخص مستأسد كبير عظيم يقرر حياة هذه الأشكال المترنحة أو موتها . تطلَّعت إلى الجهة الأخرى من السماء حيث ساد الهدوء كل شيء وكانت الغيوم تكوِّن خرافة من الخرافات . كان الرجال والوحوش في هذا الجانب . كان حملان وديعان ينامان في ظل رقبة أسد مغطاة بفروة كثيفة طويلة . كانت ذقن الأسد متجهة نحو نهاية السماء بحيث تشكلت فجوة لفَّت الحملين النائمين . وكان رجلان ، على بعد عدة ياردات ، يتبادلان الحديث بجدية توحي أن موضوعه هو الحياة والموت . ورغم أنَّ شكليهما لم يكونا متقنين كل

الإتقان ، فإن التفحّص الدقيق كان يدل بوضوح على أنهما رجلان . أما الحيوانات فقد كان تشكيلها أكثر إتقاناً ودقة ؛ وأما الرجال فقد اعترى أشكالهم التّشويه . كان الضوء مقلقلاً ، وبدا كأنَّ الاشكال تتخذ ألواناً مختلفة . كان أحدها يزداد بياضاً كلما حابته الشمس فانحدرت نحوه ، وكان غيره يزداد كثافة وعتمة كأن المطر على وشك أن ينهمر . ثم فجأة أصبحت الأشكال أكثر وضوحاً والألوان أكثر تحديداً . وقد اكتست الغيمة الماطرة باللون الأسود وأصبح لها وجه ممتلىء ثقيل كوجوه معظم القرويّين . كانت الأشكال ساكنة ، وقد حدَّقت في بعضها بعضاً كأنها منغمسة في فوضى مشتركة عامَّة لا تفقه لها معنى ، ولكنها ترغب كل الرغبة في الخلاص منها . كانت تحدِّق وقد فقدت عيونها ، غير أنها استطاعت أن ترى بعضها بعضاً ، بطريقة أخرى غير العيون ! وبينما كانت هذه الأشكال تحدِّق إلى بعضها بعضا شكَّلت الغيوم الملتفَّة حول رؤ وسها قوساً يتألَّف من هذه الكلمات : ألستَ أخاً من إخوتي ؟ أصبحت حدود الأشكال أكثر حدَّة ، وقد تغيَّر لون الأكثر بياضاً منها فاشتد كثافة وسواداً ، ثم ما لبثت أن تفجَّرت حبَّات كبيرة من المطر انهمرت في انحدار السَّماء . لقد أصبح الانحلال تامّاً . لم تتضح هوية المتكلم ، إذ لم تكتب الغيوم جواباً . لكن الرجال قد رحلوا . لقد كانت هذه الحادثة غامضة غموض الغيوم التي أسبغت عليها المعنى ، فما كان مني غير أن أكرر السؤال ، وأنا أتطلع خلفي لأرى موقعي من الحيّ فأرى البيوت الكبيرة الجميلة تنتشر في طول الطريق . نسيت تلك الكلمات وأنا أتذكر « بوب » وأتساءل عما إذا كان قد بلغ الشاطىء . كان المطر يتساقط خفيفا حين وصلت آخر تلك الطريق . نظرت حواليّ ، ثم حين تنشَّقت الهواء المالح ، ركضت لملاقاة هياج البحر على الشاطىء .

كان « بوب » يكسر بعض بيوض البحر على أنبوب حديدي يمتد من الأرض القريبة من الشاطىء إلى داخل البحر . كان يشقِّق الأصداف بضربها بالأنبوب ، ثم يفسخها قسمين ويغمسها في الماء قبل أن ينتزع لحم أجوافها من بين طبقاتها الصدفية . كان عدد لا يحصى من هذه الأصداف ملقى على امتداد الشاطىء ، وقد أظهر الضوء حركة هياكلها الشوكية في احتضارها . كسر بيضة جديدة . فَسِرْتُ أنا نحوه آملاً أن أشاركه في أكلها ، غير أنَّه قمع محاولتي . غرف اللحم

الطري بسرعة من بين أحشاء بيضة البحر الخضراء ثم رمى بالصدفة إلى البحر . بعدها أخذ يركض بعيداً عن الشاطىء متظاهراً بالبحث عن شخص ما . ركضت خلفه ، غير أنه سرعان ما غيَّر اتجاهه فالتفَّ حول الحمّام العمومي واختفى بين الكروم . عرفت بوضوح أن ثمة خطأ ما . عدت أدراجي نحو الشاطىء ، وبعد أن تأكدت من أن ثيابي موضوعة في أمان فوق الصخور قذفت بنفسي في الماء وسبحت حول اليخوت وتحتها . وحين صعدت إلى سطح الماء أحسست بالماء في داخل أذني . كان يهتز مع كل حركة يتحركها رأسي ، وكان ارتطامه واحتكاكه باللحم الداخلي لأذني أشبه بقفز حرذون ينطنط فوق جسدي . سبحت إلى حيث يتضاءل الماء ، وقفزت واقفاً على رجل واحدة وأنا أحرك رأسي من جهة إلى أخرى . شقّ الماء طريقه خلال أذني وسال ينقط فوق أرنبتها بحيث زودني ممر أذني المتحرر بشعور بالراحة الغامرة يشبه ما تشعر به حين ترتاح المثانة بعد حصر بولي . استلقيت على ظهري فاسحاً المجال لساعدي وساقي ليعوما فوق الماء متسائلاً عن المشكلة القائمة بيني وبين « بوب » .

هل كان ذلك يوم الخميس أو يوم الجمعة ؟ لا أذكر ، لكن « بوب » كان يجلس على عتبة الدكان يرسم أشكالاً بقطعة من الفحم . لقد توقفت في الزاوية لتحيَّته ، وأنا عائد إلى البيت من الصف الصباحي الذي كنا نسميه دروساً خصوصية ، لكن أمي رأتني من الشرفة فنادتني آمرة بالسرعة . ركضت صوب البيت ، فأنزلت أمي حزامها الجلدي عن مسماره وضربتني به ضرباً مبرحاً . سمع « بوب » صوت السياط فاقترب من بيتنا يتنصَّت . كان من عادة كل صبي ألّا يفوِّت أي فرصة ممكنة للتنصت على غيره وهو يضرب بالسوط ، وهكذا حضر « بوب » فاستمع إلى قول أمي معربة عن رأيها في الوقوف في الزاوية . كانت تتكلَّم وهي تسوطني بهدف أن أتعرف إلى السبب الذي استحققت هذا العقاب لأجله ، ولم أكن لأجيبها بأي كلمة مطلقاً ، إذ جرت العادة في بيتنا ألَّا يرد المتهم بأي جواب . وكانت تسوطني وتتكلم عن تلك الزاوية . إنها تحتقر تلك الزاوية حيث يجلس الرجال للمقامرة دائماً وتأخذ النساء في الثرثرة واستغابة غيرهن وكيل التهم والتشاتم . رأيت الزنار ، وأتاني صوتها كبعث غير متوقَّع ينتفض عبر الماء .

« وكل ما أقوله للصبي عن هذه الزاوية لا يسمعه . أنا أصلّي وأعظ هذا

الصبي في الصباح والظهر والمساء . أقول له كل شيء عن حقيقة هذا العالم وعن ما يجب عليه أن يتوقعه ، لكن الصبي لا يسمع كلامي ، لا يطيع ، لا يطيع أي كلمة أقولها له . وأنا لا أقول لك ممنوع اللعب ، لا أقول لك ممنوع أن يكون عندك أصحاب ، لكن تلك الزاوية غير صالحة لك . أخبرتك مرة ومرتين وثلاث مرات ، أخبرتك أنك لازم تختار . إمَّا أن تنضم إلى العصابة في الزاوية وتطيعها وتلتزم بأوامرها وتعيش مثل حياتها وتريِّحني من تضييع وقتي ، وإمَّا أن تطيع كلامي . لا تقدر أن تعبد ربَّين . أنا عارفة أن كلام كبار السن صحيح : تأخذ الحصان الى النبع لكنك لا تقدر أن تجبره على الشرب ؛ وأنت إن كنت بدون عقل فلا فائدة من تربيتي ! سيضيع كل تعبي في البالوعة . العقل هو الرَّجل . هذا كل ما عندي لأقوله لك . وأنا أقوله لك ، أقوله لك ، مرة ومرتين وللمرة الثالثة والأخيرة ، أقوله لك : إن لقطتك عند الزاوية مرة ثانية ، سأشوي ذَنَبك ! » .

لقد سمع « بوب » ما يكفيه فعاد إلى الزاوية ينكش الأرض بأصابع قدمه ، وربما كان يفكر في ما سمع أمي تقوله عن الزاوية والعصابة . وفي تلك اللحظة تفجَّر الخناق ـ سمعت أمي الصراخ فاقتربت بزنَّارها مني مهدِّدة بضرب جديد . « الشيء نفسه الذي كنت أكلمك عنه . ولو أني ما ناديتك ، الله وحده يعرف ما كان جرى لك . إحمد ربك إن عندي عينين لأرى وعقلا لأفهم . لكنك يا عنيد لا تطيعني وتسمع كلامي ، يا عنيد ، يا أطرش ، لا ينفع معك غير الضَّرب » . وعندها شعرت بالزنار يلسعني شديداً على ساقي ، فصرخت بصوت عالٍ جداً . « يا عنيد ، يا أطرش ، لا ينفع معك غير الضرب » . رفعت الزنار لتضرب من جديد ، غير أنني لم أستطع مقاومة التحول الذي حصل داخل رأسي . انبثق الضحك من خلال دموعي ، لأن تلك الكلمات التي نعتتني بها استحضرت في بالي صورة غرفة الصف والمعلِّم المكرش السيد « بروس » الذي كنا نسخر منه بهذه الكلمات نفسها : « يا عنيد يا أطرش لا تسمع كلامي ، يا عنيد يا أطرش لا ينفع معك غير الضَّرب » . لم أستطع كتم ضحكي بسبب تذكري للسيد « بروس » المكرش ، في حين كنت أرتعش والدموع تسيل على خدّي وأمي تنتصب فوقي ويدها مرفوعة والزنار يتدلى فوق رأسي . انهمرت الدموع يتخللها الضحك ، بحيث احتارت أمي إن كنت أضحك أم أبكي ، أو أي هذين العملين

اخترت . كان ذلك أشبه بصباح مشرق بالشمس الوضّاحة والمطر ينهمر بالقوّة نفسها فيحتار القرويون أي طقس يتوقعون . تحركت كأنها تنوي أن تضرب من جديد ، فأخبرتها بسرعة بماذا كنت أفكر ، وماذا جرى ، وكيف أنها تسبَّبت في ضحكي بقولها : يـا عنيد ، يا أطرش ، لا تسمع كلامي ، يا عنيد يا أطرش ، لا ينفع معك غير الضّرب ؛ لانها جعلتني أتذكر السيد « بروس » المكرش الذي تعرفه معرفة أفضل مني . حينها حصل التحول في رأسها ، فأخذت تضحك كأن هناك شيئاً بشأن السيد « بروس » يثير ضحكا أشد ، وأنا أجهله . ضحكت ، وتغيَّر وجهها كأنه وجه فتاة شابة بحيث انسابت الشمس من خلال شقوق السّقف إلى داخل عينيها فاغرورقتا وبللت الدموع خديها كخدي . كان هناك ما يثير الضحك في السيد « بروس » بحيث أنني كلما حاولت أن ألفظ اسمه كنت أنهار ضاحكا ، وكانت هي أيضا تنهار ، بحيث بدا كأننا كلينا نضحك ونبكي ، ونبكي ونضحك في الوقت نفسه مثل الأطفال في السيرك ، وبدا كأننا غير قادرين على التوقف عن الضحك ذلك الصباح ، وأنا في غرفة النوم أسرِّح شعري ، وهي في المطبخ تعدّ إفطاري قبل أن أذهب إلى المدرسة ، وكان كلانا يضحك ويضحك .

في يوم الأحد التالي كنت في طريقي إلى مدرسة الأحد ، بينما كان « بوب » و« ملك البو » و« الصبي الأزرق » يلعبون لعبة الحجلة في الزاوية . كان من عادة أمي دائما أن تخرج إلى الدرج تراقبني حتى اتخطى تلك الزاوية ، وكانت تقف على الدرج تراقبني مراقبة دقيقة طول الطريق . كان ما يشغل بالها أكثر من الزاوية أو الصبيان هو حذائي . كنت أنتعل حذائي الأحسن في أيام الآحاد فقط ، وفي هذه الأيام تتخذ أمي موقفاً مني ومن الأصداف في الشارع شبيها بموقف أحد المراقبين . تصبح عنيفة وعدوانيَّة وصارمة . وقد كان يغمرها ، على ما يبدو ، الإحساس بأنني سأتحالف متآمراً مع أصداف الشارع ضد الحذاء ، فكانت حين أرجع إلى البيت في المساء الباكر ، تتفحص الحذاء : وجهه ونعله وكعبه تفحصا دقيقا لاحظت الصاغة يقومون بمثله لدى تفحصهم الجواهر .

حين بلغت الزاوية تطلعت خلفي لأرى إن كانت ما تزال في وقفتها فجاءني صوتها حادًّا كرصاصة تخصي نظرتي . « لماذا تنظر خلفك ؟ » صاحت . سرت مرفوع الرأس وقطعت الزاوية بخطى في غاية الدقة والحذر متجاهلا « بوب »

والصبيان الذين يلعبون معاً . تابعت سيري دون أن ألتفت خلفي أبداً خوفاً من أن تكون هي خلفي جاهزة لإصدار حكمها على نيَّاتي .

جمعت شمل هذه الأحداث معاًوتساءلت عن موضوع « بوب » منها . حينها ارتطم رأسي برمل البحر فاستعدت البحر ومحيطه في وعيي . لقد وصلت الشاطىء ، وقد طفا جسدي نحوه فوق الماء . نفضت بدني وتمشَّيت على الشاطىء ذهابا وإيابا حتى نشَّفتني الشمس . كانت ثياب « بوب » مكومة فوق الصخور على بعد ياردات قليلة من ثيابي فعرفت أنه ما يزال هنا . لو لقيت « بوب » ، فكَّرت ، لصارحته بكل شيء . مهما قيل أو عُمِل كنت أدرك جيداً ما أريده : أن أكون صبياً بين الصبيان .

كانت الشمس تضيء الشاطىء ، وكان الكرم البري الهائج فوق الرِّمال يتشابك بين قدمي . كانت البنات تبني القلاع والقصور الرملية ، وقد استلقت إحداهن متمددة وظهرها نحو البحر مشكلة حاجزاً يمنع الماء ، في حين انهمكت الأخريات في وضع الأساس للبنيان . كانت السراطين ذات الظهور الحمراء تسترق النظر من تحت الكرمة ، فرأيت ، لأول مرة في حياتي ، سرطانين يتحابَّان بطريقة غريبة . كان ذلك كشفاً : رؤيتي للجسدين المشتبكي المخالب منضمين معاً في عناق حميم . امتدت مخالبهما ملتفة حول بعضهما بعضا والتصق أسفل جسديهما معاً . واضطجعت عيونهما دون حراك في محاجرها كأنها رصاصات حمراء صغيرة ، فبدا كأنهما ، في هذا التمرين الصامت ، مستغرقان في النوم . وظننت أن هذه التجربة هي من حسن حظي ، لأنني لو التقيت « بوب » الآن سأبدأ حديثي معه بإخباره عن هذين السرطانين . سرت في محاذاة الكرم ، مروراً بمقبرة الجنود ، متجها نحو المنارة .

اتخذ البحر منعطفا متعرجا حول الأرض. هذا الجانب من المنارة يبدو كأنه منفصل كل الانفصال عما رأيته في الجانب الآخر . ولم يكن من السَّهل تمييز أين يبدأ الاختلاف ، لأن الأرض كانت تنبثق من الشاطىء كأنها رأس إبرة . وكانت المنارة عبارة عن حارس خشبي يحدِّد انفصال الشاطىء عن ذلك الجزء من الأرض الذي يمتد على شكل إبرة حتى يدخل البحر . غير أنه بدا لي أن انفصال البحر يبدو

من حيث تنتهي إبرة الأرض برأسها المدبَّب . كان البحر في المنطقة التي استحممت فيها ساكناً ورائقاً كالكريستال مع وجود مساحات من الطّحلب تلوّن رتابة الرمل الأبيض . كنا أحيانا نرمي الدبابيس في الماء وننتظر حتى تغوص في الرمل ثم نغطس فننتشلها . وكنا قبل أن نغطس نستطيع أن نرى المعادن تلمع قليلا في مقابل لون الرمل الأغمق . وكان الصبيان الأكبر على مسافة أبعد يغوصون من أجل القطع النقدية الصغيرة . كان الرجال البيض ، وهم من السيَّاح دائماً ، يرمون هذه النقود من النادي في جميع الاتجاهات فيتسابق الصبيان غاطسين تحت الماء . كان البحر أكثر عمقا في تلك الجهة ، ولم تكن النقود تصل الرمل أبداً إذ كان في مقدور الصبيان أن يروها وهي تنزل في طريقها إلى الرمل . ولكن الرجال البيض حين كانوا يتمتعون بهذا اللهو كانوا يأمرون الصبيان ألَّا يقفزوا إلى الماء قبل استقرار النقود في الرمل . وبعدها يغطس الصبيان بينما يراقب الرجال البيض الأطراف السوداء تمتد وتنبسط متزاحمة متدافعة . وكان الصبيان يصعدون إلى سطح الماء بعد عدة دقائق وهم يتخاصمون متَّهماً كل منهم الآخر . كان بعضهم يتذمَّر لأنهم قد رفسوه أثناء التزاحم ، ويشتكي آخرون من الخدوش التي أصابتهم . وكان الرجال البيض يتضاحكون ثم يقررون تسوية الخصام فيرمون المزيد من النقود في البحر . أما إن استمر الخصام بعد ذلك فإن الرجال البيض يقولون لهم أن يسوّوا خصامهم بالقتال ، فكانوا يتقاتلون.

وكان القتال في البحر يتطلب أربعة صبيان ، اثنان منهم هما المتبارزان بالفعل . أما الصبيان الآخران فيحملان المتبارزين فوق أكتافهما . لم يكن الرجال البيض يفهمون كيف يقوم الصبيان بذلك ، فكانوا يتطلعون مستغربين كأنهم يتفحصون حيوانات غريبة ، في حين يمتطي الصبيان أكتاف مسانديهما تاركين سيقانهما تتدلى في الماء . كان المساندان يسبحان نوعاً من السباحة بحيث يكاد رأساهما لا يظهران فوق الماء . ولم يكن بالمستطاع الحفاظ على التوازن أكثر من نصف دقيقة ، وحين يختل التوازن كان على المتبارزين أن يمتطيا أكتاف المساندين من جديد ، وبعد أن يتكرر ذلك مرَّات عديدة وتصبح المعركة كأنها لعب لا معنى له ، كان الرجال البيض يأمرون المتبارزين بالقتال من غير المساندين . كان المتبارزان ، بدون المساندين ، يسبحان كل في اتجاه الآخر وهما يطرطشان أكبر قدر

ممكن من الماء ويقذفان الماء بقوة زنودهما كل فوق رأس الآخر . كانت هذه الطرطشة القوية هي السلاح المعتمد ، وكانت المعركة تستمر حتى يستسلم أحد المتبارزين حين لا يستطيع أن يحتمل بعد لذعة الماء المالح في عينيه . عندذاك يرمي الرجال البيض قطعة من النقود فيلقفها الرابح . لم يقو الماء في تلك المنطقة على إغراق أي شخص أبداً . وكانت الأمواج ، حين تأتي ، تعتبر هدايا من أحصنة بحرية يمتطيها الأطفال . كانت تعلو وتهبط في تدفّق رهيف كأنها صفوف وراء صفوف من الأرض المحروثة في الحقول ، وكان البحر أشبه بحقل متجعد ينعطف ويمتد حتى يصل إلى حيث تصبح الأرض كأنها إبرة تمتد داخل الأمواج .

لم يكن يعرف حقيقة الوضع في تلك الناحية من الأرض غير عدد قليل ، لكن كلّ شيء قد تغيّر في هذه الجهة من المنارة . كان الهواء مفعماً برائحة البحر الحادّة النيئة وكان البحر مهتاجاً . كانت الأمواج ترتفع عاليا عاليا بحيث تحجب كل شيء وراءها ، وكان الرّذاذ الأبيض يتطاير عالياً كأنّه قربان مجنون مقدَّم إلى الغيوم . وأحياناً كنّا نعتقد أن خطأ قد حصل في أعماق البحر وأنّ المياه سوف تبتلع الجزيرة بسرعة . وكان بعض الناس يقول إن الغواصات هي التي تسبِّب تفجّر البحر . فالغواصة تنفث نوعاً معيّناً من الغاز يضر بالتكوّن المرجاني الأرضي ، فكانت الأمواج تتفجر بسبب تفاعل غير مفهوم بين الأرض والبحر . وكان البعض الآخر يقول إنَّ هذا هو من المعجزات الإلهية التي تتجلَّى بطرقٍ مختلفة . فالسلام والسكون يدلان على الخالق الرحيم واهب الحياة ، بينما تبينِّ العواصف والتدمير الخالق الذي يعاقب الأرواح الشريرة . فالبحر ، كما ظنَّ الكثيرون ، هو تذكرة لقدرة الله . كان كل يخمِّن سبب هذا الاختلاف الكبير بين وجهي البحر على هواه ، فكان هناك تخمينات كثيرة ، ولكنهم كانوا جميعاً متفقين بشأن الخطر الماثل في الأمواج العاتية . ولم يكن يجرؤ على دخول هذه الناحية من البحر غير الصيَّادين الذين جنحت قواربهم وراء المنارة وانقلبت . وإذا ما وقع ذلك ، يضيع الصّيد وينزل الصيادون إلى البحر الهائج واللَّعنات فوق شفاههم . كانوا يشربون زجاجات الخمر التي يستطيعون إنقاذها ويخبرون الله بما يمكنه أن يفعل لأجلهم . كانوا يسألونه أن يعميهم إن استطاع ، هم وأمَّهاتهم وكل أفراد الجنس الأسود اللعين آكل السمك الذي سيموتون لأجله . وفي ضراوة الموت

كانوا يغرقون كأنهم خطاة مبتهجون يصيحون بتحدياتهم في وجه المحيط غير المكترث . وكان البحر يقذفهم إلى الشاطىء بعد أيَّام ، منتفخين ومزرقِّين ، ولهم رائحة السمك المتعفِّن .

ها هم : « بوب » و« الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » . كانوا يقفون في البقعة نفسها التي قذف البحر إليها ذات يوم ، جثَّة أحد الصيَّادين . كانوا يقفون وقد أداروا ظهورهم إلى الأرض مشكِّلين رقم «٧» وقد وقف « بوب » في النقطة التي يتفرع عنها الجناحان . كان المشهد أشبه بأحد الطقوس التي تراها في أركان الشارع حيث يأخذ الرجال بالتّبشير . كانوا يواجهون البحر وقد رفع « بوب » يده محكما قبضتها باستثناء اصبعين كأنه يبارك السمك غير المرئي . وفي هذه الأثناء كان « الصبي الأزرق » و« الورقة الرابحة » يمعنان النظر في الرمل الذي يغوص تحت ثقل « بوب » . سرت هادئاً في انحدار الشاطىء محاولاً أن أفهم معنى ما رأيت . استمروا في وقفتهم تلك فلم ير أي منهم قدومي إليهم ولم يسمعوه . وقفت قبالة « بوب » مباشرة ، بحيث تحوّل الرقم «٧» الآن إلى ماسة أشكِّل أنا و« بوب » مرتكزيها حيث يلتقي الجناحان ويندمجان . وكان البحر يهتاج على البعد . كانت الأمواج تقفز وتتعالى وتتسابق وتتصادم وتتساقط وتنبسط ثم تموت موتاً مزبداً أبيض قبل أن تصل إلى الصِّبيان .

قال « الورقة الرابحة » : « سننتظر الموجة التالية » .

قفزت الموجة التالية ثم لحقت بمصير سابقاتها .

قال « الورقة الرابحة » : « الافضل أن تقترب » . خطا « بوب » خطوة باتجاه البحر . تساقطت الأمواج في رتابة مزبدة فوق السطح الأزرق . انتظروا ، وكان « بوب » ينظر إلى البحر ، بينما ينظر الآخران إلى حيث يحفر كعباه وأصابع قدميه آثارهما في الرمل الغائص . كانت رائحة الهواء تشبه رائحة اليود والسَّمك النّيء وأوراق الدوالي . كانت هذه الرائحة تملأ الأنف والأذن والعين بحيث ظهر كل شيء واكتسب رائحة وملمس اليود والسمك النيء وعصارة أوراق الدَّوالي .

قال « الورقة الرابحة » : « تذكَّر . تذكَّر أن لا تنسى الكلمات ! » .

قال « بوب » : « لماذا أعطتك أمك أذنين ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « أنا لا أتذكر بأذنيَّ » .

سأل « بوب » : « بماذا تتذكر إذن ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « أتذكر بالتذكر » .

قال « الورقة الرابحة » : « يكفي مجادلة . هذه قضية مهمة جداً » .

سأل « بوب » : « ما هي الكلمات مرَّة ثانية ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « وحياة المسيح ، أنت أسوأ من « الصبي الأزرق » » .

قال « بوب » : « بسرعة قبل أن تصل الموجة » .

قال «الورقة الرابحة» : « إفتح اذنيك واسمع » .

قال « الصبي الأزرق » : «إنه لا يسمع بإذنيه » .

قال « الورقة الرابحة » : « طيب ، لا تبدأ الجدل من جديد . هذه هي الكلمات » .

قال « بوب » : « بسرعة . بسرعة » .

قال « الورقة الرابحة»: « عظيم . إسمع . الكلمات هي : يا بحر لا تتقدَّم » .

سأل « الصبي الأزرق » : « متى يجب أن يقول ذلك ؟ » .

فسّر « الورقة الرابحة » : « حين توشك الموجة أن تلمس أصابع قدميك » .

قال « بوب » : « عظيم » .

قال « الورقة الرابحة » : « أفضل أن تكررها قبل ذلك » .

قال « بوب » : « نعم . يا بحر لا تتقدَّم » .

قال « الورقة الرابحة » : « الأفضل أن تكررها في نفسك طول الوقت حتى لا تنساها في آخر دقيقة » .

إحتج « الصبي الأزرق » : « كلا ، لأنَّك لن تؤمن بها بعد فترة . فأنا اكتشفت أنني حين أكرر وأعيد شيئا ، كلمة مثلا ، فإنها تصير بعد فترة كأنها ليست كلمة ، بل مجرد صوت من الأصوات » .

قال « بوب » : « هذا صحيح . سأقول لآخر مرة : يا بحر لا تتقدَّم » .

قال « الورقة الرابحة » : « تقولها حين توشك أن تلمس أصابع قدميك » .

سأل « بوب » : « وإذا لم تلمسها ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « عندها تكون أحسن من الملك » .

سأل « الصبي الأزرق » : « أي ملك ؟ » .

قال « الورقة الرابحة : « قانوط ، الملك قانوط » .

سأل « الصبي الأزرق » : « من أين جاء هذا الملك ؟ » .

ضحك « بوب » و« الورقة الرابحة » .

قال « الورقة الرابحة » : « هو الملك في كتاب التاريخ » .

قال « الصبي الأزرق » : « لكن ، أين يعيش ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » غاضبا : « هو لا يعيش . هذا تاريخ » .

قال « الصبي الأزرق » : « قصدك هذه قصة » .

قال « الورقة الرابحة » : « إن أردت أن تسميها هكذا » .

سأل « الصبي الأزرق » : « أين قرأتها ؟ » .

قال «بوب » : « في كتاب « مايكل جون » . الحقيقة أنا ما قرأتها ، بل سمعت الآخرين يحكون عنها . أنا لا أقرأ مثل هذه السخافة . أنا أفضّل الصحيفة » .

قال « الورقة الرابحة » : « أنا أعرف « مايكل جون » . هذا هو الكتاب الذي يحتوي على سنة « ٥٥ » قبل الميلاد ومعركة هاستنجز » .

سأل « الصبي الأزرق » : « وفي هذا الكتاب ذاته حكوا هذه السخافة عن قانوط ؟ » .

قال « بوب » : « ليست سخافة . انظر ! انظر ! انظر! » تسلّقت الموجة الهواء كالجبل قاذفة بنفسها إلى الأمام ، وكان الرذاذ يتطاير ، ويزداد الجسم تجوّفا . كانت تتقدّم كأنها غبي سمين يجهل اتجاه سيره أو هو يجهل كيف يتعامل مع غضبه . تراجعتُ نحو الشاطىء .

قال « الصبي الأزرق » : « الأحسن أن تبدأ بقول الكلمات الآن » .

قال « الورقة الرابحة » : « نعم . الآن ! » . واستعد هو و« الصبي الأزرق » للهرب .

أحنى « بوب » ظهره ، وسمعنا الكلمات تخرج من شفتيه متعثرة : « يا بحر لا تتقدَّم . يا بحر لا تتقدم » خرج صوته كصرير حشرة لملاقاة هدير الموجة .

قال « بوب » وهو يرتعد خوفاً : « لا تتقدم ، لا تتقدم » . تقدَّمت الموجة كالغيمة المرعدة ، وارتطمت وتفجَّرت مثل خط من البرق فوق آثار القدمين التي كانت العلامة الوحيدة الباقية للدلالة على ملكنا الضَّال . تهاوينا في كرم العنب ، وقد أعيانا الضحك .

* * *

لم يرجع « بوب » ، فجلسنا تحت الكرمة ننظر إلى البحر . اختفت الشمس تحت غيمة ولاحظنا كيف ازداد لون الرمل دكنا ، وكثافة ، وتحوَّل لون مساحة كبيرة مستوية من البحر إلى الرَّمادي الرتيب . بزغتِ الشمس من خلال الغيوم ، فانتشر الضوء في كل مكان من جديد . نظرنا إلى الرمل والبحر ، وبدا كأن باستطاعتنا أن نرى تدرجات الضّوء ، لكن الشعور الذي انتابنا هو أن الضوء يتسلق خارجاً من تحت الرمل والبحر . سار صيّاد على الشاطىء متقدماً في اتجاهنا يجرّ وراءه شبكةً كبيرة فراقبناه حتى التفّ خلف المنارة واختفى عن أنظارنا . ظهر

كأن الشاطىء خالٍ من الناس باستثنائنا نحن الثلاثة الجالسين في نصف دائرة على الرمل تحت كرمة العنب . كنّا صامتين .

قال « الورقة الرابحة » فجأة : « إنه هكذا دائماً » ففزعنا من وقع صوته على الهواء ، كما لو أن أحدهم قذف حصاة على لوح من الزجاج .

سأل « الصبي الأزرق » : « أي شيء مثل أي شيء دائماً ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « أقصد طريقة وجودنا هنا . الوضع هكذا دائما في البيت . مثل ما نحن هنا . أمي هناك في ذلك الركن ، وأبي هناك في ذلك الركن الآخر ، وأنا في مكان آخر . وأنت تشعر بإحساس يقول إن كل شيء بخير . والسبب هو طريقة جلوس كل واحد منا ، فقط جلوسه في ركنه ، وتشعر ، لحظة ، أن لن يتغير أي شيء . كل شيء بخير . الأشياء اليوم مثل الأمس مثل الغد وإلى الأبد ، كما تقول التوراة » .

قال « الصبي الأزرق » : « أنا فاهم قصدك . هكذا الوضع في بيتي أنا دائما أيضا . خصوصا لمّا أختي ما تكون في البيت ، ولمّا جدتي ما تعطس . لا صوت هناك أبداً إطلاقاً ؛ وأنا لا أعرف عن شعورك ، لكني أشعر أنني دائماً في هذا الحجم نفسه ، ومهما حاولت أن أتذكر ، لا أستطيع أن أتذكر نفسي لا أكبر ولا أصغر من حجمي هذا » .

قال « الورقة الرابحة » : « وأنت تحكي ، جعلتني أتساءل إن كنّا في أي يوم من الأيام ، أكبر مما نحن الآن » .

سأل « الصبي الأزرق » : « ما هو قصدك ؟» .

قال « الورقة الرابحة » : « يقولون دائما اننا سنكبر ، لكن هذا في المستقبل . هذا شيء لا نعرفه بعد . عمرك الآن أربعة عشر والسنة القادمة سيكون خمسة عشر ، وبعدها ستة عشر ، وهكذا وهكذا ، ولكنك لن يكون عمرك أبداً إطلاقاً أربعة عشر ، ثم ثلاثة عشر ، ثم اثني عشر ، وهكذا وهكذا » .

قال « الصبي الأزرق » : « كلا . أنت لن تكون كذلك أبداً . مع أنهم

يقولون إنك بعد عمر معيَّن تبدأ بالتحوّل إلى طفل مرة أخرى ، مثل « أبي » و« أمي » مثلاً » .

قال « الورقة الرابحة » : « مرة واحدة رجل ، ومرتين طفل » .

قال « الصبي الأزرق » : « هكذا يقولون . مع أني أريد أن أكون مرتين رجل ومرة واحدة طفل . ما أصعب الوضع لما تكون طفل » .

قال « الورقة الرابحة » : « ممنوع تحكي ، مثلاً » .

قال « الصبي الأزرق » : « ولا تقدر أن تعبِّر عن ما يخطر في بالك . وحين لا تبكي ، عليك أن تلزم الهدوء » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا صحيح . بعض المرَّات أفزع حين أرى طفل أمي يبحلق . يظهر كأنه لا يرى أي شيء ومع هذا يرى شيئا » .

قال « الصبي الأزرق » : « طفل أمي لا يقدر أن يرى أي شيء . وهذا أسوأ . بعض المرات يفزعني كثيراً . لأنّ نوع النظرة التي في وجهه تجعلني أشعر أنه يرى ، مثل الأحول « بوتسي » الذي حين يدير وجهه في جهة يرى كل الذين يمرّون في الجهة الأخرى . أحياناً أضع رأسي فوق أنفه تماماً وأبحلق لأرى إن كنت أقدر أن أكتشف عينيه تحت الجفنين » .

قال « الورقة الرابحة » : « يجب ألاّ تعمل هذا . إنك تخيفه » .

قال « الصبي الأزرق » : « لكنه لا يقدر أن يرى » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا لا يهم . إنك تخيفه » .

سكنت الأمواج فترة ، وظهر كأن الريح تقبع في الأشجار . لم يتحرك أي شيء سوى زبد الأمواج يسير متهادياً نحو الشاطىء . لا يوجد على الشاطىء أحد غيرنا نحن الثلاثة الجالسين في نصف دائرة تحت كرمة العنب . وكانت وراءنا مقبرة الجنود حيث تتكاثف الأشجار ، وينطلق الصوت جذّاباً آسراً حين تعصف الريح . كان السّور المتهدِّم المغطّى بالطحالب والدّوالي يتعرّج داخلا خارجاً بين الأشجار ، وينتصب على المساحات الخالية فيه التحذير التالي باللون الأحمر : لا

تقتربوا؛ ممنوع أن يتجاوز أي إنسان هذا التحذير . وفي بقعة أبعد خلف الأشجار تقوم خزانات النفط التي تزوّد السفن في الميناء بالوقود اللازم .

وكانت تقوم في الجانب الآخر المنارة التي تشمخ عدة أقدام في الهواء . كان أعلاها أشبه بالمدخنة الزجاجيّة التي نضعها فوق قنديل غرفة النوم الذي يبقى مضيئا ضوءاً خافتا طول الليل . كان الزجاج الأحمر والأخضر في رأس المنارة يتوهّج دائما في الشمس . وعند غياب الشمس ينبعث ضوء آخر من داخل المنارة فلا تفقد الألواح الزجاجية بريقها أبداً . نظرنا حولنا إلى كل شيء ، ثم بدأنا نخاف من صمتنا .

قال « الصبي الأزرق » : « تماماً مثل ما كنت تقول . الوضع هكذا تماماً في بيتنا . حتى لما يتخانق أبي وأمي ، لا يطول الوقت ، حتى يرجع كل شيء هكذا من جديد » .

قال « الورقة الرابحة » : « صحيح . ولمّا تضربني أمي ، فهي تقول طول الوقت وهي تضربني إنها تضربني حتى نحصل على الهدوء في البيت ، ولمّا أخلّص بكائي يحلّ الهدوء . تماماً هكذا » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا صحيح بالنسبة لنا كلنا ، غير أنه مرّات يكون هدوء عند ناس أكثر من غيرهم . الهدوء عندنا كثير عظيم ، خصوصاً لمّا تكون أختي خارج البيت . وبعض المرّات ، وأنا قاعد هنا أو هناك أو في أي مكان ، أشعر كأني طول عمري قاعد في هذا المكان الذي أنا قاعد فيه الآن ، وكأني قاعد فيه طول الوقت ولا أتذكر أني قعدت في غيره . يظهر كأن الزمن قد وقف مثلما تقف الساعة ، ويصير كل شيء تحكيه لنفسك هو الصحيح » .

قال « الورقة الرابحة » : « مثل هذا الشيء نفسه يحصل معي . كنت أقعد في القبو في بيتنا . لا أتذكر سبب ذهابي إلى القبو ، يمكن كنت أفتش عن البيض . على كل حال ، كنت هناك ، في القبو ، وكان كل شيء مظلما ، مثل ما يكون كل شيء دائما في القبو ، وكنت أنا وحدي هناك في القبو أتطلع إلى الغبار والوسخ والزبالة في القبو . كان هناك هدوء ، هدوء ، هدوء ، وكنت أنا هناك وحدي لا أتطلّع إلى شيء محدّد، وفجأة قال أحدهم شيئاً عن الزواج، فركضت

خارجا من القبو لأعرف ما هي مشكلة الزواج ، وسمعت القصة عن الزواج ، لكن طول الوقت شعرت كأن شيئا ضاع . شعرت كأن شيئا ، لا أعرف تماماً ما هو ، لكنَّه ضاع . أحياناً أعتقد أن الذي ضاع هو القبو ، لكن ليس القبو الذي أنظر إليه وأراه وأنا أستمع إلى القصة . بل يظهر كأن هناك قبواً آخر في داخل هذا القبو ، والذي ضاع هو ذلك القبو الآخر » .

قال « الصبي الأزرق » : « نفس الشيء حصل معي . والمكان الذي كنت أقعد فيه هو عالَم قائم بذاته ، ثم يحصل شيء فجأة ، فتكون نهاية هذا العالم . ويكون عليك أن تقوم وتذهب إلى العالم الآخر حيث حصل الشيء الجديد فجأة . يظهر هذا الكلام كأنه سخافة ، لكنه صحيح تماماً وهذا هو ما حدث » .

قال « الورقة الرابحة » : « سخافة أو لا ، هذا هو ما حدث لي مع الزواج » .

سأل « الصبي الأزرق » : « من تزوّج ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « ما تزوّج أحد » .

سأل « الصبي الأزرق » : « إذن ما تقصد بقولك حدث الزواج » ؟

قال « الورقة الرابحة » : « القصّة هكذا . تعرف «جون» الشاطر جداً في لعبة الكلّة ولا يخطىء في إصابتها أبداً، يضع أربع كلل هنا، ويقف على بعد ميل عنها وقبل ما تقول أي كلمة يصيبها ويفرّقها كلها . طيِّب ، هذا « جون » . عاش مدَّة طويلة مع « سوزي » التي تسكن في آخر خط القطار ، وولدت « سوزي » منه ولدين : « الملك بو » و« القط في الحذاء رقم واحد » . يظهر أن « جون » انضم الى أخويّة الحريّة لكل الأخوة ، وخلَّص نفسه ، هو يقول إنه رجع إلى الرب وكلام مثل هذا . قبل الأخ القسيس « بانيستر » توبته وحاول مساعدته وصار يشغله معه . كان يشتغل مليح مليح مليح ، ويظهر أنه بدأ يحب « جين » بنت الأخ « بانيستر » . صار يغازل « جين » كثير كثير ، لكن ما قال أحد أي شيء لأنهم يعتبرون في الكنيسة أن كل من يتقاسم الخبز معاً هم من عائلة واحدة . وكان الأخ « بانيستر » ، الله يعلم السبب ، يرخي الحبل لـ « جون » على الآخر . المسكين « جون » نسي أنه لم يكن دائماً مثل ما يقول أنه هو ، وتورّط ورطة كبيرة

مع « جين » ، وقبل أن تقول الكلمة صار عندها مشكلة . صارت « جين » حبلى ، فطلب الأخ « بانيستر » من « جون » أن يتزوج « جين » ، وقال له إنه إن لم يكن رجلاً ويتحمل حمله كمسيحي وكرجل ، فإنه سيفعل ويفعل به . كان هناك حكي عن التقويص بالرصاص ومثله . خاف « جون» كثير ، فذهب رأساً وحكى المشكلة لِـ « سوزي » . سأل سوزي عن رأيها في هذه المشكلة . فبعد قول كل شيء وعمل كل شيء ، كان عليه أن يفكر بها ، بـ « سوزي » . سألته « سوزي » بصراحة عن رأيه فيما يمكن أن يعمله الأخ « بانيستر » إن لم يتزوج « جين » ، فأجاب ولسانه بين أسنانه أن الأخ « بانيستر » حلف بالكنيسة انه سيقوصه بالرصاص . ويظهر أنه في كل قرية « كريتون » لا يوجد رجل يخاف من الموت أكثر من « جون » ، وقد لفت نظر « سوزي » انه إن قوصه الأخ « بانيستر » كما يهدّده ، فلن يكون عند الأولاد أب . « سوزي » ما عجبها هذا الكلام . ظهر كأنه يطلب منها الإذن بالزواج من « جين » . لكنها رفضت تسمع أي كلمة عن هذا الموضوع فلفتت نظره أنه إن ذهب هو وهي ، يعني « سوزي » ، وتزوّجا بهدوء ، يصبح بإمكانه ، يعني « جون » أن يخبر الأخ « بانيستر » أن زواجه من « جين » سيكون ضد القانون ، مهما كان وضعها . وفي النهاية ، إن الحق الشرعي هو في جانبها هي ، يعني « سوزي » . لكن « جون » ما قدر ينسى فكرة أن الأخ « بانيستر » سوف يقوصه إن لم يحمل حمله ، كما يقول الأخ « بانيستر » ، ويقوم بواجبه تجاه « جين » كرجل وكمسيحي حصل على الخلاص عن طريق دم الحَمَل . حاول إقناع « سوزي » أن كل شيء يكون على ما يرام ما دام هو في قيد الحياة ، وأن لا شيء يهم في سبيل مصلحة الأولاد سوى أن يكون هو في قيد الحياة ، لأن إن حصل له أي شيء فلن يكون هناك أب للأولاد . رفضت « سوزي » وحلفت براس جدتها الميتة أنها لو سمعت أن « جون » تزوج « جين » فانها سوف تسممه . المسكين « جون » صار بين الشيطان والبحر الأزرق الغميق ، كما يقولون . هناك من ناحية الأخ « بانيستر » مع البندقية ، ومن الناحية الثانية « سوزي » مع زجاجة « الزِّرنيخ » : ارتجف مثل الطفل وقال لِـ « سوزي » : إن كان هذا ، فالأفضل أن نسرع ونتزوج بسرعة وبهدوء . لكن « جون » مثل الريشة في مهب الريح ، تطير هنا مرة وهناك مرة ، وما كان يقدر أن يستقر عقله على قرار لأن ما عنده عقل حتى يستقر على قرار . وهكذا لمّا فاتحه الأخ

« بانيستر » بالموضوع مرة ثانية اقترح على الأخ « بانيستر » أنه إن كان أي شيء سوف يتم بينه وبين « جين » فيجب أن يعملوه بسرعة وبهدوء لأن « سوزي » حلفت أن تسممه . كان على الأخ « بانيستر » أن ينقذ ماء وجهه من العار ، بسبب مركزه في الكنيسة ، وقال المهم أن تتزوّج « جين » ولا يهمه كيف ، بل المهم أن يكون في إصبعها خاتم قبل ما يصير أي شيء . المسكين « جون » وعد الاثنتين نفس الوعد ، وكان شرطه مع كل واحدة أن يتم كل شيء بسرعة وهدوء . كان مثل الريشة في مهب الريح ، وكل هذا لأنه خايف من الموت . أصعب شيء ، مثل جهنم ، لمّا يكون عليك أن تختار ، وما تكون متأكداً بين أي شيء وأي شيء تختار ، والأسوأ من هذا لمّا ما يكون عندك شيء تقدر تستعمله حتى تختار . هذا هو « جون » . بالنسبة له نعم ولا هما شيء واحد . ولمّا تقول له « جين » : اعمل هذا ، يعمله ؛ ولمّا تقول « سوزي » : إعمل هذا ، يعمله ، وهذا مع هذا لا يساوي مجموعهما هذا واحد نفسه ، ولا حتىً لمّا وصل يوم الزواجَيْن . لا أعرف ماذا أسميه « جون » : غبي أو حمار ، فأنت لن تعرف أبداً ماذا يجري في راسه ، لكن حتى اليوم المحدّد للزواجين لم يكن يعرف إلى أي كنيسة يذهب ، لأنه أرسل « جين » إلى كنيسة ، و« سوزي » إلى كنيسة ثانية ، وفي اليوم نفسه . كان كل شيء هادئاً في كل مكان . كانت « جين » ستتزوّج في كنيسة والدها ، بهدوء بهدوء ، و« سوزي » في الكنيسة الكبيرة بهدوء بهدوء . ولا أحد عنده أي خبر أو علم ، لأنه لمّا نادى القسيس في الكنيسة الكبيرة طالباً الاعتراضات ، إن وجدت ، على الزواج المقبل بين الآنسة « ماكولي » والسيد « تريفيلان » ، لم يهتم أحد بذلك . لأن ما كان أي معنى لهذين الاسمين ، لأن كل أهل القرية يعرفون أن « سوزي » هي « سوزي » ، و« جون » هو « جون » ، أمّا أن تسميها الآنسة « ماكولي » والسيد « تريفيلان » فهذا مثل ما تقول فلان وعلتان المجهولين . لم يكن لهذين الاسمين أي معنى أبداً . والذي حصل هو أن « سوزي » ذهبت إلى كنيسة و« جين » ذهبت إلى كنيسة ثانية . وانتظرت الاثنتان ساعات طويلة ، وما ظهر « جون » أبداً . ما كان مع « سوزي » ، ولا كان مع « جين » . عند ذلك بدأت الثرثرة . قال أحدهم أنه شاف سيارة واقفة في ساحة الكنيسة مدّة طويلة فذهب ليكتشف ما الأمر . وانتشرت الأخبار مثل النار الهائجة ، مثل النحل المتوحش الذي لا يريد أن يرى الخلية مرة ثانية . وناس

راحوا قالوا لـ « جين » إن سوزي هي التي ستتزوج « جون» ، وغيرهم راحوا قالوا لِـ « سوزي » ان جين هي التي ستتزوج « جون » . صارت فوضى ضخمة مخيفة . توقع الناس القتل لما سمعوا بما حدث وحضروا ، كأنهم حضروا الى جنازة ، حتى يشوفوا العروسين بدون أي عريس . بدأ الجميع يتساءلون عمّا يمكن أن يكون حصل . قال ناس هكذا ، وقال غيرهم غير ذلك ، لكن بغض النظر عمّا قالوه أو ما قالوه ، بدأ الجميع يسمون « جون » الديك المفرعن في الساحة . وقال ناس إن الديوك صارت نادرة هذه الأيام . يا للفضيحة ، وسمعت أشياء عن الديوك ما سمعتها طول حياتي . كانت فوضى جهنمية ، وأتمنى ألّا أسمع بحادثة ، مثلها مرة ثانية » .

سأل « الصبي الأزرق » : « وكيف وجدوا « جون » ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « ما وجدوه . فتّش عنه البوليس وفتش عنه الأخ « بانيستر » ، وكثير غيرهم ، وما وجدوه . قال ناس إنهم شافوه يلعب بالكلل في نفس الوقت المحدّد للزواج ، وقال غيرهم إنه من هذا النوع من الناس : لما يكون معه كلة مستحيل يعمل أي شيء آخر . قال ناس إنه راح إلى البحر ، وقال آخرون شيئا آخر . وغيرهم شيئا آخر ، وراحوا كلهم يفتشون عنه حيث ظنوا أنه مكان وجوده . ثم كادت تقوم خناقة بين القسيس والأخ « بانيستر » لأن القسّيس قال للأخ « بانيستر » انه منافق ويشجع الفقراء على ارتكاب الخطايا وردّ عليه الأخ « بانيستر » وأخبره بكل ما سمعه وما لم يسمعه عنه . أنا ما كنت أعرف أبداً أن هناك مثل هذا الحكي الكثير عن الكهنة ، والله وحده في السماء يعرف إن كان كله صحيحاً ، لكن نحن هنا على هذه الأرض نرجو ألّا يكون صحيحاً ، هذا الكلام القبيح الذي سمعته عن الكهنة . وكل هذا بسبب « جون » . ما وجدوه ، وما كانوا ليجدوه أبداً ، لأنه كان يجلس في قمة شجرة « ماهوغاني » في المقبرة . كان يقدر أن يرى الكنيستين جيداً ، وهكذا ، قال بعد ذلك ، إنه رأى « جين » داخلة ، ورأى « سوزي » داخلة ، ورأى « جين » خارجة ، ورأى « سوزي » خارجة ، لكنه ما قدر يتحرك لأنه ما قدر يقرر ويختار . وبعد قول كل شيء وعمل كل شيء ، كان عليه أن يفكر في حياته . قبع هناك بهدوء مثل الفار وشاف الضجة كلها وسمع كل شيء قالوه عن مكان وجوده ، ولكنه استمر يتطلع

ويسمع . ولما خيّم الظلام ، وصارت الشجرة ثابتة مثل عمود المصباح ، وصرت ما تقدر تشوف أي شيء غير نور النجوم فوق حجارة القبور ، نزل « جون » عن الشجرة . ما كان يجرؤ أن يتحرك قبل ذلك . كانت المقبرة هادئة وساكتة لا تشبه أي شيء عرفه من قبل ، فقعد بين قبرين وكان ضوء قليل قليل ينعكس على كُمِّ قميصه ، وانتظر . وهناك بين القبرين طلع عليه صباح اليوم الجديد ، وهو ينظر إلى شجرة الماهوغاني التي قضى فوقها اليوم السابق كله ، وكان يقلّب فكره مرّة هنا ومرة هناك مثل الريشة في مهب الريح » .

* * *

تنفس البحر ، فضاع ضحكنا في هدير الامواج . انطلقت موجة وضربت مواقع أقدامنا في الرمل . حين تراجعت المياه انحدر الرمل بقوة إلى البحر ، وأخذ زبد الموجة الذي تكوَّن فقاقيع قصيرة العمر فوق الرمل يتشكل في الفسحات بين أصابع أقدامنا . شكَّل رسماً يشبه قرص العسل بعد أن يَهجر النحل الخلية . كانت المسافة بين الفقاقيع واضحة بارزة كأنها تجويف . أبقينا أصابع أقدامنا ساكنة ثابتة وراقبنا الفقاقيع تتوهج صافية في ضوء الشمس إلى أن نفختها الريح إلى الرمل الذي تراجع إلى البحر . كان الزبد جميلاً جداً، ويختلف كثيراً عن الزبد الذي نراه عائماً فوق سطح الأصداف . كان منظر زبد البحر الوهاج مهدئا للأعصاب ، في حين كانت الريح قد سكنت بين الأشجار ، وكان البحر قد استقر في حركة متوازنة منسجمة فوق سطح الماء . انتشر السكوت مرة أخرى . مخيما فوق الأشجار والبحر ومنسابا عبر وفوق هبوب الريح . أقصى الهدوء والسكون . اضطجع « الصبي الأزرق » وتطلع إلى السماء . أراد أن يعرف كم يستطيع أن يبحلق في الشمس . سقطت الأشعة مثل الزجاج الحارق وبدا كأن عينيه تتحولان الى سائل في الضوء . كانت عظامه كبيرة بارزة قوية تحت جلده الأسود . وكان جلده صلبا وناعما وملتصقا بعظامه بمساواة رائعة دون نتوءات . كان جلد « الصبي الأزرق » يتمتع بصلابة تجعله يبدو حصينا ضد الشمس . ضربه الضوء ثم ظهر كأنما يتحاشاه وهو يحملق خلال الوهج إلى السماء . التمع أنفه تحت طبقة رقيقة من العرق . أمّا طيّة فمه حيث تلتقي الشفتان في منحنى أسود فكانت حادّة وبارزة كشق في اللحم . كانت شفتاه سوداوين ، وتبدوان أكثر سواداً إذا ما ظهرت أسنانه . كانت أسنانه عريضة بيضاء في لثته السوداء . كان يبتسم للشمس أحيانا ، فكانت الشفتان

ولحم الخدين تتقلص كأنما قد دفعتها أشعة الشمس برفق الى الخلف . لم يستطع النظر إلى الشمس فترة طويلة ، غير أنه أبقى وجهه في الوضع نفسه ، محركا جفنيه صعوداً وهبوطاً في الضوء .

كان « الورقة الرابحة » ينظر عبر البحر . جلس وذراعاه خلف ظهره . كان وجهه أصغر من وجه « الصبي الأزرق » ولكن جسمه كان أكبر . كان عمره حوالي أربع عشرة سنة ، وكان يصغر « الصبي الأزرق » بستة شهور فقط . كان شعره قصيراً كثّاً أسود وقاسياً مثل الأسلاك . وقلما كانت تظهر أي عاطفة على ملامحه . كان وجهه نحيلاً وعادياً وناعماً إلاَّ من جرح واحد فوق حاجبه الأيمن . كان حجم أذنيه متناسباً مع وجهه ، وكذلك حجم أنفه . كان في وجهه ميزة واحدة فريدة ، هي حاجباه . كان الجلد ناعماً جداً ومنتفخاً قليلا ، ولم يكن الحاجبان طويلين وحُرَّين مثل الشعر ، بل كانا قصيرين وأجعدين مثل كتل الحرير . وحين تضرب الشمس حاجبيه مباشرة ، كان الجلد ، لا الشعر ، هو الذي يلتمع ويتوهج . أما جلد الحاجبين حيث ينبثق الشعر فكان مظهره تعباً مريضاً . هو مظهر الجلد الذي تمت حلاقته للمرة الأولى . ولم يكن أحد يدري كيف حصل «الورقة الرابحة» على هذين الحاجبين القصيرين الحريريَّين وعلى الجلد التعب المريض الذي يحملهما . وكانت هناك تخمينات كثيرة ، لعل أروجها هو الصواب . لقد أرسل إلى إصلاحية وهو في التاسعة من عمره . إنها مؤسسة للأولاد المدانين ولكنهم دون السن التي تسمح بزجهم في السجن . لقد أرسل « الورقة الرابحة » هناك ، وكان من جملة ما عاناه هناك ، تقول الرواية ، حلق حاجبيه . حين يصعب ضبط أي ولد يحلق حاجباه ، ربما للتذكير بأنه يختلف عن الآخرين . لم يعترف « الورقة الرابحة » أبداً بصحة ذلك . لم يقل أبداً إن حواجب الأولاد كانت تحلق ، لكن ذلك هو التخمين . غير أن حاجبيه يتميزان بالغرابة ، وهو يعرف ذلك . أما النعمة التي أنقذت وجهه فهي لون جلده . كان أسود أيضا ، لكنه ليس في سواد « الصبي الأزرق » . لا أحد في سواد « الصبي الأزرق » . كان جلد « الورقة الرابحة » هو ما نسميه جلداً فاتحاً ، أو جلداً مضيئاً ، أو جلدا صافيا ـ وهذه أفضل تسمية . كان « الصبي الأزرق » أسود فقط . وكان سواده يضحكنا . كان كل طفل في القرية مزوَّداً باستجابة واحدة تجاه

هذا اللون : أسود . لقد اعتدنا على نوع من اللهو المعدي ، تماماً كما اعتدنا خبزنا اليومي ، تجاه هذا اللون : أسود . لم تكن المقارنة المتطرفة ممكنة . لم تكن رغبة أي ولد أسود أن يتحول إلى أبيض ، لكنَّ الصحيح أيضا أن كل الأولاد السود لم يستحبّوا فكرة أن يكونوا سوداً . كان الجلد البني تسوية مُرضية ، وكان الجلد البني يعني مزيجا من اللونين الأسود والأبيض . إن أجمل الفتيات في القرية وفي الجزيرة كلها كنَّ بنات الأمهات اللاتي عاشرن الرجال البيض . كان جلدهن بنياً رقيقاً كالشكولاطه المحلاَّة بالشعر الطويل الذي يتلوى ويتطاير في الريح. وكان في الجزيرة عائلة مشهورة بإمكانها أن تتباهى بأجمل البنات . كان أبوهم مزارعا إسكتلندياً كبيراً ، يعاشر ، بين الحين والحين ، بعض العاملات في مزرعة السكر . كان جمال البنات أخَّاذاً ، وقد اشتهرت إحداهن في طول الجزيرة وعرضها بلقب كعكة السكر البلورية .

لا يمكن أن تصف أيا منا بأنه بلوري . ولا يوجد في القرية غير عدد قليل من غير السود . سود فقط ببساطة . لكن ،مع أننا كنا جميعا تقريبا من السود ، كنا نستعمل اللون سلاحاً ضد التدخّل . فحين نفقد أعصابنا ، كنا نتهم الآخر بأنه غبي أسود ، أو حمار أسود . ولم يكن العظماء ، والمتعلمون تعليما أفضل يستعملون هذه الشتائم في الأمكنة العامة ، لكنهم كانوا يستخدمونها بالطريقة نفسها . كثيراً ما كانوا يقولون إن معلم القرية شديد الذكاء ، ولكنه شديد السواد أيضاً . كانت الفتيات الصغيرات في الأحياء تلتقي في الأمسيات ليلعبن لعبة « الغميضة » ، وكنَّ يبحثن فيما بينهن مستقبل لونهن . كنَّ في غاية الصراحة . كانت أكثرهن سوادا تقول : لا يهمني أن يكون لوني هكذا أو حتى أغمق ، لكنني لا أحب أن يكون كذلك . وكذلك معناه لون الظلام الدامس . كنَّا نلهو أحياناً بتوجيه السؤال كل منا للآخر ، لماذا هو شديد السواد بهذا الشكل . وكان أحدنا يقول إن ذلك مضر بالدماغ . وكان الخطر في أن يتحول لون الدم أسود ، ماثلا دائما . فإن وقع ذلك كان المتهم يفقد السيطرة على طبعه ويجيبُ بأن المقلاة أو الطنجرة قالت للإبريق أو القدرة ، وهكذا . لكن « الصبي الأزرق » لم يفقد السيطرة على طبعه أبداً . كان حين تسأله لماذا هو شديد السواد ، يجيبك بقناعة جديَّة : « حين كنت على وشك أن أولد ، انطفأ الضوء » ولم يكن لدى أي منّا الردّ على ذلك . بل كنا نعترف أن

الضوء قد انطفأ للكثيرين منا .

مسح « الورقة الرابحة » وجهه بإحدى يديه ونظر إلى « الصبي الأزرق » مبتسما . كان « الصبي الأزرق » ما يزال يحدِّق إلى السماء مختبراً قوَّة عينيه في ضوء الشمس . راقبه « الورقة الرابحة » ، ثم فجأة هوى بقبضته فوق معدته .

وقال وهو يضحك في وجه « الصبي الأزرق » : « بماذا تفكر ؟» كانت الضربة قد أجلست « الصبي الأزرق » منتصبا . كان ينتظر أن يتكلم .

قال « الصبي الأزرق » : « قطعت لي أنفاسي » .

قال « الورقة الرابحة » : « طيِّب . لا تبقى هناك وتبحلق مثل ـ أنت ـ تعرف ـ من ـ يفعل ـ ذلك . هناك مكان يضعونك فيه حين تجلس وتبحلق طول اليوم » .

قال « الصبي الأزرق » : « لم أكن أجلس . كنت أضطجع » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا فرق . البحلقة هي البحلقة مهما كان الوضع ، مثلما التلصص هو التلصص مهما كان الثقب » .

قال « الصبي الأزرق » : « كنت أفكر في القصة . أعتقد يجب أن يضعوا « جون » في المكان الذي يضعون فيه أولئك الناس الذين ذكرتهم » .

قال « الورقة الرابحة » : « يمكن لازم . يمكن لازم يضعونا كلنا هناك . لأن ليس هناك أي رجل يمكن يقول ماذا كان عمل لو كان محلّ « جون » . إن كان الرجل يخاف من الموت ، فهو يخاف من الموت ، ولا هروب من ذلك . الموت هو رجل لابس بنطلون ولكنه لا يحمل عصاً » .

تصاعدت الأمواج قدماً وأسرعت فوق الشاطىء . وحين هبطت في الرمل وعادت أدراجها إلى البحر ، رأينا ثلاثة سراطين حمراء الظهر . كانت تشق طريقها عبر الرمل . كان الرمل يعلو كتلة كأنه عش النمل ثم يتساقط فتبرز الظهور الحمراء . كانت الظهور حمراء داكنة وكانت المخالب ورديّة اللون . كانت المخالب تعلو فوق الظهور تقريبا ، والسَّراطين تدفع نفسها إلى الأعلى . وكانت مغطّاة

بنتف من الشعر السلكي مثل يد الرجل . زحفت السراطين على الشاطىء وهي تمسح الرمل ببطونها ، وكانت مخالبها ترتفع من الرمل فتندفع جسومها كلها إلى الأمام ، وتترك وراءها آثاراً مختلفة في الرمل . كانت تشكل رسماً يشبه ما يمكن أن نرسمه بأصبعنا . كانت تتقدم ببطء وتردّد كالعجائز ، زاحفة تارة ومتحدِّبة أخرى . لم نستطع أن نحدِّد لون العيون . كان في غاية الجمال . لم يكن أحمر أو أخضر أو أصفر فاقعاً أو برتقاليا داكنا أو أي لون محدد آخر ، لكنه كان مزيجاً وحشياً أخَّاذاً من هذه الألوان كلها . كانت عيون السَّراطين أكثر ما نتذكره مدعاة للحيرة . كانت تبدو شفافة في الضوء . وحين كانت السراطين ترفعها على علو نصف بوصة فوق ظهورها كنا نحاول أن نقول ما هي حقيقتها . كانت مثل الرصاصات المصنوعة من الزجاج ، والمثبتة ببراغٍ يتوقّع أن تنحلّ وتتساقط سريعاً . وعند اكتمال القمر ، كان أولاد القرية يحاولون أن يروا الرجل الذي في القمر . كانوا يملأون إناءً زجاجياً بالماء وينظرون من خلال قاعه إلى القمر . لا يمكن وصف لون الضوء المنعكس في الماء وفوق الزجاج . وحين كان من لا يملك هذا الإناء الزجاجي يسأل عن ذلك اللون ، لم يكن أحد يحاول أن يشرح ذلك . كنا نقول ببساطة : « إليك ، خذ ، وانظر ! » كان لون عيون السراطين مثل لون الضوء المنعكس من القمر خلال الزجاج وفوق الماء . وكانت حركة عيون السراطين رائعة روعة لونها . كانت ترتفع بحيث تظهر كأنها ترى كل مكان وفي كل الاتجاهات في الوقت نفسه . وكانت تظهر في وضعها ذلك كأنها تماثيل ترتفع على قواعد ، أما حين تعود إلى تجويفها البيضاوي الذي ترتاح فيه فذلك يتم بحركة لا جهد فيها . وكان يبدو كأن لا علاقة للسَّراطين بهذه الحركة . كانت العيون تتحرك إرادياً في كل الاتجاهات ، وقد تكون السراطين مختبئة في أحد الأمكنة في الأصداف تنتظر استلام برقية من العيون تنبئها بالأحوال الجوية . كانت عيون السراطين شبيهة جداً بيد الرجل . يد الرجل التي تتحرك في كل اتجاه كالآلة المتروكة لتعمل وفق تعليماتها الذاتية . وأحياناً حين تحرك أصابعك وتقلبها بحيث تدخل وتخرج متشابكة مشكّلة كافة الأشكال الممكنة ، قد تنظر إلى يدك في حركتها فيدخل في وعيك أنها شيء خارج عنك . أنت تراقب ، فتتابع الأصابع لعبتها في تشكيل الطيّات والشقوق راقصة متلوية . أنت تحدق فيبدو كأنما اليد تحدّق فيك أيضا ، هي شيء مستقل يرسل رسالة عبر أدواته الخاصة : الأصابع . عيون

السراطين تتصف بمثل هذه الصفة . هناك أشياء مشتركة بينها وبين السراطين المحبوسة في أصدافها ، ولكنها تتحرك حرَّة طليقة . راقبناها تزحف متسلقة المنحدر الرملي ، ثم فجأة ارتفعت الأمواج فقذفتها سريعاً إلى أسفل المنحدر .

سأل « الورقة الرابحة » وهو ينخز « الصبي الأزرق » بين أضلاعه : « أنت لا تحب السراطين ؟»

قال « الصبي الأزرق » : « بل أنا أحب السراطين . لكني كنت أفكر في « جون » : « لماذا اختار المقبرة دون أي مكان آخر ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « لأن الشجرة كانت موجودة فيها » .

قال « الصبي الأزرق » وقد بدا عليه الانزعاج الشديد : « لكن هناك أشجار كثيرة غيرها » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعرف . لكني كنت أقول لنفسي إن جون فكر أن الزواج لا بد أن يتم ، فذهب هناك ليرى من سيحل محله » .

قال « الصبي الأزرق » : « لكن لا يمكن أن يحل محله أحد ، لأنه ، أولاً ، لا أحد يعرف عن الزواج غير عدد قليل من الناس » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا غير مهم » .

قال « الصبي الأزرق » : « لكنه مهم إن كان هو الرجل الواجب أن يكون هناك » .

قال « الورقة الرابحة » : « غير ضروري . غير ضروري » .

سأل « الصبي الأزرق » : « كيف هذا التحليل ؟ » .

قال « الورقة الرابحة : « إليك ما أعنيه . ما أعنيه هو هذا . كلنا نشعر بشعور داخلي عن أشياء خاصَّة يجب أن تتم ، ولا يهم ما هي الأشياء أو غيرها بل المهم أنها يجب أن تتم . مثلا الشمس . لمَّا تشوف الشمس تعرف أنه ضروري أن يكون الضوء . ويجب ألا تقول إن في عينيك خطأ لأن الشمس لا دخل لها في ذلك . المسألة هي ببساطة انه حين تكون الشمس يجب أن يكون الضوء . وأنت

لا تسأل أي سؤال لأن لا مجال للسؤال . وهكذا الحال مع البحر . حين تلمس البحر بأصبع قدمك يجب أن يحصل البلل . وأنت لا تسأل أي سؤال لأن لا مجال للسؤال . ما قد يحدث أو لا يحدث غير مهم لأن الأكيد أنه حين يكون البحر يجب أن يكون البلل . وبهذه الطريقة نفسها ، إن كان هناك زواج ، إن كان القسيس والمبشِّر والكنيسة والعروس ،إن كانت هذه الأشياء كلها موجودة ، إذن لا بد أن يكون هناك زواج ولا علاقة لذلك بما يمكن أن يحدث أو لا يحدث ، إن كانت هذه الأشياء موجودة ، الكنيسة والقسيس والمبشر إلخ إلخ . إذن يجب أن يكون هناك رجل . إن كان هناك زواج لا بد أن يكون هناك رجل . في أعماقك أنت تعرف أن لا بد أن يكون هذا ، إن كانت كل هذه الأشياء موجودة ، وأنت لا توجع راسك ، لأن لا علاقة لك بكل هذا . لا حاجة إلى القلق . لهذا أنت تجلس وتنتظر ماذا سوف يحدث » .

سأل « الصبي الأزرق » : « لكن إن كنت الرجل وأنت ما ذهبت ، فكيف تتخلص من ذلك ؟» .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا غير مهم . القضية هي قضية الشيء الذي لا بد أن يكون ، ولا دخل لك في ذلك حتى لو كنت أنت الرجل . مثل البحر مرة ثانية . فلو أنت لبست بوطاً كبيراً كبيراً ولمست البحر بأصابع قدميك لا يصيبك البلل ، لكنك تعرف في أعماق أعماق قلبك أن لا بد من البلل . لأنَّ القضية هي قضية الشيء الذي لا بدَّ منه . لا علاقة لذلك بأصابع قدميك وأين يمكن أن تكون موجودة . وهكذا الحال مع الزواج . إن كان هناك زواج فلا بد من وجود رجل ، ولا علاقة لذلك بك . أو بمكان وجودك . القضية هي قضية الشيء الذي لا بد أن يكون . يمكن يكون هذا هو شعور « جون » كل الوقت . كما أن فكرة خسارة حياته يمكن زادت من شعوره بهذا الشعور . قال لنفسه ، لا بد من وجود رجل ، وغير مهم مكان وجودي، لا بد من وجود رجل ، وهكذا بقي هو حيث هو ليرى ماذا يحدث . انه شعور عظيم ، هذا الانتظار لترى ما تجهله ، ولكنك كل الوقت متأكد من حدوثه . وهكذا انتظر « جون » ؛ لأن كان هذا هو شعوره ، فانتظر مدة طويلة حتى يخرجوا من الكنيسة وحتى ذلك الوقت لم يكن أي رجل قد ظهر حتى مجرد ظهور . ربما كان عليهم أن ينتظروا فترة أطول » .

تابع « الصبي الأزرق » قوله : « لكن لنفرض ، لنفرض أن « جون » رأى رجلا يدخل ، وأنه قد حدث زواج ، فما هو تحليلك ؟» .

قال « الورقة الرابحة » : « تحليلي هو أن هذا هو تماماً ما كان « جون » يتوقعه . كان يقول لنفسه بكل بساطة إنه مع أنه هو فوق الشجرة ، إن كان هناك زواج وكل ذلك ، فلا بد من وجود رجل ، وكان في أعماقه يتوقع أن يرى الرجل يدخل . تماماً مثل البحر وأصابع الأقدام مرة ثانية » .

قال « الصبي الأزرق » : « كلامك هذا يجعل الأمور تبدو كأن هناك شخصين « جون » : واحد فوق الشجرة ، وواحد في الكنيسة ، مهما كانت الكنيسة التي يختارها » .

قال « الورقة الرابحة » : « بل يمكن ثلاثة أشخاص « جون » ، لأن ترتيبات الزواج في الكنيستين كانت مثل بعضها » .

ردّد « الصبي الأزرق » : « ثلاثة أشخاص « جون » : واحد فوق الشجرة ، وواحد في كل كنيسة . لكن هذا غير معقول » .

قال « الورقة الرابحة » : « يمكن غير معقول . لكن هذه هي الحقيقة في رأيي . كان هناك « جون » فوق الشجرة يقول لِـ « جون » الثاني أن يذهب إلى الكنيسة الأولى ، و لِـ « جون » الثالث أن يذهب إلى الكنيسة الثانية . القضية ببساطة هي قضية « جون » الأول يقول لِـ « جون » الثاني أن يذهب ويعمل ما لا يحب أن يذهب ويعمله ؛ هذا كل شيء » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا غير معقول . هذا ليس ما يسميه المعلم منطقياً » .

قال « الورقة الرابحة » : «يمكن، لكن هذا لا يبرهن أنه ليس كذلك . المنطق أو المستنطق ، أو مهما كان اسمه ، هو المنطق أو المستنطق إلى آخره، والمعقول هو المعقول ، مثل ما نعرف كلنا ، لكن كل هذا لا علاقة له بما هو حاضر . وماذا كان في بال « جون » ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « أنا لا يهمني ما تقول ، يا أيها « الورقة

الرابحة » ؛ فأنت لا تقدر أن تكون فوق الشجرة وفي كنيستين في الوقت ذاته نفسه » . وكان في صوته لهفة وإصرار .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعلم . قد تقدر إن شعرت أنك تقدر » .

سأل « الصبي الأزرق » : « لكنك لا تؤمن بهذا بجدية يا أيها « الورقة الرابحة » ؟ » كان يطرح السؤال كأنما الجواب سيؤثر تأثيراً مهماً في ما يريد أن يقوله من بعد .

قال « الورقة الرابحة »: « لا أعلم . أنا فعلا لا أعلم » .

قال « الصبي الأزرق » : « السبب هو أنني أحيانا أشعر ، أحيانا أشعر أنني لن أموت . أنا أشعر بهذا الشعور بين وقت وآخر ، أنني سأعيش إلى الأبد ، مهما يحل ببقيَّة أهل القرية كلهم . تقول أمي لي إن كل شيء لا بد أن يموت ، لأن هذه هي مشيئة الله ، لكن هذا لا يؤثر أبداً في شعوري أنني لن أموت . مهما حدث للآخرين ، فأنا لن أموت » .

سأل « الورقة الرابحة » : « لنفرض أن شخصاً قتلك ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا شيء مختلف » .

قال « الورقة الرابحة » : « بل هو الشيء نفسه ، لكن الاسم مختلف » .

قال«الصبي الأزرق»: « الشيء نفسه باسم مختلف ليس هو الشيء نفسه».

قال « الورقة الرابحة » : « يمكن . لكن يظهر لي كأنهما مثل بعض » .

سأل « الصبي الأزرق » : « إذن لماذا يفرقون بين القتل والموت ؟»

قال « الورقة الرابحة » : « السبب هو أن القتل معناه أن يقتلك شخص آخر ، أما الموت فمعناه أن تموت أنت بنفسك » .

قال « الصبي الأزرق » : « وإذا موَّتك شخص ، فماذا تسمِّي هذا ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعرف . أنا لا أعرف » .

* * * *

شقت السراطين ممرًّا عبر الرمل . زحفت إلى أعلى المنحدر في صف واحد . وحين كانت الأمواج تعلو ، كانت تحدودب وتنتظر حتى ينسحب الزبد ويتلاشى . تحوّل لون الرمل إلى البني الغامق في الضوء الغائم ، فحاولنا متابعة حركات السراطين .. احدودب السرطان الذي في الوسط منخفضا في الرمل في حين تحرك الآخران بحذر نحو الوسط ، وهما ينشبان مخالبهما بوحشية كل منهما في الآخر . كانت المخالب تضرب الهواء وترتطم مرهقة بالرمل . احدودب السرطان الوسط وانغرس أعمق في الرمل حتى كاد يغطس ، في حين واصل الآخران ينشبان مخالبهما بعنف . كان الشعر على المخالب يلتمع في الضوء ، وكانت المفاصل منقطة بذرات الرمل . كانت تلك معركة سرطانية بطيئة يغوص فيها السرطان الوسط أعمق فأعمق في الرمل في حين يعترك الآخران بمخالبهما وقد التحم جسداهما . كانت السراطين الثلاثة متكومة فوق بعضها ، ثم لم يعد هناك غير سرطانين فقط . لقد اختفى السرطان الوسط تحت الرمل بينما واصل الآخران المصارعة . كانا ملتحمين كأنهما شيئان ألصقا معاً ، وقد ذكّراني وهما في عناقهما هذا بالسرطانين اللذين رأيتهما قبلا وأنا في طريقي إلى الشاطىء . طلبت من « الصبي الأزرق » أن يمعن النظر ويخبرني رأيه عن الوضع الذي أمامه . كانا يبدوان ملتصقين التصاقاً حميماً معاً تماماً كالسرطانين الآخرين اللذين سبق أن رأيتهما . كان الفرق يكمن في حركاتهما . هذان يتصارعان فيتحرك ظهر كل منهما مع كل ضربة . أما الآخران فكانا ثابتين وهادئين ومقدّسين في سكونهما وانعدام حركتهما . قال « الصبي الأزرق » إن حركتهما محيرة ، لكنهما يتعاركان بالتأكيد . حينما أخبرته عن السرطانين اللذين رأيتهما معاً فوق الرمل في ظل ورقة الدالية . أصغى « الورقة الرابحة » وتطلع الى السرطانين . كانا ثابتين الآن ، فقال « الورقة الرابحة » إن الأمر محير مربك . أخذنا نراقبهما في حركات التلوّي والتثني الموحية الهادئة . كانا في غاية الهدوء الآن . في غاية الهدوء ، بدون أدنى حراك ، مثل النوم تماماً . ولا أثر إطلاقاً للسرطان الثالث . اهتاج البحر ، ولكننا واصلنا ، وقد ملأت الريح عيوننا بالماء ، مراقبتنا لهذا العناق الحميمي المطلق . سرطاني وهادىء ونظيف . يا لنظافته ! علت موجة فوق الرمل بعد أن أزبدت قبل بلوغ الشاطىء . ازداد المنحدر عمقا ، فانقلب السرطانان مرات منحدرين مع الرمل المتحرك . كنا صامتين .

سأل « الصبي الأزرق » : « هل يحصل لك مثل هذا ؟ » وقد فاجأ صوته آذاننا فخدشها . كلما انكسر الصمت ، قرب البحر تحت الأشجار ، تحلّ بنا صدمة ضئيلة ، تزحف بطيئة إلى أسفل ظهرنا ثم تتلاشى كالقشعريرة .

سأل « الورقة الرابحة » : « يحصل مثل ماذا ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « مثل هذا الالتحام الحميم . أنت تسمع شيئا فيأتيك كأنه مفاجأة ، ثم تربطه بشيء آخر سمعته من زمان ، وبعد أن تجمع الشيء مع الشيء الآخر تجد أن الناتج هو شيء كبير مهمّ . وفجأة وكل هذه الأشياء مجتمعة معاً تجد نفسك وجهاً لوجه مع شيء حقيقي أو هو غريب جداً جداً . أو انه يذكّرك بشيء أنت لا تتذكره كل الوقت » .

سأل « الورقة الرابحة » : « بماذا أنت تفكر ؟ » .

قال « الصبي الأزرق »: « جون » . « جون » والزواج ، وكيف راح إلى المقبرة . كلها تنجمع معاً كشيء واحد ، وبعد ذلك منظر السرطانين في المعركة أو في عمل الشيء الذي عملاه . كل هذه الأمور تنجمع معاً وتذكرني بما حدث لِـ « بوتس » و« بامبي » و« بامبينا » » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ماذا حدث معهم في النهاية ؟ أنا سمعت جزءاً من القصة فقط. كانت طريقة معاملة « بامبي » مخزية كثيراً . هكذا كانت أمي تقول . مخزية كثيراً . لم تقدر أن تجد أي كلمات أخرى » .

قال « الصبي الأزرق » : « مات « بامبي » . ولكن « بوتس » و« بامبينا » في قيد الحياة » .

قال « الورقة الرابحة » : « أعرف أن « بامبي » مات » .

قال « الصبي الأزرق » : « ما يثير عجبي هو ما حدث لِـ « بوتس » و« بامبينا » . القصة مثل قصة « جون » و« جين » و« سوزي » تقريبا ، لكن « بامبي » تزوّج . وهو لم يتزوج فقط لكنه تزوج بأسلوب ملكي . كما تعرفون كان يعاشر « بوتس » و« بامبينا » الاثنتين في نفس الوقت ، لمدّة طويلة طويلة . وصار عنده أولاد منهما الاثنتين . ولدت « بوتس » منه « القط في الحذاء رقم اثنين »

و« مصّ إصبع قدمي » ، وولدت « بامبينا » منه ثلاثة أولاد : « لمعان السكر » ، و« الحمامة السلحفاة » و« الجذع » . وكانت « بوتس » و« بامبينا » أحسن صديقتين ، وكان الأولاد يعيشون كأشقاء حقاً لا كنصف أخ أو نصف أخت بدون أي كلام فارغ عن النصف والرّبع . عاشوا عيشة ممتازة مع بعض ، وكذلك أمهاتهم . والجميع يقولون أنه لم يوجد أبداً في القرية كلها من أولها لآخرها جماعة من الناس تعيش في حب وسلام مثل ما عاش «بوتس» و«بامبينا» و«بامبي» مع أولادهم ، ليس في بيت واحد ، لكن بشعور جميل واحد هو أنت تنتمي لي وأنا أنتمي لك . واستمر الحال هكذا سنين طويلة . بعد ذلك حصل شيء مثل الكابوس ، لأنك لا تتوقع مثل هذا الشيء المرعب أن يحصل ، جاءت امرأة بيضاء ، أو سيدة ، سمِّها مثل ما تريد ، لتعيش في القرية . يقول بعض الناس إنها ألمانية جاءت تأخذ بعض الملاحظات عن الناس . بعض الملاحظات عن كيف يعيش الناس ، لكن لا أحد يصدق هذا ، لأن لا أحد يأخذ ملاحظات عن البشر . ممكن أن تأخذ ملاحظات عن الحمام والأرانب ومثل هذه المخلوقات ، لكننا ما سمعنا طول عمرنا عن ناس تجيء لتأخذ ملاحظات عن غيرها من الناس الذين هم مثلهم . لذلك ما اهتم أحد بهذا الموضوع . لكن هناك إشاعة ثانية تقول إنها كانت امرأة مضحكة ، كانت تشتغل بالأرواح وما يشبهها ، ولذلك بدأ وعينا يستيقظ ، يعني نحن الذين نسكن في شارع « هنط » حيث يسكن « بامبي » . لكن القصة تتغير ، وبعض الناس يقول انها قد تكون روحاً من الأرواح ، لكن ليس من الأرواح التي نفكر نحن بها . صارت الناس تحكي أنها تحب الرجال السود وأنها تدفع لهم مبالغ كبيرة كبيرة من المال حتى يزوروها . صدَّق البعض هذه القصة ، والبعض ما صدَّقها . قال البعض إن الناس البيض لا يعملون مثل هذا الشيء ، وقال غيرهم أن ليس هناك شيء على وجه أرض الله هذه السوداء لا يعمله الناس البيض ، خصوصاً الناس البيض الذي يأتون من إنجلترة . وليس معنى هذا أن كل الناس البيض الإنجليز هم من الواطيين والأشرار ، لكن فقط الذين يخرجون من انجلترة . ويقول البعض انهم يعرفون بالتأكيد أن الناس البيض الذين يخرجون من انجلترة هم زبالة لا تقدر أن تعيش في بلادها . هم يقولون أشياء كثيرة ، يمكن تكون صحّ ، ويمكن تكون غلط . لكن هذه المرأة البيضاء ظلَّت تجيء إلى القرية مرّة بعد مرَّة . وبعد ذلك لمّا كنا

نسمع الصراخ ، لم يكن ذلك من أجل جلب الرجال السود ، مع انها يمكن صرفت معهم بعض الوقت كلما كانت تشعر بالحاجة اليهم ، ولم يكن الصراخ من أجل الأرواح أيضا . كانت تشجع الناس الذين عندهم أولاد على الزواج . كانت طريقتها في ذلك مضحكة جداً . قال بعض الناس أن ما عندهم وقت لهذه السخافة ، وقال غيرهم انهم لن يخسروا شيئا . ولذلك راحوا تزوجوا . كان ذلك نكتة مضحكة جداً ، كما أقول لكم . سيطرت على « بامبي » وأقنعته أن يتزوج ، وقرر رأيه على ذلك . كان عليه أن يختار ، تماماً مثل قصة « جون » و« جين » و« سوزي » . لكن ما كان عنده مشكلة مع أي واحدة . كانت مشكلته هل يتزوج أم لا . قالت له السيدة البيضاء ، نعم يجب الزواج ، لأن من الأفضل أن يعيش في خطيئة مميتة واحدة بدلاً من اثنتين ، وان عليه أن يفكر بالأولاد الذين يكبرون . فهو لا يعرف أبداً ماذا يمكن أن يحدث ، فلو أرادوا أن يحصلوا على وظيفة مركزها عال ، وظيفة كبيرة مهمة مثل مركز البريد أو بنك التوفير الحكومي ، فسيكون أسهل جداً عليهم حين يكون لهم أسماء . قال لها « بامبي » انها تضحكه ، لأن كل أولاده لهم أسماء . فأول شيء يعمله حين يولدون هو البحث عن اسم . لكنها قالت ان قصدها غير ذلك ، فهم ما عندهم أسماء في الحقيقة إن كانوا يعيشون كما يعيشون . ويجب أن تفكر في المستقبل . سوف يسأل الناس اسئلة كثيرة في المستقبل عن من كان أبوهم إلى آخره ، وليس فقط عن الأب ، بل عن أبي الأب أيضاً . قال « بامبي » ان ذلك لن يؤثر أبداً ، ولكنه سيجرب ، وحين يعطي الطفل الجديد اسما ، سوف ينتظر ويرى إن كان هناك أي تغيير . عرض الأمر على « بوتس » وعلى « بامبينا » لأنه ما شاف أي فرق . فهو لا يحب أولاد « بامبينا » أكثر من أولاد « بوتس » . وهو يصرف عليهم كلهم . لهذا ما شاف أي فرق ، ولذا قال ، حتى يضمن العدالة ، إنه سيرمي القرش ليحكم في الاختيار . اختار الطُّرة لِـ « بوتس » ، وحدَّد النقش لِـ « بامبينا » ، وبعد هذا رمى القرش . ربحت « بوتس » ، فتزوج « بوتس » . قالت المرأة البيضاء إنها لا يهمها من يتزوج أو كيف يتزوج ، المهم أن يتزوج واحدة من الاثنتين . ما كان هناك مشكلة أبداً مثل مشكلة « جون » و« جين » و« سوزي » . « بامبينا » ما تأثرت أبداً . قالت إنها لا ترى أي سبب للخناق ، إن استمر « بامبي » يصرف على أولادها ، وإنها لن تعاشر أي رجل آخر ، إن استمر « بامبي » يحبها مثل

الأول ، لا أكثر ولا أقل .

ولم تكن القضية أن واحدة أحسن من الثانية ، لكنها ببساطة قضيَّة الفكرة التي قررها « بامبي » في ذلك الوقت ، وفي هذا الوضع الخاص ، القضية هي قضية على أي جانب رسا القرش . وكان كل شيء تماما حتى يوم العرس . التقت « بوتس » و« بامبينا » عند الخبّاز واشترتا مثل العادة وتحدثتا عن ما ستعملان بعد ذلك . كانت « بامبينا » متعاونة جداً وقد خيطت فسطان « بوتس » وتوابعه ، وكان كل الأولاد هناك ، وأمضوا وقتا ممتعاً جداً في الباحة الخلفية لبيت « بوتس » . الطعَّام ! يا إلهي ، ما شاف أحد مثل هذا الطعام طول عمره ، الدجاج والأرانب والخروف وكل أنواع اللحوم التي خلقها الله القدير على هذه الأرض . أكلوا وشربوا في منتهى المرح . ولم يتفوَّهوا بالرَّذالات أو أي شيء ، لكن أصواتهم كانت عالية وسعيدة . ولما خلصوا ألقوا خطاباً ، خطاب مهم لا يقدر مدير المدرسة أن يقول مثله ، وقال الجميع انهم ما كانوا عارفين أن « بامبي » ضليع باللغة الانجليزية لهذه الدرجة ، وكلما كان يستخدم كلمة طويلة أو أي تعبير فخم جميل ، كان الجميع يحيّونه بالهتاف وبشرب الكؤوس . وقد ظنوا أن الشيطان نفسه قد استيقظ من نومه في جهنم بسبب أصواتهم العالية ، ولكن « بامبي » استمر يخطب مثل السياسي ، مع فارق أنه لم يكن يكذب . كان يؤمن في أعماق قلبه بكل ما يقول . ظل يتكلم حتى أصابته القحة ، فجاءت أمه من خلف الحضور وهمست في أذنه أنه لازم أن يكف عن الكلام والاَّ تخطَّى الحدود وعمل نفسه مهزلة . وهكذا التفت الى الحضور وقال لهم ان السيدة الوالدة مسرورة منه جداً وطلبت منه أن يتوقف حتى لا يفسد الحفلة . جلس وأخذوا يربِّتون على ظهره حتى مرض . وبعد هذا حملوه إلى عند السيدة الوالدة وقالوا لها إنها ممتازة العقل مع أنها كبيرة السن ، لأنها عرفت متى يجب التوقف .

وبعدما انتهى الخطاب ، بدأوا يرقصون ويغنون ، وقد قبَّلت « بوتس » «بامبينا» ، وقبلت « بامبينا » « بوتس » وقبَّل « بامبي » المرأتين الاثنتين كلتيهما . وضحكوا جميعاً وضحكوا حتى سالت دموعهم . قال الناس إنهم ما شافوهم أبداً في مثل هذه السعادة . لكن الله وحده يعلم ماذا حدث ، لكن بعد أقل من ستة أشهر بدأت المشاكل . عادة الناس تقول ان المشاكل لا تحدث فجأة مثل المطر ،

وهذا صحيح . ما لاحظ أحد كيف كان « بامبي » يتغير ، لكنه تغير . بدأ الأمر بأنه ما عاد يحكي كثيرا ، فتعجب الناس ، لأنه حيثما يكون ، كان فمه مثل البوق . كان يتكلم مثل الآلة الطابعة ، طقطقطقطقطقطقطق ، وكان من الصعب أحيانا فهم معنى ما يقوله ، طقطقطقطقطقطق . لكن فجأة كأنما ارتبط لسانه ، وصار في منتهى الهدوء ، صار يقول فقط : نعم ، ولا ، لا أكثر . ما قدر أحد يعرف ماذا حصل له ، ولاحظت « بوتس » وخافت . ولاحظت « بامبينا » أيضا ولكنها ما قالت أي شيء . وبعد هذا ساءت الأمور كثيراً فذهبت « بوتس » لتشاور « بامبينا » ؛ قالت لها إن « بامبي » أصبح رجلا متغيراً وإنها لا تعرف أبداً ماذا حصل له . قالت « بامبينا » إنها لاحظت هذا التغيير وإن «بامبي » ليس هو « بامبي » الذي كانت تعرفه . إنه تغيَّر من كل ناحية من النواحي ، وإنه من العار أن يتغير رجل لطيف ومحبوب مثل هذا التغيير . لم تعرفا ماذا تقولان أو تعملان . قررتا الانتظار والانتظار لما سيحدث . والحقيقة أنهما لم تفكرا أن هذه المشكلة مهمة ، ما هي غير مشكلة تغيير حصل له . هذا يحدث للرجال في مثل عمره . فهم حين يفقدون أضراس العقل ، يحصل لهم شيء من التغيير ، وتحلّ بهم بعض الغرابة . كان بعضهم يصيبه الجنون ، لكن « بامبي » ليس من النوع الذي يصاب بالجنون ، لأن راسه كبير جداً ، فلذلك هناك مساحة كبيرة كافية حتى يركض دماغه فيها ، كما أن هناك شعراً غزيراً في راسه مما يدل على أنه ملآن بالفطرة السليمة . فالشعر هو علامة الفطرة السليمة . وكلما رأيت رجلا لا شعر في راسه ، عليك أن تكون حذراً ، لأن من الممكن أن يحصل خطأ في راسه في أي وقت ، والسبب أن ليس هناك ما يغطي الجمجمة العريانة فيحميها من ضربة الشمس ، وقد كانت الشمس حامية جداً جداً في القرية . لكن « بامبي » عنده شعر غزير ، لهذا لا سبب للقلق . بعد أسبوعين من زيارة « بوتس » عند « بامبينا » جاءت « بامبينا » لزيارة « بوتس »،وقالت لها إن عينها الشمال ترف بسرعة ستين رفّة في الدقيقة وهي لا تحب ذلك ؛ وقد سألت « بوتس » إن كانت متأكدة أن « بامبي » ما أكل أي شيء فاسد ، لأنها ما كانت راضية عن طريقة رف عينها الشمال ، لأن هذا دائما معناه المشاكل . قالت « بوتس » إنه ما أكل في حدود علمها ، لكنها هي أيضا تشعر بالتشاؤم . لأنها منذ فترة قريبة رأت في الصباح ، نحلة كبيرة سوداء . دخلت النحلة من الشبّاك ، ثم طارت في دائرة ، وبدل أن

تخرج من الشباك الثاني ، حتى يكون هذا فألا حسنا ، أخذت النحلة تلف وتدور وخرجت من نفس الشباك الذي دخلت منه . وهذا نذير شؤم كبير كبير . وقالت « بوتس » إنها لاحظت أن « بامبي » بدأ يسكر ، وهو من نوع الرجال الذين يشربون كأسا في المناسبات ، لا الذين يشربون دوماً . لكن الشرب أصبح عادة من عاداته الآن ، وما عاد من الممكن أن تقولي له أي كلمة ، لأنه يجيبك أنه خارج لشراء علبة دخان ، وحين يعود يكون في منتهى السكر الشديد ـ واستمر الحال هكذا حتى صار « بامبي » أكبر سكّير في القرية ، والناس تقول إنه لا يوجد أي رجل يشرب الرّوم مثله ، فهو يجعله يظهر كأنه ماء بسبب الطريقة التي يشرب بها ويلعق شفتيه . كان يسكر ليلة كل سبت سكراً شديداً جداً ، وفي ليلة من ليالي السبت سكر بشكل خاص فما عاد يعرف ما يعمل ، وذهب الى البيت وضرب « بوتس » حتى كاد يقتلها . ضرب « بوتس » حتى ما عادت تقدر تقعد على ما وهبها الله إياه للقعود ، ولّما خلص من ضرب « بوتس » راح عند « بامبينا » وأعطاها من الضرب ما نسي أن يعطيه لِـ « بوتس » . صرخت « بامبينا » بأعلى صوتها فجاءت الشرطة . لكنهم ما اعتقلوا « بامبي » لأن الجميع شهدوا أن هذا ليس من طباعه ، وهو ليس من نوع الرجال الذين يضربون النساء ، لكن هناك خطأ حصل في راسه . وقف كل أهالي شارع « هنط » إلى جانب « بامبي » مع أنهم تأسفوا لما حدث لِـ « بوتس » و« بامبينا » ، لأنهم قالوا ان هناك خطأ ؛ وليس « بامبي » الحقيقي هو من عمل هذه الأشياء التي عملها . لهذا ما اعتقلته الشرطة ، لكن بدون فايدة ، لأن ضرب المرأتين صار عادة من عاداته . كان يذهب إليهما ليلة كل سبت ويضربهما كما تضرب الحيَّة ، « بوتس » و« بامبينا » ، المرأتين الاثنتين كلتيهما ، الواحدة بعد الأخرى . يقول الناس إنه كان يضرب كل واحدة منهما حتى تبول على حالها ، المسكينتين . لم يكن عنده أي رحمة لهما . وما عاد عندهما أي قدرة على الاحتمال . لم يعد عندهما القدرة على احتمال تصرفات « بامبي » وكانت كلتاهما تقسمان أن لا بد أن يكون أحدهم قد أطعمه شيئا . أصاب « بوتس » القلق الشديد فركضت إلى بيت « بامبينا » وبدأت تحكي مثل شخص ضيَّع لسانه . فكأن لسان « بوتس » يحكي وحده ولم يكن لِـ « بوتس » أي علاقة بما يقوله لسانها . كانت تلعن « بامبينا » من فوق لتحت ومن وراء وقدَّام لأنها ، كما قالت ، هي السبب في ما حصل بِـ « بامبي » . أما « بامبينا » فما نسيت

أن تخبر « بوتس » بما تعرفه عنها ، ويا إلهي ، ما أكثره . قالت لِـ « بوتس » عن كل ما عملته وما لم تعمله حتى يتزوجها « بامبي » ، ولم يستطع الناس أن يفهموا كل هذا ، كانت « بوتس » و« بامبينا » من أعزّ الصَّديقات ، لم يكن من الممكن أن ترى الواحدة بدون الأخرى ، وكيف تتقاتلان الآن بهذه القسوة . إن المشاكل لا تحدث فجأة مثل المطر ، هذا صحيح ، ولو أنك قلت لأي واحد من أهالي قرية « كريتون » إن هذا كان سيحصل بين « بوتس » و« بامبينا » لكان نصحك باستشارة الطبيب .

لكن هذا ما حصل ، العداوة بين الاثنتين ، ولا أحد يعرف السبب . وفي صباح أحد الأيام تخانقت « بوتس » و« بامبينا » حتى كادت كل منهما تقتل الثانية . كان كل الناس مستغربين حتى مجرد الفكرة أن هاتين المرأتين اللتين تعيشان معاً عيشة جميلة أدخلتا الشيطان بينهما . كانت هذه الخناقة سيئة لدرجة أن الواعظ الذي يعظ الناس في الهواء الطَّلق ختم الاجتماع في الليلة التالية بترنيمة : « يا شيطان إبتعد ، يا شيطان إبتعد ، ويا يسوع تفضل أدخل » . وقد أنشد الناس بحماسة كأن آخر العالم وقع ، لأنهم كانوا فعلا خايفين مما شافوه يحصل بين « بوتس » و« بامبينا » ، وبعد الفيضان الذي كاد يغرق الكثيرين منا ليس من زمان ، بدأوا يشعرون أن الرب القدير قد أنزل غضبه حقاً . وهذا هو ما قاله الواعظ : إن الرب العلي يزور القرية ، وقد جاء أولاً بالفيضان ، وبعد ذلك بالخناقة ، ولا يستطيع أحد غيره سبحانه وتعالى أن يعرف كيف سيأتي في المرة التالية ، ولكن ، يقول الواعظ : ستحل اللعنة وجهنّم . ولا يعرف أحد إن كانت اللعنة وجهنم ستحصل بعد ذلك ، ولكن الموت جاء . ففي إحدى الليالي وقع « بامبي » ومات ، هكذا ببساطة ، أصابته سكتة قلبية ، وقبل أن تقول الكلمة مات ، حدث هذا في بيت « بامبينا » وكل الهزّ الذي هزَّته إياه « بامبينا » ما أثَّر فيه . مات . كان الواعظ معه حق . لقد جاء الإله العلي مرة ثانية . حزن الناس كثيراً لأنهم كانوا يحبون « بامبي » كثيراً جداً . من حسن حظّه أنه قبل الخلاص . لا أحد يعرف ماذا دخل في راسه ، لكنه في الليلة السابقة سمع صوتاً يدعوه حتى يعترف بخطاياه أمام الله ويحصل على الخلاص قبل أن يتغيّر الزمن إلى الأبدية . وهكذا ، يقول الواعظ إنه مات بين القطيع . كانت خطاياه سوداء ، لكن هذا لا

يهمّ . فالله هو إله رحيم يحبكم فيكفيه أن يرى رغبتكم في الخلاص والنور وهو يتكفل بالباقي اللاّزم .

لكن العار الكبير هو ما حصل بعد ذلك . فلمّا سمع متعهدو دفن الموتى أن « بامبي » مات ذهب اثنان منهم مثل الذئاب المفترسة للحصول على الجثة . كانا يسوقان بسرعة جنونية في شارع « هنط » حتى أنهما كادا يقتلان عجوزتين فيحصلان على وظيفتين جديدتين . تجادل هذان الرجلان معاً بشدّة فقالت « بامبينا » إنها ستلزّم الجنازة للمتعهد الذي وصل أولاً . غضب الثاني فذهب وأخبر « بوتس » أنها هي المالكة الشرعية للجثة لأنه كان متزوّجاً منها . ذهبت « بوتس » مثل النمر المتوحش عند « بامبينا » وطلبت منها الجثة . تجادلتا كثيراً . قالت « بامبينا » إنه مات في بيتها وهي لم ترسله ليموت هناك بل لا بد أن هذه هي إرادة الله . قالت « بوتس » انه كان لها في الحياة فيجب أن يكون لها في الموت أيضا ، ولم تستطع « بامبينا » أن تصدِّق أذنيها بسبب طريقتها في الكلام . سألت « بوتس » ماذا تقصد بالحياة ، ماذا تقصد بقولها إنه لم يكن لها في الحياة ، أي « بوتس » ، أكثر مما كان لها هي ، أي « بامبينا » . تخانقتا وكادتا تقتتلان ، لكن متعهد « بوتس » سحبها قائلا لها ألاّ تقلق . كان الجميع مسرورين لأنه حاول أن يصالحهما .

لكن المشكلة ما انتهت ، وهذا هو الجزء من القصة الذي يرسل الدموع إلى عيني ويخيفني جداً وأنا أحكيه ، إنه يخيفني لأنني أبدأ بالتفكير ألاّ فرق بين الأحياء والأموات .

كان الوقت بعد منتصف الليل . غسلوا « بامبي » وحضّروه للجنازة في اليوم التالي . قام بذلك متعهد « بامبينا » ويقولون إن منظر « بامبي » في التابوت كان لطيفاً وجميلاً . ألبسوه أحسن بدلة عنده ، بدلته السوداء التي كان يلبسها في المناسبات المهمة ، ووضعوا في عروتها قرنفلة حمراء وفي جيبها الأعلى منديله الأبيض . كان يلبس أحسن حذاء وجوارب عنده ، فلم يكن أي فرق بين منظره حينها ومنظره يوم زواجه ، سوى أنه كان ميتا . جاء أصدقاء « بامبينا » ليتطلعوا عليه وقال كلهم إن منظره كأنه نايم ، ولا بد أنه نايم لأنه لم يصدِّق أحد أن « بامبي » مات . نظر إليه الأولاد ولمسوا أرنبة أنفه بأصابعهم ، وكان منظره كأنه

حيّ . بعد منتصف الليل بقليل ، وكانت « بامبينا » نائمة في زاوية في نفس غرفة « بامبي » . يقول الناس كان عليها ألا تنام معه ، وهي تقول إنها ما كانت تخاف منه في الحياة ، فلماذا تخاف منه في الموت . كانت في عز نومها لما دخلت « بوتس » ومتعهدها . تسلّلا بمنتهى الهدوء ، بدون أي كلمة أو صوت . كان ضوء القنديل ينبعث خافتا على الطاولة ، لأن « بامبينا » تنام دائما والقنديل مضاء في الغرفة ، وهي تقول إنها لا يمكن أن تنام في الظلام مهما يُدْفع لها من المال . زحف الاثنان مثل السراطين بهدوء بهدوء ، بدون أي صوت ، ووصلا التابوت . أضاء المتعهد بطاريته ، وظهر « بامبي » في التابوت . لم يكن الغطاء موضوعاً على التابوت بعد ، فظهر « بامبي » بوضوح من راسه إلى أخمص قدميه .

همس المتعهد في أذن « بوتس » أن من العار دفنه في هذا الحذاء الجديد، وأنهما سيبدلانه عند الوصول الى البيت . أمسكا بالتابوت جيداً ، « بوتس » عند الراس والمتعهد عند القدمين ، ثم بالتدريج أقاما « بامبي » من التابوت ، بهدوء بهدوء ، بدون أي كلمة . كانت سيارة المتعهد تنتظر في الخارج وبابها مفتوح ، بحيث يمكنهما رمي « بامبي » داخلها عند وصولها ، ثم يرتبانه فيما بعد . حملاه بهدوء ، وتعجَّبا من خفة وزنه ، لا بد أن الروم قد هدَّه وخرَّب بنيته . الحقيقة أصابهما الذهول من خفَّة وزنه وقد تحرَّكا بهدوء بهدوء وبسهولة حتى الباب . سار كل شيء على ما يرام بينما كانت المسكينة « بامبينا » تنام في الزاوية مغمضة عينيها مثل الطبل وجاهلة ما يدور حولها . سارا بسهولة ، ولكن حصلت مشكلة عند إخراجه من الباب لأن الباب ضيِّق ، فأشار المتعهد إلى « بوتس » أن تديره على جانبه ، وكانت « بوتس » تطيع كل ما يقوله المتعهد . أداره على جانبه ، وفي منتصف الطريق وقعت كرات الكافور التي تسد منخريه ففاقت « بامبينا » . لم تقدر أن تصدِّق عينيها . رفعت فتيل القنديل وتطلعت حولها فلم تفهم شيئا . رأت « بامبي » واقفاً تقريباً ففزعت بشكل ، وأخذت تصرخ مرعوبة ، ثم عرفت ما يجري فمرَّت من تحت التابوت إلى الناحية الثانية . مشكلة كبيرة . تقاتلت مع « بوتس » قتالا حاميا ، فوضع المتعهد « بامبي » على الأرض وركض هارباً ، لكن الجميع استيقظوا . كانوا سمعوا صراخ « بامبينا » فركضوا عندها بلمح البصر ، وكان معهم أيضا متعهد « بامبينا » ، فبدأ المتعهدان يتخانقان . تقاتلا حتى كسرا

القنديل وكان البيت على وشك أن يحترق ، وكان « بامبي » المسكين مرميا على الأرض بدون أي حركة لأنه ميت . كان المنظر مثل جهنم نفسها بوجود النار تشتعل على الأرض والأربعة يتقاتلون و« بامبي » المسكين بارد مثل الحجر وميت وغير قادر على الحركة . جاءت الشرطة وكتبت المحضر وظهر أن لا « بامبينا » ولا«بوتس» معها أي نقود لدفن « بامبي » ؛ وليس عندهما الرّصيد الكافي في الجمعية حتى تتكفل الجميعة بدفنه . كان أمل المتعهدين هو بيع البيت ولكن لا « بامبينا » ولا « بوتس » تملك البيت . وهكذا في النهاية كان على الحكومة أن تأخذ الجثة . وضعت الجثة في المشرحة ، وفي اليوم التالي كانت جنازة « بامبي » جنازة رجل فقير . كان هذا عاراً كبيراً جداً . فلماذا يحصل الجميع ، المليح والعاطل وغير المهتم ، على جنازة محترمة مع أكاليل الزهور وناس تمشي خلف النعش ، و« بامبي » وحده تكون جنازته فقيرة . هذا هو المحزن حقاً » .

سكت « الصبي الأزرق » حتى يلتقط أنفاسه وانتظرنا .

تابع كلامه : « الحق هو أنني لم أسمع أبداً أبداً أبداً مثل هذه القصة من قبل ؛ فأنا سمعت عن ناس يتقاتلون على المال أو الثياب وأحيانا على الأملاك الكبيرة ، وأعرف حالات تقاتل فيها الرجال على النساء أحيانا ، وأحيانا العكس ، ويقولون إنه في الحرب يقاتل الجنود من أجل الحياة ، ولكني لم أسمع أبداً ، طول عمري ، أن الأحياء يتقاتلون على الأموات . الأشياء التي تحصل في هذه القرية لم يبدأ التاريخ بمعرفتها بعد . مع هذا يستمر الناس في العيش كأن لم يحصل أي شيء » .

قال« الورقة الرابحة » : « هذا صحيح » . كانت ملامحه جادَّة ، وبدا كأن رموشه القصيرة تبرق في الضوء . « هذه الأشياء لا تحدث في التاريخ ، وحتى لو حدثت ، فليس للتاريخ عيون حتى يرى كل شيء » .

قال « الصبي الأزرق » : « وأنا لا أفهم كيف أن الأشياء لا تحدث أبداً بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة . فهي دائما بين رجل وامرأة . عند وجود أي مشكلة صعبة ، مثل مشكلة « جين » و« جون »، أو مشكلة « بوتس » و«بامبينا» ؛ عند وجود مشكلة من هذا النوع، هناك دائما في الأساس امرأة ورجل» .

قال « الورقة الرابحة » : « ولا حتى رجل وامرأة ، ولكن هذا الشيء الذي يسمّونه الزواج . مثل « بامبي » و« بوتس » و« بامبينا » . كانوا يعيشون بسلام مدة طويلة . ولكن لما تزوّج الرجل من المرأة ، وغير مهم من تزوّج من ، لما تم هذا الزواج ، خرب كل شيء خرب تماماً » .

قال « الصبي الأزرق» : «يمكن الزواج لا يناسب كل الناس . هناك مثل يقول إن الزواج لا يناسب كل الناس . هو مثل قديم ، لكن يظهر أنه صحيح » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا معناه لأشخاص معيّنين مثلي ومثلك ومثل غيرنا . لكن يظهر أنه لا يناسب أشخاصاً معيّنين ، والمقصود هو جماعة كبيرة من الناس مجتمعين مثل القرية مثلاً . إلاّ أولئك الذين يعيشون حياة مختلفة، أي الذين يعيشون في القرية ولكنهم لا ينتمون إليها حقاً ، باستثناء هؤلاء ، دائماً نجد الخراب يحصل عندما يظهر الزواج . لا أعرف . كل ما أعرفه هو أنني لن أتزوج أبداً » .

قال « الصبي الأزرق » : « يجب ألاّ تقول هذا الكلام . إنك لا تعرف أبداً أبداً أبداً » .

قال « الورقة الرابحة » : « لكنني أقول لك لن أتزوج » . كان يتكلم بمنتهى الثّقة . « لأن هناك أشياء كثيرة سيئة أخرى في الزواج . لا يمكنك أن تتحرك بالحرية التي تريد ، لأن المرأة تظن دائماً أن لها حقوقاً خاصّة في تملُّكك كأنك حمامة أو دجاجة . أنت تقول إنك ذاهب هنا أو هناك ، وهي تريد أن تعرف أين ، وأحيانا أنت نفسك لا تعرف حقا إلى أين أنت ذاهب ، كل ما في الأمر أنك تريد أن تذهب مشواراً حتى تمرِّن ساقيك ، لكنها تقول انك كذّاب لأنها لا تستطيع أن تصدّق ولا كلمة من كلامك . ولا تقدر أن تلعب كرة القدم أو كرة السلة حين تريد لأن هناك طفلاً يجب أن تطعمه ، وأن تعمل هذا وهذا ، ولو أنت سألتها ما ستفعل إن أنت لم تنفذ طلباتها فإنها تثور وتخبرك ألاّ تزعج نفسك ولكن المشاكل تحصل . فتثور أنت بدورك وتقول لها أن تذهب إلى الجحيم ، ولكن الشرطة تكون بانتظارك على استعداد لاعتقالك ووضعك في السجن ، والله وحده يعرف الباقي » .

التمع جلد الجفون المهترىء الذي يحمل الرموش . وتحرك صدغاه بنوع غريب من اللهفة ، وكانت تعبيراته في غاية الجديّة . كان أكثر جدية ممّا ظنَّ الصبي الأزرق . خفض بصره إلى الرمل يراقب الزبد وهو يشق طريقه بين أصابع الأقدام . في منتهى الجديّة .

قال « الصبي الأزرق » : « مع ذلك لا يمكنك أن تحسم . أنت لا تعرف أبداً . أنت لا تعرف ، كما تقول أنت نفسك ، حين ينفجر شيء في راسك فلا تعود نفس الشخص الذي تظن أنك هو . تبدأ تعمل وتقول أشياء تعرف أنها صحيحة لكن يظهر كأنك لست أنت الذي تقولها وتعملها . فمن يصدِّق ما حصل لـ « بامبي » ـ « بامبي » من بين كل الناس . لكن شيء ينفجر في راسك فلا تعود نفس الشخص الذي كنته . ونفس الشيء حصل مع « جون » . يا الله ، من بين كل الأمكنة : شجرة . فمن أقنعه أن يتسلق شجرة ؟ لن تعرف أبداً ، وأنت تعرف هذا جيداً » .

قال « الورقة الرابحة » : « ما يدور في راسك يظهر لي أنه غير مأمون » .

« كنت أحاول أن أنكِّت . ليس نكتة تماماً ، ولكن أحاول أن أقول ما أعني دون أن أعرف الكلمات المناسبة لهذا القول . وأنا أقول ما يدور في راسك لأنني لا أجد كلمات أحسن وأكبر ، لكنني لا أحب هذا القول لأنه يعني أشياء كثيرة . ينفجر شيء في راسك فتصبح رجلاً مختلفاً . أنت لست الشخص الذي كنته ، وأنت لست مثل باقي الناس . تبدأ بالشعور أنك تختلف عن كل الآخرين ، وإن استمر هذا الشيء تشعر أن ليس هناك أي شخص مثلك . أنا لا أعني أنك ستشعر بالعظمة فلا تريد أن تتكلم مع أحد . أنا لا أعني هذا أبداً . أنا أعني أنك ستشعر ان ليس هناك أي شخص مثلك ، أي أنك أنت هو أنت ، ولا يمكن ان يوجد أي أنت آخر . وأن كل شخص آخر يختلف عنك . تبدأ بالظَّن أنك ترى أشياء لا يراها غيرك وتفكر بأشياء لا يفكر بها غيرك ، ومثل هذا الأمر يبتعد بك كثيراً كثيراً . ولمَّا تسمع الصَّيحة ، لا يعود أي شخص يرغب في رؤ يتك ، وأنت نفسك لا ترغب في رؤ ية أي شخص ، وهذا بسبب هذا الشيء المنفجر في راسك الذي لا تستطيع أن تتحكَّم فيه . يا الله كم ستشعر بالوحدة إلى حدّ الخجل . تكون تشبه رجلاً يقف على صخرة ولا أحد يقف قربك ، مع أن هناك

ناس كثير حولك ، هكذا يكون شعورك ، لأنك تؤمن أنك تختلف عن كل شخص آخر . إن كنت حقا تريد أن تعرف كيف يكون شعورك ، تخيَّل أنك آخر رجل بقي في القرية ، كل الناس الآخرين ماتوا ماتوا ماتوا وأنت وحدك الباقي . هذا هو ما يمكن أن يحصل إن دخل راسك هذا الشعور بأنك مختلف » .

أجاب « الصبي الأزرق » بغرابة : « يمكن أن يحصل هذا . بإمكاني أن أتخيَّل أنهم كلهم ماتوا ، وأنا الوحيد الباقي . لكن الشعور بالاختلاف هو شيء آخر . وهذا يمكن أن يحصل أيضا كما تقول ، لكنك بحاجة إلى تغيير كبير كبير حتى يحصل هذا » .

قال « الورقة الرابحة » : « مع أن هذا يرعبني ، لكنني أحب أن أراه يحدث . يعني مثل نكتة كبيرة ، أحب أن أرى شيئاً مثل هذا يحدث ، لكن ليس لي وحدي ، إنما للكل ، للقرية كلها ، حتى يشعر كل شخص بهذا الشعور الكبير العاطل بأنه هو يختلف عن كل شخص آخر ، ولا يعرف أي شخص ماذا يعمل ، لأنك لا تعرف ماذا سيعمل الآخر بعدك ، وأنت غير متأكد من أي شيء أبداً ، لأنك غير متأكد أن شيئاً آخر سينفجر في راسك مرة ثانية فيجعلك شخصاً مختلفاً مرة ثانية في لمح البصر . سيكون هذا في منتهى الرعب . لا يمكنك أن تسأل أي شخص عن أي شيء ، لأن لن يعرف أي شخص أي شيء » .

قال « الصبي الأزرق » : « لن يكون هذا شيئاً جيداً ، لأن كل الناس تكون متلخبطة ، تماماً مثل حصولك على عمل كبير عليك أن تعمله فتشعر شعوراً سيئاً . يكون هذا مثل المغص في المعدة . كل ما تطلعت إلى فوق تشعر كأنك تتطلع إلى تحت ، يعني : مرض حقيقي عاطل في أعماق كل شيء » .

قال « الورقة الرابحة » : « لكنني لا أظن أن هذا يمكن أن يحصل للقرية كلها ، لا يمكن، لأننا نعمل أشياء كثيرة بالطريقة نفسها . تماماً مثل الشجرة . لا يمكن للشجرة أن تقلع جذورها بنفسها ؛ نحن كلنا نعيش مع بعض ، إلاّ الناس الذين لا ينتمون إلينا . وحال القرى الثانية مثل حالنا ، قرية « دينز » وقرية « كيس » وقرية « سبونرز » ، كلها مثلنا ، كلها عندها الأشياء الصغيرة مثلنا ؛ عندها جوقة القرية ، وهي تشترك في المباريات في أعياد الميلاد ضدنا وضد بقية

القرى ، وعندها الكنيسة للجميع والمدرسة للصبيان والبنات . وأنا لا أشعر أبداً ، مهما قلت ، أن الأشياء ستتغير بشكل كبير . وأنا لن أحب التغيير ، لأن الحال القائم أسهل كثيراً ، يعني الكل مستقر ويعرف ما يريد أن يعمل إلخ . أنا أحب هذا » .

قال « الصبي الأزرق » : « لكن يمكن أن يحصل مع ذلك . يمكن ليس لكل شخص ، لكن لشخصين أو ثلاثة . بالطريقة التي حصل فيها لِـ « جون » و«بامبي» . لكن لمّا يحصل معك ، وأنت تريد أن تستمر في الحياة فلا بد أن يكون في منتهى الرعب » .

قال « الورقة الرابحة » : « الأفضل أن نتوقف عن هذا الكلام لأنه يرعبني . إنه لا يحصل أبداً لأشخاص كثار ، في قرية أو بدون قرية . انه لا يحدث للناس الذين يعلِّمون أو يعملون في البريد أو في البنك ، إنه لا يحصل لهم . هم مثلنا في شكل من الأشكال ، عليهم أن يعملوا ويرجعوا إلى البيت ، ثم أن يخرجوا في اليوم التالي ويعودوا إلى البيت مرة ثانية ، وهم يحافظون على استقامة رؤوسهم . هم عندهم وظائف أحسن إلخ ، لكنهم يعيشون بالطريقة نفسها ، يأكلون أحسن قليلا ، لكن لا ينفجر شيء في رؤوسهم أبداً ، ولن ينفجر أبداً ، صدّقوني ، لأنهم ناس معقولون هادئون لطفاء ورؤوسهم مستقيمة . هذا الشيء لن يحدث أبدا لمثل هؤلاء الناس لأنهم لا يخلطون الأوراق . أسمعهم يتحدثون أحيانا . سمعت من مدّة قصيرة المعلّم يقول كيف انه يريد أن يصرف كذا وقت ويحاول أن يرى إن كان يقدر أن يترك ، حتّى يكون مستقبل أولاده مشرقاً ، تماماً مثل ما حاول أبوه أن يجعل مستقبله هو مشرقاً . أبوه عمل له مستقبله مشرقاً ، وهو الآن معلم مدرسة مهم ، وسيعمل مستقبل أولاده مشرقاً ، ويدوم الحال هكذا حتى الأبد . وكل هذا لأنهم ناس معقولون ورؤوسهم مستقيمة ويعرفون الأوراق جيداً ولا يخلطونها . ولا يعرفون أي شيء ينفجر في رؤوسهم . لن يتغير أي شيء أبداً في القرية » .

قال « الصبي الأزرق » : « يمكن معك حق » .

« حتى لمّا حكي المعلم عن الحرب ، وفكّرنا أن الجنون أصاب الجميع بسبب

الطريقة التي قتلوا بها بعضهم ، قال المعلم إنه كان عندهم سبب . لم يعملوا هذا قبل أن يعرضوا السبب الوجيه المناسب لما يعملون على بعضهم . وكل جندي ضرب بطن الآخر بالسكين كان عنده سبب وجيه مناسب يقول المعلم . وليس أبداً أبداً لأن شيئاً انفجر في راسه » .

قال « الورقة الرابحة » : « أبداً ، أبداً . يمكن يحصل لواحد هنا وواحد هناك ، لكن للقرية كلها ، مستحيل ، لن يحصل أي شيء هنا لهذه القرية لم يسبق له أن حصل من قبل ، وإن حصل أي شيء فلن يكون أبداً هو الشيء الذي ينفجر في رؤ وس الناس . مستحيل ، مستحيل ، مستحيل » .

برزت السَّراطين من تحت الرّمل . كانت هادئة وقد شكلت مثلثاً في تسلقها للمنحدر . كانت الأمواج أكثر هدوءاً الآن ، فبدا الرّمل أشدّ تماسكاً . لقد رحل الريح إلى مكان ما ، فكان كل شيء ساكناً . لا ريح هناك إطلاقاً . وثمّة طائر يجثم فوق المنارة وقد مدّ رأسه وعنقه في اتجاه البحر مباشرة . لا تجعيدة إطلاقاً في الرِّيش . كل شيء في غاية السكون . تسلقت السراطين الشاطىء إلى الأعلى فالأعلى . وقد شعرنا بأن مخالبها تصدر صوتاً باحتكاكها بالرّمل بسبب سكون البحر والأشجار والرمل تحت الدّالية . كانت تدفنها وترفعها على التوالي ، ومع كل حركة كانت أجسادها تتقدم بوصة أو بوصتين إلى الأمام . ما يزال الطائر فوق المنارة ، وكنا نحاول أن نخمِّن ماذا سيفعل بعد ذلك . بدا كأنه الطائر نفسه الذي رأيناه منذ أسابيع في الناحية الأخرى . دعوناه طائر البحر ، وكان هذا هو الاسم الوحيد الذي نعرفه له . كان منقاره طويلاً حادّاً ، وكان طرفه معقوفاً قليلا . كان لون ريشه رمادياً داكناً مع قليل من البقع البنيّة اللون في الظهر ، والتوشيح القليل جداً من اللون الأبيض على امتداد الرقبة والصدر حتى طرف الذيل . وكان ثمة بقعة سوداء في قمة الرأس . تطلعنا إليه إذ لم يكن لدينا ما يشغلنا ، وكنا بحاجة إلى ما يذكِّرنا بأننا ما نزال هناك عندما خيّم السكون على البحر والريح والأشجار . كان الكلام قد أتعبنا . وأصابنا الخوف قليلاً من كل ما قلناه . فلم يكن هناك شيء أفضل أو آمن من التطلع إلى الطائر فوق المنارة . وكان لونه ورشاقته في سكون الهواء يستحقان التأمّل . كانت السَّراطين ما تزال تتسلق الشاطىء ، مبتعدة أكثر فأكثر عن البحر . وكلما ازدادت ارتفاعاً ازدادت حركتها يسراً

وسرعة . كان الرمل أشد تماسكاً ، فأصبحت ترفع مخالبها دون جهد يذكر . كانت عيونها هادئة في محاجرها ، وكان الجسد المرتفع في حركتها أشبه ببيت يقوم على عيدان .

برز الصياد الذي مرَّ بنا منذ فترة من وراء المنارة وتطلّع إلى السماء . كنّا أكثر ارتياحاً بوجوده ونحن لا نتكلم . وضع يديه الكبيرتين الخشنتين فوق عينيه وتطلع في جميع الاتجاهات . وقف هناك يتطلع حوله وإلى الأعلى كبحّار يستطلع السماء من خلال منظاره . تفكَّرنا فيما سيقوم به . كان تصرفه يوحي بالثقة المطلقة ، مما زوّدنا بشعور مريح بسبب طريقة وقوفه هناك وقد وضع يديه فوق عينيه ورفع ذقنه القوية الأبيّة نحو السَّماء ، مما جعلنا نشعر أن البحر أكثر ترويضاً . بدأت الأمواج تتسارع من جديد ، فوصلت أصابع قدميه . كأنك مسحت بنطاله بريشة . لم يلاحظ . كان الرمل متماسكاً حيث يقف ، فتسارعت المياه في سيرها تلطم قدميه الكبيرتين الحافيتين . لم يتحرك . نظرنا وضحكنا . ظهر متمتعاً بكل الثقة في قوّته وهو يتطلع إلى السماء واضعاً يديه فوق عينيه كأنهما نوع فريد من أنواع المنظار .

عاد إلى خلف المنارة ، ثم رجع بعد دقائق يجر خلفه شبكة صيد كبيرة . فرشها فوق الرّمل ، وراقبناه يفك الحبال الرفيعة ويثبت الأطراف . تسارعت المياه فأصبحت الرمال أقل تماسكاً . جاءت موجة كبيرة ، وانتشرت على الشاطىء وحين ارتدَّت تحرّك الرمل بقوّة . زلَّت قدم الصياد فانبطح على الأربعة ليحافظ على توازنه . لكنه لم يبالِ . لم يلقِ نظرة إلى الأسفل لمعرفة ما يجري . أصابنا السرور والدهشة من طريقته في تقبّل كل شيء بداهةً . فكأن الأمواج ذبابٌ يلعب حول قبعة الخبَّاز . فهو يتحملها ويطيق لسعها وطنينها حتى يصبح مستعداً لطردها . حرَّك الصياد قدميه في الماء بالسهولة نفسها واللامبالاة نفسها . هبَّ الريح من جديد أقوى فأصابت تجعيدات كسلى الشبكة فوق الرمل الذي تغطِّيه . أمسك الصياد أطرافها ونظر إليها كأنه يريد أن يقول لها أن تبقى هادئة . كان الرمل ينزلق ، فاقتربت الشبكة من البحر . لم يبتسم أو يضحك أو يغضب . لا علاقة لتعبير ملامحه بالشبكة أو بالأمواج التي لطمت قدميه . مجرّد ملامح ، لا غير . لم يكن أي منا ليقبل أن يكلمه مهما دفعت له من المال ، لأنه ظهر كبيراً جداً وهو واقف هناك يركِّز على هدفه في تثبيت الشبكة في الرَّمل . تماماً كتركيزه

وهو يتطلع إلى السماء . لم تكن لتجرؤ على إزعاجه . لم يكن من نوع الرجال الذين يمكن أن تلقي التحية عليهم ، لكنك تراقبه جيداً وتتمنى في سرك لو تحزر خطوته التالية . وتودّ ألّا يعرف أنك مهتم بمراقبته .

لم يسبق لنا أن رأينا من يصطاد في هذه الناحية أبداً فلذلك ازدادت لهفتنا لمعرفة ما سيحصل . لا قوارب في البحر ، وزادت الأمواج المتلاطمة بعنف على البعد من استغرابنا لما قد يقوم به الصيّاد . كان يركع فوق الرمل مثبتا أطراف الشبكة . قال « الصبي الأزرق » إنه يعتقد أنه لن يرمي الشبكة ، لكن من عادة الصيادين أن يفرشوا شباكهم على الشاطىء حتى تجفّ في الشمس . ذلك أنه من المستحسن ، كما قال ، أن تلامس الشباك الأرض حين لا تكون قيد الاستعمال في البحر . لم نفكر أن الصياد سيدخل البحر ، وإن كان ينوي ذلك ، فنحن مسرورون أننا لسنا في مكانه . قد نذهب إلى حدود الماء لكن لن يحركنا أي شيء لولوج البحر في هذه الناحية . فهي مهجورة كلياً ، ورغم لون الزبد وحركته ، فإن الجو العامّ مرعب رهيب . انسحب المدّ إلى خط نظيف واضح على امتداد الشاطىء ، فتراجع الصياد ثانية . كان من المثير مراقبة الأمواج تزبد بعيداً في حين يزحف المدّ فوق الرمل . مهما يحدث على الشاطىء كانت الأمواج عنيفة تتلاطم بعيداً . لم يكن بوسع أحد ان يعرف المسافة التي ستمتد إليها فوق الشاطىء أو عدد المرّات التي ستثورها . كانت قدما الصياد تنزلقان باستمرار ، فضحكنا بهدوء . كان هذا يحدث لنا دائماً في الناحية الأخرى . حين تنفد الأمواج وتتراجع لملاقاة المدّ المتحرك خارجاً يتساقط الرمل فننزلق معه إلى البحر . كنّا نقف أحياناً على حافة المنحدر حيث يبدأ الرمل يزداد تماسكاً في امتداده مرتفعاً عن الشاطىء . يتراجع المدّ فنتحرك إلى الأمام ، مواجهين البحر ، محاولين طول الوقت أن نكتشف مدى ثبات أقدامنا . كانت هذه لعبة من كثيرات غيرها نمارسها في البحر .

كان شيء مماثل يحدث للصياد ، لكن ذلك لم يكن لعبة بالنسبة له . كان جادّاً جديّة الموت ، كما نقول . كان يدير ظهره للبحر ، وحين ترتفع الأمواج ينزلق على ركبتيه . ظهر كأنه غير مكترث بما يجري خلف ظهره . فما أن يستعيد توازنه ، يتقدم بوصة أو بوصتين نحو الشبكة . وترتفع موجة جديدة ، فيحصل الشيء

نفسه . يمسح الماء عن يديه ويقف . ظهر الأمر مغيظاً جداً الآن . كان ما يزال يحاول تثبيت الشبكة في الرمل ، وبدا كأن له طريقة خاصّة في ذلك . لا بدَّ أنه كان يعلم أن الرمل لن يبقى ثابتاً من أجله ، لكنه حاول لا كمبتدىء غرير لا يعرف ماذا سيحدث . بل هو شخص رأى كل ذلك من قبل . كان يعرف ما يفعل . لا بد أن الأمر مغيظ جداً الآن ، كيف تنزلق الشبكة مع وصول الموجة . كان ينتصب واقفاً أحياناً كأنما كل شيء قد انتهى بصورة ترضيه ، فما يلبث الماء أن يرتفع فجأة وينهار الرمل . حاول وحاول وحاول ، وكانت النتيجة دائماً متماثلة . لم يكن الرمل صالحاً . بل مستحيل . خفض بصره إلى الشبكة كأنه يخبرها بأسباب فشله . إنه أمر يدركانه . سحب الشبكة متقدماً نحو الشاطىء وكوَّمها كومة متجعدة فوق الدالية . لقد انتهى . لا جدوى من محاولة جديدة . أردنا أن نضحك وهو يسير عائداً نحو المنارة . لم نستطع . كان ثمّة شيء قوِّي قويم ينبعث من هيئته . سار عائداً بطيئاً يتطلع إلى السماء كأنها أخبرته شيئاً غير صحيح . كان كوعاه ضخمين . وقد تعجَّبنا من عرض ظهره وكبره . بدا كأنه يقوم وحده . لو أنك رأيت ظهره أوَّلاً ، لاعتراك الشعور بأن ثمَّة شيئاً مرعباً أمامه . قد ترغب في إلقاء نظرة على وجهه ، إنما بدون معرفته . وسيكون هناك نوع من الوقاحة في هذه المحاولة . أدركنا ذلك ونحن ننظر إليه . لم يكن شخصاً تنظر إليه دون أن تشعر بمنتهى الصِّغر . كانت هيئته الجبّارة تولِّد هذا الشعور . كنا مسرورين ، بعض الشيء ، لرؤيته يذهب ، إذ سنحت لنا الفرصة للكلام عنه . فلم يكن بالإمكان أن تغامر بذلك وهو موجود على الشاطىء . راقبناه يترك الكرم ويختفي خلف المنارة ، وتساءلنا عن سرعة عودته . لقد ترك الشبكة فوق الدالية ، وهذا يعني ، على الأرجح ، أنه لن يغيب طويلا . نظر « الصبي الأزرق » إلى « الورقة الرابحة » فقال « الورقة الرابحة » : لا ، قبل أن يتكلم « الصبي الأزرق » . لقد أدرك أن « الصبي الأزرق » كان سيقول شيئاً عن ذهابنا لإلقاء نظرة على الشبكة . لم يكن ذلك من الأمور التي تقوم بها بسهولة . تساءلنا إن كان قد أعارنا أي اهتمام . إنه لم ينظر إلى ناحيتنا حقاً ، لكنه حين تطلَّع لم يبد عليه ما ينم عن أنه رآنا ، رغم أننا لم نكن نبعد عنه كثيراً . اعترانا شعور بالانفراج وبالكبت لدى ذهابه . كنّا سعيدين أن نكون بدونه ينظر حواليه ، ونحن غير واثقين ممّا سيقوله فيما لو رآنا . لكننا أسفنا لأن الفرصة لم تسنح لنا حتى نقول له أي شيء .

كان ذلك سيملأنا زهواً وغبطة . كان بإمكاننا أن نروي القصّة لِـ « بوب » ممتلئين بشعور عميق من الكبرياء . لقد حادثنا صيّاداً ضخماً ، وكنّا سنصف مدى ضخامته الشديدة . كان ذلك أشبه بتسلّق جبل قبل أي شخص آخر . ولهذا السبب أسفنا كل الأسف لذهابه .

قال « الورقة الرابحة » : « هيّا بنا » . كاد لا ينطق بأي كلمة عند ظهور السراطين الصغار . كانت أقرب الى البحر الآن . آخر مرَّة رأيناها كانت قد تسلقت واصلة إلى الكرم ، ولا شك أنها قد وجدت طريقاً أقصر فوق الرمل عائدة نحو البحر أثناء مراقبتنا للصياد . كانت عيونها مرتفعة ، وأخذت تعرج ببطيئة نحو البحر . بدا الرمل أكثر تماسكاً حيث كانت .

سأل « الصبي الأزرق » : « هل تحب السراطين ؟ » ، وابتسم وهو يطرح السؤال .

أجاب « الورقة الرابحة » : « أحب السراطين . لكن هذه صغيرة جداً » . وكان هو أيضا يبتسم وهو يجيب .

قال « الصبي الأزرق » : « إن ما لا يقتل يُسَمِّن » .

تركنا « الصبي الأزرق » وزحف نحو السَّراطين مقترباً منها من ورائها . كان صيد السَّراطين هواية نمارسها لفحص سرعتنا وخفَّة يدنا . كثيراً ما كانت السَّراطين تجتاح القرية بعد الأمطار الغزيرة ، سراطين كبيرة زرقاء الظَّهر تزحف بغباء هنا وهناك للحصول على الطعام . كان الرجال والأولاد يخرجون جماعات مزوّدين بالعصيّ والملاقط والمصائد من كل الأنواع . وكانت النساء والأطفال يصرخون حين يرون الصَّيد . كانت الحصيلة تصل أحياناً إلى المئات فكان يجني الرجال والصبيان الذين صادوها ربحاً وفيراً . حتى أولئك الّذين يدينون صيد السراطين بوصفها رياضة مرذولة كانوا يشترونها . إنها لذيذة إن أنت طبختها جيداً . لكن هذه السراطين التي تستند متردّدة إلى المنحدر ، مختلفة . إنها صغيرة جداً وتزيينيَّة ، مثل الفناجين والأطباق التي تشتريها أمي وتخبِّئها . ليس بإمكانك أن تستعملها في الشراب . فهي دقيقة جداً وتزيينيّة . وهذه السراطين الصغيرة تتمتع بالصفة نفسها . إنها قطع صغيرة رائعة جذابة من الأثاث الذي يزدان به

الشاطىء . فأنت لن تأكلها رغم أن لحمها قد يكون لذيذ الطعم مثل السراطين الكبيرة التي تجتاح القرية ذات الحركات القبيحة الهمجيّة في زحفها .

لم يكن لِـ « الصبي الأزرق » أي رغبة حقيقية في أكل واحد منها . أراد أن يمسكها كنوع من الانتصار . سيكون في مقدوره أن يتباهى بما عمله بعد أن صرف ساعات طويلة في الناحية الأخرى من المنارة . يزوِّدنا الإمساك بالأشياء بغبطة عظيمة ، نحن الصبيان الصغار . كنَّا ، أحيانا ، نرجم العصافير ونمسكها ثم نحملها معروضة في راحاتنا . كان بإمكان الجميع أن يروا ما فعلنا ، والمقصود هو ما أنجزنا . إن ذلك أشبه بالتحدّث إلى الصياد ، أو بتسلق جبل لم يجرؤ أحد على صعوده من قبل . يا لروعة اصطياد أي شيء ! هذا عظيم ! بدا « الصبي الأزرق » كأنه سرطان كبير يزحف على الأربعة ، مما أثار ضحكنا بسبب حركاته المهتزَّة المتنقلة الزاحفة . خفضت السراطين أعينها وبقيت ساكنة . كان من الصعب دوماً أن تخمِّن ما سيقوم السَّرطان به . كانت السراطين أحياناً تقفز متوحشة حتى لو كنت على مسافة ميل منها ، وكانت في أحيان أخرى تقبع مكانها متكوِّمة على نفسها متقاربة من بعضها كلما اقتربت منها . وكانت تبدو كأنما تشعر أنها غير مرئيَّة لأن عيونها قد خفضت على مستوى المحاجر التي تحتويها . استلقى « الصبي الأزرق » متمدداً على الرمل مادّاً يديه أمامه في أقصى ما يمكن . كانت السراطين تحاول شقّ طريق في الرمل . لقد رأته لكنَّها غير متعجلة الهروب . لعلَّ الرَّمل مملكتها . بإمكانها أن تظهر وتختفي كما تشاء ، بينما أنت تنتظر وتراقب . كانت يداه تغطِّيها ، لكن لم يتم أي تلامس . المصاعب في بدايتها . حين تحاول أن تصطاد سرطاناً بيدين عاريتين تحتاج إلى مهارة فائقة . عليك أن تضع السّبابة والإبهام في مكان ما بين جسد السرطان ومخالبه . وهذا في غاية الصعوبة ، لأن مخالب السرطان حرَّة متحركة كالكرسي الدوَّار . ذلك أن بإمكانها أن تدور ، على ما يبدو ، في كل الاتجاهات ، وبإمكان السراطين ان ترفعها وتنزلها لتشكيل أي زاوية تريد . وكثيراً ما عصرتْ هذه السَّراطين مئات الصبيان وهم يحاولون اصطيادها بأيادٍ عارية . فلو أنت أخطأت موضع اللَّمس أو لمستها أسرع ممّا يجب ، تكون المخالب قد لقطتك . والمخالب حادّة قاطعة كالشفرات . عليك أن تتقن العمل . يجب أن تكون صيّاد سراطين ، كما نقول .

لكن « الصبي الأزرق » كان يعتبر نفسه سيِّد هذا الفن . لقد سبق له أن اصطاد عدداً وافراً منها . لقد أصبح الفن دربة روتينيَّة الأمر هو ببساطة أن تمسكها . فهو يتمتع في هذا الفن بالثقة والسيطرة نفسها التي لاحظناها في الصيَّاد . استلقى متمدّداً وقد ثبَّت يديه على ظهور السراطين . كان يحاول أن يجمعها كلها معاً . لقد وجد إبهامه الموضع المعتاد بين جسد السرطان ومخلبه . كانت السراطين ساكنة وملتحمة بقوَّة ممَّا جعل شدّ القبضة عليها عسيراً . كانت أحيانا تفهم اللعبة ، على ما يبدو . كانت تبقى ساكنة وملتحمة بقوّة ، ثمّ ، على حين غرّة ، تنشب المخالب مثل الأسلحة الحادّة .

ارتفعت الأمواج وتقهقر الرَّمل . بدا أنها سوف تهرب . إن ارتفعت الأمواج ثانية يتراخى الرَّمل فتستطيع السراطين أن تشق طريقها بسهولة عبر الرَّمل . لقد أخطأ « الصبي الأزرق » القبضة . ركَّز قدميه في الرمل محاولاً أن يدفع نفسه إلى الأمام . لكن ثقله شدَّه إلى الأسفل . تقهقرت الموجة وتحرك الرمل بقوّة . اتخذ وضع الركوع وانزلق الرمل بعمق أكبر . السراطين في مأمن . سحب يده ونهض . تحرك الرمل تحت قدميه وصرعته الأمواج المسرعة إلى الشاطىء أرضاً على وجهه . لسع الملح عينيه وتمايل واقفاً . هجمت موجة أخرى فتعثَّر . السَّراطين ! لقد اختفت السراطين . لم نستطع أن ندرك ما يجري . كان « الصبي الأزرق » يضحك . طريقة ضحكه أخافتنا . اقتلعته موجة فأصبح الآن في البحر حقاً . ارتجفنا ، مذهولين . دفعته موجة إلى الأعلى ، ثم قامت موجة ثانية بدفعه إلى الأسفل . صرخ وصرخنا نحن أيضا . أصبح في منأى عن البصر فصرخنا بكل قوَّة رئاتنا . وكانت الأمواج تدفع صراخنا إلى الشاطىء . كأنّما ذلك مؤامرة الأمواج ضد صيّاد السراطين . صرخنا فبرز الصياد من خلف المنارة . دللناه على الموضع الذي رأينا فيه « الصبي الأزرق » آخر مرَّة . حمل الهواء صرخة خافتة . لم نستطع أن نفهم كيف حدث ذلك . لم نستطع أن نتابع سرعة حركات الصياد . لقد جمع الشبكة ورماها في البحر حيث دللناه . جذبها بحماسة وقوّة فانبثقت الشبكة تحمل أغرب صيد . كان « الصبي الأزرق » فيها . كان مطوياً مثل بطانية مبتلَّة . أخرسنا الرعب . ظهر في غاية العجز في الشبكة . كانت عيناه حمراوين وكان جسده يتنفس لاهثاً فيضاناً عظيماً من الهواء . يلهث ويلهث مثل

كلب أرهق نفسه من سرعته الهائلة في السباق . سحبه الصياد إلى الشاطىء وأفرغ شبكته كأنها تحوي شيئاً ميتاً عديم الفائدة . نظر إلى « الصبي الأزرق » بقرف . كان « الصبي الأزرق » مثل ذبابة أطالت الطنين . فأنت تلطمها وتأسف لأنك لطَّخت يديك . كان بالإمكان أن تتركها . لكنك لم تقدر . أصبحت لا تطاق . شرٌّ لا بدَّ منه . أن تلطمها . هذا هو الأمر . شر لا بدَّ منه . تطلع الصياد إلى « الصبي الأزرق » ، بدون كلام . لا أثر هناك لما يمكن أن نسمّيه مزاجاً سيئاً . فقط نوع من القرف الهادىء . جلس « الصبي الأزرق » صامتاً ، وأسنانه تصطكّ وجسمه كله يرتجف في الريح . لم نستطع أن نتكلم . خفنا من الصياد . الطريقة التي رمقنا بها ! كان أشبه بشخص يأسف لما قام به ، ولكنه أيضا لا يأسف لأنه يعرف أن القيام بذلك كان ضرورياً . ظهر في غاية الندم ، وفي الوقت نفسه اعتراه تعبير لم نستطع تحديده . فتحت العينين الرخاميتين والنظرة الجامدة لا بد أن شيئاً يصرخ من أجل الحياة كان قابعاً هناك . كان يعلم أن الصيد ليس سمكاً ، ولكنه سحب الشبكة بلهفة وقوّة لا تدلّ إلاّ على رغبته اللاإراديّة في بقاء الآخر على قيد الحياة . لكن منظره الآن في غاية الندم . اعترانا الخوف .

شخر بصوت يبعث الرعب : « كان يجب أن أتركك تغرق » .

قال « الصبي الأزرق » وهو يلقط أنفاسه : « أشكرك يا سيدي » . كانت هذه هي المرة الاولى التي يتكلم بها « الصبي الأزرق » .

شخر الصياد ثانية : « قسماً بالله ! كان يجب أن تغرق » .

قال « الصبي الأزرق » : « عليك ألاّ تقول هذا » . أدهشتنا وقاحة الكلمات . لكن من غير الممكن أن تكون أي وقاحة هناك . كان « الصبي الأزرق » يرتعش مثل قطة قد استحمَّت .

صرخ الصياد : « ولماذا لا أتركك تغرق ؟ » . كان ذلك أول شيء قاله جعلنا نعتقد أنه بشر مثلنا . الطريقة التي قال ذلك بها ! يظهر الآن أنه غاضب .

زمجر الصياد : « قل لي . قل لي في وجهي ، بحق الجحيم ، لماذا يجب ألا أتركك تغرق ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « لأنني لو غرقت لما قـدرت أن أشكرك » . كان جادّاً ، فمشى الصياد عائداً خلف المنارة .

مشى صاعداً الشاطىء وقد أدار لنا ظهره العريض الضخم . بدا أنه الجبار نفسه الذي رأيناه من قبل ، إنما أكثر إنسانيَّة إلى حد ما . حصل تواصل من نوع ما فيما قاله منذ لحظات . أدركنا أن بإمكانه أن يغضب . لم يبد ذلك في البداية ، غير أننا شعرنا به الآن . كان ضخماً وقوياً ، كما نقول في القرية ، كان ضخماً وقوياً ولكنه مثل واحدٍ منَّا . كان غضبه إنسانياً . أما ثقته المطلقة وسيطرته المطلقة حين كانت الأمواج تلاطم قدميه والشبكة منتشرة أمامه ، فلم تكونا كذلك . لم يكن ذلك من الإنسانية في شيء إطلاقاً . راقبناه يرتقي الشاطىء نحو المنارة ، ولم نتكلم . الجبّار هو الرجل ، لكن كونه رجلاً يمنع عنه أن يكون جبّاراً بعد . لم نقل ذلك إذ لم تكن عندنا الكلمات اللازمة لقول ذلك . شعرنا به . التّواصل جعله إنسانياً . أصبح الآن مثلنا . كان ضخماً وقوياً ، كما نقول في القرية ، ولكنه مثلنا . يستطيع أن يقتل شخصاً آخر إن أراد ، ويستطيع أن ينقذ شخصاً من الموت إن أراد . لديه القدرة . إنه أقوى منا جميعاً متحدين . ربما كان أقوى من القرية كلها . لكن لا أهمية لذلك . كان ضخماً وقوياً ، كما نقول في القرية ، ولكنه مثل واحد منَّا ، فقط مثل واحد منا . إنسان .

لمّا اقترب من المنارة استدار وواجهنا . انتظرنا وراقبنا ، مشدوهين . لم يتكلم أحد بعد « الصبي الأزرق » .

صاح : « أروني عرض أكتافكم من هذه الناحية من البحر » .

قلنا بصوت واحد : « أجل يا سيدي » .

استدار وتحرك نحو المنارة ، ويداه تشيران إلى الأسفل نحو البحر ، وظهره العريض الضخم كشيء يتمتع بحياة خاصة به . اختفى عن الأنظار . تطلعنا إلى بعضنا ، بدون كلام ، وظهر كأن كلًّا منا يرى ما يشعر الآخر به . كان ضخماً وقوياً ، كما نقول في القرية ، لكنه كان مثل واحد منا ، فقط مثل واحد منا . إنسان .

برزت السراطين مرة ثانية . نظر إليها « الصبي الأزرق » ثم حوَّل نظره عنها بسرعة .

قال : « لا تنظروا إلى تلك الجهة » ، ثم قادنا من سواعدنا نحو الجهة الأخرى من المنارة .

مشينا عبر الكرم وكنَّا نخلِّص أقدامنا من بين أوراق الدَّوالي . اقتلعنا رقع الطحلب والخنشار التي تغطي المستنقعات القذرة الضيِّقة . ولم ننظر وراءنا . لقد مرّت ساعات منذ غادرنا بيوتنا . لقد تكلمنا وتكلمنا وتكلمنا . لعلنا تكلمنا كلاماً فارغاً . لكن الجميع سيغفرون لنا : فمع البحر الهائج ، والرمل والريح بين الأشجار ، تلقَّينا أحاسيس غريبة كثيرة . وفي القرية ، وفي التَّختية ، وفي المدرسة ، وفي هذه الزاوية أو تلك من زوايا البيت ، يحدث شيء ما دائما . لم نكن نلاحظه في حينه ، لكن حين ظهور شيء أكبر منه مثل البحر والرّمل ، فإنه يستحضر معه شعوراً ضخماً جداً ، ويقوم هذا الشعور الضخم باستحضار الأحاسيس الصغيرة التي تلقَّيناها في أماكن أخرى . لم نشعر بالخجل . ربّما كان حالنا أفضل لو كنّا نملك الكلمات الكبيرة الجيدة مثل المثقفين . لكننا لا نملكها . كان علينا أن نقول إن شيئاً ما يشبه شيئاً آخر ، ومهما قلنا كان يعجز عن التعبير عن شعورنا . نحن لن نجرؤ على أن نخبر أحداً عمَّا تحادثنا به . فذلك بميسور الناس الواثقين مما يقولون والذين يملكون الكلمات الملائمة . بإمكانهم أن يتحدثوا مع الآخرين حتى لو انهم لا يشعرون بما يقولون ، فذلك لا يهمّ . لديهم الكلمات الملائمة . اللغة هي نوع من جواز المرور تستطيع أن تذهب حيث تريد إن كان سجلك نظيفاً . تستطيع أن تقول ما تشاء إن عرفت كيف تقوله . ولا يهمّ إن كنت تشعر بكل ما تقول أم لا . فلديك اللغة ، كلمات فخمة كبيرة للتعويض عمّا لا تشعر به . ولو كنت مثقفاً حقا ، وتقدر أن تسيطر على اللغة كما يسيطر الربّان على سفينته ، لو كنت تقدر أن تجعل اللغة تعمل ما تريدها أن تعمل ، وتقول ما تريدها أن تقول ، حينها يمكنك ألّا تشعر بشيء إطلاقاً . بإمكانك أن تستغني عن الشعور . لهذا السبب يرغب الجميع أن يصبحوا مثقفين . تستطيع أن تستغني عن الشعور . تتعلم هذا ، وتتعلم ذلك وتقدر أن تميِّز الأوراق بعضها من بعض ولا تخلطها . أنت على ما يرام . لن ينفجر شيء في رأسك أبدا . فلديك اللغة لتأمين

حمايتك . ولو أنت بدأت تشعر بأي شعور قوي ، فبإمكانك أن تقتل هذا الشعور ، بإمكانك أن تنحِّيه من دربك عن طريق استحضار الكلمات التي لا تفقه للشعور أي معنى . ذلك أشبه بالسكين . إن أردت ذبح الخنزير ، أحضرت سكينك . ليس لدى السكين أدنى فكرة عما يدور في رأس الخنزير ، لكن حين تغرزها ، تؤدِّي المهمة . هكذا الحال مع اللُّغة . فحين تنبثق المشاعر مثل خنازير صغيرة كثيرة تشخر ويثيرك شخيرها ، فبإمكانك أن تذبحها . بإمكانك أن تذبح مشاعرك كما تذبح الخنزير . اللغة هي كل ما تحتاج إليه . إنها مثل السكين . فهي تغرز وتقطع مشاعرك منظِّفة مسوِّية ، فتضع حداً لأي انفجار قد يحدث في رأسك . لعلَّنا نكون في حال أفضل لو كنَّا مثقَّفين . أما في الوقت الحاضر ، فلن نقول أي كلمة لأي شخص ولا كلمة .

قال « الصبي الأزرق » وهو ينظر إليَّ : « يجب ألّا تخبروا « بوب » خصوصاً أنت » .

سألته : « أخبره عن أي شيء ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « يجب ألّا تخبره عن السراطين والصياد ، لأنه سوف يضحك . هو يريد شيئا يضحك عليه بسبب الموجة الكبيرة » .

قلت : « لن أخبره » .

قال « الصبي الأزرق » : « يجب ألَّا تخبره لأنه ما أرادك أن تجيء هنا وترى ما يعمله . لم يكن يريدك أن تعرف عن « قانوط » وكل ذلك . أخبرنا أنه لم يقل لك أي كلمة هذا الصباح ، وأنه كان يحاول أن يتهرب منك كل الوقت » .

قلت : « لن أخبره . لن أخبره » .

سرنا على الشاطىء حتى وصلنا كومة ثيابنا فوق الصخور . كان « بوب » لابساً ثيابه جالساً فوق الصخور منتظراً .

سأل « الورقة الرابحة : » : « ماذا حدث ؟ » ، ولم يكن في وجهه أي أثر للابتسام .

قال « بوب » : « خفت » .

قال « الورقة الرابحة » : « حصل نفس الشيء مع قانوط » .

قال « الصبي الأزرق » : « صحيح . لكن ذلك كان نكتة . أما هذا فواقعي » .

قال « الورقة الرابحة » : « كان على الملك ألاّ يهرب » .

قال « بوب » : « سهل الكلام عليكم . والنكتة في الكتاب هي نكتة في كتاب ، لكن لو كان « قانوط » أو أي شخص آخر هناك في مكاني ، فإنني أرغب أن أراه يقف على رجليه » .

قلت أنا : « ليس قانوط نكتة » .

زمجر « بوب » : « توقعت أن تقول هذا . لهذا السبب ما أردتك أن تعرف ما يدور في راسي هذا الصباح ، لكنك تكون أكبر كذّاب لعين إن أنت قدرت أن تقف هناك وتقول لي إن بإمكان أي رجل أن يقف هناك حيث وقفت أنا هذا الصباح . يقف ويواجه الموجة » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا صحيح . ليس المهم هو التاريخ ، بل الفطرة السليمة » .

قال « بوب » : « وهو أمر لا بأس به بالنسبة للناس الذين ما عندهم بحر » .

قال « الورقة الرابحة » : « صحيح » .

تابع « بوب » : « أو حتى لو كان عندهم ، لأن الأمر يختلف . لأنّي سأخبركم بشيء ، بحر هادىء أو بحر هائج ، لا يوجد أي بحر مثل بحر باربادوس أبداً » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ما رأيك بالبحر الإنجليزي ؟ » .

قال « بوب » : « لا يوجد أي بحر إنجليزي . هذا البحر الذي تراه هنا

أمامك هو البحر الوحيد في دنيا الله هذه ، وإن كان أي واحد منكم يشك في كلامي فليسأل أبي » .

سأل « الصبي الأزرق » : « إذن من أين تأتي السفن ؟ » .

قال « بوب » : « لا تسأل أسئلة مثل هذه » . كان يعلم ألّاً معرفة لديه بالتاريخ ، لكن فيما يختص بالبحر كان « بوب » يعرف أن بإمكانه أن يتكلم دون أن يعارضه أحد .

قال وهو يجلس فوق الصخور : « عليك أن تعرف جغرافية أكثر . لو بدأت سفينة إبحارها من هنا قرب النادي ، وسارت مستقيمة في سير مستقيم بدون أي دوران ، هل تعرفون أين تصل ؟ هل يعرف أي واحد منكم أين تصل ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « لا أعرف » .

قال « بوب » : « حسناً ، أنا أخبرك . ستصل إلى هناك عند المنارة » .

كان الغموض يسود ما قاله « بوب » ، فلم يتكلم أحد .

تابع « بوب » : « وسوف تلاحظون شيئاً ، إن نظرتم جيداً إلى هذه السفن ، ترون أنها كلها تستعمل نفس اللّون في الدِّهان وترفع العلم نفسه : الأحمر والأبيض والأزرق . تعرفون معنى هذا : إنها السفن نفسها طول الوقت . لأنه من وجهة نظر عملياتية ، لو مشت سفينة من هنا قرب النادي وسارت مستقيمة ، مستقيمة بدون أي دوران ، فلا بد أن تصل إلى هناك عند المنارة » .

انتظرنا ، وقد تأثَّرنا من معرفة « بوب » اليقينيَّة .

تابع يقول : « هذا تماماً تماماً هو ما يقصده « كريستوفر كولومبس » حين يقول إن أقصى الشرق هو الغرب » .

توقَّف قليلا : « وإن شككتم في قولي . إن لم يصدِّقني أيّ واحد منكم ، فاسألوا أبي » .

قال « الورقة الرابحة » : « أنا لن أجادلك . لكنني أعتقد أن لا بد أن توجد أرض في مكان آخر » .

قال « بوب » : « حسنا ، إن شككتم فيما أقول ، فاسألوا أبي » .

قال « الصبي الأزرق » : « صحيح أن أباك هو صياد . وقد صار صياداً منذ كان في عمرنا ، لكن . . . » .

قال « بوب » غاضباً : « بدون أي لكن . لقد وصل في عمق المحيط أبعد من أي واحد منّا ، وما شاف أي أرض أخرى أبداً أبداً » .

كان « بوب » عدوانيا . أصغينا بتأمّل .

سأل « الورقة الرابحة » : « وماذا عن أمريكا ؟ » .

نهض « بوب » عن الصخور : « أمريكا ؟ » .

قال : « أنتم تتكلمون عن العصور القديمة . تتكلمون عن زمان زمان سنة ١٤٩٢ . لكن باربادوس اكتشفها الإنجليز يوم ١٦ هذا الشيء أو ذاك ، وهذا هو العصر الحديث » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ومن اكتشف أمريكا ؟ » .

قال « بوب » بسرعة : « الإنجليز أيضاً » .

سأل « الصبي الأزرق » : « ومن أين جاء الإنجليز ؟ » .

قال « بوب » : « من إنجلترة » ، وقد جعل السؤال يبدو سخيفاً في بساطته .

والآن أدركنا أننا قد ورّطناه .

سأل « الصبي الأزرق » : « وأين تقع إنجلترة ؟ » .

ابتسم « بوب » ثم أدهشنا بما قاله بلهجة تنم عما يشبه القناعة الدينية : « باربادوس أو إنجلترة الصغيرة ، جزيرة من الترسبات المرجانيّة تقوم كالجوهرة في البحر الكاريبي » .

سمعنا الكلمات وعرفنا أنها ليست كلمات « بوب » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا ليس من كتاب تاريخ مايكل جون » .

أجاب « بوب » : « لأنه ليس نكتة . هذه هي الحقائق . الحقائق » .

مشينا مبتعِدين عن البحر صامتين في شمس بعد الظهر الحارَّة . كان سطح الشارع لزجاً حيث تشقق الإسفلت وتورَّم بفعل الشمس . غطَّينا رؤوسنا بالورق وبأوراق الدوالي . كان كل شيء هادئاً وحاراً ، باستثناء رطوبة البحر . كان المدّ ينساب رقيقاً حتى يدمِّر نفسه ضارباً الصخور . وفي البعد حيث تقف السفن في المرفأ كان الماء مستوياً وساكناً . وفي أحد جانبي الشارع توهَّجت حديقة المدرسة بالورود في الشمس . انبثقت النار من بتلات الورد وتسربت عبر الأوراق الخضراء حتى القشرة الشوكية للأغصان السَّوداء . كان لون الحشيش بنياً داكناً وقد قُصَّ قصيراً فكأنه شوارب قصيرة . وفي الجهة المحاذية للبحر كان الظل عليلاً منعشاً فوق السَّاحة . والساحة هي مربَّع غير مسقوف مزروع بأشجار الخوخ وفيه مساحة دائريَّة مزروعة بالحشيش المقصوص تحيط بالنافورة الحجرية الصغيرة . ويُغطي باقي المساحة سطح من الاسفلت . وكانت دالية كبيرة تعرِّش أغصانها فوق المقاعد . أما في الجهة الأخرى فقد اجتمعت الأشجار دائمة الخضرة السوداء الأغصان متعانقة لتنتج ظلاً أكبر . كانت الأوراق متراصَّة وكثيفة . وفي الوسط بين الظِّلَّين وأمام النافورة ترتفع منصَّة الفرقة الموسيقية . كانت تقوم على ارتفاع منخفض من درجات خمس تستدير لتشكل المنصة المنبسطة حيث تعزف فرقة الشرطة مرَّة كل أسبوع بعد الظهر ، ومرَّة كل شهر في الليل . كانت أشبه بصورة في كتاب . يجلس الناس مرتاحين هادئي البال على المقاعد والمدّ ينتشر هادئاً فوق الصخور ثم يتوزع ويتقهقر نحو السفن في المرفأ .

قال « بوب» : «إنه كذلك أحياناً في القرية » .

تردَّدنا قليلاً بحثاً عن جواب إذ علينا ألاَّ ننبس بكلمة عن « الصبي الأزرق » والسَّراطين .

قال « بوب » : « هؤلاء الناس سيقعدون هناك حتى تعود مراكب الصيد ، تماماً كما يقعدون تحت أشجار الفُسطيط في انتظار أن تجيء بائعات السمك » .

سأل « الصبي الأزرق » متحاشياً الموضوع : « بماذا ستخبر أمك ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعرف . يمكن أقول إننا كنا نحاول أن نصيد سمكة ، سمكة كبيرة كبيرة للإفطار » .

قال « الصبي الأزرق » : « ليس للإفطار . الساعة الآن الثانية » .

قال « بوب » : « قضينا هنا حوالي العشر ساعات » .

نظر « الورقة الرابحة » إلي وقال : « وماذا ستخبرها أنت ؟ »

قلت : « يمكن أقول إني ذهبت عند « سميتي » . » .

سأل « بوب » : « ومن سميتي ؟ » .

قلت : « إنها شغَّالة . سأقول إني ذهبت عندها حوالي الساعة التاسعة ، فأبقتني عندها لأنها خافت على صبي صغير ترك بيته من الساعة الخامسة بدون طعام أن يغمى عليه في الطريق . بعد هذا أقول إني بعدما أكلت ليس من الأدب أن أتركها رأساً ، وظهر لي أن كل ما طال بقائي كل ما زاد أدبي وأخلاقي الحسنة ، لذلك بقيت وتحدَّثت مع سميتي » .

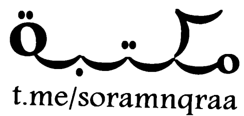
قال « الصبي الأزرق » : « ستصبح محامياً » .

قال « الورقة الرابحة » : « أو سياسياً » .

قال « بوب » : «هما شيء واحد ، وإن اختلف الاسم . هما شيء واحد لأن كل واحد منهما هو كذَّاب لعين » .

مشينا في صفّ اثنين اثنين خلال الأحياء قاطعين حدود « بلفيل » متجهين نحو القرية .

لا ببغاوات بين الأشجار . يسود الهدوء تماماً كما في الساحة المجاورة للبحر ، وقد تخلَّت نجمة الصباح عن مكانها للشمس التي أشرقت وهَّاجة في السماء .



٧

حين خيَّم الليل ، بدا كأن الظلام قد وقع من السماء . في الساعة الرابعة تشع الشمس التي يبدو كأنها تتجه نحو البحر من جهة الغرب أشعة متوهجة حمراء وتلتمع الطرقات الكلسية . لقد رحل الريح وصارت الأشجار ساكنة . وفي هذه الساعة تبدو القرية ساكنة سكوناً غير واقعي . السماء والأشجار والريح والغيوم : كل هذه الأشياء التي بدت في السابق قريبة مباشرة أصبحت الآن بعيدة خلواً من الحيوية . لا غيوم إطلاقاً ، وقد ظهرت السماء الشديدة الانحناء صلبة قاسية . وبدت الشمس النازفة ضوءها فوق الأرض كأنها معلقة في السماء كجسم غريب غير مرغوب فيه . وما أشبه الأشجار بعواميد الإنارة في هيئتها المنتصبة ثابتة غبيَّة ، وبدت البيوت القائمة على الأرضيَّة الكلسيَّة ، حياديَّة ومستسلمة . وفي إحدى الزوايا تحت ظلال أشجار الماهوغاني جلست عجوز خلف صينية عليها البرتقال والخوخ والجوز . كانت الصينية موضوعة على مقعد يشبه ، شكلاً وحجماً ، المقعد الذي تجلس هي عليه . كانت تلبس منديلاً أبيض يلف رأسها ومريولاً أزرق . كانت نائمة ، وقد انحنى رأسها إلى الأمام ، ونامت الذقن كسلى في حجر العنق ، وكانت شفتاها تتدلَّيان متراخيتين . يقعد صبي صغير قربها . سرق خوخة من الصينية وحشا بها فمه قبل أن يخفض رأسه نحو الأرض . فتحت العجوز عينيها نصف فتحة ، وحكَّت أذنيها وهمهمت بكلام للصبي الصغير . لم يجبها . مرَّت بيدها فوق رأسه ، ثم أغلقت عينيها ثانية . انتظر الصبي ، ثم رفع بصره وقطف موزة من العنقود . ثم حشا جيوبه بالمزيد من الخوخ والجوز ، وثمن ذلك كله لا يزيد عن البنس بأي حال . أعاد تنظيم وضع الموز بسرعة وخلط الخوخ والجوز

مشكِّلا كومة جديدة ، ثم جلس هادئاً . ألقى نظرة أخرى على العجوز ، وما أسرع ما دار حول الأشجار واختفى عن الأنظار . لم يفطن إليه أحد . نامت العجوز ، وبدت ، في نومها فوق المقعد الخشبي ، مثل البيوت : قديمة ومهلهلة وبعيدة .

غير أنَّه قد تنامى من هذه الأجسام التي تبدو بدون حياة أجسام أخرى تحوِّل الهواء ، في أوقات أخرى ، إلى معترك من الضوء المتألِّق . وكان في أعلى الجدار المرتفع الذي يمتد عبر قسم كبير من القرية فاصلاً مجموعة من السكان عن المجموعة الأخرى ، قطع من زجاج القناني المكسَّرة ، وكان الضوء المنبعث من حوافِّها الخضراء يبدو كأنه يقطع الهواء . كما أن الكثير من أسطح البيوت كانت مغطَّاة بألواح من الزينكو ، فكان الضوء المنعكس منها يبدو كأنه يتكاثر في الضوء المنبثق من الزجاج المتكسِّر في أعلى الجدار . وظهرت الأشجار ، من البعد ، ثابتة كما كانت في السابق ، لكن عند الاقتراب منها كان المرء يلاحظ أن الأغصان تتمايل قليلا ، وكانت الأوراق تصاب ، أحياناً ، بالانزعاج . وفي الساعة الرابعة كان الهواء تألُّقا يسبِّب العمى لشدته ، وكانت القرية ساحة بدون حدود يستقر الضوء فيها . وفي الساعة الخامسة لا يبقى ثمَّـة غير الظل . وكانت ألواح الزينكو والقناني الزجاجية المكسَّرة تكتسي بالرمادي الثقيل غير العاكس لأي ضوء فوق البيوت والجدار المرتفع . وتدريجياً كانت أوراق الأشجار تكتسب لون الضوء ، فكانت المساحات الفضاء بين الأغصان تمتلىء بالرمادي . كان الشفق يتكثف . فأضاءت القناديل في زوايا الشوارع . وقد أضيئت القناديل أيضا في بعض البيوت ، لكن المرء كان يعرف بوجود هذا الضوء ولا يشعر به . من الآن فصاعداً يقوم هذا التصادم التدريجي بين نوعين من الضوء : نور النهار المتقهقر ، ونور قناديل الغاز وقناديل البيوت المستجدّ . لقد ركّزت العجوز الصينية فوق رأسها ، وحملت المقعدين بتوازن جيد فوق ساعدها ، وانصرفت . ينحلّ الشفق إلى ظلام أشد كثافة . وفجأة كأنما تلبية لإشارة بالعمل ، أضاءت قناديل الغاز بثبات عدواني وتوهجت قناديل البيوت. إن هذا الاستبدال هو في طبيعته من نوع البدايات الجديدة. أضاءت القناديل في الدكاكين ، وقامت الحركة حول عواميد القناديل في الزاوية . انبعث الضوء من الشبابيك والدكاكين والعواميد التي في

الزَّاوية . وزاد ذلك من إظهار ظلمة الأرض والسماء التي بدت الآن مزدحمة بالنجوم . إنها الساعة السادسة . حلَّ الليل .

لكن هناك ضوءاً آخر ، أقلّ توكيداً من ضوء قناديل الغاز . ففي نقطة التقاطع بين الشوارع الأربعة كانت جماعة صغيرة من المصلِّين تقف في دائرة حول طاولة . وعلى الطاولة شرشف أبيض ، وعلى الشرشف زجاجة خضراء تحمل شمعة في عنقها . وينبعث من الشَّمعة لهب يقفز صاعداً هابطاً في الريح . وفي الوسط قرب الطاولة جلس زعيم الجماعة يوجّه تعليماته للعبادة . وهناك مشاهدان أو ثلاثة ، وبينهم أنا و« الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » وصبي آخر كان يقف قريبا جداً من حلقة المصلين . كنَّا هادئين يملأنا حب الاستطلاع والزعيم يوجه كلامه للآخرين حول الإجراءات . لقد حضرنا باكراً آملين أن ننسحب قبل تشكّل الجمهور . لم يلتفت الواعظ إلينا ، لكن الصبي الذي لا نعرفه كان منهمكاً في الحديث مع إحدى النساء . كانت غالبية الحلقة تتشكل من النساء اللواتي تنادي كل منهن الأخرى بالأخت . الأخت « جونز » والأخت « بيل » . وهناك رجلان يشار إليهما بالأخ . الأخ « فرنكلين » والأخ « لو » . وكان الواعظ هو الأخ « ديكسون » ، طويل ضخم العظم وعدواني ، ذو وجه أسود ويدين كبيرتين . قال « الورقة الرابحة » إن علينا أن نبتعد أكثر عن المصلِّين لأن من عادتهم أن تحل الروح فيهم . وحين يحصل ذلك يرقصون ويصيحون بلغة غريبة . هذا هو التكلم بمختلف الألسنة . وحين تكون الرُّوح خارج نطاق سيطرتهم فإنهم يلحوُّن بالقوَّة على من يقف قربهم حتى يساعدهم في حمل أعباء هذه الطاقة الجديدة . ابتعدنا خطوة أو خطوتين وانتظرنا . انطلقت إشارة من الزعيم فركع المصلُّون وصلّوا صامتين . وقد كانت صلواتهم ذات طول واحد، ربَّما بفعل اتفاق صامت ودربة طويلة ، فنهضوا سويَّة مرنِّمين معاً « آمين » منخفضة . ثم جلست النساء ، بعضهن على مقاعد ، وبعضهن على كراسي ، بينما وقف الرجال يغسلون أياديهم في الهواء ويحركون شفاههم في ابتسامات إحسان عريضة . وفجأة تقدمت امرأة إلى الأمام تنقر دفَّها وصرخت بترنيمة . هزَّت الدفَّ وردفيها بغبطة عاطفية، فهمس «الورقة الرابحة» لي أن الروح سرعان ما تحلّ فيها. لم نستطع تمييز كلمات الترنيمة ، لكن المصلين ذوي الآذان المدرَّبة عرفوا الترنيمة فشاركوها

الترنّم . تقدمت امرأة أخرى بطريقة مماثلة تحمل دفها أيضاً . ثم أخرى وأخرى . تألقت الآلات في ضوء الشمعة وتعالى الصوت إلى السماء . لقد بدأ اجتماع الهواء الطلق . ازداد عدد المشاهدين . فعند سماع الصوت تدفقوا من كل الجهات للاشتراك في الغناء. تدفق الجمهور بثبات مع انبعاث صوت الغناء والآلات في الليل .

انتهت الترنيمة ، مشى الزعيم صوب الصبي الصغير وقال شيئاً عن روحه . بدا الصبي راغباً ،لكنه خائف . اتجهت كل العيون نحوه . هذا هو ما جاء المشاهدون من أجله . كانوا يحبّون أن يروا كيف يتم خلاص الآخرين ، وكانوا أحيانا يسمعون اعترافاتهم التي كثيراً ما تكون محرجة لحميميتها . كان صدقهم دلالة تطهرهم ، فكانوا يعترفون دون سؤال بالخطايا التي اقترفوها فكراً وقولاً ، وخصوصاً عملاً ، وكانت الأعمال تتعلق بالخطايا الجسديّة . كان الصبي الصغير يقاوم . قال الواعظ شيئا عن الروح مرّة ثانية فأحنى الصبي رأسه . كانت مقاومته تضعف . ذكر الواعظ غضب الله ، فعبّر المصلون عن حزنهم بتنهيدة خفيضة طويلة . ظهر الصبي في غاية الخوف والتوبة أمسك الواعظ بيده ، وركعت النساء يرنمن ترنيمة قبول الإيمان .

سأل الواعظ : « هل ستبقى الليلة ؟ » ، وصمت الجمهور .

قال الصبي بسرعة : « لا أقدر » . لكن ذلك لم يكن رفضا مباشراً . كان خائفاً. كان الواعظ شديد الأمل فكرّر السؤال. هزَّ الصبي رأسه بالنفي فترك الواعظ يده .

« لكنك يجب أن تبقى يا بنيّ ، يجب » . كان أسلوبه رقيقاً وعطوفاً . وكان صوته متهدّجاً يكاد يكسره القلق . ما أغرب ظهوره كأنه يذوب في عاطفة واحدة فقط : هذا القلق من أجل خلاص الآخر .

قال : « لا تُقسِّي قلبك . من الأفضل حين تكون صغيراً ، فخطاياك أقل ، والمغفرة أسهل إن قضيت في حادث مفاجىء » .

كان الواعظ قد تراجع خطوة ، فظهر كأنما يخاطب الجميع . قرص « الورقة

الرابحة » « الصبي الأزرق » وقال إن الوقت قد حان للانسحاب . قال الواعظ : « في السن السابعة تتفتح عيناك . تصبح مسؤولا . لقد تجاوزت السابعة الآن ، فلو استدعيت إلى البيت الليلة ، فإن عليك أن تلبي الدعوة وحدك . لقد تجاوزت حدود البراءة ، بدون أب أو أم ، أو عرّاب أو عرّابة . أنت وحدك وحيداً ، عارياً في الخطيئة، وعليك أن تقبل الخلاص قبل فوات الأوان . الخلاص بواسطة يسوع المسيح هو مفتاح السماء » .

قال الصبي : « أجل . لكن الشمعة تخيفني كثيراً » . ارتعش الصبي . تطلع الواعظ إلى الضوء الذي ينتشر متطاولا فوق وجوه المصلين . أصابته الحيرة من كلام الصبي ، إذ لا شيء في الشمعة ليخيف أحداً . انتظرت النساء بلهفة . قال الصبي : « أنت تعرف ، الشمعة تذكرني بـ « ألفيرا » وما تعمله . إنها تضيء الشموع حتى تطرد الأرواح وتحرقها لأنها كاثوليكية ، وهم يقولون إنهم يجب أن يحرقوا الأرواح » . كانت الدموع تملأ عينيه ، فبدا الواعظ في غاية التأثر .

قال : « رحمتك أيها الرب الإله . نجِّ الأبرياء من رجس الشيطان ، ودلهم على الطريق » . كان في منتهى الفصاحة ، وكان يحتفظ بلغة خاصة مناسبة لكل وضع جديد . كان الصبي على وشك البكاء . طوَّقت يدا الواعظ عنقه وقد انحنى رأسه الى الخلف فواجهت ذقنه السماء وظهر بياض عينيه بدون أي تعبير . ثم أنزل رأسه بحدَّة وركَّز نظره على الصبي بتعبير من الأسى العميق .

قال : « لن تساعدها الشمعة . لأن المهم ليس الشمعة . بل هو النور ، نور المسيح الذي يُسبغه بواسطة النعمة على سواد قلب الإنسان . حين ترى النور ستنسى الشمعة وشرور الذين يعبدون الصّور . فهي آلهة مزيَّفة . ونحن ما عندنا آلهة مزيفة ، بل إله واحد ، الله الذي أرسل ابنه ومخلصنا يسوع المسيح إلى العالم ليموت من أجل خطايانا . الذين يحملون الشموع لم يروا النور أبداً . هم تلاميذ الشرير . وهذا هو ما تخلص منه إن بقيت الليلة ، لأنك ترى النور فتولد من جديد ، روح حيَّة ورجل جديد في المسيح يسوع ! » .

ركع الواعظ فوق الغبار وأمسك يدي الصبي بيديه بقوة . ارتعشت أياديهما ، لكن ظهر أن الصبي متأثر أكثر بخشوع الآخر ، فاستجابت ركبتاه آلياً

للصلاة وركعتا . ركعا معاً في الطريق الكلسي داخل الحلقة التي شكلّها المصلون حول الطاولة . استغرقنا المشهد ، وكان أن أدرك « الورقة الرابحة » ، الذي كان يحثنا على الانسحاب ، ذلك وبقي . كانا قد اقتربا أكثر من الطاولة ، فكان وجه الواعظ يلتمع بدون أية انعكاسات ، أسود ومبتلاً كأنه قطعة برونز تحت مطر خفيف . كان جلده خشنا ، وأصابعه غليظة صلبة . شعرت كأنّني أحسّ بالقبضة التي تثبِّت الصبي إلى الأرض ، سجينا في النور ، مداناً بالخلاص ، بالتحرر من الشرير ، التحرر من الجسد ومن كل دنيا الشوق الدّنيء . تكلم الواعظ أثناء ركوعهما . ركع ثلاثة أو أربعة من الجماعة مشكلين دائرة صغيرة حول الصبي والواعظ . وفي ركوعهم هناك بدا كأنهم قد شكلوا جبهة ضدّه . إنها مؤامرة من الصلاة في سبيل خلاصه . أوحت قبضة الرجل بالشعور بالباب المغلق الذي لا يمكن الهروب منه أبداً ، وظهر وجه الرجل في وضعه المصلّي كأنه شيء آخر غير الأنف والعينين والأذنين والعظم واللحم . أغلقت عيني ضد ذلك ، وحين لم أتمكن من سماع الأصوات أو حين فشلت في فهم الصلوات ، رأيت الوجه وحيداً ومبتلاً وأسود كقطعة برونز في مطر خفيف . توقف الواعظ عن الكلام ، ثم فجأة تكلم من جديد وهو يكاد لا يفتح شفتيه .

« هل تبقى معنا الليلة ؟ » .

أحنى الصبي رأسه خفيضا حتى الأرض وبقي هناك خاضعاً مستسلماً . رنّمت النساء ترنيمة قبول الخلاص ، ووقف الواعظ مرهقاً إنما راضياً .

قال « الورقة الرابحة » : « الأفضل أن ننصرف الآن ، لأن في مثل هذا الوقت مع قبول النور يحدث كل شيء » . قرّب رأسه لصق رأسي حتى لا يسمع أحد كلماته . كان الصبي ما يزال راكعاً قرب الواعظ غير قادر على أي مقاومة بعد . أصبحا مشهداً يجذب أنظار الجميع . من كان هناك حين ركع الصبي مع الواعظ كان ملهوفاً لمتابعة ما سيحدث ، ومن جاء متأخراً كان يتدافع محاولا التقدم خلال الحشد للتعرف إلى الصبي . سمعت همهمة هادئة وهم يتطلعون محاولين التعرف إلى المتجدِّد الجديد ، وارتفعت الهمهمة بوجود همس المصلين . ثم تلاشى كل ذلك وهدأ الجميع بانتظار رؤ ية ما سيحصل بعد ذلك .

ألصق « الورقة الرابحة » رأسه برأس « الصبي الأزرق » وهمس له بما قاله لي . ابتسم « الصبي الأزرق » وتابع تطلعه إلى الواعظ والصبي . قرصه « الورقة الرابحة » من جديد ، فأصدر « الصبي الأزرق » صوتاً . أشار الرجل الواقف بجانبه إشارة بإصبعه فعاد « الصبي الأزرق » جادّاً . تكلم « الورقة الرابحة » مرة ثانية . قال « الصبي الأزرق » : « بدأت تخاف » ، دون أن يدير رأسه ليتكلم . قال « الورقة الرابحة » : « ليس السبب اني بدأت أخاف، لكن يجب أن نرحل الآن لأن الوقت متأخر . لا مجال لرحيلنا حين يصبح كل شيء في أقصى درجاته من الحرارة ، لأنك لا تعرف ما قد حصل من قبل » . خفض رأسه وهو يتكلم : « يجب أن نذهب » .

رفعت إحدى النساء الجالسات قرب الطاولة رأسها وقطّبت أساريرها . سكت « الورقة الرابحة » . أبقت المرأة رأسها منخفضاً فترة ، لكننا كنا نعلم من تعبير وجهها أنها سترفعه من جديد . ظهرت كأنها تعض شفتيها وهي تتطلع إلى الصبي والواعظ . أردنا أن نذهب ، لكننا أردنا أيضا أن نعرف ماذا سيحل بالصبي ، ولعلَّ الوقت لن يطول قبل أن يلتفت الواعظ إلينا لطرح أسئلة حول خلاصنا . كان الجمهور خلفنا قد ازداد احتشاداً ، ومن الصعب جداً في مثل هذه المناسبات شق طريق للخروج . بالإضافة إلى أننا كنا نخجل سراً من أن يرانا الآخرون ننسحب . هذا يحدث دائما في اجتماعات الهواء الطلق وفي الكنيسة الكبيرة . فلو انت نهضت لتنسحب قبل نهاية القدّاس ، يبحلق الناس فيك حتى تختفي عن الأنظار . وذلك يجعلك تشعر بالخجل لتمردك كأنك تنسحب بازدراء ضد ما رأيت . وفي اجتماع الهواء الطلق سيقف الواعظ ، على الأرجح ، ويقول رأيه في مثل هذا التصرف . القسيس في الكنيسة لن يقطع القدّاس للتعليق على أي شيء ، لكن الواعظ لا يفوِّت أي شيء لغير المخلَّصين . فلو استطاع أن يقنعهم عن طريق جعلهم نموذجاً عامّاً للجبن أولاً ، فإنه سيفعل ذلك . وغالباً ما كان ينجح ، وكان يرى ذلك حسناً من أجلهم . فلا شيء يخجل في الخلاص ، والخلاص هو أشد الأمور إلحاحاً . قرصني « الورقة الرابحة » بين أضلاعي ، وأشار برأسه . أصبح الآن قلقا بسبب تأخرنا . قال : « يجب ان ننسحب الآن . لماذا جعلتماني أجد لكما ما وجدت ، والآن لا تريدان أن تنسحبا ؟ قولا بصدق :

هل تنسحبان أم لا ، لأنني أقدر أن أنسحب وحدي » .

رفعت المرأة رأسها وقطّبت أساريرها مرة ثانية . وقد أدامت النظر إلينا هذه المرة كأنما أرادتنا أن نشعر بامتعاضها . لا تستطيع أن تحتمل هذه الثرثرة المزدرية في حضور الله ، والله حاضر ؛ لأنهم يقولون دائماً كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه يكون هو أيضاً حاضراً . ما تزال تتطلع إلينا . فجأة أدارت رأسها وهمست شيئاً عن احترام كلمة الله . استدارت الجارة نحو أخرى وهمست لها بما قالته المرأة . نقلت الشكوى إلى ثلاث أو أربع أخريات . تطلعن كلهن محملقات كما فعلت المرأة الأولى . أدرك الرجل الواقف قرب « الصبي الأزرق » ما يحصل ، كما أدرك ذلك الذين يقفون قربي وقرب « الورقة الرابحة » . كانت المرأة تريد الآخرين ، المخلّصين وغير المخلصين على السواء ، أن يدركوا شعورها ، وكان غير المخلصين يشاركون في هذا الامتعاض ، غالب الأحيان . بدأنا نصبح تدريجياً مشهداً مثل مشهد الواعظ والصبي الصغير . تطلعنا إلى بعضنا وقررنا أن نرحل . ولم نكن نريد أن يفهم أحد سبب انسحابنا . لقد خفضت النساء رؤوسهن .

قال « الصبي الأزرق » : « واحداً واحداً ، وأنا أذهب أولاً . بعد دقائق قليلة تنسحب أنت ، وبعد ذلك «الورقة الرابحة»، او بالعكس، لكن لا الكل معاً » . تظاهرنا أننا لم نسمع أو نلاحظ أن « الصبي الأزرق » قد شق طريقه خارجاً . تابعنا أنا و« الورقة الرابحة » مراقبة الواعظ والصبي الراكعين قرب الطاولة . كانا يصليان بصمت وقد ظهر الآن الصبي في الضوء في منتهى الفزع . كان الواعظ متأثراً لخشوعه . رفعت النساء رؤوسهن وظهرن أكثر ارتياحاً حين لاحظن ذهاب « الصبي الأزرق » . شعرن أنه يمثّل ما يسمّى زعيم عصابة . كان هو من يحفزنا على عدم الاحترام . قرصني « الورقة الرابحة » مرة ثانية وأشار برأسه . تراجع الرجل الذي بجانبه فانسحب « الورقة الرابحة » . لقد فهم الرجل ما يجري ويبدو أنه ترك المساحة خالية متوقعاً أن أنسحب في أي لحظة . رفعت النساء رؤوسهن ، فاتضح أن لم يبق غير واحد منا . كنَّ متأكدات أن الصبي الأول هو صبي الشيطان . إنه « الصبي الأزرق » الذي أحضرنا للتهكم على كلمة الله ، وحين ظهر أن هذا يفوق قدرتنا قرّر أن يرحل بنا . تهامسن مع بعضهن بنوع من الغضب الهادىء . سرعان ما أصبح كل شيء هادئاً . نهض

الواعظ ووقف قرب الصبي . لم أكن أعرف ماذا سيحصل ، لكنني كنت أسمعهم يتحدثون دائماً عن القرابين . لم أكن أعرف معنى القرابين فأخبرت نفسي أن القرابين ستتبع . كنت متأكداً أنهم سيجعلونه قرباناً ، ورغبت في رؤ ية كيف يتمّ ذلك . تطلعت النساء إلي فرآهن الواعظ . بدا كأنه لا يدرك لماذا ينظرن إليّ بهذه الطريقة . خفضن رؤ وسهن ثم فجأة تطلعن مرَّة أخرى . استدار الواعظ عن الصبي ليواجهني . كان وجهه يرتدي الغاية المتفرِّدة المطلقة نفسها التي لاحظتها حين أقنع الصبي بالخلاص . صار تفكيري مرتبكا وفكرَّت لحظة في الهرب من ذلك الوجه واللحاق بـ « الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » . تقدَّم نحوي وقد شبك يديه ورفع رأسه عالياً . تراجعت خطوة ، رأيته يقترب ، استدرت ، وشققت طريقا بين الازدحام . سرى همس ضاحك بين المشاهدين . سمعت الضحك . اشتد وضوحاً كصوت ينبعث في قاعة للموسيقى . نظرت حولي أبحث عن « الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » آملاً أن أسمع في الوقت نفسه ما سيقوله الواعظ . سمعت رجلاً يقول إنه إن لم ينتبه سيضيع الروح التي جاهد كثيراً حتى يربحها ، فازداد الضحك . ثم صدر صوت يبدو أنه صوت الواعظ ، وسرعان ما ارتفعت أصوات المصلين تعلو على الضحك ، فأصبح كل شيء تحت السيطرة . مشيت لألتحق بـ « الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » بينما الأصوات تترنَّم بشهادتها التي بلغت قلبي :

« جاء حاكم إلى المسيح ذات ليلة
طالباً منه طريق الخلاص والنور .
أجاب السيِّد بكلمات واضحة بسيطة
يجب أن تولد ولادة جديدة .

يجب أن تولد من جديد ،
يجب أن تولد من جديد ،
الحق، الحق ، أقول لك ،
يجب أن تولد من جديد » .

لا ضوء سوى أنوار الشوارع حيث تلتقي الطرقات . لقد ضاع ضوء

الشمعة في نطاق الحلقة الكثيفة من المصلين والمشاهدين . مع ذلك ظننت أنني أستطيع أن أرى وجه الواعظ ينتصب كصخرة في الظلام ، وكنّا نسمع بعد الترنيمة عن الحاكم الذي جاء إلى المسيح ذات ليلة . لم نتكلم كثيراً منذ التقينا . ظهر بعض الغضب على « الورقة الرابحة » لأنني بقيت طويلا . إعتقد أنه لم يكن أي داعٍ لاهتمامي بالنسوة المتهامسات أو بطريقة تطلعهن إلينا . مشينا في غاية الهدوء بين الأشجار فوق الأعشاب ، وشعرت أننا نفكر في شيء واحد . ليست هذه المرة الأولى التي نلتقي فيها معاً في اجتماع الهواء الطلق ، رغم أنها المرَّة الأولى التي سنقوم فيها بعمل ما اقترحه « الورقة الرابحة » . كانت كلمات الترنيمة تتساقط كالمطر الخفيف عبر الأشجار وفي آذاننا . يجب أن تولد من جديد . يجب أن تولد من جديد . كان ثمّة شيء مرعب في هذه الكلمات وخاصّة بالنسبة للسياق الذي وضعت فيه . لقد بدأت الترنيمة بهدف السيطرة على همهمة الجمهور ، وربَّما بسبب هربي . كان ذلك أشبه بالتّذكير بدَيْن حان أجله . والواعظ هو نوع من مُباشِر المحكمة الروحي الذي يقدِّم الخلاص بديلاً سخياً عن عذاب الآخرة. يجب أن تولد من جديد . يجب أن تولد من جديد . بدا كأن الكلمات تلاحقنا ، ولم يعد واضحاً إن كنا ما نزال نسمع الأصوات ، لكن الكلمات كانت هناك . يجب أن تولد من جديد . تكلم « الورقة الرابحة » منهياً صمتنا الطويل . كان واضحاً من لهجته أنه يتظاهر بالشجاعة . كان الصوت عالياً وتكلم بسرعة كأن ما سيقوله ينبغي ألاَّ نفكر فيه طويلاً وجدياً . همهم لعنة ضد الواعظ ، ثم تكلم بصوت عالٍ . شعرت أنا و« الصبي الأزرق » بعدم الارتياح .

قال : « صحيح ما يقوله السيد « سلايم » . إنهم يجعلوننا جبناء بهذه القصص الخيالية عن الولادة الجديدة ، فلا نسمح أبداً أبداً لأنفسنا بأي فرصة للنهوض والحصول على الأشياء . لن يتغير أي شيء أبداً هنا حتًى نتوقف عن الاهتمام بهذه الخرافات عن الرجال الكبار في السن الذين يولدون من جديد . هذا ليس غبياً فقط ، بل هو لئيم أيضا ، وهذا هو ما يريد السيد « سلايم » أن ينهيه . لقد ذكر هذا الشيء نفسه في خطابه ليلة أمس . وسمّاه خزعبلات . هذا ما وصل بنا إلى ما نحن عليه ، كما قال » .

قال « الصبي الأزرق » : « يبدو لي أن عندنا رجلين عظيمين فقط هنا ، السيد « سلايم » والمالك . وإن لم ننتبه لن يبقى هنا غير عظيم واحد بسرعة هو السيد « سلايم » . سيبقى المالك حيث هو في البيت الكبير ، لكن السيد « سلايم » سيكون هو ربان هذه السفينة . فلا يمر يوم هنا إلّا ويذكر شخص شيئاً عنه وعن بنك البنس وعن جميعة الصَّداقة . لقد أصبح في وقت قصير أشبه ما يكون بالمسيح الأسود » .

تابع « الصبي الأزرق » : « نحن ما قلنا أي شيء عنه ذلك اليوم عند البحر ، مع أننا تكلمنا عن الله يعلم ماذا ، وما تذكرنا أبداً أبداً أن نقول أي شيء عن البنك والجمعية وكل ذلك » .

قال « الورقة الرابحة » : « هناك فرق . ما تكلمنا عنه يختلف بطريقة ما » .

قال « الصبي الأزرق » : « صحيح ، هناك أشياء معيَّنة تستطيع أن تتحدث عنها بدون ذكر السيد « سلايم » ، لأن البنك والجمعية وما يسمونه السياسة لا دخل لها بهذه الأشياء » .

قال « الورقة الرابحة » : « مثل ما تقول . هذا صحيح لأن هذه الأشياء ليست أشياء يومية . هي ليست حقيقية بالنسبة للناس ، أو هي ليست ما يسمونه عملية . هذه الأشياء التي تحدثنا عنها عند البحر تخصنا أنا وأنت في أحلامنا فقط . وهي لا تخص أي شخص آخر إلَّا إن أراد أن يبدأ أحلامه الخاصة به . لكن السياسة وكل ذلك تخص كل الناس مجتمعين معاً في الوقت نفسه » .

قال « الصبي الأزرق » : « الأحلام شيء حسن . لكن ليس من المستحسن أن تحلم طول الوقت . رغم أن ما قلناه عند البحر لم يكن أحلاماً . أنا مثلا ما كنت أحلم كل الوقت ، وإن كنت أحلم إذن هناك شيء حقيقي في هذا النوع من الأحلام » .

قال « الورقة الرابحة » : « ليس هذا حسنا ، لأن أحيانا يصيبك نوع من الكابوس مثل الشعور الذي أصابنا أكثر من مرّة لمّا حكينا عن الوحدة » .

قال « الصبي الأزرق » : « وهذا ليس في صالح السيد « سلايم » ، لأن إذا بدأ كل الناس قصة الأحلام هذه ، خالقين عالماً صغيراً خاصاً من الأحلام لهم فلن تعود هناك أي حاجة للسياسة . لن يكون عندهم وقت كثير للتفكير بأي شيء يهمّ الكثير من الناس مجتمعين معاً في نفس الوقت . وحين يشعر كل شخص بهذا الشعور بالنسبة لنفسه ، فلن يبقى هناك الشعب . سيكون هناك فقط أنا وأنت وهو وهي » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ما رأيكم في قول السيد « سلايم » عن شراء الأرض ؟ قال إنه سيجعلنا نملك هذه الأرض » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا حلم أيضا . مع أنه نوع آخر من أنواع الأحلام » .

قال « الورقة الرابحة » : « الحقيقة هي أنني لا أريد أي أرض . أريد أن أسافر » .

سأل « الصبي الأزرق » : « أين تريد أن تسافر ؟ أنت دائماً تحكي عن رغبتك في السفر » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعرف . يمكن إلى أمريكا . يقولون إن الأحوال جيدة هناك » .

« يدعوها السيد « سلايم » بأرض الميعاد ، ويقول بعض الناس الذين ذهبوا ورجعوا إنها سلة خبز العالم » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ما معنى هذا القول ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « يظهر أن معناه هو أنك يمكن أن تحصل على كل ما تريد أن تأكله . الطعام كثير وجديد ، ولذلك يقولون إنك لن تحتاج لطبخه . كله جديد » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ومن يطبخه لك إن لم تطبخه أنت بنفسك ؟ » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا ما سمعتهم يقولونه . أنت تدفع بنساً في ثقب صغير ، فينزل إليك طبق من الطعام من ثقب آخر . ويقول غيرهم إن بإمكانك أن تضع بنساً في ثقب آخر فتسمع الموسيقى التي تحب أن تسمعها وأنت تأكل » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أحب ما سمعته منك كثيراً. صحيح ان الطبخ على الحطب يغلّبك كثيراً ، لأنك يجب ان تستمر في النفخ على النار اللعينة فيدخل الدخان في عينيك طول الوقت ، لكن بعد قول كل شيء وعمل كل شيء ، أنا أحب منظر الطنجرة على النار ، وأحب أن أسمع الطنجرة تغلي لأن هذا يجعلك تشعر أن شيئاً يحدث ؛ وإن كان هناك شيء أحبه أيضا ، فهو أن أرى الطريقة التي تدير بها أمي الطعام من الطنجرة إلى الطبق . هذا يعطيك شعوراً قوياً كبيراً في أعماق معدتك فيبدأ فمك بإفراز اللعاب والتحرك بدون إذنك . يظهر لي أن كل هذه الأشياء الصغيرة هي التي تجعل الطعام ما هو . شيء نثير حوله الضجة الكبيرة ، وهذا هو ما تقوله أمي دائما . «كل، أيها«الورقة الرابحة » ؛ كل واشكر الله على ما تراه أمامك » .

قال « الصبي الأزرق » : « إن ما لا أحبه عن الطريقة الأمريكية ، ما لا أحبه هو أن عليك أن تأكل في الهواء الطلق . وكل الناس تقدر أن تراك ، كيف تمسك العظمة أو تضع أظفرك بين أسنانك ، وأنا لا أعرف قوانين هذه اللعبة ، لعبة آداب المائدة . لأن مثلما تعرفون نحن كلنا هنا حين نريد أن نأكل نغلق الأبواب » .

قال « الورقة الرابحة » : « وأنا لا أحب أيضا هذه الشّغلة ، شغلة الأكل الذي ينزل إليك من الثقب ؛ لأن الله وحده يعلم من أين يأتي » .

وصلنا إلى الطريق الذي يعبر الغابة مؤدياً إلى البيت فوق التلّة . كان « الورقة الرابحة » يضرب الحشائش والأعشاب والأسوار بعصا قطعها من شجرة الماهوغاني . بدا كأنهما ، في حديثهما عن أمريكا وعن وعود السيد « سلايم » ، يحاولان استبعاد ما سوف يحدث . لم يتحدثا عن أمريكا بسهولة ، ولم أكن متأكداً إن كان « الورقة الرابحة » بدأ يفقد حماسته للمغامرة أو إن كانا كلاهما يحاولان

نسيان كلمات الترنيمة . يجب أن تولد من جديد . تنازعتني الفكرتان كلتاهما . استمرت الكلمات ترتدّ إلي بنوع من الصدمة ، كما أنني كنت حذراً ممّا يأخذنا « الورقة الرابحة » لنعمله . توقفت أصوات المصلين عن الترنيم ، وكان الهدوء يسود الغابة . استطعنا أن نرى ضوءاً في بيت المالك أمامنا . لم يكن ثمة أية إشارة تدلّ على أن شيئاً مهماً يحدث ، لكن « الورقة الرابحة » كان واثقاً مما يفعله .

قال : « يصيبني دائماً شعور مضحك لمّا أقترب منه . يعني كأنك تسير على أرض مقدسة » . بدا أقل ثقة بالنفس حين تكلّم .

قال « الصبي الأزرق » : « أريد أن أعرف إن كنت تعتقد أن الدخول آمن ؛ لأن عندهم كلاب ، وأنا لا أحب منظر الكلب الكبير الذي أراه ينام في الباحة في الصباح . يقولون إنه يشرب الدّم » .

قال « الورقة الرابحة « : « لن يتركوا الكلاب بدون ربط ، لأنهم يريدون الاهتمام بضيوفهم . الكلاب لا تعرف البحّارة ، لذلك سيربطون الكلاب » .

قال « الصبي الأزرق » : « الأفضل أن تخبرنا عما سيحصل ، لأن عندي شعوراً أننا لن ندخل في هذا السور بدون أن يحصل شيء سيء » .

لم يجب « الورقة الرابحة » ، وظهر كأن « الصبي الأزرق » أشد خوفاً من أن يلح في طلب الاجابة . مشينا في صمت . كنّا ندور حول السور الذي يلف بيت المالك ، وكان الهدوء شديداً ، باستثناء نقيق الضفادع في الغابة وقفز القطط بين الفينة والأخرى . يبدو أن القطط كانت تجتمع دائماً في الغابة قرب السور حيث تتعارك وتتصايح وتتزاوج . كان « الورقة الرابحة » يعرف ذلك ، وقد ذهب مع غيره في مناسبات عديدة في الليل لمراقبة القطط . كانت تتزاوج بنوع من العنف الذي يذهل الصبيان ويفزعهم . أمسك « الورقة الرابحة » بالعصا في محاذاة السور كأنما هو أعمى يتلمس طريقه . كنا نسمع الطَّرقات والخدوش التي تحدثها في اللَّبنات . صاحت القطط فتوقَّف « الورقة الرابحة » .

قال : « إنها القطط اللعينة مرَّة ثانية . الله وحده يعلم لماذا تجيء هنا لتعمل عملها » .

كانت القطط تصرخ في الظلام فبدأ الخوف يتملكنا . لم يعجبني صراخ القطط ، وبقي « الصبي الأزرق » صامتاً ممّا يدل على أنه كان يخاف أن يتكلم . انحنى « الورقة الرابحة » لالتقاط حجر . وضع يده على الشيء الذي ظهر أكبر من قبضته . رفعه بسرعة ثم وضعه مرة ثانية . ثم شدَّه ورفع ذراعه . وقع الشيء فوقع « الورقة الرابحة » على « الصبي الأزرق » وهو يرتعش . أشعل « الصبي الأزرق » عود كبريت فرأينا نوعاً من السيلان يشبه الهلام يسيل على يد « الورقة الرابحة » . مسحه على بنطاله ، في حين أشعل « الصبي الأزرق » كبريتاً للبحث عن الحجر . ثم رأينا ما أمسكه « الورقة الرابحة » وشدَّه . زوج من الضفادع السوداء الكبيرة . لقد وقعتا على الأرض بشدّة ومع ذلك بقيتا متلاصقتين . بقيتا في وضعهما مثل طفل يحفظ توازنه فوق المقعد . قال « الورقة الرابحة » : « يا يسوع المسيح ! » وتابعنا سيرنا نحو البيت فوق التلَّة .

سأل « الصبي الأزرق » : « متى سيبدأون ؟ » .

كاد صبرنا كلنا أن ينفد ، وظهر كأن « الورقة الرابحة » قد اضطرب بعد اتصاله مع الضفادع . أكره منظر الضفادع ، مع أنني أتذكر كيف كنت ألكزها بالعصا في أقفيتها . بدأ « الورقة الرابحة » يشعر بالارتياح مرة أخرى .

قال : « أظنهم قد بدأوا . لكنهم لا يرقصون في هذه الجهة من البيت ، ولهذا لا نرى ضوءاً أكثر . هذا المكان يشبه القصر » .

علقت العصا في شق في السور ، فكاد طرفها الآخر أن يخترق أضلاعه . سحبها ومدَّ يده متحسساً السور . صمت هادئاً فترة كأن شيئا قد حدث .

قال : « هذا هو . من هنا علينا أن نمرّ . هذا هو » .

اقتربنا لنتحسس إن كان « الورقة الرابحة » قد وجد طريقاً حقاً .

قال وهو يبعدنا : « هذا هو الممر . إنها البوابة الخيزران الصغيرة التي سنمر منها » . استدار نحونا وبدأ يصدر الأوامر . لقد استعاد ثقته بنفسه كاملة ، فشعرنا نحن أيضا بالمزيد من الارتياح . كم وددت لو رأيت وجهه ، لكن الظلام مخيِّم .

قال « الورقة الرابحة » : « سندخل الآن . ثم نزحف عبر الشجيرات . أنتما تتبعان ورائي وتأخذان التوقيت منّي . علينا أن نصل هناك قرب الأشجار ، حيث نجلس في المقاعد الأماميَّة ، فوق الحشيش . إلتزما بالتوقيت كما أقول ، ولا تتكلما إلاّ حين أكلمكما » .

أخرج « الورقة الرابحة » مفتاحاً من جيبه وفتح البوابة الصغيرة في السور . أنا متأكد أن « الصبي الأزرق » استدار ونظر إليّ ، ولكننا لم نتكلم .

قال « الورقة الرابحة » : « علينا الآن بمنتهى الهدوء . وإلاّ أصابنا ما لا نحبّ. إزحفا على أحشائكما مثل السَّراطين » .

كنَّا نقف داخل السُّور على بعد ياردات قليلة من بيت المالك . تملكني شعور ضخم مثل اقتحام البيوت للسَّرقة أو ، على نقيض آخر ، مثل النجاح في الامتحان . البيت أكبر كثيراً مما كنت أحسب . يشبه بعض القلاع التي كنّا نراها في الصور . لا يوجد كثير ضوء في ناحيتنا ، غير أننا استطعنا أن نرى ، من الانعكاسات البعيدة ، أن الناحية الأخرى في كامل إضاءتها . انحنينا وزحفنا بين الشجيرات والأشجار وصولاً إلى الناحية الأخرى . لم يتكلم أحد سوى « الورقة الرابحة » الذي واصل تذكيرنا بوجوب عدم الكلام ، وكان أحيانا يصدر الأوامر التي علينا أن ننفذها . بقي في الوسط يتقدمنا قليلا .

قال : « علينا أن نصل الناحية الأخرى بسرعة ، لأن المراقب سيأتي هنا بعد قليل » .

سأل « الصبي الأزرق » : « كيف عرفت هذا ؟ » بدأنا نشعر بعدم الارتياح من جديد .

قال « الورقة الرابحة » : « أخبرك فيما بعد » ـ فصمتنا .

وفي زحفنا نحو الناحية الأخرى ، كنّا نشعر بتغيّر الأعشاب تحت ركبنا . يزداد اختلافها شدّة عن الأعشاب المحتشدة قرب السور . استطعنا أن نرى على يسارنا الحديقة، وعلى يميننا وأمامنا ، كوماً كبيراً من التبن. كان الكوم يتشكل من الأوراق اليابسة من قصب السكر . كان هذا الكوم يرتفع ويتلوّى مثل بوظة متعرجة

ترتفع فوق البسكوت . نحن نعرف هذه الأكوام . يمكنك أن تسترخي فوقها ، وكنّا نحفر ثقوباً داخلها احياناً ، نستعين بها للاختباء فيها أثناء بعض الألعاب . كان في مقدور اثنين أو ثلاثة أن يدخلوا في ثقب الكوم ويختبئوا داخله . وكان يبدو في النهار كأنه كهف . درنا حول الكوم وافترشنا العشب بين الأشجار بعيداً عن الضوء . لعل الفزع كان ينتابنا في مناسبة أخرى ، كما انتابنا أثناء مرورنا في الغابة . لكن جِدَّة هذا المكان وروعته لم تسمح بأي عاطفة سوى حب الاستطلاع واللّهفة . كنّا نختبىء جيِّداً وجلسنا هادئين مرتاحين نتأمَّل المشهد أمامنا . الموسيقى تصدح من جديد والبحَّارة يرقصون . منظر أغلبهم يبدو أكثر ترتيباً وتهذيباً من البحارة الذين نلتقيهم في الشوارع . كانت بعض النساء يرتدين ثياب السَّهرة المزدانة بأزرار كبيرة برَّاقة ، وجواهر ، وعقود تلتف حول العنق كطوق الكلب المزيَّن . الجميع في غاية المرح ، كما يبدو ، خصوصاً البحَّارة الذين كانوا يشربون طول الوقت . لم نتكلم . هذا مختلف جداً عن الاجتماع في الهواء الطَّلق أو الحفلة الموسيقية المدرسية أو أي شيء آخر نعرفه . ما أشبهه بما نسمِّيه بالعالم الآخر . توقفت الموسيقى فصاح البحارة المتظاهرين بالغضب : « المزيد ! » . سرعان ما صدحت من جديد فرقصوا . بدأ بحّاران يرقصان معاً ، غير أن ثالثا دنا منهما وأسرَّ شيئاً . افترقا بسرعة وانضما إلى الصَّبايا الجالسات في مكان قريب . جلسنا مرتاحين هادئين على العشب ، نراقب : أنـا و« الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » ، مشكلين نصف دائرة آمنة خلف الأشجار . حين توقفت الموسيقى ، جاءت الصبايا مع البحارة يتمشون ، ذراعها في ذراعه ، فوق مساحات العشب في الحديقة : جيئة ورواحاً . طنَّت أذناي باحتراق ، وأحسست بتيبُّس غير مألوف في أطرافي . لم يسبق لي أن مشيت مع أي فتاة وقد شبكت ذراعها في ذراعي ، ولم أكن واثقاً أن « الورقة الرابحة » أو « الصبي الأزرق » قد فعل ذلك . خرج زوج آخر ، وقد التف ساعد البحّار حول خصرها حتى وصلت أصابعه إلى بذلته الرسمية . قال « الورقة الرابحة » بهدوء : « يا يسوع المسيح ! » فعرفت أنه يشعر بإلحاح العاطفة الغريب . بدأت أفكر فيما يمكن أن أفعله لو كانت فتاة بقربي ، ولمّا لم تكن قربي أية فتاة بدأت أفكر فيمن يمكن أن تكون ونحن في طريق عودتنا إلى القرية . مثل ما الله موجود في السماء ، سأفعل شيئا مع إحدى الفتيات .

انتشر الأزواج في كل النواحي ، بينما واصل أولئك الذين بقوا في البيت الشرب . ظهر لنا كل شيء في غاية الغنى والرضا ، كما أنه أدهشنا بطريقة ما .

همس « الورقة الرابحة » : « لم يسبق لكما أن كنتما في مثل هذا الموقع القريب » ، وكانت أسنانه تصطك ، كما يبدو .

قال « الصبي الأزرق » : « أبداً أبداً . إنه مثل العالم الآخر ، الموسيقى والشرب وكل شيء ، وخصوصاً الطريقة التي يمسكون بها بعضهم » .

قال « الورقة الرابحة » : « مثل عيد الميلاد ، مع فارق أن هذا يحصل أكثر من مرة واحدة في السنة . ما رأيناه هناك شيء عادي بالنسبة لهم يحدث دائماً » .

سأل « الصبي الأزرق » : « ما تقصد بهذا القول ؟ البحّارة غير موجودين دائماً هنا » .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا يحصل في معظم الأحيان ، بوجود البحّارة أو بدونهم . في غياب البحارة ، هناك أصدقاء المالك وأصدقاء ابنته وغيرهم . لكنهم دائما يعملون للبحارة حفلة كبيرة ، أكبر من كل الباقي » .

سأل « الصبي الأزرق » : « متى حضر هؤلاء البحارة ؟ » ، كان حب الاستطلاع يملأه .

قال « الورقة الرابحة » : « رست سفينتهم هذا الصباح . اسمها : سفينة صاحب الجلالة « **جوليات** » . يظهر أن المالك والذين يعرفون عرفوا بخبر وصولهم . وهم لن يبقوا أكثر من نهار وليلة ، كما يقولون ، لهذا السبب عملوا هذه الحفلة » .

قال « الصبي الأزرق » : « بعض هؤلاء البحّارة ، منظرهم ليس كمنظر البحارة الحقيقيِّين » .

سأل « الورقة الرابحة » : « ما تقصد بالبحّار الحقيقي . البحار هو بحّار » .

قال « الصبي الأزرق » : « هم في غاية الأدب والتهذيب . البحّارة عادة غير مهذبين بهذا الشكل » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعرف . يمكن هؤلاء هم البَّحارة المهذبون المؤدبون الطيّبون » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا ضروري صحيح ، لأنه ليس من طبع البحّارة ، أعني البحّارة مثل الذين نراهم في الشوارع ، ليس من طبعهم أن يقتربوا من المرأة من غير أن يعملوا لها شيئاً في أي مكان وفي أي وقت . هم لا يخجلون أبداً ، لأننا نراهم في الشارع وفي السيارة ، وفي الباص حتًّى ، كيف يقبلون النِّساء ويتحسسون النُّهود » .

بلع « الصبي الأزرق » ريقه بصعوبة كأن في حلقه شيئا . قال : « أراهم يعملون أشياء كثيرة غبية ، مثلاً هم يضعون ثدي المرأة في فمهم ويمصون يمصون كأنهم طفل صغير يحاول الحصول على الحليب . والشرطة تخاف أن تقول لهم أي شيء . فأنت لا ترى أي شرطي أبداً يتكلم بقسوة مع أي بحار مهما كان التصرف الذي يتصرفه سيئاً » .

قال : « الورقة الرابحة » : « البحَّارة من أصحاب المراكز ليسوا كذلك . فهم عندهم في البحريَّة مراتب ، وليس كل من تراه في هذه البذلة من نفس النوع الدنيء . هم عندهم أنواع مختلفة » .

عزفت الموسيقى فعاد الأزواج إلى القاعة .

قال « الورقة الرابحة » شيئا عن الجلوس فوق الكوم ، فسأله « الصبي الأزرق » إن كان مجنوناً . فلو كان معنا إذن بالوجود حيث نحن لكان من الممكن أن نجلس فوق الكوم ، وذلك يوفِّر لنا منظراً أحسن . لكن « الورقة الرابحة » لم يكن جادًّا . كان سعيداً لا بما يراه فحسب وإنما بما فعله أيضاً . إنه هو من أحضرنا إلى هنا . تغيّر الضوء في القاعة من الأبيض القوي إلى الأزرق الداكن جداً . بدا كأن الموسيقى تجرجر نفسها ، كانت في منتهى البطء ، وفي شبه الظلمة بدا كأنهم يترنحون كالسكارى . لم نتمكن من رؤ ية الوجوه فتحركنا لتحسين مواقعنا . ثم تغيّر الضوء إلى اللون الوردي الباهت ، فتمكنّا من رؤ ية الوجوه . تغيّر فعاد إلى الأبيض القوي فصاح البحارة غير راضين . تغيّر إلى الوردي فقامت همهمة كأن الوردي غير مقبول . عاد الأزرق الدّاكن ثانية فصاحوا : مرحى . هذا أفضل .

يبدو أنهم يفضلون شبه الظلمة ، وكذلك حالنا لأن ذلك آمن لنا . لم تعد الأضواء قوية مرة ثانية ، فجلسنا وتحادثنا بهدوء ، مستمعين إلى الموسيقى .

قال « الصبي الأزرق » : « أنا لا أفهم كيف اكتشفت كل هذا . أنت فقط قلت لنا تعالا تعالا ، وما قلت لنا بعد ماذا هو ماذا » .

سأل « الورقة الرابحة » : « أما يرضيك ما تشوفه ؟ » وكان يبتسم .

قال « الصبي الأزرق » : « أنا راض كثيراً ، لكني أحب أن أعرف ماذا هو ماذا » .

قال « الورقة الرابحة » : « أنا اكتشفت هذا الصباح . جاء المراقب عندنا لزيارة أبي ، أي أخاه كما تعرف . لكن أبي ما كان في البيت ، فبدأ المراقب يحادث البنت « كتسي » التي كانت هناك تنتظر أبي هي أيضاً . فسمعته يحكي عن ما سيجري » .

سأل « الصبي الأزرق » : « ولماذا يحكي لها ؟ » . كان لجوجاً في أسئلته .

سأل « الورقة الرابحة » : « لماذا تريد أن تعرف كل شيء ؟ حكى لها لأنه كان يحاول أن يرتب شيئا معها . عليها أن تلاقيه في الغابة عند البوابة الصغيرة ، وأعطاها مفتاحاً صغيراً وقال لها إنه إن لم يكن حاضراً لمّا تحضر هي هناك ، فعليها أن تفتح الباب وتجلس بهدوء على الحشيش حتى يأتي هو ، لأنّه غير آمن أن تبقى خارج السور وحدها ، وعليها أن تقفل البوابة وراءها فيكون كل شيء على ما يرام » .

قال « الصبي الأزرق » غاضبا : « ما خلق الله بعد الرجل الذي ما صاحبته » .

قال « الورقة الرابحة » : « لكنها ما وافقت . تركت المفتاح في البيت فاستوليت عليه أنا لأني قلت مهما صار لن أخسر هذا . هي لا تحب المراقب أبداً مع أنه في مركز يقدره على عمل أشياء للناس . وأنا أسمع الرجال يقولون هذا دائما . هي بنت مليحة . هي لا تتصرف تصرفات البنت المهذبة ، لكنهم يقولون إن خلقتها هكذا ، وإن كنت مخلوقاً على هيئة معينة فلا تقدر أن تتغير . لكنهم

يقولون عنها شيئا هو أنه مع أنها تصاحب فلان وعلتان وتعاشرهم أين ما كان ، فإنها لن تعطي أي شيء حتى للحاكم إن ما كانت تحبه . يجب أن تحبك قبل ما تصاحبك » .

سأل « الصبي الأزرق » : « وما سيعمل المراقب ؟ » ، كان قد بدأ يشعر بالانزعاج .

قال « الورقة الرابحة » : « لن يراها . هذا كل شيء » .

توقفت الموسيقى ، ثم بدأت ثانية . بقي الضوء أزرق داكنا .

قال « الورقة الرابحة » : « حين تصعد إلى هنا في ليلة مثل الليلة تتأكد أن لن يتغير أي شيء في القرية . كل شيء يسير حسب نظام . حياة فخمة في ناحية ، وحياة متواضعة في الناحية الثانية ، وتشعر بالشعور الذي يقول أنت في زاويتك الصغيرة وأنا في زاويتي . كل شيء صحيح تمام » .

قال « الصبي الأزرق » : « هذا ما يقول السيد « سلايم » إنه سيغيره . قال وكرَّر وكرَّر أن لا داعي لأن لا يعيش الجميع حياة فخمة » .

قال « الورقة الرابحة » : « لن يغير الأمر الواقع . القضية هي قضية الأمر الواقع » .

توقفت الموسيقى وتغير الضوء إلى الأبيض القوي ، لكن البحَّارة اعترضوا فتغير الى الأزرق الداكن من جديد . تابعنا حديثنا بهدوء . لم يكن « الصبي الأزرق » واثقا من قدرة السيد « سلايم » على تغيير هذه الأشياء ، لكنه كان يشعر أن من الجميل أن يستطيع بعض الناس في القرية الحصول على شيء من الحياة الفخمة . وكان هذا رأي « الورقة الرابحة » أيضا ، لكنه كان واثقا أن ذلك مستحيل . يجب أن تكون الأمور كما هي ، هذا كل ما في الأمر .

قال « الورقة الرابحة » : « طريقة حدوث أي شيء . إنها مثل . . . . » .

قاطعه « الصبي الأزرق » : « يا الورقة الرابحة ! إني أرى شخصاً » . كان يرتعد فزعاً .

قال « الورقة الرابحة » : « أين ؟ أين ؟ » كانت الهمسات تشبه النسائم القصيرة .

همس الصبي الأزرق : « قرب الكوم » . نطق بالكلمات بصعوبة بالغة . « جاء الشخص من الخلف . وأنا لا أعرف إن كان سمعونا ، لكنهم انسحبوا بهدوء » .

قال « الورقة الرابحة » : « انبطحوا . ولا تتكلموا . يجب أن ننسحب من هنا » .

انبطحنا على معدنا ونحن نتطلع نحو الكوم . لقد انهارت كل رؤانا . لم نعد نرغب في أي فتيات وقد تلاشت الحياة الفخمة . ما تزال الموسيقى تعزف ، لكننا نكاد لا نسمعها . تحسّس « الورقة الرابحة » المفتاح في جيبه ، وتفكّر فترة في طريقة لهروبنا . فكّرت فيما يمكن أن يحصل لو أمسكوا بنا ، وانبطح « الصبي الأزرق » هادئاً يرتجف . « الورقة الرابحة » يفكر . يبدو أنه أكثرنا ثقة بإمكانية الهرب ، وكان أحيانا يلمس أكتافنا منبها إلى التزام الهدوء .

قال « الورقة الرابحة » : « ازحف هناك بهدوء واكتشف إن كان هناك أي شخص » . كان يتنفس بصعوبة . خرجت كلماته لاهثة .

سأل « الصبي الأزرق » : « من ؟ أنا ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا » .

قلت وقد ازداد خوفي : « ولم أنا ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « لأنك أصغرنا ، لن يكون من السهل أن يراك أحد بين الأشجار » .

لم أعرف بماذا أجيبه . لزم الآخران الهدوء . تسلّلت خائفاً فوق العشب نحو الكوم . توقفت الموسيقى فساد الهدوء التام . رجوت أن تعزف الموسيقى من جديد حتى يختنق صوت أنفاسي . لم أكن أتوقع حدوث هذا ، وإلا لما أتيت ، وانتابني الخوف حين تركاني وحدي . كان بإمكان « الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » أن يشقّا طريقا إلى الناحية الأخرى ، وما يمكن لي أن أفعله وحدي داخل

السور غير معقول . أضف إلى ذلك جهلي بنوع العقاب الذي سأناله لدخولي الى الباحة في الليل . عزفت الموسيقى من جديد ، مما أسعدني . زحفت أبعد ، ثم توقفت الموسيقى ، وكان البحارة يصغون إلى بعض التعليمات الخاصة بالرقصة التالية . كانوا يتكلمون بصوت مرتفع جداً بحيث أمكنني سماع ما يقال . حدِّدت التعليمات وعزفت الموسيقى ناعمة بطيئة . تقدمت أكثر من الكوم ، ثم تكلم صوت فذعرت . كان « الصبي الأزرق » محقا . هناك شخص ما في مكان ما . تكلم الصوت ثانية كأنه صوت فتاة ، ثم همهم صوت آخر . أخرج صوتاً كأن صاحبه غير راض . ازددت انبطاحاً حابساً أنفاسي ، وتحادثت الأصوات .

« إنها المرة الأولى بالنسبة لي ، كما تعرف ، أول مرة إطلاقاً » .

قال صوت الرجل : « اقتربي . دعيني أقبِّل أذنك » .

« أقصى طرف الأذن ، يا حياتي ، إنها أكثر طراوة من أي قطعة أخرى » .

كنت أكيداً أنهما غير « كتسي » والمراقب . تكلم صوت الفتاة مرة ثانية :

« هل هذا هو ما يعملونه ؟»

أجاب صوت الرجل : « هذا ليس كثيرا ، يا حبيبتي ، أنا أقدر أن أعمل أشياء تجعل راسك يلف ويلف ويدور ويلف » .

قالت الفتاة : « لا أقدر أن أسمح بحصول أي شيء . ليس هنا من بين كل الأماكن . وأمي ليست على ما يرام » .

قال صوت الرجل : « لن يحصل أي شيء . اقتربي مني حتى نظهر كأننا شخص واحد لا شخصين . ولا تنطقي بأي كلمة أو أي صوت ، وفي هذا الاقتراب وهذا السكون أعدك أن نصبح واحداً وسيكون الحال آمناً » .

قالت الفتاة : « كيف تعرف أن لا شيء سيحدث ؟ » كانت ملهوفة .

قال صوت الرجل : « تتوقع إنجلترة أن يعرف كل رجل واجباته . اقتربي » .

أصبحا الآن ساكتين . لقد زحف « الصبي الأزرق » و« الورقة الرابحة »

مقتربين مني ، غير أن أحداً لم يغامر بالكلام . انبطحنا بانتظار سماع الأصوات . ثم وقع أسوأ الأمور . يبدو أن لم يكن بمستطاعه كبت الصوت .

صرخ « الورقة الرابحة » : « يا يسوع المسيح ! » فقفز قلبي . « نمل . نحن في خليَّة نمل ! » كان صوته خفيضا حين قال : « نمل » ، لكننا سبق أن سُمعنا .

صاح صوت الرجل : « من هناك ؟» سارت الفتاة متوجهة إلى الناحية الاخرى من الكوم .

قال « الورقة الرابحة » : « اركضوا . اركضوا حتى تنجوا ، يا أولاد ! » .

تملكنا الرعب . ركض الرجل وراءنا لاهثا ، وكان صوته يزداد ارتفاعاً كلما ازدادت المسافة بيننا وبينه . لم يكن يعرف الباحة ، فكان يتعثر من شجرة إلى شجرة . توقفت الموسيقى فتدفقت الجماعة إلى الباحة ، كما يبدو . سمعنا الصوت يصرخ وراءنا : هناك ، هناك ، هناك . أصبح التفكير صعباً . توجهنا نحو البوابة الصغيرة ، لكننا تذكرنا أن المراقب قد يكون هنا منتظراً الفتاة . ثم توزعنا الى جهات مختلفة ، حسب اقتراح « الورقة الرابحة » . ما أشبه هذا بهروب المجرم . اختبأنا خلف الشجيرات ، ولم نكن نسمع غير صوت الرجل ، وصوت اهتزاز الشجيرات بين الحين والآخر . استأنفنا الركض واختبأنا خلف الأشجار ، ثم انبثق ضوء البطارية من عند البوابة الصغيرة . إنه المراقب . كنت مختفيا جيداً خلف الشجرة . لم يستطع الرجل أن يرى أين اختبأنا ، لكنه جاء يلهث نحونا فركض كالأبله مصطدما ببطارية المراقب . لا بدَّ أنه سكران قليلاً .

قال المراقب : « ماذا يجري هنا ؟ » ركض بحارة آخرون لمعرفة ما يجري .

قال الرجل : « هناك ، هناك . الأولاد المحليون » جرَّ المراقب معه في بحث مجنون داخل الشجيرات ، ثم صرخ « الورقة الرابحة » من جديد .

قال « الورقة الرابحة » : « البوابة ، يا أولاد » . وانطلقنا كلنا معاً من خلال الثقب في السور . لم يكن أي شيء واضحاً غير صوت الرجل يصيح : « هناك ، هناك . الأولاد المحليّون » . أخذ المراقب يصرخ خلفنا . لقد تخلَّى

الرجل الغريب عن البحث متنازلاً عن هذه المهمة للمراقب . تدحرجنا من سور إلى سور بين الأشجار فوق العشب ، متعثرين ومتصادمين في الظلمة . والعجب أننا لم نقع . قطعنا الطريق بسرعة نحو الحمّام .

قال « الورقة الرابحة » : « هنا . انبطاح » .

انبطحنا تحت السور ، هادئين لاهثين ، وسرعان ما مرَّ بنا المراقب راكضاً مثل سيارة تنطلق مسرعة بدون سائق .

قال « الورقة الرابحة » : « الآن ، علينا الاندماج مع ذلك الجمهور » .

سأل « الصبي الأزرق » : « عدنا إلى اجتماع الهواء الطلق ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « نعم . امشوا مستقيمين ورؤوسكم مرفوعة طول الوقت ، كأنكم تصلون هناك للمرة الاولى . واحداً وراء الثاني » .

لقد شكّل الجمهور الذي أصبح كثيفاً ومختلفا حلقة داخل حلقة . تتشكل الحلقة الأولى من المصلِّين مع وقوف الواعظ في وسطها قرب الطاولة . أما الصبي الذي تركناه فقد اتخذ مقعداً بين المصلين . كانت إحدى النساء تكلمه بينما يهز هو رأسه كأنه يفهم ويقبل ما تقوله له . أما الحلقة الثانية المتشكلة من المشاهدين فتكاد تندمج بالاولى . كانوا في غاية الهدوء والجدية . يبدو كأن هناك استراحة في الإجراءات . لقد تم خلاص إحدى الأرواح ، فكان الواعظ يرتاح قبل أن يبذل محاولة أخيرة لإنقاذ بقية الخطاة . لقد التقى « الصبي الأزرق » بِـ « الورقة الرابحة » بين الجمهور ، وسرعان ما وقفنا كلنا معاً . يبدو أن امرأتين أو ثلاث من الواقفات قربنا شككن بوجود خطأ ما . همسن بكلام ثم كنّ يرمقننا أحيانا . حصلت بلبلة خارج حلقة المشاهدين ، وسمعنا رجلا يزجر آخر لما يسببه من إزعاج . اعتقد « الورقة الرابحة » انه المراقب . زجره الرجل مرة ثانية ، فضحك الجمهور . صدرت تهديدات متبادلة فأصبح الجمهور متوتِّراً . وقف المصلون وأخذوا يرنمون . استمر الرجلان في تبادل التهديد ، وسرعان ما ضاع صوتهما في الغناء .

ارتفعت أصوات المصلين عالية ، فعاد انتباه المشاهدين إلى الاجتماع . ركع

الواعظ وصلى بصمت . لقد ذابت الشمعة فلم يبق منها غير بقية بيضاء قصيرة تعلو بوصة أو بوصتين عن الزجاجة . قفز اللهب وحشيا في الريح ، منحدراً فوق عنق الزجاجة وأكتافها حيث ذاب ما احترق منها مشكلا لطخا بيضاء ملتوية . ظهر قلق بعض المصلين حول مستقبل الشمعة . فلو ذابت كلها قبل نهاية اجتماع الهواء الطلق ، لن يكون ذلك فألاً حسناً . كان اللهب يستهلكها بسرعة وقد ظهرت حواف الزجاجة مجرحة بفعل الحرارة . كان الجمهور المتحلق حول المصلين هادئا بورع . توقفت الأصوات عن الترنيم ، ووقف الواعظ من جديد . وجَّه دعاء من أجل خلاص الآخرين في حين عزَّز المصلون دعاءه كأنهم جوقة في مسرحية . كانوا يفهمون فهما تاماً متى يتوجب عليهم أن يرددوا : « آمين » ، أو أن ينطلقوا بالترنيم . كما كانوا يعرفون أي ترنيمة تناسب الحدث المعين . مسح الواعظ العرق عن جبينه وبدأ يتكلم . اقترب « الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » مني وأخفضنا رؤوسنا مصغين .

قال الواعظ وقد اشتدت لهجته : « الآن عاجلاً وليس آجلا ، عاجلاً وليس آجلا ، ليس هذا اعتقادنا . اعتقادنا هو : عاجلاً أفضل من آجلاً ، لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » . ترنَّم المصلُّون موافقين ، والتقط الواعظ أنفاسه . مسح جبينه مرة ثانية ووضع المنديل في جيبه . التزم جمهور المشاهدين الهدوء .

« الغد ، يا إلهي ، الغد هو الدعاء الذي تتعزّون به . لأنكم تعتقدون أن الوقت المناسب هو ليس « اليوم » لتديروا ظهركم للعالم . أنتم غير مستعدين لقبول بركة الله التي تجلَّت بواسطة موت ابنه الوحيد ، مخلصنا يسوع المسيح . لكنني أخبركم ، يا إخوتي وأخواتي في المسيح ، وأنتم أيضا الواقفين خارج دائرة النعمة ، أخبركم أنه قد لا تتاح لكم فرصة أخرى . الليلة ، تقولون لأنفسكم ، أنتم الذين لم تتقبلوا الرسالة بعد ، الليلة ستأكلون وترقصون وتشربون متمتعين بخطايا الجسد ، وتقضون شبابكم وقوتكم ، تفَّاحة وخوخة أيامكم ، متَّبعين طرق العالم والشرير . لكنني أخبركم ، يا أصدقائي الأعزاء ، أن الكثيرين مدعوُّون لكن المختارين قلائل ، وقد يكون بينكم من جاء لا بإرادته الذاتية بل بتوجيه وإرشاد من الروح القدس الذي اختاركم وجعل الليلة هي الليلة التي تسمعون فيها دعوته وتلبونها . عليكم أن تختاروا الآن ، لأنني أقول هذا لكم ، وأنتم

كثيرون هنا الليلة . أخبركم أنه لن يكون هناك : آجلاً . لن يكون لكم أي آجلاً » . بدا كأن الكلمات تنساب من شفتيه بعد وقفة محدَّدة . كان ينطقها بطيئا وفي منتهى الجديّة ، وهمس المصلون تعبيراً عن حزنهم من أجل أولئك الذين لن يروا الغد . وقد ارتعدت إحدى النساء مرعوبة بسبب تفكيرها أنها قد تموت هذه الليلة . لكزها الرجل الجالس قربها حتى تتقدم وتركع ، لكنها كانت مرعوبة . كرّر الواعظ كلماته مرة ثانية : لكم لن يكون هناك أي آجلا . حشرجت المرأة ، وتابع الواعظ كلامه .

« تذكروا ، تذكروا ما فعله المسيح بالتينة . هذا درس لي ولكم » .

استدارت المرأة وسألت ماذا فعل المسيح بالتينة . سمع الواعظ السؤال . أصبح حاداً قاسياً .

قال الواعظ : « بترها . قطعها . جعلها مجدبة ، وهذا ما يقدر أن يفعله بكم في هذه الليلة نفسها . يقدر أن يقطعكم في طرفة عين » كاد صوته أن يكون نبوياً في تهديده ووعيده .

بدأت المرأة في البكاء ، ولكزها الرجل حتى تتقدم . وصلت شهقاتها إلى الواعظ فازدادت حماسته . كرر قصة التينة ، فانهارت المرأة فجأة تتفجر بكاء ورمت نفسها إلى الأمام وهي تصب اعترافاتها المختلطة . بدأ المصلون يترنمون . تابع الواعظ محاولاته حتى يعلو صوته فوق أصوات الآخرين . أبقت المرأة رأسها خفيضا بانتظار أن تُطرح الأسئلة عليها ، لكن الواعظ واصل مخاطبته للجمهور . كان الجمهور هادئا وجدياً بل حزينا جداً ، في بعض الأحيان . أبقى « الصبي الأزرق » و« الورقة الرابحة » رأسيهما منخفضين ، فنحن ما نزال نرتجف من تهديد المراقب . الانسحاب الآن خطر ، إذ ربما ما يزال المراقب يحوم حول حلقة المشاهدين . كنا نخشى أن يكون قد ميَّز صوت « الورقة الرابحة » ، فبقينا خافضي الرؤوس . نهض المصلون وبدأوا يبذلون بعض المحاولات لإقناع بعض المشاهدين . الواعظ لم يتوقف . هذه هي آخر دورة من دورات النِّداء . لقد تأخر الوقت ، والشمعة تذوب بسرعة .

« أنتم الواقفين خارج دائرة النعمة تسخرون وتهزأون ، أنتم المتكبرون

الذين ترفضون إخضاع أنفسكم لما هو خير وعَليّ ، تذكروا أن هذا سوف يسجّل ضدكم في السِّجل العظيم ، أنكم هذه الليلة سمعتم النداء ، ورفضتم يسوع . قلتم له ، ابتعد عنا ، اخترنا العدو ، أنتم المختبئين بسبب الخجل ، سوف تنكشفون ، وأنتم الهاربين بسبب الخوف ، سوف يقبض عليكم » .

رفع « الورقة الرابحة » بصره ، وارتعش وجهه في الضوء . لكزني بين أضلاعي ، لكنني لم أفهم ما حصل . سمعنا همهمة بين الجمهور الأبعد ، ولكزني « الورقة الرابحة » ثانية . همس بهدوء ، لكن الهمس لم يصلني . ثم اقترب « الصبي الأزرق » وحاول أن يخفض رأسه اكثر . رفعت بصري فرأيت ما حصل . لقد شق المراقب طريقا بين الجمهور . تطلع حوله في كل الاتجاهات ، ثم ركَّز نظره عليَّ . بادلته النَّظر الجريء كأن لا مدعاة لأي خوف . اتجه نحونا ، شاقاً طريقه بصعوبة بين الجمهور . تابع الرجل توبيخه . كانت التعليقات موجَّهة إلى المراقب ، على ما يبدو . كاد المراقب يصل الينا ، فشقَّ « الصبي الأزرق » طريقه نحو الطاولة . ركع قرب الطاولة ، فبدأ المصلُّون الترنيم . كان الواعظ في غاية التأثر .

قال : « دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم » . توقف المصلون عن الترنيم وبدأت المراقبة . اقترب المراقب أكثر . لم أكن أكيداً إن كان يشك بنا . ازداد قربا الآن ، وقد أدرك « الورقة الرابحة » ذلك . تراجع رجل آخر خطوة واقترب المراقب خطوة . شق « الورقة الرابحة » طريقه بين الجمهور مرفوع الرأس . ركع قرب « الصبي الأزرق » . يظهر أن المراقب يشك بنا . اتجه نحو الطاولة فاستدار الواعظ لاستقباله ، لكنه لم يستجب . الرجل في آخر الحلقة ما يزال يوبخ ويزجر . لمس المراقب « الورقة الرابحة » ، ولم يدرك المشاهدون ما يحدث . إن المراقب لم يأت من أجل خلاص روحه ؛ هذا واضح . استشاط الواعظ غضبا . لوّح بيده وصرخ بصوت أعلى من كل ما سبق : « لا تلمس مختاري الرب » . سرت همهمة بين الجمهور ، ورفع الرجل في آخر الحلقة صوته . تكلم الواعظ بعاطفة متوهجة ، فتراجع المراقب . أبقى« الورقة الرابحة» و« الصبي الأزرق » رأسيهما منخفضين . تقدم صبي آخر ، فتقدمت مسرعاً وانضممت إليه . ركعنا معاً ، وعيوننا مغلقة . أصبح التفكير صعباً . وبدا لنا هذا أيسر سبيل للهرب .

المراقب ما يزال هنا . واصل الرجل في آخر الحلقة توبيخه وزجره . « لكم لن يكون أي آجلاً » كان الواعظ يتلاعب بهذه الكلمات . أصبح الجو ثقيلا وجدياً . تقدّم صبي آخر ، ثم امرأة . فتحت عيني فرأيت « الورقة الرابحة » . كان يرتعش . وقف المراقب حيث كان . تقدم صبي آخر فاتجه المراقب نحوه . ازداد امتعاض الواعظ ، وغضب الجمهور . يبدو أن المراقب مصمم على مقاطعة الاجتماع . تقدّم الرجل الذي كان يوبخه زاجراً في آخر الحلقة وقال إنه سيقتلع قفاه من الحلقة. ربَّت الواعظ على ظهر الرجل وقال له ألَّا يقترف خطيئة في عينيّ الله . الجمهور ضد المراقب . الواعظ ممتعض . والتيار العام في صالحنا ، كما يبدو . أبقى « الورقة الرابحة » عينيه مغمضتين ، في حين وقف المراقب حيث هو في الصف الأول من حلقة المشاهدين ، غاضباً إنما أكثر خضوعاً . لقد قمعه الجمهور . تقدم صبي وركع قربي ، ثم امرأة وثانية . ولم أعد أرى أي شيء . لكنني سمعتهم قادمين ، الخطاة الذين امتلأوا ثقة ، الأرواح التي لن يكون لها أي آجلا . لقد ذابت الشمعة وانطفأت . أصبح الليل حالك الظلمة ، ولم يبق للراكعين غير حرارة الصلاة ، وما يصلهم منساباً في ممرات آذانهم من ترنيم المصلين الفخم الجدي الرصين :

« أدخل في قلبي ،
أدخل في قلبي ،
أدخل في قلبي ، يا يسوع ،
أدخل اليوم ،
أدخل على طول ،
أدخل في قلبي ، يا يسوع » .

٨

طال السكوت أكثر من أي وقت بينهما . لقد أنهى الرجل العجوز تدخين غليون آخر وبصق من الشباك على جذور النخلة . مدّ رأسه فوق المصطبة ليرى أين استقر اللعاب . كان التراب بين الجذور رطباً ، وكان ثمة جوزة صغيرة ومستديرة كالخرزة وسوداء اللون تحت طلاء الجير . بصق ثانية وخضّ اللعاب عن طرف الغليون . كان الباب الخلفي مفتوحاً ، وكان الدخان يخرج الى الفناء من الشبابيك في كل الجهات . استرخت المرأة العجوز في كرسيها وقد مدّت رجليها فوق المقعد . كان وجهها مقطباً بتعبير ساخط . ارتمت يداها إلى الأمام متشابكتين في حجرها ، وكانت تتطلع ، أحياناً ، إلى الغليون الطيني على الطاولة . في ظروف مختلفة ، كانت تشعل الغليون وتدخنه . لكن ما سمعته قد اثارها ، ولم يكن بوسعها أن تفعل أي شيء ، غير أن تجلس وتنتظر حتى يتلاشى الخجل . لم تكن تدري كيف تخبر الرجل العجوز بما حصل . فتكرار تفاصيل القصة ليس من سوء الأدب فحسب ، لكنها تشعر أيضا أن تأثر الرجل العجوز سيفوق تأثّرها . أبقت رأسها خفيضا تحدق في قدميها الممددتين فوق المقعد. سوّى الرجل العجوز الرّماد وسحب نفساً من الغليون . ارتفع الدخان عالياً كثيفا ، ومرَّ الضباب بينهما .

لقد التقت المالك حين ذهبت لدفع الأجرة ، كان يركب فرساً في السهل الممتد بين الحديقة والسور . كان يرتدي حذاء الركوب وخوذة بيضاء ، وكانت الفرس تخبّ دائرة حول السور نحو الحديقة فالسهل ثانية . لقد راقبتهما من قبل أن تدخل المكتب حيث قبض المراقب النقود . حين غادرت المكتب وقطعت السَّهل

توقَّف المالك قربها وسألها كيف الحال . امتلأت سروراً . باركته وعلَّقت على قوة الفرس وحجمها . ترجَّل وربط الحيوان إلى شجرة وسار معها نحو كوم الزبالة في الشمس . تمنت لو كان « أبي » حاضراً . إنها لسعادة غامرة أن تتحادث مع المالك حديثا قلبياً حميماً . أراد أن يعرف إن كانت تقدر أن تشرح له لماذا تغيّرت الأوضاع هذا التغير الكبير في القرية . إنه يعيش في القرية منذ أكثر من ثلاثين سنة ، لكن التغيُّرات التي طرأت في السنوات الثماني او التسع الأخيرة تفوق كل قدرته على التخيّل . عدم الاحترام ، والنضال والتهديد والوعيد الصامت ، ولكنه محسوس ، من كل الجهات . تحادثا ملياً وأخبرته أنها ستبحث القضية مع أبي . فأبي ، عادة ، يعرف من فعل ماذا في القرية . ومن المرجح أن يكتشفوا العلَّة فيصلحوا الخطأ . لقد لاحظت هي التغيرات أيضا وتحادثت مع أبي كثيراً بشأنها . لكنها لم تلاحظ أبداً عدم الاحترام ، وهي تكره العنف . بل هي استحسنت بعض التغييرات ، وقد وافقها المالك . فثمة أشياء عديدة قد نالت رضاه الكبير ، لكنها لا تبرر عدم الاحترام الذي تعرّض له مراراً مؤخراً . يقدر أن يتحمل كل شيء إلّا عدم الاحترام . فهو ينخر جذور عالمه ؛ ويجعله يشعر أن من الممكن القيام بأي محاولة ضده مهما كانت كبيرة أو شريرة . كان يملأه الفزع فامتلأت المرأة العجوز خجلا . لم تجد وسيلة لإخبار الرجل العجوز بما قاله المالك . ازداد خجلها مع كل تنازل قدّمه المالك . لقد خاطبها كمكافىء له . وجلسا معاً سوية على كرسيين محاولين حل غموض التغيّرات . أعرب المالك عن أحاسيسه تجاه القرية ، وفي الختام صرّح لها بما سوف يفعله إن تردّت الأمور ، وقد جاء ذلك كأنه تفجر اعترافات لم يتمكن من كبتها . لم يعد يطيق صبراً ، وقد فكر في الأمر ملياً .

لم تكتشف المرأة العجوز لماذا اختارها المالك ليحادثها بالطريقة التي حادثها بها . ظنت ذلك امتيازاً كبيراً في البداية . وفيما بعد رأت فيه مناسبة صدفة . لكنها كانت سعيدة ، مع ذلك ، إذ كان بوسعه أن يختار التحادث مع غيرها . ربما كان يحترم عمرها . فهي وأبي أكبر القرويين سناً . ليس بوسعهما القيام بأي شيء لتغيير قراره ، غير أنه ربما شعر أنه مدين لهما للتعبير ، بين الحين والآخر ، عن رأيه فيما يحدث . ثم روى لها القصة التي أمرضت زوجته والتي لم تكن هي لتصدقها لو لم يكن مصدر المعلومات فوق الشبهات . فلو أن أي شخص آخر أخبرها لاختلف

ردّ فعلها . تنامى خجلها وانتشر داخلها كالمرض . لم تكن تظن ذلك ممكناً . لكأنها تتحمل مسؤولية أعمال الآخرين . تطلعت إلى الرجل العجوز دون أن تلاحظ ما يعمله ، على ما يبدو . كان ينظر نحو الدكان حيث تجمّع عدد من الصبيان فوق العتبة . وكان ينتج ، بين الحين والحين ، نوعاً من الموسيقى بنقر صحن الغليون على مصطبة الشبّاك . لم تتكلم منذ أفصحت عن شدَّة قلق المالك . لم يظهر الرجل العجوز كبير اهتمام إذ ظن أنه يعرف سبب قلق المالك . التغييرات معناها تهديد لقوته . يكره الرجل العجوز العنف أيضا ، لكن التغييرات الحاصلة لم تتضمن أي عنف . لم يُعتد على أحد . الأشياء حدثت ببساطة ، ويبدو أن الناس أصبحت تفهم أكثر . ما زالت المرأة العجوز تنتظر حتى تتكلم . أشعرهما الصمت بوجوده ، فسألها الرجل العجوز عما حدث . أجابت : « قطاع الطرق » . أوشكت أن تستعمل هذه الكلمات من قبل ، لكن هذه هي المرّة الأولى التي تنطقها فعلاً . لم يفهم الرجل العجوز . سأل من هم قطاع الطرق ، فلم تجب .

الرجل العجوز : « إن كان شيء يشغل بالك فالأفضل أن تقوليه . خلقت فيَّ الشعور بأن الأموات امتلكوا المكان بطريقة قعودك كأن لسانك مربوط بالخيطان » .

المرأة العجوز : « خجلي كبير كبير ، يا أبي . ليس كل شيء مثل ما تحب أن تقول . آه من منظره لمّا قال ما قاله ، وجع لي قلبي . وخجلت لما سمعت ما سمعته . ليس من طبعي ، ليس من طبعي ، يا أبي ، أن أحكم على الأحياء أو الأموات ، لكن يظهر لي أن ما يحصل في هذه الأرض ليس جيداً . ليس جيداً في عيني الله ولا عيني الانسان . إنه عار كبيرضخم » .

الرجل العجوز : « أنا أقول لنفسي ، المالك صار عجوزاً ، ويجيء الوقت لمّا لا يقدر الرجل أن يلحق بسرعة العالم . أنت عارفة هذا الشيء . وأنا أقول لنفسي لا يخسر المالك أي شيء لو ترك الحِمْل يروح منه . فلا يوجد أي سبب تحت الشمس حتى يتمسك بالأرض بهذا الشكل . أنا لا أريدها لنفسي لأن لن يمر وقت طويل حتى أروح وأريّح هذه العظام القديمة في القبر ، لكني أقول أعطِ كل شيء حقه . هو عجوز كثير يا أمي . عجوز كثير حتى ينشغل بهذا الإزعاج » .

المرأة العجوز : « المالك ليس عجوزا ، يا أبي . يمكن منظره عجوز ، ولا عجب في هذا ، لكنّه أصغر منك ومني ؛ وتأمَّل كيف تتمسك أنت بهذه الحياة . الحال نفسه نفسه معه . منظره يبين عجوزا بسبب ثقل الأشياء التي يتحملها . قال لي ونحن قاعدان في الشمس قرب كوم التبن ، قال إننا لن نفهم أبداً نوع المسؤولية التي يشعر بها نحوي ونحوك ونحو القرية كلها . قال إنها مسؤولية حقيقية. لا يقدر أن يعمل أشياء كثيرة مهما قالوا وحكوا ، لكنه سيشعر بهذه المسؤولية دائما . نحن لسنا أولاده، قال، ولكن شعوره يشبه هذا . إن عليه أن يهتم بأمور أهالي القرية . قال إن الأمور دائما ليست كما يجب أن تكون . هو يعرف هذا مليح كثير . لكن لايوجد شيء يخلصه من هذا الشعور بالمسؤولية الذي يحس به نحوي ونحوك ونحونا كلنا في هذه الزاوية من دنيا الله . وقال إن حظنا كبير لأن يوجد في هذه الجزيرة ناس ما عرفوا أبداً أي شخص يشعر بمثل هذه المسؤولية نحوهم . سألني إن كنت أعرف عائلة « الأبيض المسكين » لأن نصيبهم تعيس تعيس ، مثلما قال . إنهم انفصلوا مثلما قال عن الناس البيض الآخرين ، وما اهتم بهم أحد ، لا السود والا البيض . وأنا كنت دائما أتعجب لما أشوف الواحد منهم هنا أو هناك، لكنني كنت لا أعرف نصيبهم حتى خبَّرني هو . وهو يقول إنه لا يعتقد أن هناك أي ناس مثلهم في أي مكان في العالم . هم مقطوعون عن ناسهم ، وعليهم أن يعيشوا في الأرض نفسها ، لكن كأن لونهم لا يعمل أي فرق . لهذا السبب اسمهم عائلة « الأبيض المسكين » . هذا هو المكان الوحيد في هذه المنطقة ، كما قال ، حيث ترى الناس البيض تشتغل بكل أنواع الشغل الوسخ بدون أي مركز ، و« الأبيض المسكين » كطبقة اجتماعية ، قال ، وضعهم أسوأ من السود الفقراء » .

الرجل العجوز : « أظن أن أصلهم كلهم من بلد اسمه « سكوتلاندة » ، ولكني ما شفت أبداً أبداً أي واحد منهم يسكن في القرية . هم يعيشون كلهم سوية في الريف ويشتغلون في الأرض » .

المرأة العجوز : « لمَّا يجيء أي واحد منهم للبلدة هنا ، فهو يجيء عادة ، حتى يشتغل خادماً عند الأشخاص الملونين الذين يحتلون مناصب كبيرة » .

الرجل العجوز : « لكن ، ما سبب عدم تشغيل الناس البيض لبعض

هؤلاء عندهم ، بستاني أو أي شغلة من هذا النوع ؟ » .

المرأة العجوز : « الله وحده يعلم ، لكن يمكن أنهم لا يحبون تشغيل من ينتمي إليهم في هذا النوع من الشغل . الناس عندها طريقة حتى تساعدك إن كنت بحاجة إلى بعض المساعدة ، لكن الناس لا تهتم أبداً أبداً بمساعدتك إن كانت حالتك عاطلة لدرجة أنك تحتاج إلى كل المساعدة التي تقدر أن تأخذها . كلما زاد وضعك تردِّيا ، يزيد خوفهم منك ، لهذا السبب أضمن وآمن طريقة هي أن يتركوك لحالك . وهذا هو ما حصل لهم . لكن وضعنا نحن هنا في القرية مختلف عنهم . الحمد لله ، مثلما قال السيد « كريتون » ، نحن هنا دائما نعرف أن عندنا شخصا يهتم بأمورنا وأوضاعنا . كان عندنا شخص مسؤول ، لكن الأوضاع تتغير . تقريباً انقلبت رأساً على عقب بوجود بنك البنس وجمعية الصداقة . ومع أن هذه الأشياء جيِّدة ومفيدة ، فإنها سبَّبت أشياء غيرها ليست مثلها . يقول المالك إنه يعتقد أن ما عمله السيد « سلايم » هو شيء مليح ؛ ولكنه غير متأكد من الشيء الذي يدور في فكره . بعد هذا أخبرني عن الطمع وأنه شيء فظيع . هو يكبر فيك مثل المرض فلا تعود تقدر أن تضبط نفسك . يقول إنه لا يعرف إن كان السيد « سلايم » طمَّاعاً ، لكنه لا يحب ما يجري . ما كان بيده أي شيء حتى يعمله بالنسبة للفيضان الذي جاءنا من مدّة ، لأن الفيضان بعثه الله ، لكن لمَّا رفض الرجال أن يروحوا إلى الشغل في شركة الشحن التي له فيها مصلحة ، فهو يقول إنه شايف المشاكل آتية . إنه لا يحب هذا أبداً . هذه هي أول مرة يحصل فيها أي شيء من هذا النوع إطلاقاً ، ومن هذا الوقت هو تغيَّر أيضا . يمكن أن يحدث أي شيء . لكن لمّا حدث ما قال إنه حدث ما قدرت أصدق أذني ، يا أبي . هو يقول إنه مع كل ما حدث مع السيد « سلايم » وكل هذه الأشياء ، فهو لا يقدر أن يصدق أن هذا الشيء الثاني ممكن : الطريقة التي جاء فيها قطّاع الطرق الثلاثة الصغار من أي مكان جاؤوا منه حتى يهينوه بهذا الشكل . لا يقدر أن يتحمل هذا ، يا أبي ، وأنا تقريبا بكيت هناك قدَّامه . تقريبا بكيت من الخجل الذي شعرت به » .

توقفت المرأة العجوز فجأة ، فاستدار الرجل العجوز الذي كان يمد بصره عبر النافذة مصغيا إليها ، وتطلع اليها . لم يسمع بعد آخر أقوال المالك ، غير أن

ذكر المرأة العجوز لقطاع الطرق أفزعه . ثم قالت إنها كادت تبكي ، فعجب من مقصدها . كان يعرف شعورها بالنسبة للأرض وللسيد « سلايم » ، فظن أنها تقصد من يتنافس للحصول على مثل السلطة التي للمالك . تذكر الاضراب وبنك البنس فشعر بتعاطف كبير مع السيد « سلايم » . إنه يؤيد السيد « سلايم » . لا يحب أن يفكر أن المالك قد أهين ، وكراهيته للعنف تعدل كراهيتها . لقد لاحظ التغييرات التي طرأت على القرية ، واعتقدها جزءاً من تغيير أكبر يربط بينه وبين السيد «سلايم » . أما المرأة العجوز فأقل تعاطفا . لقد رحبت ببنك البنس والجمعية . هذه أشياء جيدة . لكنها كرهت الإضراب . والآن هي نادمة على كل شيء . فلا شيء يعوِّض الإهانة التي لحقت بالمالك . هي تؤيد المالك . كانت على ثقة أن الرجل العجوز ، سيفهم ، بل لعله يوافقها الرأي أنه هو يستحق تعاطفها ، لا البنك ولا الجمعية ولا السيد « سلايم » . تساءلت من أين تبدأ إخباره . فقصة المالك غير معقولة .

الرجل العجوز : « أكيد : في الجرن أكثر من المدقَّة . لماذا خبّرك كل هذا ؟

المرأة العجوز : « يمكن احتاج إلى شخص يتحدث معه ، أو يمكن فكر أننا نعرف من هم قطاع الطرق » .

الرجل العجوز : « ماذا عمل قطاع الطرق حتى يسميهم بهذا الاسم ؟ » .

المرأة العجوز : « ما قدرت أصدّق أذني ، وحياة الله ، يا أبي ، وشعرت بخجل كبير كثير لما قال ما قاله ، وما قدرت اتحمَّل » .

الرجل العجوز : « مات أحد ، قتل أحد أحداً ؟ » .

المرأة العجوز : « أسوأ من هذا ، يا أبي ، يظهر لي أسوأ من هذا ألف مرَّة . حاول قطاع الطرق إساءة أدبهم مع بنت المالك ، والاعتداء عليها بالقوّة . كان هذا ليلة ما عمل حفلة للبحارة ، ولا أحد يعرف كيف دخلوا من السور ، لكن يظهر أنهم كانوا يخططون لهذا من مدة طويلة ، ودخلوا بالطريقة التي دخلوها بها ، هم الثلاثة . أما من هم ، فالله وحده يعلم . لكنهم تقريبا اغتصبوا بنت المالك . من حسن الحظ ، يا أبي ، من حسن الحظ ، أن كان هناك بحَّار في نفس

المكان فخلَّصها منهم . يقولون إن الطفلة المسكينة كانت تشم بعض الهواء النظيف . ما كان عندها أي فكرة عن ما سيصير ، تماما مثل الرجل على القمر ، وفجأة خرج المتوحشون الأشرار الثلاثة لتمزيقها قطعة قطعة ، لولا نعمة الله العظيم القدير التي خلَّت البحّار يكون حيث كان ، وإلَّا كانوا خرّبوا بيت الطفلة » .

لم يتكلم الرجل العجوز . من الواضح أنه في غاية الغضب بسبب قصة قطاع الطرق الذين انتهكوا بنت المالك . لم يكن ليظن ذلك ممكنا أبداً . هذا هو تغيير أيضا . لقد شوَّه هذا التغيير كل التغييرات الأخرى . لم يكن يعرف ما يتمناه للقرية ، لكنه كان يشعر أن التغييرات الأخرى توحي بما يمكن أن تكون القرية عليه ، وكان سعيداً . أما هذا التغيير فقد شوّه كل شيء . لم يتكلم .

المرأة العجوز : « الآن سيحدث ما توقعته دائما . السيد « كريتون » حلف قدامي ، يا أبي ، حلف بالأموات والأحياء أنه إن حصل أقل شيء لإزعاجه ، فإنه يتخلى عن هذه الأرض . لا يمكنه أن يتحمل أكثر . هكذا ، هو يقول ، أولاً جاء الفيضان ، وكل ما كلفه وكلفه من تصليحات لكل الطرق . بعد هذا كان الإضراب والفوضى في المرفأ وإعادة الرجال للشغل ، وأغلبهم من أهل القرية . وهذا الشيء وهذا الشيء بعد هذا الشيء ! كلها أتعبته وأرهقته . والآن هذا الشر فوق كل شيء آخر . أن يفكر قطاع الطرق هؤلاء في عمل ما عملوه . لا يحتاج غير نقطة واحدة فتفيض كاسه ، يا أبي . وهكذا هو يقول ، إن عنده أصحاب يرضون ويقدرون أن يشتروا ، وعندها نشوف الفرق . يقول إنه متأكد أن الأوضاع لن تكون مثل ما هي عليه الآن مرَّة ثانية أبداً . لهذا السبب هو يصلّي إلى الله ألَّا يحدث أي شيء يخلِّيه يبيع الأرض » .

الرجل العجوز : « يظهر أن هذا شيء عاطل ، يا أمي ، شيء عاطل كثير » .

المرأة العجوز : « ما في ايدينا شيء غير الصلاة ، يا أبي ، الصلاة » .

٩

طلع الصباح تعيساً بين الأشجار وفوق البيت على التلَّة . كانت الأرض رطبة من الأمطار المنهمرة غير الغزيرة في الليلة السابقة ، فلم تفض القنوات ولم تتأثر البيوت . كادت الشوارع أن تكون مهجورة ، وكانت الدكاكين كلها مقفلة باستثناء دكان واحدة في المنعطف . قبل ذلك كان بعض الناس قد التقوا عند المنعطف في انتظار « سافوري » . جلسوا على درج الدكان وتحدثوا كالعادة ، ثم تفرقوا بعد حوالي الساعة . لم يأت « سافوري » . ولم يذهب أبو « بوب » والسيد « فوستر » إلى العمل ، لكن الأولاد لم يطرحوا أية أسئلة . كان الإسكافي يشتغل في دكانه ، لكن أحد الأبواب كان مغلقا . كنت تستطيع أن تراه يعمل عبر النافذة فقط ، وقد وضع الجلد في وسطه . وفي حوالي الساعة التاسعة اكتظت المدرسة بالأولاد ، لكن الكثيرين منهم غادروها بعد حوالي الساعة وقد وقف بعض الوالدين في باحة المدرسة يتكلمون بهدوء . عقد المدير والمساعدون كلهم اجتماعاً في القاعة العامّة ، وبعد مدّة أطلق المدير صفّارته وأخبر الصبيان أن عمل هذا النهار قد انتهى . جاء عدد أكبر من الوالدين إلى المدرسة للتأكد من قرار المدير .

الغيوم متلبدة تحت السماء الرمادية ، والشمس التي تشق طريقها عبر الغيوم ، تنفث ضوءاً ضئيلاً هنا وهناك فوق الأسوار وعلى عتبات البيوت . التقت البنات العائدات من مدرسة البنات بالصبيان العائدين من مدرستهم . لقد اتخذت مديرتهن القرار نفسه . اختفت الشمس تحت إحدى الغيوم فأظلم النهار . الجو تعيس .

لم يستطع الوالدون إدراك ما يحدث ، لكن إحدى البنات قالت إن مديرتها قد قالت إن القتال يجري في البلدة ، ومن الممكن أن يمتد هذا القتال فيصل القرية . أما مدير مدرسة الصبيان فلم يقدِّم أي شرح ، لكن أحد الصبيان قال ان معلم الصف الرابع حذَّرهم من التلكؤ في الشوارع ، لم يكن أحد يعرف ماذا حدث في المدينة ، غير أن ممَّا لا شك فيه أن في الأمر سوءاً . توترت النساء مهمومات . ذهبت أم « بوب » عند السيد « فوستر » تسأله إن كان يعرف ما سيحدث . كانت تخشى أن يتورط « بوب » في القتال إن امتد إلى القرية . كان السيد « فوستر » غامضاً . قال إن شيئا ما قد يحدث ، غير أنه لم يكن في المدينة ولذلك فهو لا يستطيع أن يجزم . اجتمع بعض الناس عند المنعطف يسأل بعضهم بعضا عما قد يحدث ، دون أي جدوى . فلا أحد يعرف ما يجري . القتال ناشب في البلدة، وسيمتد القتال بسرعة إلى القرية . عادوا إلى بيوتهم وانتظروا . أشرقت الشمس فغمر الضوء كل شيء . التنبؤ بالطقس صعب ، لأن الشمس تشرق من خلال الغيوم الماطرة . لكنهم يتمنون لو تمطر . فلو هطل المطر وفاضت الشوارع ، قد يتوقف القتال . وتمنى آخرون لو تشرق الشمس فتبتهج الأرض .

كان من العسير القيام بأي عمل ، لأن كل شيء يعتمد على القتال في المدينة الذي لم يشاهده أحد . عاد أولئك الذين كانوا يتلكؤون قرب المنعطف إلى بيوتهم . أصبح أكيدا أن « سافوري » لن يأتي . ارتدى السيد « فوستر » ثيابه وذهب إلى مركز الحرس حيث مقر الشرطة المحلية . وعد أن يعود ببعض الأخبار حول ما يجري . جلس بعض الناس على عتبة السيد « فوستر » بانتظار عودته . ما كادوا يستقرون في حديثهم حتى عاد السيد « فوستر » . أخبرهم بمنتهى الإيجاز أن يرجعوا إلى بيوتهم . رفضوا وألحّوا على معرفة ما أخبرته الشرطة به . صعد الدرج مارًّا بينهم ودخل بيته . انتظر الناس في الخارج فأطلّ عليهم من النافذة وطلب منهم الرحيل . رفضوا ثانية ، فتكلم بعد ذلك بقليل . لم ير الشرطة . مركز الحرس مغلق . لما سمعت إحدى النساء قوله صرخت : يـا إلهي ! قال السيد « فوستر » إن كل الشرطة المحلية قد استنفرت للقتال في البلدة ، كما يظهر . ولعل بعضهم قد أرسل إلى مقر الحكومة ، ولكن يظهر أن القرية متروكة بدون حماية الشرطة . القتال ينتشر ويمتد . رجع الناس إلى بيوتهم وانتظروا . كانت البيوت

مغلقة على امتداد الشارع من أقصى طرفه إلى أقصى طرفه الآخر . كانت الأبواب مقفلة بالمفاتيح أو المصاريع ، وكان أصحابها يسترقون النظر من ثقوب المفاتيح أو من تحت الشبابيك التي كانت تفتح نصف فتحة بين الحين والحين . في الجو نوع من الرعب . القرويون هادئون وممتلئون فزعاً . بزغت الشمس وفرقت الغيوم الماطرة ، وسرعان ما ساد الضوء كل الأرض . كل الدكاكين مغلقة . المدرسة مغلقة . وفي البيوت كانوا يحاولون أن يتخيلوا كيفيّة القتال الجاري . فهم لم يسبق لهم أن سمعوا بأي شيء يشبهه . إنهم يعرفون القتال بين القرويين ، وهم معتادون على العراك بين الصبيان والبنات . فبعد إحدى المباريات الرياضيَّة ، كان فريق إحدى القرى يهدِّد بالقتال مع منافسه ، أحياناً لأسباب عديدة . مثل هذا القتال معقول وله معنى ، أما الأحداث الجارية في المدينة فهي ببساطة تفوق قدرتهم على الاستيعاب . القتال ناشب في المدينة . هذا هو كل ما أخبروهم به ، فكانوا يردِّدون الكلمات محاولين أن يخمِّنوا من يقاتل من . لكنهم لم يفهموا أي شيء بوضوح . فالمقاتل ليس أبو « بوب » أو السيد « فوستر » أو شقيق المراقب . إنه القتال ببساطة . هم يتقاتلون في المدينة . وسرعان ما سيمتد القتال إلى القرية . هذا كل الوضوح في الأمر . وهم لا يفهمون هذا .

فتحت أم « بوب » نافذتها على وسعها ، وتطلعت عبر الأشجار لترى ما يحدث فوق التلة . الوقت ظهراً ، ومع ذلك لم يقرع الجرس في باحة المالك . كان بيت المالك مغلقاً من الجهة التي أطلّت منها أم « بوب » . إنهم ينتظرون منذ ثلاث ساعات لسماع أخبار الأحداث في المدينة ،غير أنه لم يأتِ أحد من تلك الناحية . هذا لا يطاق . أغلقت النافذة وجلست على الكرسي وقد أراحت رأسها على مصطبة النافذة . ذهب أبو « بوب » ليحادث السيد « فوستر » وقد بقي عنده ولم يعد . جلس « بوب » و«الورقة الرابحة » في إحدى زوايا البيت يفكران فيما هما فاعلان . لقد مضى ثلاث ساعات على التوقيت المفترض لامتداد القتال إلى القرية ، لكنه لم يمتد . فكّرا في التسلل ، والذهاب إلى المدينة . لكن ماذا يفعلان هناك ؟ فلو اتضحت هوية المقاتلين لأمكنهما المناصرة والتأييد ، لكن من المستحيل أن ينخرطا في خطر يسمّى ببساطة : القتال . هم يتقاتلون في المدينة ، فسألا نفسيهما : من هم . لو كان « بوب » واثقا أن لأبيه أي علاقة بالقتال لسار قدماً

واكتشف من هم مؤيدو أبيه فمنحهم ولاءه تلقائياً . ولكان « الورقة الرابحة » اتخذ الموقف ذاته . لو اشترك « بوب » في القتال لعرف أي فريق يؤيد . لكن الوضع محيِّر . القتال ناشب في المدينة . تحادثا بهدوء في الزاوية ، ويبدو أنهما توصلا إلى قرار . تطلع « بوب » إلى أمه ، لكنها لم تعره أي اهتمام . كانت قد قامت عن كرسيها ونظرت من تحت النافذة ثم عادت فجلست بسرعة . الشوارع خالية . تركا البيت وذهبا إلى الباحة . لم تتحرك أم « بوب » . وقفا في الخارج يتحادثان بهدوء . سوف يتسلقان عدة أسوار ، ويمرّان في باحة أحد الجيران ، ثم يسيران في محاذاة خط القطار وصولا الى المدينة . سيكتشفان ما يجري .

جلست أم « بوب » قرب الشباك تنتظر أن تسمع صوت خطوات في الخارج . فأبوه لم يعد من بيت السيد « فوستر » . شبك « الورقة الرابحة » يديه خلف ظهره فوضع « بوب » قدميه في كفيّ «الورقة الرابحة »وسحب نفسه فوق السور . وقف عليه ، وتبعه « الورقة الرابحة » مستخدماً تكتيكاً آخر . تسلقا سوراً آخر ، وآخر ، وغابا عن الأنظار نحو خط القطار .

جلست أم « بوب» قرب النافذة .فتح الرجل العجوز ، أبي ، الباب الأمامي لبيته وخرج إلى الشارع منتعلا قبقابه . كان يرتدي قبعة قديمة من « بَنَما » ويحمل عصاً . فتحت المرأة العجوز النافذة ومدّت رأسها منها . سار أبي في الشارع متجها إلى بيت السيد « فوستر » وبقيت أمي تطل من النافذة . طرق النافذة بعصاه ، لكن لم يفتح أحد . طرق ثانية مناديا على السيد « فوستر » فأطل أبو « بوب » فتحت أم « بوب » النافذة ورأتهما . كان أبو « بوب » مرعوباً . صاح بالرجل العجوز أن يعود إلى بيته ، لكن أبي واصل محاولته حتى تُسمع كلماته فوق الصراخ . هدأوا فتكلم أبي . فتحت ثلاث أو أربع نوافذ أخرى وتركزت كل العيون على أبي وحيداً في الشارع . أخبر الرجال أنه قد رأى السيد « سلايم » يمر في الطريق حين كان هو يطعم الحمام ، فأرادهم أن يعرفوا ذلك . ألحّ عليهم أن يتصلوا بالسيد « سلايم » الذي سيعرف ، على الأرجح ، ما حدث في المدينة . نظر أبو « بوب » إلى السيد « فوستر » ، وفجأة دَعَوا الرجل العجوز أن يدخل بسرعة . رفض. قال إنه سيذهب ويلتقي السيد « سلايم » بنفسه إن كانا يرفضان . امتلآ غضبا وصاحا به أن يرحل . رفع صوته فتمكّن الجيران من

سماعه . قال لهما أن لا بدّ أنهما يعرفان ما يجري وأقسم أنه ، بما أنه لا يفهم معنى كل هذا الحديث عن القتال في المدينة ، سيكتشف بنفسه الحقيقة من السيد « سلايم » . التزم الرجلان الهدوء . دعواه إلى الدخول بمنتهى الرِّفق . قالا له إن السيد « سلايم » قد يعرف ما هي المشكلة في المدينة ، لكنه لا يقدر أن يقوم بأي عمل لحلِّها . رفض الرجل العجوز الدخول . قال إنه يريد الحقيقة ، وكادت دموعه تنسكب وهو يقول : يا للحسرة ليست عندي قوّتي السابقة .

التزم الرجلان الهدوء . أرادا أن يدخلاه من الباب إلى بيت السيد « فوستر » لكنه قال إنه لن يترك أمي وحيدة . لم يعرفا ماذا يفعلان . راقباه يرتجف أثناء كلامه ، وأوشكت دموعهما أن تنهمر . كانت أم « بوب » والسيدة « فوستر » تصغيان . أرادت أم « بوب » أن ترسل « بوب » لينادي أباه ، لكن « بوب » لم يكن موجوداً . نادته مرتين ، ولم تتلق أي جواب . فكَّرت في البحث عنه في الباحة ، لكنها لم تشأ أن تضيع منها تفاصيل هذه الحادثة الصغيرة . ما يزال السيد « فوستر » وأبو « بوب » يناقشان الرجل العجوز ، بينما أمي تنتظر في نافذتها . يبدو أنها تعرف ما يطلبه الرجل العجوز منهما ، وأنها تتعاطف معه . تعتقد أن عليهما أن يذهبا ويجلبا بعض الأخبار من السيد « سلايم » . فلو امتد القتال إلى القرية ، فإن السيد « سلايم » هو الوحيد القادر على إيقافه . فالقرويون لن ينخرطوا فيه ضد إرادته . الدكاكين كلها مغلقة ، والغالبية العظمى من الناس تأمل في حدوث شيء سريعاً . لا بدَّ أنهم جياع . أراد الرجل العجوز من الرجلين أن يقنعا السيد « سلايم » بفتح الدكاكين . وهما يعتقدان أن بوسعه إيقاف القتال إن امتد إلى القرية .

انتظر الرجلان وقد أربكهما إلحاح الرجل العجوز . دخل السيد « فوستر » بيته ، فحاول أبو « بوب » من جديد أن يتخلص من الرجل العجوز . تطلع الجيران وانتظروا لمعرفة ما سيحدث . عاد السيد « فوستر » وأخبر الرجل أنه سيذهب لمقابلة السيد « سلايم » ، إنما بعد حين . رفض الرجل العجوز . أدار ظهره عائداً إلى بيته ، وتظاهر الرجلان أنهما يغلقان النافذة حين ظهر « بوب » راكضاً في الطريق منادياً أباه . تطلع الجميع ، لكن أم « بوب » لم تستطع أن تفهم ماذا جرى . بإمكانها أن تقسم أن « بوب » كان في الحديقة . كان يلهث بشدَّة

وكل ما استطاعوا أن يسمعوه هو قوله : « جاؤوا ، جاؤوا » ، سألوه عمَّن جاء ، لكنه لم يكن يعرف . وضع يده على صدره ولهث : « جاؤوا ، جاؤوا » . خرج السيد « فوستر » وأعان الرجل العجوز على ارتقاء الدرجات ، واطمأن عليه بعد أن أدخله بيته ثم رجع هو إلى بيته . دخل « بوب » وأبوه . أغلقت كل الشبابيك مرَّة ثانية ، وانتظر الناس مرعوبين وهادئين لمعرفة ما جرى . خرج أبو « بوب » مرة ثانية مسرعاً يطلب من السيد « فوستر » بعض الدواء . لقد أغمي على « بوب » .

لم يفهم أحد ما حدث ، لكنه لم يستطع أن يقول أكثر من « جاؤ وا ، جاؤ وا » ، ولما حاول أبوه تهدئته وإقناعه أن يحاول أن يتذكر ، بدأ يتكلم ثم توقف فجأة . لقد أغمي عليه . أخذت أمه تصرخ ، فصرخ الجيران كذلك . كانت معظم النساء القريبات على وشك البكاء . أحضر أبو « بوب » الدواء ورجع إلى بيته . أغلقا الباب والنوافذ وحاولا إنعاش « بوب » . كرّرت أمه سؤاله كيف خرج ، لكنه لم يسمعها . استغرقه النوم ، وكان بين الحين والحين يتفوه ببضع كلمات . لكن لم يتضح أي شيء سوى اللهاث القصير المختنق : « جاؤ وا ، جاؤ وا » .

سألته أمه عما حلّ بـ « الورقة الرابحة » لكنه لم يسمعها . سأل أبوه إن كان « الورقة الرابحة » قد خرج هو أيضا ، فشرحت أمه الوضع . لم يفهما أي شيء . وضع السيد « فوستر » رأسه بين يديه كأنه على وشك البكاء ، وانفجرت دموع السيدة « فوستر » . انتظروا ، ثم بعد قليل ، فتحت كل الشبابيك من جديد . أطل « الورقة الرابحة » راكضا في الطريق ، كما فعل « بوب » من قبل . كان يتوقف هنا وهناك ليخبرهم بما رأى ، لكن الناس لم تفهم لأنه لم ينتظر الوقت الكافي ليشرح لهم . سمع بعضهم بالقناني ، وسمع آخرون بالحجارة ، وذكر خبر عن إطلاق الرصاص . لو انهم اجتمعوا معا ، يلملم كل منهم أخباره إلى أخبار الآخرين لتمكنوا من معرفة القصة ، لكن كان عليهم أن يرضوا بالفتات . ركض « الورقة الرابحة » نحو البيت ليسأل إن كان « بوب » قد رجع ، ففتحا له الباب . رفض أن يدخل . قال إنه يريد فقط أن يطمئن إلى أن « بوب » قد تمكن من الإفلات ، ثم أضاف أن العودة إلى البيت آمن له . لم يفهما شيئا وبدأت أم « بوب » تصيح . أرادت أن تعرف معنى قول « الورقة الرابحة » : الإفلات .

استلقى « بوب » هادئا على السرير يتنشق الأملاح المستعارة من السيد « فوستر » . أغلقت كل الشبابيك مرَّة ثانية لمَّا استدار أبوه حول المنعطف في الطريق بحثا عن « الورقة الرابحة » . جلست أمه قرب السرير ترطب جبينه بماء الورد . كانت تفكر فيما قاله « الورقة الرابحة » وتحاول ، طول الوقت ، أن تفهم معناه . سوف تنتظر حتى يعود أبو « بوب » ببعض أخبار ما وقع لهما .

كان « الورقة الرابحة » يجلس على المقعد ، وكان أخو المراقب يسترضيه ليخبره بما رأى في المدينة . ألحّ على معرفة ما وقع لِـ « بوب » ، فشرح لهم أن الشرطة قد تأتي بحثا عن « بوب » . أصغى أبو « بوب » وحاول أن يفهم كيف تورَّطا من البداية ، لكن كان من الصعب جداً استخراج رواية ذات معنى من « الورقة الرابحة » . كرر سؤاله حول ما يمكن أن يحصل لو جاءت الشرطة وطلبت « بوب » . قال أبو « بوب » إنهم لا يقدرون أن يعملوا أي شيء حتى يعرفوا المشكلة ، فحاول أن يشرح . تنفس بعمق وتمالك نفسه وحاول أن يتكلم . بدأ يشرد من جديد مشتّتا بأسئلة حول الشرطة ، ثم بدأ يستعمل الكلمات نفسها التي تفوّه « بوب » بها : « جاؤ وا ، جاؤ وا » . أمسك أبوه بخنّاقه وأخبره أن يتكلم وإلّا قطع قفاه رغم كل ما حصل له . ارتجف وتكلم . أصغيا فتابع روايته بهدوء وبدون شرود .

لقد سلكا طريق خط القطار نحو المدينة . كانت البيوت مغلقة والشوارع خالية حتى وصلا الى المنتزه . تسلقا سور المنتزه وسلكا طريقا قصيرا عبر الملاعب . السيارات متوقفة في الشوارع ، لكن لا حركة إطلاقا . السيارات خالية ، وثلاث منها مدمّرة تدميراً كبيراً . خافا قليلا ، لكنهما اعتقدا أنه حتى لو نشب القتال على بعد ياردات قليلة منها فإن بوسعهما أن يعودا إلى البيت عبر الطريق نفسه ولن يقبض عليهما . بالإضافة إلى ذلك اعتقدا أنهما ليسا في خطر لأنهما غير متورطين . لم يفصح أحد عن هوية المقاتلين ، فتقدما كأنهما مشاهدان . عند بوابة المنتزه المؤدية إلى المدينة وقف عدّة رجال لم يبد عليهم أي اهتمام . زحفا في محاذاة سور المنتزه ، فلما صارا على بعد ياردات قليلة من بوابة المنتزه هاجمتهما فرقة من الشرطة من خلفهما . لقد تبعتهما الشرطة ، فأصبحا متورطين في القتال . ركضا نحو البوابة حين هجمت الشرطة . ركَض الرجال الذين كانوا يقفون عند

البوابة أيضا ، فتبع « بوب » و« الورقة الرابحة » هؤلاء الرجال . لقد تورَّطا . تبعا الرجال ، وحين أدرك هؤلاء أن الشرطة تطارد الصبيين حقاً ، انتظروهما ، ثم انسحبوا جميعاً في كمين للشرطة . لم يدركا ما يجري ، لكن الرجال رحبوا بهما . طوّقت الشرطة المنتزه والمنطقة المجاورة ، فوقعا في الفخ . إنهما الآن يقاتلان ايضا . هما لا يعرفان سبب القتال ، ولكنهما أُقحما فيه . اهتم الرجال بهما . جلسوا جميعا خلف سور في انتظار تقدُّم الشرطة . أعطى أحد الرجال « الورقة الرابحة » عصا ، فأعطاها « بوب » بدوره . قطع الرجل عصا أخرى وأعطاها لِـ « الورقة الرابحة » . هما الآن يقاتلان أيضا . عزَّزت الشرطة صفوفها ، ثم هجمت . هرب الرجال فتفرّق شمل « بوب » و« الورقة الرابحة » . هذه آخر مرة رأى فيها أحدهما الآخر .

* * *

لم يعد أبو « بوب » قادراً على تحمل المزيد . سأل « الورقة الرابحة » عما رآه فطلب « الورقة الرابحة » منه أن يطلب إلى « بوب » أن يخبره . لم يعد يطيق الاحتمال . عاد أبو « بوب » إلى بيته . كان « بوب » يجلس على السرير محاولاً أن يستعيد توازنه . كانت أمه ترطب جبينه وصدغيه بماء الورد وتنشقه زجاجة الأملاح . جلس منتصبا يحاول أن يتذكر ما حصل . سألهم إن رأوا « الورقة الرابحة » فشرح له أبوه ما أخبره به « الورقة الرابحة » . بدأت أمه تبكي . طلب منه أبوه أن يروي ما حدث بعد أن افترق عن « الورقة الرابحة » . قال إنه لا يتذكر . لقد تبع الرجال مسافة طويلة . وصلوا إلى الساحة العامَّة حيث ازدحم حشد غفير . ثم تضاعف الحشد ، وكذلك السلاح ، فشعر بالغثيان في معدته . تبع الرجال عبر الأزقة نحو البحر . الدم في الشوارع ، لكنه دائخ من منظر السلاح والرجال الواقفين في المرفأ. الشرطة تهاجم، بين الحين والحين، فيردّ الرجال بالقناني والحجارة . قفز بعضهم في البحر ، وتسلق آخرون الأشجار . كان يتمّ إطلاق النار . هذا آخر شيء يتذكره . هرب الرجال وتركوه وحيداً . سار حتَّى مركز الشرطة وشرح لهم ما رآه ، وكيف وصل إلى المدينة . لا يفهم ما يجري . لا يعرف من يقاتل ولماذا ، وهو جاء ليتفرج فقط . أوصلته الشرطة بالسيارة حتى المنتزه ، وأخبرته أن يعود وحده من هناك . أصابته ضربة بين أضلاعه ، وموضعها يؤلمه . وضع يده على الموضع وفركه .

توجه أبوه إلى الشباك يحاول أن ينادي السيد « فوستر » . جلست أمه قرب السرير تمسح الجرح . استلقى هادئا ينتظر حلول الليل .

النوافذ ما تزال مغلقة ، والضوء المسافر بين الغيوم سار من سطح إلى سطح عبر الشوارع . وفي البيوت ينتظر الناس أن يصل القتال الى القرية . لا يقدرون على عمل شيء . الدكاكين مقفلة والكثيرون جياع ، لكن الطعام غير مهم الآن أهمية حب استطلاعهم حول القتال . لم يشرح لهم الصبيّان شرحا وافيا . أخبراهم ببعض ما جرى ، لكنهم جميعا يريدون أن يعرفوا ما هو الوضع في المدينة . غادر أبو « بوب » البيت وذهب للتحادث مع السيد « فوستر » . جلسا وتحادثا بما رواه الصبيّان . امتلأ السيد « فوستر » حزناً وغماً كأنه هو مسؤول عما يجري ، وأجهشت السيدة « فوستر » بالبكاء . لم يطيقا بكاءها ، فطلب منها السيد « فوستر » أن تذهب وتمكث مع أم « بوب » . ذهبت وبقي الرجلان يتحادثان في البيت .

كانا يحاولان أن يفهما المعنى الحقيقي للقتال. هما يدركان بعض نواحيه المعيَّنة . فهما يعرفان أن الإضراب بدأ في المرفأ في الليلة السابقة . لقد عقد اجتماع جماهيري في المدينة حضره السيد « سلايم » . خطب ثلاثة رجال في الناس ، لكنهم لم يقولوا أي شيء عن القتال . لقد ذكَّروا مستمعيهم بما يحصل في « ترينداد » ، وحذَّروا بعض الحضور من أنه إن لم تتخذ الخطوات اللازمة لعلاج الأوضاع فمن الممكن أن تقع أحداث مماثلة في « باربادوس » . قال أحد الرجال أنْ ليس في نيَّته أن يتلاعب بالعمَّال ، لكن إن لم يقتنع أناس معيّنون بالعدالة فلا بديل ولا مناص من أن تقاتل للحصول على طلباتك . صفَّق الناس موافقين وأبدوا استعدادهم للقتال إن لم يكن الإقناع ممكناً . لقد خطب السيد « سلايم » أيضا ، لكنه كان أكثر قلقا بشأن القرية . حكى لهم بإيجاز عن إنجازاته في القرية ، وأشار بكل وضوح إلى أنه سيؤيد العمال إن وقعت أي كارثة . لا يرغب في نشوب أي قتال ، لكن القتال ناشب في « ترينداد » وإن لم يكن بعض الأشخاص المعينين على استعداد لممارسة العدالة ، فإنه سوف ينشب في « باربادوس » . تحادث السيد فوستر وأبو « بوب » بهدوء . إنهما يقاربان الحقيقة . لقد ذكر الرجال القتال ، لكنهم لم يدعوا إليه مباشرة . لقد ذكروا مثلا معينا

فحسب ، قاصدين من ذلك ، على الأرجح ، إخافة أشخاص معيّنين بين الحضور . هذا كل ما يتذكرانه . انتهى الاجتماع وتفرق السياسيون للاهتمام بشؤونهم ، كانوا ثلاثة ، وكان السيد « سلايم » أشدهم قوّة ، كما يبدو . ثم تفرق الجمهور ، وفي ظنهم أن القضية قد انتهت . سيتم الإضراب حتى يتصل بهم السيد « سلايم » مرة أخرى . لم يتصل ، وحين عاد الأولاد من مدارسهم في الصباح مزوَّدين بما رواه لهم المعلمون ، حاولا التكهُّن بما حدث . لن يتصل السيد « سلايم » على ما يبدو ، فأخذا يتكهَّنان بالمدة التي سيستمر الإضراب خلالها . انتاب السيد « فوستر » الحزن ، كأنه هو السبب الأساسي للمشاكل . قال أبو « بوب » انه ذاهب . سارا نحو الباب ، ففتحت فجأة كل الشبابيك مرة جديدة . مدّ الناس رؤوسهم ليروا من المتكلم . إنها المرأة العجوز التي تسكر كل ليلة سبت . كانت تتكلم مترنِّحة عبر الشارع ويسيل لعابها على ذقنها . عبر السيد « فوستر » الشارع وأمسك بذراعها . انتفضت منسحبة

قالت : « إبعد عني . كلب جبان سكّير مثلك يمسكني » . ابتعد السيد « فوستر » خطوة وانتظر أن تواصل كلامها .

قالت : « جئت من المدينة الآن . وأنت يا زنجي منتن طويل عريض مخبأ في فراشك الملعون أنا كنت في المدينة ، وهم بحاجة إلى رجال مثلك » .

خرج أبو « بوب » وحاول كلاهما استنطاقها . الدموع تغطي وجهها ، ويثور اللعاب وهي تتكلم . ساعداها حتى العتبة فجلست . خرج شخصان أو ثلاثة آخرون فامتلأ المكان حيوية . ألحّ الرجال عليها حتى تتكلَّم ، لكن فمها غصّ باللعاب ، وأعمت الدموع عينيها . كانت تبكي كطفل .

سألتها السيدة « فوستر » : « ما جرى لك ؟ » .

قالت : « انكسر قلبي . قلبي انكسر ، انكسر ، انكسر » . فاضت الدموع . وجاشت نفسها بالغثيان .

سأل السيد « فوستر » : « ما جرى ؟ » .

قالت : « انكسر قلبي . قلبي انكسر لأنّ ابني مات » .

سأل السيد « فوستر » : « من » ؟

قالت السيدة « فوستر » : « ملك البو . ابنها هو ملك البو » .

قالت : « ميت . ميت مثل المسمار في الباب » ، وغطَّت الدموع وجهها .

سألت إحدى النساء : « كيف مات ؟ » .

قالت : « برصاصة . أصابت الرصاصة قلبه » .

بدأت النساء بالبكاء . لم يتحملن منظر المرأة العجوز . مسحن وجهها وحاولن معرفة ما رأته . أصبح القتال حقيقياً .

سأل السيد « فوستر » : « من قوّصه ؟ » .

قالت : « هم قوّصوه . هم قوصوه كأنه عصفور » .

ألح السيد « فوستر » : « من ؟ » .

قالت : « الشرطة . ناس تقول إنه المفتش الأبيض . وغيرهم يقولون إنها الشرطة العادية ، لكنه ميت » .

سأل السيد « فوستر » : « أين كان ؟ » .

قالت : « فوق الشجرة . لما صدر الحكم العرفي ، ركضوا كلهم هنا هناك في كل محلّ ، والمسكين « بو » ركض إلى فوق الشجرة . شافت الشرطة أين طلع ، فصوَّبوا كلهم سوية على راس الشجرة . وأصابوه . وقع ابني « بو » المسكين مثل العصفور » .

تهاوت على الدرج مرهقة ، فساعدها السيد « فوستر » على دخول بيته . كانت النساء يبكين ، أما الرجال الذين سمعوا قصتها فقد تملكهم العنف فجأة . جلست المرأة العجوز في بيت السيد « فوستر » . أحضروا لها الشاي ، وبدّلت السيدة « فوستر » لها ملابسها . كانت مبتلة وسخة من القيء . أخذت تسكر منذ رأت سقوط ابنها من الشجرة . ولا يعرف أحد من أين اشترت الروم لأن كل الدكاكين مغلقة ، ولعلها قد اشترته في اليوم السابق . ومن عادتها أن تحتفظ به في

قنينة بطحة في صدرها تشرب منها جرعة جرعة بين الحين والحين . وقد نسيت العيار هذه المرَّة ، وشربت القنينة حتى الثمالة . ألبسوها عباءة زرقاء وأقعدوها على السرير . تجمع شخصان أو ثلاثة حول البيت لتقصِّي أخبار ما جرى في المدينة . يبدو أن المرأة العجوز ذهبت هناك منذ الصباح الباكر ومكثت إلى ما بعد نشوب القتال . لقد رأت المدينة في أسوأ حالاتها ، لكنها استصعبت جمع الأحداث معاً ، وكانت كلما تذكرت ابنها تنفجر باكية فتنقطع القصَّة . ما تزال النوافذ مفتوحة ، ويظهر أن الجميع على ثقة أن الوقت لن يطول قبل أن تروي المزيد من الأخبار . الشوارع خالية ما عدا التجمُّع القليل ، على عتبة السيد « فوستر » . طلب منهم السيد « فوستر » الرحيل . قال إنه يدرك شعورهم ، لكن العجوز تقول إن رحيلهم آمن لهم . لن يطول الوقت حتى ينشب القتال في القرية . أراد بعضهم أن يعرف سبب حضورهم إلى القرية ، فشرح السيد « فوستر » أن ذلك يتعلق بالمالك . امتلكتهم الحيرة . فهم لا يعرفون أن المالك شريك في شركة الشحن حيث يقوم الإضراب . أخذوا يتجادلون . قالت النساء هذا ليس عدلاً ، فالسيد « كريتون » ما عمل شيئا عاطلا لأحد . تركت السيدة « فوستر » المرأة العجوز واقتربت من النافذة حتى تروي قصتها مع السيد « كريتون » ونصف البنس . هزت النساء رؤوسهن موافقات ، وقلن : هذا صحيح . ما عمل شيئا عاطلاً لأحد . أما الرجال فحائرون . قال بعضهم إنهم متوجِّهون إلى البيت فوق التلة لمناقشة السيد « كريتون » ، فعابت النساء ذلك عليهم . مستحيل . مهما حصل في المدينة يجب عدم إراقة الدماء في القرية . تفرقوا والمشكلة تلفُّ في أفكارهم . أغلق السيد « فوستر » النوافذ وجلس قرب العجوز . واصلت كلامها عما رأته وسمعته في المدينة . وفي الخارج بدأت النوافذ تغلق مرَّة أخرى . كل البيوت مغلقة . غطست الشمس خلف كوم من الغيوم فصار النهار ثقيلا .

ذهب السيد « فوستر » ليحدِّث أبو «بوب». جلسا على السرير وكرَّر السيد « فوستر » أقوال العجوز . تقلب « بوب » في نومه . جلست أمه على كرسي قرب السرير وأصغت إلى السيد « فوستر » . كان الناس في بيوتهم ينتظرون قدوم مسافر آخر من المدينة ، ويتساءلون من تراه يكون . أما السيد « فوستر » فقد جمع شمل الأحداث التي روتها العجوز .

تجمع جمهور من عمال الميناء في الساحة العامة في الصباح الباكر . ذهب وفد صغير ، يضم بين أعضائه السيد « سلايم » وسياسياً آخر الى بيت الحاكم طلباً لنصيحته حول الدعوة إلى الإضراب . رفض الحارس إدخالهم لمقابلة الحاكم ، فأصرّوا . دعا الحارس رفاقه الأربعة من رجال الشرطة ، فانفضّ الوفد . نشب قتال عند بوابة الحاكم أصيب فيها عاملان بجروح بليغة . رحل السياسيان والعمال الآخرون ، وبعد ساعة نشب القتال متسعا ضاريا في المدينة . تحرك العمال نحو أحد المقرّات حيث خزنوا القناني والحجارة وغير ذلك من الأسلحة التي فكّروا في استخدامها . فوجئت الشرطة . خرجوا في الصباح يتجولون في دورياتهم العادية وسلاحهم مغمد في أحزمتهم الجلدية ، وحين هاجمهم العمال بأسلحتهم ، هربوا .

ما أفظع المشهد ! تحرّك العمّال إلى شوارع المدينة الرئيسية ، وحين أدرك السياسيون ما قد يحصل خرجوا بدورهم . حذّروا العمّال من تخريب أي شيء ، وخصوصاً حياة الأبرياء في المتاجر والدكاكين . لكن الأوان قد فات ؛ إذ تعذّر إيصال هذا الموقف إلى كل العمّال ، وقد سيطر بعضهم على المتاجر . اختفى السياسيون وقد تملكهم الرعب والفزع . غير أن أحداً لم يقتل . الخراب الناشب عظيم لكن المتمردين لم يقتلوا أحداً ، وحادثة الموت الوحيدة حتى الآن هي موت « ملك البو » الذي قتلته الشرطة .

إتخذ التخريب شكلا غريباً . قُلبت السيارات ، وأفرغت عربات الخبز من محتوياتها قبل أن توزعها على زبائنها ، ثم قلبت على جوانبها في المجارير . أكل بعض الرجال أرغفة الخبز ، واستخدمها بعضهم الآخر أسلحة يرشقون الشرطة بها . واقتحم متجران كبيران في الشارع الرئيسي في المدينة . دُمِّرت مصاطب العرض ، لكن الرجال رفضوا أخذ الأقمشة . دعسوا فوق الحرير والساتان في مصاطب العرض ودخلوا المتجر . وفي أحد المتاجر الكبيرة هاجم الرجال المرأة الجالسة خلف طاولة النقود مرعوبة . رمت الأوراق النقدية فوق رأسها وهربت نحو باب صغير . أمسك الرجال بها وحملقوا فيها فترة . ثم تحسس أحدهم نهديها ومرَّ بيده فوق عمودها الفقري ثم أخبرها أن تختبىء. أما النقود فلم يلمسها أحد . أصبحت المتاجر فوضى ضاربة من القماش والزجاج والعصي والرجال الذين لا

يبيعون ولا يشترون . البضائع مرميَّة في كل مكان ، لكن لم تحدث أي سرقة . رفض الرجال أن يأخذوا أي شيء معهم .

أما في متجر آخر ، فقد وقع حادث طريف سخيف في الطابق الثاني . ارتدى أحد العمَّال بذلة رسمية للحفلات أخذها من مصطبة العرض . أجبر مراقب المتجر على دخول غرفة جانبية وعلى خلع ثيابه وارتداء ثيابه هو : ثياب عامل من عمال الميناء ـ بذلة زرقاء . ارتجف مراقب المتجر وأخذ ينفذ الأوامر . بمنتهى البساطة طلب منه العامل أن يقف في زاوية حتى يرى كيف يكون شكله في ثياب رجل عامل شريف . أطاعه المراقب ثم سأله مرعوباً ألا يستطيع أن يعمل أشياء أخرى يعملها الرجل العامل الشريف . وافق العامل فبدأ المراقب يلمِّع حذاء العامل وينفض الغبار عن بذلته الجديدة . لكمه العامل بين أضلاعه قائلا إن الرجل العامل الشريف لا يفعل هذا . ارتجف مراقب المتجر وحاول أن ينظِّف الأرض بيديه العاريتين . راقبه العامل باحتقار ثم انصرف ليتابع القتال ببذلة الاحتفالات .

لقد فوجئوا كلهم . المتاجر والشرطة وكل من لديه الأسباب الوجيهة لحماية نفسه . تردّى الوضع . تكدست الثياب والطعام في الشوارع ، وفي المتاجر نثرت الريح الأوراق النقدية على الأرض . خيّم على المدينة رعب غريب ، فلم يبق أمام السلطات من مخرج غير إعلان الأحكام العرفية . خرجت الشرطة مدججة بالسلاح ، فأصبح التيار ضد العمال . قفزوا في البحر وسبحوا نحو الجهة الأخرى . قذفت أكياس السكر من السفينة إلى البحر ، وساد المرفأ في هذا الصباح الثقيل الخراب والتدمير . وصلت سفينة صاحب الجلالة « جوليات » إلى المرفأ ، وبدأت إطلاق القذائف . الفرار من جديد . هرب المتمرِّدون من المدينة وأخذوا يقتربون من القرى للقضاء على أعدائهم . ارتجفت المدينة تحت هول القصف المدفعي . لقد بدأت الحرب كما يبدو . وموقف المتمردين ضعيف في المدينة ، لذلك قرروا الانسحاب إلى القرى . لعلهم أملوا في إخافة بعض من دمِّرت سياراتهم وعليهم أن يسيروا على الاقدام الى بيوتهم . وهذا هو مدلول كلمات « بوب » . لقد أجبروا على التوجه نحو القرى ، وها هم يجيئون إلى قرية « كريتون » حاملين رسالة خاصَّة .

هذه هي قصة المرأة العجوز . لقد رأت وقوع بعض ما روته وسمعت البعض الآخر ممن شاهده . سأل السيد « فوستر » أبو « بوب » : ما العمل ؟ لا يعرف أحد ماذا حلَّ بالمالك . لعله كان في بيته ، وإن وصل المتمردون إلى البيت على التلة فلا يمكن التكهن بما حصل . لعل ضراوة المتمردين قد تضاعفت بسبب تدخل « **جوليات** » . وفي القرية شخص أو شخصان لن يتردَّدا لحظة في سلخ جلد المالك حيّاً . الرجلان ملهوفان . أراد السيد « فوستر » الاتصال بالسيد « سلايم » لمعرفة ما يعملان إن وصل القتال إلى القرية . هل يشتركان في الهجوم على البيت على التلة أم هل يحاولان إقناع المتمردين بعدم إراقة الدماء في القرية . لا مشورة لدى أبو « بوب » . إنه مرعوب . يملأهما الأسف لأنهما لم يقابلا السيد « سلايم » حين ألح عليهما الرجل العجوز « أبي » ، بذلك . انتظرا ، وانقلب « بوب » على ظهره وتأوّه متوجعاً . قال ، في نومه ، كلاما عن المالك والمراقب ، فحاول الرجلان الإصغاء بانتباه . واصل هذيانه عن المراقب ، لكنَّهما لم يتمكنا من فهم معنى ذلك . يبدو أنه يعرف شيئا عن المراقب . تساءلا عمَّا يمكن أن يكون قد سمعه من الرجال عن المراقب والمالك . لا يعرفان طول المدة التي قضاها مع الرجال قبل أن يذهب إلى مركز الشرطة ، واعتقدا أن من الممكن أن يكون الرجال قد أخبروه بشيء . استمعا بانتباه ، لكن لم يتضح أي شيء غير الكلمات : المالك ، المراقب ، وما لهث به من قبل : جاؤ وا ، جاؤ وا .

طرقت السيدة « فوستر » الباب وطلبت من السيد « فوستر » أن يرافقها إلى البيت . إنها تشعر بألم في معدتها . ترك أبو « بوب » ورافقها إلى البيت . كانت السَّيدة « فوستر » تلهث فقالت لها المرأة العجوز إنها لم تشاهد أي شيء يستدعي اللهاث . كان يجب أن تكون في المدينة . أجهشت السيدة « فوستر » بالبكاء . لم يفهم السيد « فوستر » ماذا دهاها فجأة . دفنت رأسها في المخدّة وفاضت دموعها . طلب منها شرحاً . مسح وجهها فجلست منتصبة . صعب عليه أن يتابع كلامها . قالت إنها خرجت إلى الباحة منذ فترة حتى تجمع الغسيل فرأت بعض الرجال يختبئون خلف الأشجار قرب خط القطار . مدجّجون بالسلاح . وهي أكيدة أنهم رأوا ما يريدون . كانوا يتكلمون ويشيرون بأيديهم كأنهم رأوا ما يبحثون عنه ، ولم تعد تطيق الاحتمال . تركت الغسيل وركضت إلى البيت .

رجته ألا يترك البيت مرّة ثانية . المرأة العجوز مرعوبة أيضا . تجهَّم وجه السيد « فوستر » . لا يعرف ما يعمل . فتح النافذة نصف فتحة وتطلع عبرها نحو الأشجار قرب خط القطار ، لكنه لم ير الرجال . السيدة « فوستر » تواصل بكاءها ، والعجوز تواسيها . بقي السيد « فوستر » في موقفه عند النافذة ، وفجأة قرع الباب . جاء أبو « بوب » ليقول إنه رأى بعض الرجال يكمنون بين الأشجار عند خط القطار . ركض عائداً الى بيته ، وبقي السيد « فوستر » قرب النافذة . كانت السيدة « فوستر » تصرخ معولة . لم يطق السيد « فوستر » عويلها فصاح بها أن تغلق فمها اللعين . هذه هي الطريقة الوحيدة لضبطها في حالتها هذه . كلما علا عويلها يشتمها ، وسرعان ما هدأت .

لقد رأى الرجال . انبطحوا على اربعة بين الأشجار على امتداد خط القطار ، وزحفوا وهم يتكلمون ويشيرون بأصابعهم . يتقدمون باتجاه بيته . تطلع نحو الجهة الأخرى ليكتشف إن كان شيء هناك . لا شرطة . زحف الرجال وتكلموا ، متمسكين بأسلحتهم . يحمل أحدهم قنينة وحجراً ، ويحمل الآخرون العصي والقضبان . لا يفهم السيد « فوستر » ما يجري . اتجه نحو نافذة أخرى ، واتضح له أن الجميع قد رأوا ما رآه . ارتفعت الرؤوس عبر النوافذ نصف المفتوحة ، والرجال يزحفون على امتداد خط القطار . عاد السيد « فوستر » الى النافذة الأولى التي رآهم منها . ظهر أن الرجال واثقون كل الثقة مما سيفعلونه . زحفوا على امتداد خطّ القطار ، وحين وصلوا إلى حدود القناة التي تفصل الطريق عن حدود الغابة ، توقّفوا . تركوا مخابئهم . أشار أحدهم نحو بيت السيد « فوستر » وتقدم الرجال . أغلق السيد « فوستر » النافذة . أغلقت جميع النوافذ . اتخذ الرجال مواقع لهم خلف البيوت والأسوار على جانبي الطريق . لم يتطلع أحد من النوافذ .

النهار في تغيُّر لونيٍ مستمر . تراكمت الغيوم ، ومع تسرب النور في كل طبقة منها كان النهار يتغير . وقف الرجال منتظرين خلف الأسوار كأنهم واثقون من فريستهم . كانت البيوت كلها مغلقة ، وقد تساءل السيد « فوستر » إن كانوا قد رأوا المراقب . لا بد أن يعاملوا المراقب كعدوّ . لم يكن يعلم أن الرجال قد بلغوا

إلى حدود سوره . أصبحوا كلهم متأكدين الآن أن القتال قد وصل القرية . لقد وصل المتمردون .

وضع السيد « فوستر » رأسه على القاطع وأصغى . يستطيع أن يسمع الرجال يتحدّثون ، لكن من الصعب تمييز ما يقولون . من الواضح أنهم قد حدَّدوا أحد أهدافهم ، وأنَّ الضحيّة أمامهم . أراد أن يلقي نظرة أخرى في الجهة الأخرى . لكنه خاف أن يفتح النافذة . لقد رأى الرجال ، لكنه لا يعرفهم . ليسوا من أهالي القرية . غيَّروا مواقعهم . بقي اثنان منهم خلف سور السيد « فوستر » في حين تقدم الآخرون عبر الطريق وتمركزوا خلف سور آخر . شقَّ أبو « بوب » النافذة فرآهم . عبر أحدهم الطَّريق وتمركز خلف بيته . أراد أن يفتح النافذة ويسألهم عما سيحدث ، لكنه لا يعرفهم ، فقرّر ألّا يفعل . يتحادث الرِّجال بحماسة ويشيرون إلى مختلف الاتِّجاهات . يبدو أنهم يناقشون الموضع الذي سيمرّ فيه الضحيّة . لا شرطة إطلاقاً . وظن أبو « بوب » أنهم يكمنون للمراقب . وكل من رآهم كان متأكداً أنهم يكمنون للمراقب . انقلب « بوب » في فراشه واستيقظ . وضع أبوه إصبعه على فمه دلالة على التزام السكوت . « بوب » دائخ . لم يفهم ما يجري حين رأى أباه راكعاً على الأرض ملصقا رأسه بالقاطع . ترك السرير وتقدم إلى حيث يركع أبوه على الأرض . أمه تبكي . شقَّا النافذة وطلبا من « بوب » أن يتطلع . رأى الرجال وعرف أحدهم ، لكنه ارتعش فجأة فلم يستطع النطق . سأله أبوه ما المشكلة فبدأ يبكي . حاولا تذكيره بما كان يهذي به أثناء نومه. سألته أمه إن كان الرجل الذي تعرّف إليه قد قال شيئا عن المراقب، أو المالك، فهز « بوب »رأسه نافياً. لكنهما لم يعرفا إن كان يعي ما يفعل. ركع ملتصقا بأبيه ، وأجهش باكيا . أعادته أمه إلى السرير ورطبت جبينه بماء الورد . غيّر الرجال مواقعهم من جديد . كانوا كلما تقدموا يتركون رجلاً أو رجلين في المواقع القديمة ، ويتخذ الباقون مواقع جديدة في مكان جديد . إنهم يغطّون الآن ثلاثة أو أربعة بيوت . يبدو أن الضحية سيمر في هذا الطريق . إنهم متأكدون . سأل السيد « فوستر » العجوز إن كانت قد رأت المراقب ، لكنها لا تتذكر . أسفوا أسفاً شديداً من أجل المراقب ، وتساءل السيد « فوستر » عما عليه أن يفعل إن هاجم الرجال المراقب . لم يكن متأكداً . إنه لا يكنّ حبا كبيراً للمراقب ، لكنه لا

يعرف هؤلاء الرجال ، ولا يتقبل فكرة اعتداء رجل من قرية أخرى على المراقب . فالمراقب ينتمي الى القرية ، وحتى لو ان القتال ناشب من أجل مصلحة القرية ، فإنه يكره فكرة أن يعتدي غريب على من ينتمي إلى القرية . تفكر برهة . فجأة سمع صوت ركض في الطريق ، شق النافذة فرأى عدداً أكبر من الرجال . لا يعرفهم . التحق الرجال بمن يختبئون خلف البيوت ، وتبادلوا الحديث السريع . أشاروا إلى مختلف الاتجاهات وهم يتكلمون ، وتأكدوا أن أحمالهم معهم . تكلم الرجال واستطاع أن يسمع كلمة هنا وكلمة هناك . ظهرت جماعة جديدة في الطريق . لقد حلّت القرية محلّ المدينة ، على ما يظهر . الجميع يعرفون أن الرجال في الخارج . النوافذ مغلقة بإحكام ، لكن الناس ترتجف في بيوتها بسبب معرفتها بما يجري في الخارج .

أحضر الرجال الجدد المزيد من الأسلحة . وزّعوا القناني المكسورة فصار الجميع على أتمّ تسليح ، وكانوا يتكلمون وهم يزحفون من سور إلى سور على امتداد الطريق . ليس بينهم من ينتمي إلى القرية ، فشعر أبو « بوب » بالخجل . إنه يفكر بالمشكلة نفسها التي تقلق السيد « فوستر » . فإن كان القتال ناشباً في القرية ، فالأحرى أن يكون من صنع القرويِّين أنفسهم . أراد التَّشاور مع السيد «فوستر » . فكّر أن يقترح على السيد « فوستر » جمع بعض الرجال والطلب من الغرباء أن يوضحوا نيَّاتهم . توقَّع حصول تعارك بين القرويين والدخلاء ، لكنه لم يبالِ . شعر بمنتهى الذّل بسبب تصرفات هؤلاء الغرباء . يتصرفون كأنهم في قريتهم أو مهما يكن مكان إقامتهم . حاول الخروج ، لكن أم « بوب » اعترضته . تجادلا بهدوء . طلبت منه ألّا يذهب . فلو شك الرجال أنه يؤ يد المراقب فإنهم سيرجمونه حتى الموت . لقد استرقت النظر إلى رجل أو رجلين منهم فأرعبها شكلهما . إنهم في غاية اليأس . وليس عندهم ما يفقدونه بسبب ما يعملون . الاعتقال والإعدام شنقا . هذا لا يهمهم إطلاقاً . لقد استسلموا لمتطلبات الوضع . كانت أم « بوب » تناقش ودموعها تنهمر . « بوب » اعترض أيضا . أخبر أباه أنه تعرف إلى أحد الرجال وأنه لا يرغب أن يتعارك مع هذا الرجل . صار يبكي ، فقرر أبوه ألا يذهب . شقَّ النافذة ، وتطلع نحو بيت السيد « فوستر » . الرجال هادئون الآن . لن يطول الوقت حتى تظهر الضحية . أحسنوا توقيت مجيئه .

ذهب « بوب » وامه إلى السرير وتساءلا عمّا سيحلّ بالمراقب . هما لا يعرفان أين هو أو ماذا يفعل خارج بيته ، لكنهما متأكدان أن الرجال يبحثون عنه . من الواضح أنهم قد قطعوا الطرق . فلا يمكن أن يمر المراقب في أي طريق من غير أن يقع في أحد كمائنهم . فهم يكمنون في كل طريق خلف البيوت والأسوار . يتسارع كلامهم الآن ، ويزداد حماسة ولهفة . بإمكان السيد « فوستر » سماع من يختبئون خلف بيته . صوّبوا العصي والحجارة وانتظروا . قال أحدهم شيئاً عن الموت ، فمصمص آخر أسنانه . إنه لا يبالي . يقولون إن العديدين ماتوا في المدينة . أصاب الهلع السيد « فوستر » . شيء ما سوف يحدث . هو لا يعرف ماذا ، لكنه واثق من ذلك . هذا الإحساس يسبب المرض . الإحساس الهائل بأن شيئا سوف يحدث ، وهو يجهل ما هو أو كيف سيؤثر عليه .لم يعد يطيق صبراً . أراد أن يصرخ في الرجال ، لكن السيدة « فوستر » منعته . كمن الرجال يملأهم جوع وعطش للدماء . ذكر الرجل الأول الموت مرة ثانية ، ولزم الثاني الصمت . عزّزت الصفوف. يكمن حوالي خمسة وعشرون رجلاً في هذا الطريق خلف البيوت . يظهر أنهم يعرفون تمام المعرفة الخطوة التالية التي سيقومون بها . فانتظروا بتوتّر ويأس وعزم وتصميم . يطلّون برؤ وسهم ، أحيانا ، من خلف البيوت ، ناظرين نحو الشارع الرئيسي الذي يفصل بين القرية وبين « بلفيل » . تطلعت كل العيون في ذلك الاتجاه . إنهم في كامل الاستعداد . أوشك الأمر أن يقضى . بدأوا يتراجعون من سور إلى سور . الأيدي مصوَّبة . التمعت القناني المكسورة ، وفي عيونهم نظرات ثابتة ملؤها العزم على القتل . سوف يحدث الآن ، وإلا فلن يحدث أبداً . أبداً . أبداً .

* * *

برز المالك من خلف الزاوية وسار في الطريق بين البيوت على الجانبين . لا يمكن وصف الرعب الذي يكسو وجهه . ثيابه ملطّخة متّسخة وخطواته متعثرة كخطى السكير . انتظر الرجال . فكرة موته فظيعة . تقدم في الطريق. يظهر أنه يدرك ما قد يحدث ، لكنه لم ينظر وراءه . شق السيد « فوستر » النافذة ليرى ما يجري فرأى المالك . هذا غير معقول . لم يسبق له أن رأى ، بل حتى تصوّر ، أن المالك يمكن أن يظهر في هذا المظهر . لم يسبق لأحد أن رآه يمشي في القرية . اندفع السيد « فوستر » خارجا من بابه نحو العتبات . لم يعد يطيق الاحتمال . مهما يكن سبب القتال ، لم يعد يطيق الاحتمال . منظر المالك لا يحتمل . انحنى

أحد الرجال قدما وسحب السيد « فوستر » من بنطاله إلى خلف البيت . « ليس الآن » ، قال الرجل ، « ليس الآن » . لم يقو السيّد « فوستر » على النطق . سمع الكلمات وما وعاها . رآه المالك يختفي وراء البيت ، لكنه لم يتوقف عن سيره . لقد استسلم للوضع. إنه يتوقع الأسوأ. كان العجز الذي يرتسم على تقاطيعه غير إنساني. لم يطق أبو«بوب» الاحتمال أيضا فخرج من الباب. بطحه الرجال. قال أحدهم ، « ليس الآن » ، « ليس الآن » . حاولوا شرح الوضع له . قالوا : « أنت شديد اللهفة والتوتر . أساء إليك ، صحيح ، لكن يجب أن تنتبه جيداً حتى تصيبه هذه المرَّة » . أغمي على أبو « بوب » ، على ما يبدو . وضعوا العصا في يده حين اقترب المالك . الرجال ينتظرون حتى يبلغ الزاوية التالية . أرادوا مهاجمته من الخلف . يبدو أن حتى هم أنفسهم لا يتحملون أن ينظروا في وجهه وهم يفعلون هذه الفعلة . انتظروه حتى يمر . كان يسير مهتزا كرجل مرهق سكِّير . بدا كأنه لا يبالي بما سيجري . وجهه أبيضٍ كصدفة . وصل الزاوية حيث تتقاطع أربع طرق واستدار الرجال للتَّصويب . يبدو أنهم مصممون على القتل . انتظروا لأنهم لا يريدون أن يضيعوا هذه الفرصة . خرج الرجال . كلهم خلفه الآن . الأيادي ثابتة . بقي السيد « فوستر » وأبو « بوب » راكعين يلهثان . توقف المالك . لقد وصل التقاطع حيث تلتقي أربع طرق . وقف هادئاً كأنما يواجه موته أو خلاصه . تحيّر الرجال . لم يدركوا سبب توقفه . خرجوا إلى الشوارع ، فرآهم . العدو هناك ، فتقدموا بهدوء وثقة .

نظر المالك إلى يمينه ، ثم تابع سيره . لحقه الرجال . كان بينهم وبينه عدَّة ياردات ، وعليه أن يقطع مسافة قصيرة قبل أن يبلغ الطريق الذي يمرّ عبر الغابة ويؤدّي إلى البيت على التلَّة . سار الرجال خلفه مرفوعي السواعد بالأسلحة ، وسار المالك قدماً . إنهم على استعداد **لإطلاق** الحجارة . تجادلوا فيما بينهم حول **إطلاقها** . بعضهم يرى وجوب الهجوم بدون الحجارة . الأيدي وحدها تكفي . كانوا يتجادلون ويتقدمون بهدوء وحذر كصبيان يصطادون السراطين . سار المالك قدماً ، ولمّا اقترب الرجال منه ، ظهر السيد « سلايم » من وراء المنعطف . انتظر قرب التقاطع حيث تلتقي أربع طرق ثم اتجه نحو الرجال . لقد رأى المالك ورآه المالك . لم يعد الرجال واثقين مما سيفعلون . لا يعرفون فيما إن كان لدى السيد

« سلايم » رغبة في إصدار الأمر بإطلاق السلاح . لم ينظر المالك خلفه . خمّن أن لا بد أن يكون السيد « سلايم » قد وصل المنعطف فرآه الرجال . تقدَّم ، وتقدَّم الرجال ببطء وهم يراقبون السيد « سلايم » والمالك . ثم تركزت العيون كلها على السيد « سلايم » . طاش رأسه من هول المشهد وفوضاه . لم يعرف ماذا ينبغي عليه أن يعمل . يبدو الرجال كالوحوش ، دونما داعٍ لذلك . تساءل هل يغامر بإصدار أمر بعدم **الإطلاق** . راقبوا وجهه بحثا عن إشارة دالَّة ، في حين ترنَّح المالك عبر الغابة ، مرهقاً غبياً . وصل إلى الطريق المؤدِّي عبر الغابة إلى البيت فوق التلة . سار بطيئاً فوق العشب ، وتقدَّم الرجال ، وازداد السيد « سلايم » منهم قرباً . لقد بلغ المالك الطريق وبدأ يسير فيه مختفياً عن الأنظار . لم **يطلق** أي حجر . تطلع السيد « سلايم » ليعرف المسافة التي قطعها المالك ، لكنه كان قد اختفى عن الأنظار . لقد نجا . تنهد السيد « سلايم » حين وصل قرب الرجال الذين بدا عليهم الغضب وخيبة الأمل ، وقبل كل ذلك الطاعة للأوامر . قال : « أشكركم . أنا مسرور لأنكم لم تفعلوها » . رمى بعضهم الحجارة وأبقوا رؤوسهم منخفضة . تكلم السيد « سلايم » بهدوء . انشقت النوافذ مفتوحة ، وتطلع الناس منها مشدوهين ملهوفين . تجمّع الرِّجال حوله فطلب منهم التفرق . قال إنه يكره أن يتكرر مثل هذا اليوم إطلاقاً . بدوا في غاية الندم وخيبة الأمل وهم يصغون إلى محاضرته . ذكّرهم بما قاله في خطابه في الليلة الفائتة فأومأوا برؤوسهم موافقين . لم يكن القتل في نيتهم ، لكن الشرطة صارت عدوانية . لم يكن أمامهم من بديل غير الانتقام ، وبعد أن قتل الصبي « ملك البو » بالرصاص تملكهم الغضب . بدا السيد « سلايم » مرهقاً . استمع إليهم وأمل أن تكون هذه هي النهاية .

عاد السَّلام إلى المدينة ، وأنذرهم أن الشرطة قد تتحرك نحو القرية سريعاً . تفرَّق الرجال في اتجاهات مختلفة . رمى بعضهم ما يحملون من الحجارة في القنوات ، والقناني المكسورة في الغابة . خبّأ آخرون أسلحتهم في جيوبهم . تفرَّق الرجال ، وراقبهم السيد « فوستر » وأبو « بوب » وهم يغادرون القرية . لقد انتهى بعد الظهر ، وبدأ حلول الظلام . صارت الشوارع خالية من جديد سار أبو « بوب » نحو بيت السيد « فوستر » ، وجلسا ساكنين يحاولان أن يجدا ما

يقولانه . نادته أم « بوب » ، وأغلقت البيوت من جديد . المرأة العجوز نائمة في بيت السيد « فوستر » . سيسود الظلام سريعاً . وصل إلى البيوت صوت محرك سيارة . فتحت النوافذ وتطلعوا عبرها . لقد ظهرت الشرطة . هزَّت السيدة « فوستر » رأسها ولم تدر إن كانت سعيدة أم آسفة لأن الرجال قد رحلوا بسرعة . سارت السيارة بطيئة عبر الطريق . جلس رجال الشرطة ، كل ثلاثة في مقعد ، وقد صوبوا بنادقهم فلمعت حرابها باهتة ميتة في الليّل . اتجهوا نحو الشارع الذي يفصل بين القرية وبين «بلفيل ». ثار الغبار وراءهم واختلط بالشفق المكتنز. أغلقت البيوت بإحكام من جديد ، واستقرَّ الليل ، كثيفاً ثقيلاً ، فوق الرعب والسكون على الأرض .

١٠

لم تغيِّر السنوات شيئاً . لم تتكرر الانتفاضات . بقي المالك . أبي نائم وشخيره على حاله . النور ينبعث خفيضا فوق الطاولة . زوايا الغرفة مظلمة . جلست المرأة العجوز على الكرسي قرب السرير وبدا أن لا شيء قد تبدَّل باستثناء الوعي بألّا شيء قد تبدَّل . هزّت عنق القارورة في يدها وفركت حول أضلاعها وجنبيها . تضاءل الوجع لكنه لم يتلاشَ ، فاستلقت في كرسيها تنتظر زواله . لن توقظ أبي ، وحين يزول الوجع ستندس في فراشها وتطفىء النور . شخر أبي شخرة عالية ، ثم هدأت الغرفة باستثناء الصوت . إنه صوت أبي لكن الكلمات ليست كلماته . نهضت مستوية في الكرسي وأصغت . الصوت صوت أبي ، أما الكلمات فلا . ضغطت بيدها خاصرتها ومشت إلى حيث المقعد قرب السرير . توقف الصوت ، ثم بدأ من جديد . الرجل العجوز يهذي في نومه . ما أغرب طريقة كلامه ! قال شيئاً عن النور ثم عن الفضة ، فتحركت المرأة العجوز لتهز كتفه . حينها صارت الكلمات مفهومة . كان يقول شيئاً يرتبط بآخرين . قررت ألا تقاطعه . من الأفضل أن يتخلص مما يشغل باله . أبقت يدها تشدّ خاصرتها وأصغت . ما أشبهه بواعظ القرية . كلامه فصيح بليغ ، لكنها غير قادرة على متابعة معانيه ، تماماً كحال الناس الذين لا يقدرون فهم مرامي الواعظ دائماً . توقف الرجل العجوز ثم انطلق مجدّداً . الكلمات منطوقة بسرعة أبطأ الآن ، ومع ذلك لا تفهم معانيها . أبقت يدها ضاغطة خاصرتها وأصغت .

« . . . كان الوقت حين كنت أعرف من الشمس مجرى الفصول ومن القمر

بشائر المحصول المتوقّع . ورقة شجرة أو لطخة دم عند شاطىء البحر ، تلك كانت طريقتنا في ترك علامة للرفاق . النجارة في الصباح والحواديت في الليل ، تلك كانت طريقتنا في تخطي العالَم ، دون أي قلق حول العجائب الدائرة في أعالي السماء . النجمة في الظلام والحجر في وَضَح الشمس لا دلالة لهما إلاّ على عالم خارج نطاق عالمنا ، وكان الاثنان واحداً . حرارة النار في النهار واللون الذي يليها سارقاً ضوء العين لا يعني شعبي إلاّ قليلاً قليلا . كان الأولاد جزءاً من البِركة . اليد في الماء ، والشَّعر بين أوراق الشجر حيث ينمو الدَّغل كثيفاً هما الشيء نفسه نفسه . وفي مرّات كثيرة حين يأتي اللون الأسود ليسرق ضوء العين كنّا نحمل القلب في الرَّاحة وننتظر ونتساءل عن موعد إبحار الشمس مرسلة الأشعة النهارية إلى العين مجدَّداً . يبقى سؤال نجيب عنه بالصمت : لماذا وُجدت أفريقية والبراري حولها والظلام فوق البحر الكبير ووراءه ؟ وأحيانا يضطجع الإنسان ويموت ومعه سؤال أجيب عنه بالصَّمت . في البعد وفي القرب ، جيران لهم آلهتهم يحتفظون بها كما يربّي أخي الأرانب ، والجواب هو إطاعة سؤال لم يطرح أبداً . هم ، أحيانا ، سعداء ، وأحياناً ، تعساء ، لكن هبات الآلهة دائما حسنة . حين تترك الروح البدن وتلتزم الجثة القبر في الدَّغل ، تبحر الروح بعيداً إلى الأعلى أو الأسفل ، حسبما تقرر الآلهة . والذين يبقون يسبِّحون ويهلِّلون . في أرض القبائل ، هذه عادات جيراننا . هذه حياة لم نستطع أن نحياها ، لا أنا ولا أخي ولا أخي من قبلنا ، وحين تلتزم الجثة القبر في الدَّغل ، نحن نقول هذه نهاية حياة الإنسان في الأسفل وموته . السلوك خاصّ ومتزمِّت بدون قوانين . الرجل هو سيد نفسه والمرأة مولاتها ، والموت انتحاراً مقبول كلياً . في أرض القبائل أعداد تحتفظ بالآلهة الغفيرة كما يربّي أخي الأرانب . نحن وحدنا فقط كانت عادتنا أن نكون وحيدين نذرع العالم من النهر حتى الجبل ونعود وحيدين . قبيلة غريبة هي قبيلتي وقبيلة أبيك يا ابن أخي .

وغريب هو الزمن الذي بدَّلني وبدَّل جاري ، القبائل ذات الآلهة ، والقبيلة الوحيدة التي لا آلهة لها . تبودلت النقود الفضة عبر البحر وانتشر شعبي كالغيوم في السماء حين تأتي المياه . كانت تجارة شبيهة من بيع وشراء تتم بين القبائل ، لكن هذه أكبر صفقة للقبائل . كل يبيع مَنْ له . سار رجل في السوق وراقب شارٍ سنّه

وآخر أصبع قدمه وأجزاءه الحميمة الخاصَّة بتكوين مخلوق في الليل الحميم . تبحر الفضة من يد إلى يد وتشحن البضاعة كأنها صندوق من الفاكهة الجيدة . الشحنة هي أفضل إنتاج أفريقية ، وأنا وجاري عقدنا الصفقة نفسها نفسها . أعقد سلامي مع الرحلة الثالثة لأستقر في ذلك الطرف من البحر الذي يدعوه الرجل الأبيض عالماً هو غرب عالم آخر . القبائل ذات الآلهة والقبيلة الوحيدة التي لا آلهة لها ، كلنا تبعنا طريق نقود الرجل الأبيض . كان لنا ثمن لا قيمة له ، وكنَّا نحن قيمة تتجاوز كل ثمن . للبائع والشاري ، لا فرق بين هذين الاثنين ، الثمن والقيمة ، القيمة والثمن ، لأن الفضة هي الحل لكل الأحزان الجاهزة . وهذا هو الوضع اليوم في الجزر على يمين وعلى يسار جزيرتك الصغيرة هذه ، وفي القرية أيضا ، وهي غير مهمة كثيراً . الفضة هي أكثر مما تتبادله الأيدي . إنها طريق لما تسمّونه النجاح . إن مرضت الجزر فلا سبب لذلك غير الفضَّة القديمة . شعاركم الآن هو الثمن أو السلطة وهما شيء واحد واحد . ولا فرق بين الخاطىء والقديس في هذا الموضوع . إني أرى صفقة شراء القبائل فوق السفن الفضية المبحرة ، بعضها إلى « جامايكا » و« أنْتِجوا » و« غرينادا » ، وبعضها إلى « باربادوس » وجزيرة النفط وقمم الجبال . والحال في ذلك الزمان كما هو الحال الآن ، بعضهم يحاول أن يعيش وبعضهم يحاول أن يموت ، وبعضهم هـدَّه الإرهاق عن التفكير بأيٍّ من الحياة أو الموت . تنفرط الأسر وتنكسر وكم من أخ لم ير أخته أبداً من بعد ، والآباء أبناءهم . والآن قامت تشكيلات جديدة ، ومن خَلَفَهم خلق مجموعة مختلفة . ولهذا لو سمعت معتوهاً شاباً يهتاج حول العودة إلى أفريقية ، فابتعد عن هذا المريض ولا تقتحم طريقا إلى حيث لا تنتمي بعد . هذه الكلمات ليست لك ، بل هي لمن سيخلفك .

من بعض نفسك ، لا من لحمك وعظمك ، في نومك قبل الأخير والأطول ، أتيتك لأقول ما أقول . . . غداً لن تتذكر زيارة أسلاف أبيك ، لأن ما تسمِّيه حلماً في الصباح التَّالي له مغزى مغاير لما جعله صمتك آمناً في الليلة السابقة . الآن ، لا الأسود أو الأبيض وحده ، بل كلّ الألوان التي تشكِّل علامات امتياز الجلد في هذه الجزر الغريبة . ليكن قماش الخيش هو راياتهم المرفرفة مهما تكن حدود الحرية التي يتكلمون . كان للبداية أطيب النوايا . تبع

بحّار اسمه كريستوفر غلطته ، وأضاف إليها من تبعه غلطاتهم . الآن هو ميت ، وكما يقول بعضهم عن الأموات ، هو آمن مطمئن في تراث القبر . وهذا قول طفولي ، لأن الأموات ما يزالون حاضرين مع الأحياء . فاليقين الوحيد الذي ورثته هذه الجزر هو غلطة ذلك البحّار وقد استمرّت وامتدت متناقلة من الآباء إلى الأبناء ، الأغنياء والفقراء : آل « سلايم » وآل « كريتون » ، الملاّك والسياسيِّين ، من يمثِّل دور الحاكم ومن يمثل دور المحكومين ، ومن لا دور له لا كحاكم ولا كمحكوم : الجماهير وهي دائما طيِّبة صالحة لكنها لن تعي أبداً وجه الشيطان ولا ما يوازيه من تبسم البحر الأزرق العميق . أجهل مصير هذه الجزر وقَدَرها ، لكن يجب أن يحيا الإنسان إلٰهاً أو كلباً ، أو يكون حجراً لا حياً ولا ميتاً ، بركة لا تحركها وتجعدها الريح مطلقا . لأن هناك دوماً عالَمَيْن مقابل الرجل الواحد ، إن كنت رجلاً ، ظلمتين مقابل النور الواحد ، النور الواحد ، النور الواحد . . . » .

انسحب الصوت باهتا ، وتقدمت المرأة العجوز من السرير ، فاشتد وجعها . هزَّت كتف الرجل العجوز ، لكن نومه ما يزال عميقاً . هزَّته بقوَّة ، وكان الوجع يشتد كلما رفعت يدها عن موضعه . ثم انقلب الرجل العجوز على جانبه فانعكس الضوء على وجهه باهتاً . هزَّته المرأة العجوز ثانية فعاود الكلام .

قال : « ظلمتين مقابل النور الواحد ، النور الواحد ، النور الواحد » .

صاحت المرأة العجوز : « يا أبي ، يا أبي » ، وقد تضاعف وجعها مع صراخها .

فُتحت عيناه نصف فتحة وانسحبت الكلمات تتكرر من جديد : « النور الواحد ، النور الواحد » . ذهل لمّا رأى المرأة العجوز خارج سريرها ، لكنه لم يستعد نفسه كليا بعد من الحلم . تطلع إليها دون أن يدرك ما يراه . كانت صامتة فزعة ، وكان الوجع حادّاً

قال : « فقط نور واحد ، يا أمي ، نور واحد » .

قالت المرأة العجوز : « هو نور الرب تبارك اسمه والمخلّص يسوع المسيح ، هو النور المبذول من أجل خطاياك وخطاياي » .

قال الرجل العجوز : « فقط نور واحد ، نور واحد » .

هزّت كتفه المرأة العجوز ثانية ، لم تعد قادرة على تحمل الوجع .

قال الرجل العجوز : « الموت والحياة ، هما الشيء الواحد نفسه » .

قالت المرأة العجوز : « فقط بالنسبة لمن وضع حياته بين يدي الرب » .
اقتربت أكثر حتى تهزه ثانية .

قالت : « بين يدي الرب » ، ولم تنطق بأي كلمة أخرى .

سُمع أنين ثم صدمة الجمجمة بالقاطع . لقد وقعت فوق الرجل العجوز والسَّرير ، فتوقفت جميع الآلام . رأى الرجل العجوز القارورة على الأرض وحملق ناقلا نظره من القنديل على الطاولة إلى الجثة على السرير ، لكنه لم يستطع أن يفهم .

١١

بدا لي سطح الرمل في اليوم السابق ، تماماً كما كان ذلك اليوم : مستوياً ومنحدراً وغير مضطرب . راقبته كأنّه صورة لذلك اليوم الآخر الذي أحمله لأتفحص تفاصيله . لكن الفرق هو أن ذلك اليوم قد انقضى وقد ضاعت الصَّدَفة . في حوالي الوقت نفسه من اليوم السابق انبثقت الشمس من خلل الغيوم وسقط الضوء على البحر وأوراق الشجر . كان البحر ثابتاً سمجاً كما يكون عند الفجر عادة ، وكان الشاطىء مهجوراً . في هذا الوقت وضعت الصَّدفة تحت ورقة الدَّوالي ، وجمعت الأوراق حولها في كومة لا توحي بأي غرابة وتركتها تنتظر عودتي في الصباح التالي . لم يكن على الشاطىء أي شخص ليراني ، وحتى لو رآني أحدهم فإنه لن يشك ، على الأرجح ، بنيَّاتي . لم أكن أنا نفسي أعرف ما هي نيَّاتي ، لكن هذا الشعور ، وهو شعور أصبح قديماً ، قد تنامى في داخلي كالمرض . لا أطيق احتمال فكرة أنني أرى الأشياء للمرة الأخيرة . ذلك أشبه بتصوّر نهاية حياتي . ها ذلك يحدث الآن مرة ثانية . الصَّدفة غير موجودة . فتشت من جديد على أمل أن أكون مخطئا . نزعت الأوراق من مكانها وحفرت الرمل بأصابعي ، لكن لا أثر للصدفة . وقد بدا كل شيء على حاله تماما كما تركته في اليوم السابق ، إلى أن لمست مستوى المنحدر . كانت الأوراق تتكدس هناك في كوم صغير ، وقد غيَّر الريح مكانها ، ولم يكن هناك أي دليل على أن أحدهم قد أخذ الصَّدفة . سرت بعيداً عن هذه البقعة دائراً حول الأشجار رافعاً أغصان الكرمة بقدميّ . زحفت السراطين الصغيرة إلى المخابىء ، وحين رفعت الريح الكرمة رأيت أصدافاً متناثرة تحت الأغصان ، لكن الصدفة التي وضعتها تحت

ورقة الدالية لم تكن هناك . فأنا أعرفها جيدا : شكلاً وحجماً وملمساً وتكويناً . لقد حملتها طويلاً وأمعنت النظر فيها قبل أن أخبئها . وفي البقعة التي وضعتها فيها تعرَّفتها معرفة أصح وأدق في فراشها الرملي . تساءلت برهة عما إن كانت الأمواج قد ارتفعت في الليل وجرفتها ، لكنني لم أجد سببا لحصول ذلك . فالبقعة التي تخيَّرت بعيدة عن حافة الشاطىء . كان البحر هادئاً صباح خبأت الصدفة، تماماً كهدوئه هذا الصباح . هذا عدا عن أن البحر في هذه الناحية لا يرتفع أبداً مثل هذه المسافة من الشاطىء . لم يكن إحساسي بالماوراء الطبيعة فائقاً ، غير أن شعوراً غريباً بأن شيئاً ما قد تدخّل بدأ يتملكني . وفي جميع الأحوال ، لا أعتقد أن أي شخص كان ليكترث بإدراك السبب الذي جعلني أخبىء الصدفة . فقد بدا لي ذلك سخيفا تافهاً حين فكَّرت بإخبار أحدهم به ، ولأنه مستحيل الإيصال إلى الآخر تملكني شعور عارم بتدخل الآخر . فإما أن تكون الصدفة قد نقلت نفسها بنفسها أو أن يكون شيء ما قد رفعها من تحت الأوراق . من الواضح أن لا دور للبحر . ولا أستطيع شيئاً غير أن أحمل الشعور بتدخل الآخر وأستسلم للضياع . فتشت مجدَّداً ، سوَّيت الرمل وأعدت ترتيب الأوراق . وأخيراً قلت لنفسي إن من العبث مواصلة البحث . بالأمس ، رأيت الصدفة للمرة الأخيرة . الشمس تنسحب خلف عنقود الغيوم فدخلت الماء مثقلاً متجعداً مثل شرشف وسخ . راقبت تغير الضوء وانفصال المياه وأنا أتقدّم سابحاً . إنه الفجر .

أنا لا أحب الأصداف حباً خاصاً ، لكنني رأيت هذه الصدفة فوق قمة كوم من الأصداف ، تلتمع ملساء في ضوء الشمس . مررت بهذا الكوم في طريقي صاعداً هابطاً على الشاطىء . وكنت ألاحظ هذه الصدفة، كلما مررت ، وأفكر في أخذها . بدا لي أن من السخف ان يعتريني مثل هذا القلق والاضطراب بسبب صدفة ، فحاولت التفكير بشيء آخر . ثم واصلت تماريني صاعداً هابطاً الشاطىء ، ويبدو كأن الصدفة أصبحت أكثر إلحاحاً . كما لو انها انفصلت عن الأخريات وطلبت أن تؤخذ بعيداً . ركضت في اتجاه آخر ويبدو كأن الكوم قد نقل مكانه . عدت إلى ذلك الموقع من الشاطىء حيث يقوم الكوم الحقيقي وقررت أن أقضي على الصدفة بأخذها بعيداً . قضيت معظم وقتي أرمي الصدفة في الهواء وألتقطها . رميتها على الصخور ولعبت بها على الشاطىء . ثم حملتها معي إلى

البحر وبدأت لعبة جديدة. غرستها في الطحالب فوق الرمل وغطست بعد ذلك وانتشلتها . رميتها على بعد ياردة وسبحت تحت سطح الماء لملاقاتها قبل أن تستقر في الرمل . واستمر كل هذا فتحوَّلت إلى شيء آخر غير الصَّدفة . كنت كلما استعدتها أمسكها طويلاً وأتحسَّس شكلها وأتأمَّل تكوينها إلى أن لم تعد صدفة بعد . لقد تحوّلت إلى أحد تلك الأشياء التي لا يطيق الإنسان احتمال أن يراها لآخر مرَّة . قلت إنني سآخذها معي إلى البيت وأعود بها في الصباح التالي ، ثم خطرت لي فكرة أن أخبِّئها .

لست واثقاً لماذا قررت أن أخبئها . في البداية بدا لي أن قيمتها ستكبر عندي لو أنا افترقت عنها مدّة يوم . وحين أعود لاسترجاعها من مخبأها المختار ستتضاعف متعتي . ثم فكَّرت في خطر ضياعها ، إذ لاح لي أن هناك أشياء معينة لا يمكن للإنسان أن يضيِّعها . تمكن المخاطرة بالأشياء التي تنامت فيك لأن لهذه الأشياء طريقة غريبة في العودة . وفوق كل ذلك تملكني شعور غامض بأن لا داعي أبداً أن يرى الإنسان الأشياء لآخر مرَّة . تخيَّرت البقعة ووضعت الصدفة على الورقة فوق المنحدر المستوي . مر يوم . لم يتغير الطقس ، والأمواج هادئة هدوءها المعتاد في هذه الناحية من البحر . فهي ترتفع رفيقة ، وتستنفد نفسها وتعود في شكل آخر إلى البحر . لكن الصدفة غير موجودة . اشتد الشعور حدَّة . والحقيقة أنه بدأ في المساء السابق حين استلمت الرسائل ، وها هي الصدفة الآن تجعله مؤبَّداً . قرأت الرسائل في المساء ولاح لي أن هناك أشياء عديدة ، حميمة وغالية ، سأراها لآخر مرَّة . كان حرجي بالغاً حين دخلت أمي فرأتني أعيد قراءة الرسائل . رميتها جانباً وغادرت البيت . ففي عمري لا أقدر أن أخاطر بالظهور غبيا ، وبدا لي أن أفضل دفاع هو لا مبالاة قسريّة . غير أن الرسائل نفسها كادت لا تحتوي على أي مدعاة لتوتري . بل السبب هو الشعور الذي اعتراني حين اكتشفت ما سوف يحدث .

حاولت أن أتذكر متى بدأ هذا الشعور ، دون جدوى . استطعت أن أفكر فيه فقط كمرض انتشر في الجسم ، تدريجاً ودون أي ارتياب فيه ، لكنه أكيد مزمن . لا يمكنك احتمال فكرة أن ترى الأشياء للمرة الأخيرة ؛ والأشياء تتضمن كل ما قد أصبح جزءاً من محبتك أو غضبك ، بل حتى من مشاعرك الغامضة التي

لا تستطيع تمييزها وتحديدها . الأشياء تضم الناس ، والجماد ، والمواقف . وسواء أكنت سعيداً أم آسفاً للخلاص منها ، فإنك لا تطيق احتمال فكرة أنك تراها لآخر مرَّة . تذكرت ذكرى غامضة لشيء ألفت حدوثه حين كنت صبياً صغيراً أركب الباص وأسترجع الأشياء والناس التي نمر بها . الدكان وعمود الإنارة والرجل الواقف في المنعطف خلواً من التعبير والانفعال ومجهولاً ، كان يبدو لي كأن الباص ثابت مكانه وهم ينزلقون بعيداً ، وكنت أتساءل عما إن كنت سأراهم مرّة ثانية ، ومن العسير أن أفهم سبب شعوري بما شعرت به حين ظننت أنني لن أراهم . ولكنني كنت أراهم في اليوم التالي ، واليوم التالي ، وكان هذا المشهد التمثيلي يكرر نفسه كل مرة . وكانت الأشياء تستجد كل يوم ، ويستجد الشعور ، ولولا أني كنت أقسر تفكيري على التوجه وجهة أخرى ، لتملكتني فكرة أنني قد رأيتها لآخر مرَّة . عانيت هذا الشعور معاناة عظيمة حين تركت مدرسة القرية ؛ مع أنه في تلك الظروف لم يكن من سبب للأسف . لقد كانت المدرسة أشبه بالمعسكر ذي النظام الصارم الذي لا يطاق . كان المدير وجميع المعلمين يحملون عصيَّهم كأنَّهم في خطر من هجوم الصبيان عليهم ، وكانوا يستعملونها في كل المناسبات ولكل أنواع الأسباب . ومع كل ذلك شعرت حينها بهذا الشعور . كنت أرى مدرسة القرية للمرة الأخيرة . صافحني المعلمون وتمنَّوا لي أفضل حظّ . وتركتهم وفي داخلي شعور لا يطاق يقول إنهم قد رحلوا إلى الأبد . تذكرت عواميد الإنارة والدكاكين والرجل الواقف عند المنعطف ، وعرفت أن هذا الشعور ليس جديداً . هذا موقف تذكّرته ، رغم أنه وجب علي أن أذكِّر نفسي أن هذا الشعور كان موجوداً قبل التحاقي بالمدرسة الثانوية بمدة طويلة .

وفيما بعد ، حين جاءني « الورقة الرابحة » ليقول إنه راحل إلى أمريكا . لم أطق النظر في وجهه . لقد حلم دائماً بالذهاب إلى أمريكا ، وها هو حلمه يتحقق . كان سعيداً وفرحت لأجله . رحل في صباح بليل قبل ثلاث سنوات من تخرجي من المدرسة الثانوية ؛ ورغم الفارق المهم بين قدرينا الذي كان قد أجبرنا على الانفصال عن بعضنا ، ذهبت لوداعه . وقفنا على الميناء معا وراقبنا السفينة التي كانت ترسو بعيداً عنا . كان هناك المئات من المسافرين إلى أمريكا وقد رأيتهم أقل واقعية حقيقية من « الورقة الرابحة » ، لكن المرض المنبثق عن ذلك الشعور في

داخلي كان هو نفسه . لاح لي أنني لن أرى أيا من هذه الوجوه مرَّة ثانية . عدت فيما بعد إلى الميناء وراقبت السفينة الضخمة تبحر عبر الليل وتختفي عن الأنظار في البحر . لقد رحلوا . بدأت أفكر في « الورقة الرابحة » و« بوب » و« الصبي الأزرق » ، معتمداً « الورقة الرابحة » وسيلتي لتتبع مبتدأ منشأ هذا الشعور . لقد بقي « الصبي الأزرق» و« بوب » في القرية ، لكنهما انجرفا في عالم آخر . فلم يلتحق أي منهما بالمدرسة الثانوية ، وهي الأداة التي فرقتنا وباعدت بيننا . بدأت أفكر في المدرسة الثانوية وما قد حلَّ بنا جميعاً في هذه السنوات ؛ وفجأة ، كأنما بقسريَّة داخلية ، عاد تفكيري إلى البقعة تحت ورقة الدوالي وإلى الصدفة التي رأيتها لآخر مرَّة . غطست تحت الماء ثم خرجت منه مبتلاً منتعشاً متجدِّد النشاط .

حدث هذا بعد الانتفاضات بسنة أو سنتين وكنت في الحادية عشرة من عمري . لعلَّ الصبيان في هذا العمر لا يتصرفون جميعاً مثلي ، فما أن أعلنت نتائج الامتحانات العامّة وعلمت أنني سألتحق بالمدرسة الثانوية حتى غمرني الفرح . بدا لي هذا كأنَّه الأمل الوحيد الذي كنت أطمح إليه ، وحين تحقَّق لم أحفل بما يأتي بعده . صحيح أن أمي كانت تعدّني لذلك . فهي قد دفعت رسوم الدروس الخصوصية اللازمة للإعداد للامتحانات العامة مدة ثلاث أو أربع سنوات . وها أنا قد وصلت أخيراً ، فما أروع الدنيا ! أخبرت « بوب » و« الورقة الرابحة » و« الصبي الأزرق » فشاركوني حماستي نفسها . كأنهم سيتاجرون متباهين بوجود صديق لهم في المدرسة الثانوية . لكن أمي نظرت إلى القضية من زاوية مختلفة . قالت إن ذلك ليس أكثر مما توقَّعت ولولا أنه وقع لاعتبرت كل جهودها ونقودها مضيعة للوقت . قلَّت حماستي إلى أن وصلت الكتب والزي المدرسي . هذه أولى علاقاتي بالمدرسة الثانوية . كانت الكتب عديدة ، وبينها كتب في لغات لم أفهمها ، وكتب تبحث في المواضيع التي كان مدير مدرسة القرية يسميها نوعاً من الرياضيات العليا . كانت الكتب من الكثرة والضخامة بحيث تعذَّر وضعها كلها في الكيس . حين أخذتني أمي إلى المدرسة الثانوية يوم افتتاح الفصل المدرسي كنا مثل لاجئين مثقلين بأعباء الممتلكات الشخصيَّة . كنت قد ربطت رباط العنق الأسود والذهبي حول عنقي بحيث يظهر اللونان منه بالتَّساوي . ثم تأبَّطت بعض الكتب ، وحملت الكيس المحتوي على بقيتها في يدي ، ونظرت إلى نفسي في

المرآة . أعجبني ما رأيت .

لكن أمي لم توفِّرني نقداً . ظلت تطنّ بكلام عن النقود التي صرفتها ثمنا للكتب والزي المدرسي ، وتلحّ أنني إن لم أتفوق في المدرسة الثانوية فإنها ستعتبر كل شيء ، المنحة التي حصلت عليها وكل شيء ، مضيعة للوقت . ثم تلا ذلك كلام كثير عن الفرص التي سنحت لآخرين فأضاعوها ، وعن الفرصة التي أمامي لأصنع من نفسي رجلاً . كانت أحيانا تبدو كأنها متيقنة من فشلي في المدرسة الثانوية ، فكان يتلو ذلك مونولوج لا يطاق تصف فيه كيف ستتدفق نقودها وعمرها في البالوعة .

دخلت المدرسة الثانوية نشطا يقظا . كانت البيئة المحيطة مثيرة جداً . ففي الغرب يقع البستان ذو السور الأخضر المرتفع وفي المقابل الملعب حيث كان المسؤول عن ترتيبه يعدّه للعبة قادمة في الكريكت . المدرسة أكبر كثيراً من مدرسة القرية ، ورغم أن عدد المعلمين ليس أكبر فقد كان فيهم ما يجعلهم أكثر تميزاً وجاذبية . كان المدير يلبس قبَّة قسيس فوق عباءة طويلة سوداء . وكان له وجه كبير أحمر ورقبة غليظة وعيون في غاية الضِّيق . وحين يخرج إلى باحة المدرسة برفقة المعلمين الآخرين كانت زعامته واضحة . فهو لا ينظر نظرة مباشرة إلى أي شخص . وحين يتحادثون يرتفع رأسه عالياً نحو قمم الأشجار ، وحين يتكلم ينتابك الشعور بأنه يعرف مسبقاً ما سيقوله الشخص الآخر ولكنه يمنحه فرصة قوله طيبةً ولطفاً . كان أسلوبه مرحاً ، في أحيان كثيرة ، ولكنه لم يكن أبداً حميماً . وقد كان لطيفا رؤوفاً جداً معي ، بطرق كثيرة .

لم يمض وقت طويل حتَّى أصبحت طالباً قديماً مرتاحاً في المدرسة الثانوية . اكتسبت الصلابة التي لمعظم الطلاب الآخرين ، ولعبت الدور الذي يلعبه الطلاب القدامى . فأنت تعرف المدرسة . وأنت تعرف ما يحبه أساتذة معيَّنون ، وما لا يطيق غيرهم احتماله ، وأنت تتصرف حسب الانطباع الذي ترغب أن تثيره فيهم . فأحد الأساتذة لا يطيق أن يسمع الصبيان يتحدثون عن البنات لأن مثل هذا الحديث من شأنه أن يدمرهم ، عاجلاً أو آجلاً . الطلاب القدامى يعرفون هذا ، وهم يتقصدون الحديث عن البنات في حضوره . ويحب أستاذ آخر الشوكولاطة فيتعمد الطلاب القدامى طرح الأسئلة عليه دائما عن الحلوى . وكان

الطلاب أحيانا يطرحون أسئلة تبدو لهم في غاية الطبيعية ولكنها توتّر الأساتذة . أستاذ ، ماذا أفطرت هذا الصباح ؟ أستاذ ، أي نوع من الطلاب كنت ؟ أستاذ ، هل تجيد الرقص ؟ أستاذ ، ماذا تعمل لو أنك كنت السبب في حَبَل إحدى الفتيات ولم تتزوجها لأنك لا تريد أن تتزوجها ؟ أستاذ ، هل صحيح أن الاستمناء يضر بالصحة ؟ أستاذ ، هل الله موجود ؟

هذا العالم يختلف عن عالم مدرسة القرية . فلا قسيس مشرف ، ورغم أن الدعوة توجَّه دائماً للحاكم والمطران لحضور الاحتفال السنوي بتوزيع الجوائز ، فلا وجود لأي مفتشين يصدرون الأوامر كما هي الحال في مدرسة القرية . وتبدو المدرسة الثانوية للمستجدِّين فيها القادمين من المدرسة الأخرى كسفينة بحَّارتها سكارى . فالممنوعات أقل مما هي في مدرسة القرية ، والطلاب أكثر سعادة . ولا علاقة أو اتصال بين المدرستين ، بكل تأكيد . فالتربية ليست عملية مستمرة . بل هي نوع من سباق القفز فوق المرتفعات ، على المتبارين فيه أن يقفزوا فوق عقبات مختلفة . بعضهم يتجه يساراً ، وبعضهم الآخر يميناً ، وحين ينفصلون لا يلتقون لقاء حقيقياً ثانية أبداً . فمن غير المعقول أن يعلم أستاذ المدرسة الثانوية أي صف من صفوف مدرسة القرية ؛ ومعلمو مدرسة القرية لا ينتمون ، سواء داخل المدرسة أو خارجها ، إلى العالم الذي يحيا فيه الأساتذة الآخرون . مدرسة القرية والمدرسة الثانوية ليستا بناءين مختلفين يعلم فيهما اساتذة مختلفون ؛ بل إنهما مؤسستان متمايزتان كل التمايز .

تهدف المدرسة الثانوية إلى تربية أولاد الطبقات المهنيَّة وذوي الوظائف المكتبية ، بينما تلبي مدرسة القرية حاجات القرويين ، الفقراء والبسطاء والذين لا يحملون إحساساً مرهفاً بالتميز الاجتماعي . وحين ينهي الصبيان مدرسة القرية ، فالعادة المتبعة هي أن يلتحقوا بصنعة من الصنائع . ومعظم النجارين والإسكافيين في القرية هم من هؤلاء الصبيان . يتركون المدرسة في السن الرابعة عشرة ، ثم يصرفون سنة قيد التدريب . وبعد سنتين يصبحون رجالاً لهم أجورهم الأسبوعية ونساؤهم الخاصَّة . أما الصبي المتفوق في مدرسة القرية فإنه يبقى فيها ليصبح ما يسمّونه معلماً ـ طالباً . وبعد أن يجتاز بعض الامتحانات الأولية يعهد إليه بصف من الصفوف . وهذه هي الطريقة التي اتبعت في اختيار معظم معلمي مدرسة

القرية ، وعليه فلا عجب أن يكون التعليم قد بقي على حاله في مدرسة القرية هذه ، مادَّة وأسلوباً ، على مدى ستة أو سبعة أجيال . أما المدرسة الثانوية فلا يتركها طلابها قبل بلوغهم السن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة . بعدها يلتحقون بسلك الخدمة المدنية أو بإحدى الجامعات الإنجليزية حيث يدرسون إحدى المهنتين : الطب أو الحقوق . أما من يرسبون في امتحانات كمبريدج الثانوية العامة فلا يتمكنون من الالتحاق بسلك الخدمة المدنية أو بالجامعة فلا تسمع بهم إلا بعد تركهم المدرسة بأربع أو خمس سنوات . والغالب أنهم يذهبون عند إحدى عماتهم أو خالاتهم في نيويورك . ويعود الأطباء والمحامون إلى الجزيرة يمارسون مهنتهم فيها ، أما موظفو الخدمة المدنية فيبدو أنهم يقضون كل عمرهم تحت ظل الأشجار الدائمة الخضرة خارج البنايات الحكومية العامة . وحين تدق الساعة الرابعة ينتشرون على الأرصفة يراقبون الباصات والنساء والبحر الذي لا يقول شيئاً أبداً . لباسهم أنيق ، ومظهرهم مرتَّب ، ويتركون فيك انطباعاً حسنا ، على العموم . وحين تراهم تعتقد أن المدرسة الثانوية لم تفشل في أداء مهامها ، رغم كل شيء .

أما من يلتحق من صبيان مدرسة القرية بالمدرسة الثانوية ، فقد أجاز له ذلك نجاحه في الامتحانات العامة . ولم يكن عدد هؤلاء كبيراً ، كما أن الانضمام إلى عالمين مختلفين لم يكن سهلاً عليهم . فهم يعرفون القرية معرفة حميمة . وعاداتها وطريقة حياتها متباينة عن العالم الذي تمثِّله المدرسة الثانوية . أضف إلى ذلك أنهم لم يكونوا على علم بماهية العالم الآخر قبل التحاقهم بالمدرسة الثانوية . ربما سمعوا به أو رأوه في الباصات وحفلات الرقص وفي غير ذلك من المرافق العامّة للخدمة المدنيَّة ، ولكنه يبقى غريباً عنهم . بدأت القرية تتقهقر تدريجا من وعيي ، رغم أن نسيانها كان مستحيلا . فأنا أرجع من المدرسة الثانوية إلى القرية كلَّ مساء . كان الرجال يجلسون حول عمود الإنارة يتسامرون أو يلعبون النَّرد ، وكنت أنضم إليهم كلما سنحت لي الفرصة . وقد أصبح انضمامي إليهم الآن ، وقد التحقت بالمدرسة الثانوية ، أكثر يسراً ، ولكن المشاركة في حياتهم أصبحت أكثر صعوبة . وهم يرضون بوجودي بينهم حين أحدثهم بأخبار المدرسة الثانوية ، ولكنهم لا يخبرونني بشيء ، لأن ولائي قد تحوَّل ، في ظنهم ، إلى العالم الآخر .

وحين أتفرَّد مؤكِّدا رأيي كانوا يوضحون لي أنني لا أنتمي إليهم ، تماماً كما أصر « بوب » و« الصبي الأزرق » و« الورقة الرابحة » فيما بعد على أنني لم أعد واحداً منهم . راغبين أو كارهين ، استثنوني من عالمهم ، تماما كما كانت ذكرياتهم وذكريات القرية في نفسي تستثنيني من عالم المدرسة الثانوية .

كان الأمر ليهون عليَّ لو انني ذهبت لأعيش في منطقة أرقى ، لكن هذا فوق طاقة أمي المالية . كانت ستفعل ذلك دون أي تردد ، ولكنها اكتشفت أنه مستحيل ، فكان عزاؤها يكمن في الفكرة القائلة إن مكان إقامتك غير مهم . العقل هو الرجل ، هي تقول ، وإن كان عندك عقل فستكون ما تشاء أنت أن تكونه لا ما يريده لك العالم . كنت أسمع هذه اللاَّزمة كل يوم ، وقد حاولت ، أحيانا ، أن أعيدها على مسمع الآخرين . العقل هو الرجل . لكنني بقيت أعيش في القرية في محيط عالمين مختلفين ، كما يبدو . فكأن جذوري قد اقتلعت من نقطة المركز التي أعرفها أفضل المعرفة ، بينما بقيت عاجزاً عن انتزاع ما ساقني قدري إليه . ومن الصعب تحديد من يتحمل مسؤولية ذلك . لم أعد ألعب الكريكت في تقاطع الطرق مراراً كما كانت عادتي ، لأن لعب الكريكت في المدرسة الثانوية أفضل كثيراً ، وقد كان أمامي فرصة لاختياري في فريق المدرسة ، فكان من الضروري أن أتدرَّب هناك بكامل العدَّة اللازمة . لكن لِـ « بوب » و« الورقة الرابحة » رأياً آخر هو أني أخجل أن يراني طلاب المدرسة الثانوية في تقاطع الطرق . والحق أن الرأيين على صواب . كنَّا نلتقي ونتحادث يومياً ، لكن المواقف تتباين وتختلف . كان ذلك يذكِّرني ، بشكل ما ، بمدير مدرسة القرية والمفتش . ففي داخل كل منهما ، في زاوية ما ، يختبىء الشخص الآخر الذي يتساءل عن مدى إمكان الوثوق بالمظهر السطحي . لقد خبرت نهاية حالة معيَّنة ، وعرفت الشعور الذي جعلته الرسائل التي استلمتها في الليلة السابقة والصَّدفة مؤبَّداً . كنت أقابلهم كل يوم ، ومع ذلك كنت قد قابلتهم للمرة الأخيرة . وسرعان ما أرى كل شيء لآخر مرة .

بعد فترة سمعنا عن حرب في أوروبة . كان الرِّجال الذين يجتمعون في دكَّان الإسكافي قد تنبَّأوا بها ، وقد قال الإسكافي الذي لم يتخلَّ أبداً عن صديقه « بريستلي » إنَّ هذا الكاتب قد تنبَّأ بها أيضا . قالوا إنَّها نهاية الإمبراطورية

البريطانية ، وهي دليل آخر على أن الله يكره القبح . هذه هي طريقة تعبيرهم . قالوا إن العالم صار قبيحاً ، وكذلك القرية . والواقع أن القرية قد تغيرت تغيُّراً كبيراً من بعض النواحي . لكنَّنا اعتدنا ، في المدرسة الثانوية ، أن نقرأ عن حروب في أوروبة ، وقد امتد أحدها مائة سنة . ويبدو أن الحرب قد لاقت هوى في نفس أوروبة ، لأنهم كانوا يحاولون أن ينتقوا لها أسماء تزيينيَّة . وأذكر أن أحدها كان اسمه حرب الورود . لذلك كان من الطَّبيعي جداً أن تخوض أوروبة حرباً . الصحف والإذاعة تتناقل أخبار ما يحدث في أوروبة ، ويسيطر القلق على الناس . لكن طلاب المدرسة الثانوية لم يتأثروا بشكل خاص . وإن كنّا قد أسفنا على الحرب ، فما سبب ذلك إلّا لأننا رأينا فيها تأريخاً جديداً يضاف إلى الأكداس التي لا تطاق والتي يسمّونها التاريخ . تلقينا النبأ بحب الاستطلاع أو السَّأم نفسه الذي أبديناه ونحن نقرأ السَّرد التاريخي في كتاب « مايكل جون » للغزو النورماندي لإنجلترة . لكن أصدقاء الإسكافي كانوا أكثر إثارة واهتماما وقلقا لأنهم كانوا يفهمون القضية فهماً أفضل . فالتاريخ ذو دلالات خاصة مختلفة بالنسبة لهم . ففي المدرسة الثانوية تنشب المعارك في الموعد المعين وفي المكان المحدّد داخل دفَّتي الكتاب المقرَّر ، ومن واجبنا ملاحظة ومتابعة كافَّة تفاصيلها . لكن أصدقاء الإسكافي لا يتذكرون تواريخ كثيرة ، فهم ، لذلك ، يتكلمون في إطار عهود طويلة . قال الإسكافي إنه كان في قديم الزمان شيء اسمه الإمبراطورية الرومانية ، ولا يهم إطلاقاً متى كان ذلك الشيء بالتحديد . لكن هذا الشيء كان واقعاً حقيقياً بالنسبة لهم . وهذه الأشياء لم تحدث فحسب ، وإنما هي حدثت لأسباب معينة . وهم يعرفون الأسباب .

ذات صباح عقد اجتماع لطلَّاب المدرسة الثانوية في القاعة ، وأعلن المدير عن سقوط فرنسة بصوت بطيء رصين . وقال إن هذا أكبر تهديد للحضارة عرفته الإنسانية في تاريخها . ساد الهدوء ، وظهر كأن هذه الحرب تختلف بشكل ما عما قرأناه . وبعد الانصراف أخذ الطلاب يتبادلون التخمينات حول سقوط فرنسة . حكوا عن نهر الراين ونهر الرون ورسم بعضهم خرائط صغيرة للطرق التي لا بد أن يكون الألمان قد سلكوها . عدت إلى البيت في المساء وأخبرت أمي والجيران بسقوط فرنسة . كنت متجهم الأسارير وتكلمت بصوت يشبه صوت المدير .

أسفوا شديد الأسف . كانوا يجهلون كل شيء عن فرنسة سوى أنها في صف انجلترة ، وباربادوس هي إنجلترة الصَّغيرة . ثلاثمائة سنة من الصداقة ، هكذا فكّروا . كانوا يدركون معنى ذلك ، فأصبح سقوط فرنسة سقوطاً لهم أيضا .

ذات يوم ، بعيد الغداء ، سار شاب اسمه « بارو » في باحة المدرسة ودخل مكتب المدير . كان يدخِّن سيجارة وهو يتحدث إلى المدير ، وقد استرق النظر طالب أو طالبان عند مرورهما قرب مكتب المدير فركضا يبلغان الآخرين . قال بعضهم إنه يعرف « بارو » منذ كان طالبا في هذه المدرسة ، ولذلك فمن المستغرب أن يدخن في حضرة المدير . تملكنا حب الاستطلاع . عقد اجتماع للمدرسة بعد الظهر وتحدث المدير عن « بارو » . سيسافر في غضون أسبوعين للالتحاق بالسلاح الجوي الملكي . هناك أكثر من « بارو » واحد ، قال المدير ، والمدرسة تعتز كل الاعتزاز بمن تملأهم الشجاعة لاتباع الشعار المطبوع على اللوحة في القاعة : « لا رجل يملك حباً أكبر من حب الرجل الذي يفدي بحياته أصدقاءه » . بدأ بعض طلاب المرحلة العليا يشعرون بأن من واجبهم أن يصبحوا « بارو » .

من الآن فصاعداً صارت الحرب أكثر واقعية . بدأت دورة في التدريب العسكري في المدرسة الثانوية . كان جندي من الجيش المحلي يحضر إلى المدرسة كل مساء ليدرب الطلاب على استخدام بنادق السِّتِن والبِرِن . كانوا ينبطحون ويزحفون ساعات في الملعب وهم يحملون البنادقَ تحت سواعدهم . وقد تدرَّب بعضهم على تكتيكات المصارعة التي يمكن استخدامها فيما لو هاجمهم الأعداء وهم بدون أسلحتهم . بدا كل ذلك مثيراً ، وان تكن هذه التَّدريبات قد أرهقت معظمهم غاية الإرهاق . فالبنادق تجرح سواعدهم ، والزحف يقرِّح ركبهم وأكواعهم . ثم كانت هناك الاستعراضات التي استمرت ساعات طويلة فأغمي على بعض المتدرِّبين . كان التدريْب في غاية الصَّرامة . أمَّا من لم يلتحقوا بالتَّدريب العسكري فقد جرى إرشادهم حول ما يقومون به فيما لو أصابت القنابل المدرسة . حين تنطلق الصفَّارة يغادر الطلاب صفوفهم ، واحداً وراء الآخر ، صامتين متوتّرين ، كأنهم يتلقون الأوامر من عضو وهمي من أعضاء الدفاع المدني . كان علينا أن نتجه إلى حرش صغير مجاور للمدرسة ونقف بحذاء سور المدرسة . وزوِّدنا بالإرشادات اللازمة لكيفية الانحناء أو الانبطاح إذا ما توجَّب

خفض الجسم . وكان هذا مرعباً جداً لأنه أصبح جزءاً من المنهاج الدراسي ، فلم نعد نفكر أن هذه التدريبات مجرد نكتة فحسب . أضف إلى ذلك الإشاعة التي انطلقت من دكان الإسكافي ، ومؤدَّاها أن بعض الألمان موجودون في الجزيرة . وقد قيل إنَّ اللورد « هاوهاو » ، وهو مذيع يشرف على برنامج منتظم من إذاعة ألمانية ، قد ذكر اسم مصنع السكر في باربادوس حيث تخزن الجزيرة فائض غذائها . الألمان يعرفون خريطة الجزيرة ؛ إذن فهذه الحرب ليست هي التاريخ . إنها حقيقية ، وكنا نقوم ، كل صباح ، بتدريبات الدِّفاع المدني موَدِّعين غرفة الصف . فنحن كنا نتوقع أن نسمع سقوط القنبلة .

كان بعض الطلاب أشد صلابة وتماسكا فحاولوا التهكم والمزاح مع الآخرين . قالوا إن الجزيرة صغيرة جداً ، ولذلك فالألمان لن يربحوا أي شيء بإسقاطهم قنبلة على باربادوس . قال أحدهم إن القنبلة ، رغم أنها أصغر قليلا من باربادوس ، فإن تكلفتها تفوق كل مصانع السكر والمخازن مجتمعة . قد تقضي قنبلة واحدة على الحياة في باربادوس ، كان يقول ، لكن تكلفة هذه القنبلة تفوق كثيراً قيمة الجزيرة ، مما يجعل النفقات باهظة غير معقولة . ولا طاقة للألمان بالتورط في مثل هذا الهدر في هذه المرحلة من الحرب . وقال طالب آخر إنه لا يبالي إطلاقاً ، ولكنه يسمع جدته تكرر دائماً أنك إن واصلت صراخك : الذئب ، الذئب ، فلا بدّ أن يزورك الذئب يوماً ، وقال إنه يعتقد أن هذا التدريب العسكري وتدريبات الدفاع المدني هي شكل جديد من الصراخ : الذئب ، الذئب . وإن كان على حق ، فقد واصلت المدرسة صراخها : الذئب الذئب ، وقد أتى الذئب فعلا .

فبعيد الساعة الرابعة من بعد ظهر أحد الأيام ، تم تفجير سفينة تجارية كبيرة في المرفأ . اهتزت المدينة كمهد الطفل وتفرق الناس في كل النواحي . جاءت الحرب إلى باربادوس . احتشد الكثيرون منّا في المرفأ على أمل أن نرى الغواصة . كانت القذائف تصدر أصواتاً عالية فتراكض المشاهدون في رعب هستيري وحشي . ركضوا بعيداً مسافة عدَّة ياردات ثم ركضوا عائدين مسرعين على أمل أن يروا الغوّاصة . غطس متن السفينة بطيئا تحت سطح الماء ، فاختبر معظمنا ، للمرة الأولى ، منظر سفينة تغرق . كانت مليئة بالبضائع التي لم تفرغ

بعد ، فبدأ الرجال يتداولون فيما يمكن أن يحدث . غطست السفينة ببطء . ولأسباب مجهولة لم تكشف أبداً، كانت الطّرادات الثلاثة أو الأربعة الناشطة دوماً، معطلة في هذه المناسبة . كان طرَّاد منها يعوم على بعد ياردات قليلة من السفينة ، غير أن محركه قد انتزع منه لإصلاحه ، كما قيل . أما الباقي فكان في الحوض . أقسم الناس أن الألمان انتهازيون ؛ وقال أحدهم إنه لو كان يرتدي ثياب السباحة لفعل وفعل بهم . ولا يدري أحد إن كان سيؤدِّب الغواصة أم الطرادات المعطلة ، لكنه استمر يحلف : « وحياة يسوع المسيح ، لو كنت في ثياب السباحة » .

لكن من الطبيعي جداً في الحرب أن يفعل الألمان ما فعلوه . فإن كانت باربادوس تقول إنها إنجلترة الصغيرة فعليها أن تتحمل تبعات ما يحلّ بها لأنها ما هي عليه . بالإضافة إلى ذلك ، سرت إشاعة تقول إنه حين أعلن رئيس وزراء إنجلترة الحرب ، أرسل حاكم باربادوس ، بناء على رغبة الشعب ، البرقية التالية : « إلى الأمام بشجاعة يا إنجلترة الكبيرة ، وإنجلترة الصغيرة وراءك » . ولا وقت لدى الألمان للتمييز الدقيق . أخذ أحدهم يقول إنهم ليسوا الألمان أبداً . فهو يعلم من أحسن مصدر ثقة أن الألمان لا يقاتلون في هذه المياه . وكان على وشك أن يشرح مقصده حين اقترب منه الشرطي قائلا إن من الأفضل له أن يغلق فمه إن كان يريد أن ينام الليلة مع زوجته وأولاده . كان الناس ملهوفين لسماع التفاصيل لأنه وصل في روايته إلى حد القول إن أشخاصا معينين يحاولون التخلص من سفن معيَّنة وإزاحتها من العمل على هذا الخط لأهداف تجارية بحتة تخص المبادلات بين الجزر . لزم هذا الرجل الهدوء ، وعاود التطلع ، كالآخرين ، إلى السفينة الغارقة .

استمرت الحرب كإحدى العادات المثيرة ، في حين سارت القرية والمدرسة الثانوية كلٌّ في سبيلها المختلف ، كلّ كمرض بطيء . وفي المدرسة الثانوية تؤدَّى الأشياء المعتادة . استبدلت صفوف بعد الظهر بلعبة الكريكت وكرة القدم ، ولم تتوقف أبداً المباريات المدرسية . وانهمكنا في هذه الحياة بهدوء ، كما ينبش السرطان الأوساخ بمخالبه . ولكن القرية كانت تتغير من بعض النواحي ، ومع كل تغيير كان ينتابني ذلك الشعور الذي أبَّدته الصدفة .

أشياء كثيرة تزول ، فتتغير نشاطات الأولاد مع كل زوال . كنت ، أحيانا ، أشعر بأن القرية قد تنهض وتنسلخ عن نفسها . لقد تقهقرت أكثر في وعيي النّاشط ، لكنني أعلم الآن أن في مكان ما في قلبي ، مثقل بالحيرة والخوف والطموح والغيرة ، يقوم مخزون من الحب لبقايا تلك الحياة المنبوذة .

ذات صباح عبرت الغابة ووضعت دبّوساً فوق خط سكّة القطار . جلست قرب السكّة الحديد منتظراً صفير المحرك ، فكان ذلك يشبه العودة إلى أيام ما قبل التمرد . لم يكن في المكان أي صبي آخر ، ولولا أني كنت في غاية الشوق لرؤ ية الشّفرة لحاولت أن أكتشف أين ذهب الأولاد . غير أن وقتا طويلا قد مضى على وضعي دبوساً على سكة القطار ، وكنت أفضّل أن أفعل ذلك وحدي . انتظرت ساعة كاملة ، ثم بدأ المطر ينهمر ناعماً نظيفاً فعدت إلى البيت . لم يأت القطار ذلك اليوم ، ولم يأت بعد ذلك أبداً .

في سنتي النهائية في المدرسة الثانوية ، تمَّ تجنيد « بوب » و« الصبي الأزرق » في الشرطة المحلية . في القرية قد يعتبر ذلك أفضل من النجارة ، ولكنه زادهما بعداً عن الطبقة الاجتماعية التي تجهزني المدرسة الثانوية للانضمام إليها . أما « الورقة الرابحة » فقد سافر إلى أمريكة ولا يدري أحد ما سيكوَن . وقد جرت العادة أن معظم من يذهبون إلى امريكة في مثل هذه الظروف ، يعودون وقد تغيّروا . ولا يقتصر التغيير على اللهجة الجديدة التي اكتسبوها ، بل إن مفهومهم الشامل للكيفية التي يجب أن نعيش حياتنا بها يتغير أيضا . وكان من المثير تخمين ما سيحدث لِـ « الورقة الرابحة » . كان السيد « سلايم » يثير مسألة الهجرة إلى أمريكة باستمرار في المجلس التشريعي المحلي ، وقد عاد الوفد الذي أرسل إلى واشنطن بأخبار تقول إن حكومة الولايات المتحدة سوف تتعاقد مع عدد كبير من العمال لمدة ثلاث أو أربع سنوات . وقد رأى من هم على شاكلة « الورقة الرابحة » الذين لم يسبق لهم أن عملوا أبداً ، أن الأجور مغرية جداً . افترقنا كصديقين تغلّبا على كل الصعوبات الصغيرة التي خلقتها لنا القرية والمدرسة الثانوية . كنا كلنا نرتدي البنطلونات الطويلة الآن ، وقد بدا من السخف أن تقلقنا الأشياء التي فرّقت بيننا حين كنا نرتدي البنطلونات القصيرة . تواعدنا على السماح والنسيان .

جاءني « بوب» و « الصبي الأزرق » ليقولا إنهما سيلتحقان بسلك الشرطة ، وقد حذَّراني ، مازحين ، بضرورة أن لا أرتكب أي مخالفات وأن ألتزم بالقوانين . فهما حارسا القانون المدنيان . وأنا بقيت في المدرسة الثانوية .

أمريكة . المدرسة الثانوية . سلك الشرطة . ثلاثة عوالم مختلفة قادتنا إليها أقدارنا ، وقد حان دوري الآن حتى أترك عالمي . عاد الشعور حاداً قوياً كما عانيته حين تذكرت تخرجي من مدرسة القرية ورحيل « الورقة الرابحة » من بعد . ويكاد لا يوجد أي سبب يدعوني إلى الندم على مغادرة المدرسة الثانوية . لقد صرفت هنا ست سنوات بين لامبـالاة صبيانية وتعاسة محتملة ، بالتداول . كانت نتائجي في السنة الأولى متردية ، وقبيل أن أقرر ترك المدرسة ، رفع إلى المدير طلب بطردي فرفضه . دعاني إلى مكتبه وسمعت منه آخر محاضرة في سلسلة سبق له أن أسمعني إياها . جلس خلف طاولته الكبيرة المصنوعة من خشب البلُّوط وقد علا رأسه متجها إلى الأعلى وكانت أصابعه السمينة تنقر على ساقيه . وأخبرني بما قاله بعض الأساتذة . بدا ذلك مؤامرة أكثر منه اتهاماً . ثم قال ما لم يسبق لي أن سمعته أبداً في المدرسة الثانوية . قال إنهم يحاولون أن يخلقوا منَّا رجالاً راقيين ، لكن الظاهر أنني لا أنتمي إليهم . تذكرت ، رأساً، « بوب » و« الصبي الأزرق » اللذين قالا الكلام نفسه ، وإن يكن بلغة مختلفة . أثار المدير فيَّ الشعور بأنني جعلته يفشل فشلا ذريعاً . فكأنه قد صبَّ عنايته على بائس لا يستحقها . قال إنه لا يقدر أن يفعل شيئاً آخر من أجلي ، ثم حوَّلني إلى المساعد الأول الذي ربما فهمني فهما أفضل . مرت بي أوقات ، تذكَّرت ، رغبت فيها أن أكره الأساتذة . لم أكن أعرف إن كان حظي أفضل من حظ « الصبي الأزرق » والآخرين ، لكن شعوري كان غير ذلك . حاولت أن أفكر بما كان سيحدث لو أنني أصبحت نجاراً أو إسكافياً أو معلماً ـ طالباً . كان ذلك هو الشعور الذي يتملكني وأنا أغادر المدرسة الثانوية . هل كان الأمر يختلف لو لم ألتحق بها ؟ لقد نفد اهتمامي بالألعاب وبالناس الذين تعرفت إليهم ، وأخذت مشاعري تنتقل ، تدريجاً ، عائدة إلى القرية . صحيح أنني قد تعلمت بعضاً من لغتين جديدتين أحببتهما ، لكن قيمتهما لم تتضح لي إلا بعد أن قابلت المساعد الأول .

هذه العلاقة الشخصية الخاصة مع المساعد الأول هي الشيء الملموس

الوحيد الذي يملأني امتنانا للمدرسة الثانوية . فلو لم ألتحق بالمدرسة الثانوية لما كان لنا أن نلتقي أبداً . لا أتذكر كيف تقابلنا ، ولعل لذلك علاقة بدرس الشعر الذي عهد إليه الإشراف عليه . رجع ثلاث أو أربع مرات وتحادثنا . المساعد الأول شاعر وممثل ، وهو ممثل قدير يكاد لا يعلى عليه ، ولعله يكون شاعراً أحسن لو لم يكن ممثلا . كان رجلاً معتدل القوام ، ممتلئاً ، دائم النشاط واليقظة والحيوية . كان يمشي كلاعب كرة قدم سابق لم يتخل عن الخطوة الرياضية . كان رأسه كبيراً ذا جبهة عريضة تضيع في خضم شعره البني الناعم . كان شعره دائما يطير مشعثاً عصياً وحشياً . وجلده قد سمّرته الشمس بشدة ، وله عينان بنيتان صغيرتان تنظران إلى الأنف الذي يبرز من جوارهما كمفاجأة سارَّة . ناهز الخمسين ، وإن كان يبدو في أوائل الأربعين . أما وجهه القادر على ارتداء مختلف التعبيرات فقد كان ، أحياناً، يبعث فيك الشعور بالاضطراب . كان متعدد المواهب رهيف الإحساس ، مثقفا . وكانت له مكتبة كبيرة اختارها بعناية ، وقد رحَّب بي لاستخدامها . كان يقترح علي دائما ، قراءات معينة ، وكان يتحدث عن أساليب الرسم والتلوين ، وعن الشروط اللازمة لكتابته قصيدة . وحين يأتيه زوار لا يعرفونني وقد يحرجونني ، كان يناولني ألبوماً للصور أتسلى به حتى رحيلهم .

لم أدرك الدور الذي يلعبه في المدرسة الثانوية ، لأن عالم اهتماماته المباشرة يختلف اختلافا كبيراً عمّا تعرفه المدرسة . لا بد أنه كان قادراً على العيش في مستويات مختلفة ، وهذا هو سبب السمعة التي اشتهر بها من أنه سهل المعاشرة رقيق لطيف . كان أسطورة من نوع ما في المدرسة الثانوية . غير أن الأسطورة لا علاقة لها باهتماماته . بل إنها تختص بمواهبه في الاتصال الاجتماعي . فلم يره غاضبا غير نفر قليل ، وإن كان يقال إنه يغضب غضبا عنيفا . تحوّلت من تعاسة المدرسة الثانوية إلى يأس عالم المساعد الأول ، إذ سرعان ما أصبح عسيراً عليّ أن أحقق ما أريد . لقد انحلّت المدرسة الثانوية إلى رجل واحد يمثل ، بالنسبة لي ، ما كان يمكن للمدرسة أن تكونه . بعد سنتين من معرفتي الوثيقة به ، كانت أهم نتيجة لهذه العلاقة هي الشعور أنه في مكان ما في عمق أغواري أو أبعد كثيراً من حدود هذه الأرض ، يقوم عالم أجهل تضاريسه وقد لا أنمو نمواً كافيا حتى أفهمها . كان هو المدرسة الثانوية بدون العالم الذي تحضِّرني للالتحاق به . والآن بدأ ينتابني

الشعور أنني سأقابله لآخر مرَّة .

لقد وصلت الرسالتان في المساء السابق ، وكان الشعور حادّاً . كانت إحداهما من « الورقة الرابحة » الذي كتب بطريقة كنت أظنه غير قادر عليها ، والواقع هو أنني لم أفهمها جيداً . لقد رحل منذ ثلاث سنوات ، ولقد أثر المكان الجديد فيه . لم تكن اللغة تختلف عما كان يستعمله في كلامه في القرية ، لكن العواطف مختلفة جداً . لقد تعلم كلمة جديدة ، وتبدو هذه الكلمة ككلمة أخرى لم أسمعها من قبل إطلاقا . لقد تغير « الورقة الرابحة » . أما الرسالة الثانية فمن السلطات المدرسية في ترينداد. إنهم يؤكدون التعيين الذي قبلته . أنا ذاهب إلى الجزيرة المجاورة لأعلِّم الإنجليزية في مدرسة داخلية صغيرة للأمريكيين الجنوبيِّين من فنزويلا وجمهورية أو جمهوريتين غيرها . تقوم مفارقة ساخرة في اختيارهم لهذا المعلم . اعتقدت أن الأساتذة في المدرسة الثانوية سيصابون بالدّهشة والسخرية حين يعلمون . وشعرت ، برهة ، بنفس شعور ذلك الصبي الصغير الذي فاز في الامتحانات العامَّة فربح منحة إلى المدرسة الثانوية . وعدت نفسي أن أبدأ بداية جديدة . رجل جديد بين غيره من الرجال .

حينها عادت الصَّدفة حاضرةً في صورتها فوق الرمل المنحدر تحت ورقة الدوالي ، وفكّرت بهم جميعاً على التوالي . « الورقة الرابحة » ، « الصبي الأزرق » ، « بوب » . المدرسة الثانوية ، القرية ، المساعد الأول . لقد نهضوا جميعا مع الصَّدفة ، جاعلين شعور الفراق مرضاً مؤبَّدا . فكرة أن أرى الأشياء لآخر مرَّة . وأمي ؟ لاح لي أنها ، بطريقة ما ، أكبر كثيراً من هذه المناسبة . خرجت من الماء وسرت نحو الصخور حيث تتكوَّم ثيابي . نظرت ، للمرة الأخيرة ، إلى البقعة حيث وضعت الصَّدفة ، ثم صرفت أفكاري ، بسرعة ، نحو رسالة « الورقة الرابحة » . كان من العسير أن أقرر أيها أكثر مدعاة للحيرة والارتباك . كررت الجملة التي ختم بها رسالته : « أنت لا تفهم ، أنت لا تفهم معنى الحياة ، ولكنني سأخبرك حين أجيء ، وأنا قادم سريعاً » .

١٢

قال الرجل العجوز : « قلّما تجيء لزيارتي . أنا أقول لنفسي إن الدرس هو الذي يبعدك . مرات ومرات أنادي اسمك » .

قلت : « دائما أعد أن أجيء ؛ ويحصل شيء فلا أقدر » .

قال الرجل العجوز : « كيف تحصل الأشياء ، صحيح ، أنا أعرف . كان الحال نفسه معي . تكون نيتاك طيبة جداً لمَّا تعد الوعد ، وبعد هذا لسبب الله يعلمه لا تقدر على التنفيذ . كيف تحصل الأشياء ، أنا أعرف » .

وضع يده في خليط الشوفان في السطل ، وهو يفركه بأصابعه في أعماقه وعلى الحواف . تناثر الخليط على جوانب السَّطل وانزلق على يده . صار الشعر مستوياً ملتصقا بالجلد . حرك يده حول الجوانب فاستحال السائل لزجاً وكان الشوفان يشكل سطحاً من الكتل والبرش . أصدرت الماعز البيضاء صوتا ، فتطلع الرجل العجوز نحوها وقال إنه قادم . أخرج يده وقد أبقى أصابعه متماسكة معا حتى يكتشف إن كان ما يزال هناك أشياء صلبة في الخليط . رقصت يده رقصة دائرية في السطل اللزج البني اللون والبرش المستقر في سطحه مثل قطع من النشارة . النهار أكثر إشراقا . اقتربنا من الماعز وسحبت لنفسي كرسيا قرب كرسي الرجل العجوز . أصدرت الماعز صوتاً عالياً وهي تمصّ . وراقبناها تلتهم خليط الشوفان . رأينا الجلد الذي يكسو الرقبة صاعداً هابطاً كأن ثقبا في البلعوم سيخرج الخليط خارجاً وينثره على خاصرتيها المضلعتين . مسَّد الرجل العجوز

شعر عنق الماعز حتى عمودها الفقري . هزت ذيلها القصير الأشعث ومصّت بصوت أعلى . كان الذيل مثل نصف عقدة من القماش على شكل قوس وقد تنسَّلت جوانبها . ارتفع صوت المصّ أكثر وكان الذيل يهتز في حركة جانبية سريعة . الرجل العجوز مسرور .

قال : « أمي المسكينة ـ الله يريحها في قبرها ـ ما كانت تصدّق هذا التغيير في كل شيء . هي شعرت بأنه سيجيء ، لكن ليس مثلما نشوفه ونعرفه » .

كان يمسد شعر الماعز أثناء كلامه ، ويتطلع فوق السور المنخفض نحو البيوت في الجهة الأخرى . كان وجهه شديد التغضن ، وكانت يداه ترتجفان حين يمدهما في زاوية معينة . كانتا كبيرتين وطويلتين ينمو الشعر حولهما من كل النواحي . أما حاجباه فكثّان يمتدان من حافة جبهته إلى الأمام فكأنهما سيسقطان على صدره . أصدرت الماعز صوت مصمصة من جديد ثم بركت على معدتها . واصل تمسيد شعر رأسها وجانبي وجهها .

قال الرجل العجوز : « أول شيء ذهبت إلى المدرسة الثانوية ؛ وبعد هذا أبحر « الورقة الرابحة » في عرض البحر إلى أمريكا ، الله يباركه ؛ والاثنان الآخران ، « الصبي الأزرق » و« بوب » انضمّا إلى سلك الشرطة . كل هذا صار في لمح البصر ، أنت وإياهم ، وهناك كثير غيرهم راحوا هنا وهناك يفتشون عن أشياء جديدة غير ما هو مرسوم لهم ، كما نقول . هذا هو التغيير ، إن كان يوجد شيء اسمه تغيير » .

أخرج غليونه من جيب بنطاله ، ونشّف يده على مريوله الخيش . أشعل الغليون وراقب الدخان يرتفع كوماً فوق رأسه . الطقس صار أدفأ في الباحة .

قال : « وتطلَّعْ إلى وجه القرية كيف تغيّر ! تطلَّعْ عليه وإسأل نفسك إن كنت تصدق ما تشوفه عينك . كل شيء تغيَّر » .

كنا كلانا ننظر فوق السور وعبر البيوت إلى الناحية الأخرى . كانت الأرض خالية مشرقة في الصباح الباكر . رأينا الحمَّام العمومي ، وفي الناحية الأخرى ، على البعد ، البيت القرميدي الكبير فوق التلَّة . لا شيء يعترض هذا المنظر . لا

شجرة تبدو في حدود القرية . بل لا أشجار إطلاقاً ، وظهر كأنّ الرجل العجوز في حلقته الثابتة تلك التي تمتد عبر البيوت وتخترقها ، يسائل نفسه لماذا حصل هذا . لقد قطعت الأشجار . لم نكن نعرف لماذا أو أين أُخذت ، لكن التفسير المألوف كان : الحرب . كل شيء حدث بسبب الحرب . توقف القطار عن المجيء ، وخلعت سكّته . وأخيرا قطعت الأشجار . وكلما سألنا ماذا حدث يأتينا الجواب : الحرب . هذا البلد احتاج هذا ، وبلد آخر احتاج ذلك . كانت القرية تسهم في صنع الانتصار الذي سيكون انتصاراً لإنجلترة الكبيرة ولإنجلترة الصغيرة . ولم يكن أحد واثقاً إن كان ذلك مدعاة للسرور أو الاعتراض . لكن وجه القرية قد تغير ، كما قال العجوز ، وقد قام بتغييره بعض القرويين إمّا عن طريق القوّة أو عن طريق الاقتناع . حدث هذا بعد أسبوع أو أسبوعين من انتظاري قرب سكة القطار لأرى دبوسي يتحول إلى شفرة . جاءت الشاحنات وتجمّع القرويون حولها . بدأ الرجال يعملون بالفؤوس والمعاول ، وتكسّرت السكة فجمعوها قطعا قطعا . وكانت الشاحنات تنصرف كل يوم ، على مدى أسبوع ، ناقلة حمولتها من الحديد الخردة . قيل لنا إن دولاً معيَّنة تحتاج الحديد الخردة . لقد اشترى أحد رجال الأعمال هذه السكة وشحنها بحراً كحديد خردة . اعتدنا غياب القطار كاعتيادنا سعادتنا بوجوده . ثم قطعت الأشجار . كانت الأشجار ملكا للمالك ، ولم يعرف أحد لماذا باعها . سرت إشاعة أنه سيرحل عن القرية . ثم ماتت الإشاعة موتا طبيعيا هادئاً مثل الأشجار . بقي المالك . ما عدنا نراه كثيراً بعد الانتفاضة . تمت ترقية المراقب فأصبحت المراقبة العامة للطرق ضمن صلاحياته . أصبح هو المالك بشكل ما . وسرت إشاعة أنه قد ينتقل ليسكن في بيت المالك . ويكاد اسم المالك لا يذكر إلا مقترنا بالسيد « سلايم » . لا يقدر المالك أن يفعل أي شيء ليسترد القوّة من الآخر ..

تطورت جمعية الصداقة وبنك البنس بحيث تجاوزا حاجات القرية. أصبح الأعضاء المنتسبون إليهما من كل أنحاء الجزيرة . هما مستودع بنس الرجل الفقير . لقد نجح السيد « سلايم » . نحن نراه ، ونحيِّيه ، ونجعله الشغل الشاغل لأفكارنا . أما المالك فموجود كطلل من أطلال زمان آخر . رحلت ابنته إلى إنجلترة حيث ستعيش طول عمرها ، كما قيل . وبقي المالك والسيدة « كريتون »

في البيت في رأس التلة ، يعيشان حياة بسيطة ، فهما يدعوان أصدقاءهما في الأمسيات ، ويتنزهان في الريف أيام الآحاد . حسب القرويون أنهما يشعران بالوحدة . قال بعضهم إنه يرى السيدة « كريتون » في الأمسيات ، أحياناً . كانت تجلس على الشرفة وتتطلع في الاتجاه نفسه ساعات طويلة . ويتربع قربها كلبها الكبير ، وحين تدخل البيت يتبعها الكلب . فهو رفيقها في غياب المالك . قال بعضهم إن السيدة « كريتون » مريضة . كم هي مدهشة طريقة تعامل الناس البيض مع مرضهم . يجلسون في الشرفة ينظرون في الاتجاه نفسه ساعات طويلة . مهما كان ما يتحملانه من شقاء ، بقي المالك وزوجته . فكأن القرية وباء لا يستطيعان منه فكاكا . لا يقدران على مغادرتها ، شأنهما شأن الإسكافي أو السيد « فوستر » أو أبي نفسه . فهي تمتلكهما كما تمتلك القرويين . يقول الجميع إنها تسري في الدم . إنها تربة جذورهم . لم تتوقف الإشاعات أبداً . سرت إشاعات كثيرة تقول إنهما راحلان سريعا ، وحين قطعت الأشجار صدَّقها الجميع . تتطاير الإشاعات كثيفة كسرب الذباب . ثم يقول المراقب شيئاً فتطير الإشاعات بعيداً كالذباب . المالك والسيدة « كريتون » باقيان . لن يرحلا أبداً . تجتر الماعز طعامها ، وقد أحنت رأسها وأغلقت عينيها . لقد أنشأ الرجل العجوز حديقة صغيرة في الجانب الآخر من الباحة . فيها شتل البنادورة وبعض أحواض الزعتر . الأرض ، حيث نبتت ، رطبة سوداء . المنطقة مسوَّرة بسور قصير من الاسلاك الشائكة . نظيفة ، محروثة ، معتنى بها . إنها وجه الأرض وقد أمسكته وشكلته يد الإنسان . نقل الرجل العجوز نظرته إلى أحواض الزعتر .

قال الرجل العجوز : « مع هذا ، مهما حصل ، هناك أشياء تبقى كما هي ، ولا يغيرها أي شيء أبداً . إعمل ما تشاء ، ستبقى هي كما هي . مثل المطر والشمس ومثل طلوع النهار ، هذه الأشياء باقية ثابتة . أنا أنظر وأنتظر ، ومرَّات أتعجب من سبب هذا الشيء » . نقل بصره من الحديقة إلى الماعز ثم أعاده إلى الحديقة .

قال الرجل العجوز : « مهما يعمل السيد « سلايم » ، فإنه لا يقدر أن يعمل أي شيء يصيِّر المالك غير ما هو . مهما كانت المشاكل وقضايا المصالح والحقوق التي يمر بها المالك فإنه سيموت في هذا البيت في رأس التلة ، وسيحل

محلَّه غيره . وسيبقى السيد « سلايم » يعمل ما يعمله ، ونبقى نحن كلنا نعيش مثل ما نحن عايشين . التغيير يجيء ، والتغيير يروح ، لكن في الأساس ، سيبقى الشيء الحقيقي إلى الأبد . ناس تسافر في البحر وترجع ، وناس تبقى في محلها . ومثلما كانت تقول أمي العجوز ـ الله يريحها في قبرها ـ سيبقى الحال هكذا حتى يتغير الزمن إلى الأبدية » .

نظر إلي مبتسماً ، في انتظار سماع ما قد أقوله . هذه فرصتي لأخبره عن سبب تحقيق وعدي لزيارته هذا الصباح .

قلت : « إني راحل » .

قال : « نفس الشيء الذي قلته . ناس تسافر ، وناس تبقى . لمّا خبّرتني أمك بهذه الأخبار في الصَّباح الباكر قلت لها مثل ما قلت لك » .

قلت : « أنا آسف لأنها خبَّرتك ، لأني كنت أحب أن أكون أول واحد يخبرك » .

قال : « لا فرق أبداً هي أو أنت ، الشيء اللازم قوله لازم قوله ، وغير مهم من يقوله » .

كادت عظام وجهه أن تظهر للعيان تحت جلده ، وكانت الشرايين تنتشر كالجذور تحت الشعر فوق يديه .

قال الرجل العجوز : « تطلّع نحو الدكاكين » .

كان المراقب ممتطياً جواداً يصرخ بكلام لأحد الرجال . كان الرجل في القناة يأخذ القياسات مستخدما شريط قياس يسحبه من مَكَبِّه داخل علبة جلدية . كان الرجل يقيس ويتكلم والمراقب يراقبه . قال الرجل العجوز شيئاً عن إصلاح الطرق . لف الرجل شريط القياس داخل مكبه في العلبة الجلدية ، وذهب المراقب .

قال الرجل العجوز : « مثلما أنت شايف . يصلحون ويصلحون ويصلحون باستمرار ، وترتفع مرتبة المراقب أو تنخفض حسب شعور السيد

« كريتون » ، لكنه يبقى دائماً مراقب السيد « كريتون » . لا أكثر ولا أقل . ولمّا يموت السيد « كريتون » يصير مراقب المالك الجديد » .

ضحك وقام عن مقعده . يتدلى غليونه إلى الأسفل من جانب فمه .

قال :«معقول انك تعرف عن هذا الشيء اكثر مني ، لكن قل لي : ما هو موقفك من أحلامك ؟ » .

قلت : « أنا لا أتذكرها ؛ أو أتذكر فقط نتفاً منها » .

مشينا في الباحة نحو الباب . النهار مشرق .

قال : « أحلم أحلاماً غريبة من وقت للثاني . مرعبة كثيراً ، مرّات ، لدرجة توقف شعر بدني » .

ملأ غليونه وأشعله . جلسنا على العتبة ننظر إلى الماعز والحديقة . مددت ساقي واستندت إلى مرفقي . ساد الهدوء وهو يحدثني مطوّلاً بأحلامه .

١٣

صباحاً

في الساعة المعتادة تفتح صنابير المياه وتتدفق الحياة كما يجب حين تشرق الشمس وتبدأ الحركة بين الطرقات والدكاكين . « سافوري » هناك في موقعه المعتاد ، والحشد مزدحم حول عربته يصيح بطلباته . لقد غيَّر الريشة البيضاء التي كان يرتديها بالأمس بريشة أشد بياضاً ، ومريوله الخيش منشى أفضل من كل مرة . يبدو الآن ، من خلال التجاعيد في جبهته ، أكبر سنا بكثير وإن تكن حركته ما تزال رشيقة . وتعبيرات يده هي نفسها . يمسح عرقه عن جبهته بإبهامه ويضم يده فوق وجهه ، كما كان يفعل دائما . قلما يجلس الأولاد على العجلات الآن ، فاكتفى مشقة طردهم . ذهبت الأشجار ، والمحيط عارٍ . تستطيع أن ترى عبر مسافات طويلة في كل الاتجاهات، البيوت والأشجار في مناطق أخرى من الجزيرة . يتحادث الناس ، ويطلبون ما يريدون أثناء الحديث . أما الصبيان فيبحثون عن سطل قديم أو علب من التَّنك يستخدمونها في لعبة الكريكت وراء الحمّام العمومي حيث سوّوا الأرض في المكان الذي كانت ترتفع فيه الأشجار والشجيرات البرية من زمان ؛ وكانوا يلعبون هناك طيلة النهار . كانوا يستعملون رصيف الحمّام ساحة لهم ، ومن منهم لا يشارك في اللعب ، يجلس على الأرض حيث كانت سكَّة الحديد من زمان . لا يتخيَّل أحد شكل الشُّفرة التي كانت من قبل دبوساً أو مسماراً . ذاك زمان ولَّى وانقضى .

ازدحم الحشد حول العربة ، ويبدأ الصبيان يلعبون الكريكت . صباح

ككل صباح غيره . ثم فجأة تنبح الكلاب كلها معاً كأنها جوقة واحدة في كل البلد . الكلاب تنبح بجنون وبعض الديوك يصيح . تفرق الحشد تاركاً « سافوري » وحده عند المنعطف ، وأنهى الصبيان لعبتهم . يرفع الإسكافي بنطاله بإحدى يديه وهو يتكلم . كادوا ألّا يفهموا ما يقوله بسبب ما يملأ فمه من اللّعاب . تجمعوا بسرعة في مجموعات صغيرة تقف أو تقرفص حول الدكان الصغيرة . يقف رجل يرتدي ثيابا محترمة ـ بذلة بيضاء ـ قرب باب دكان الإسكافي . خرج الإسكافي من دكانه ووقف على الرصيف الذي ينحدر إلى القناة . وقف الآخر ثابتا ينتظر من الإسكافي أن يتكلم . صبّ الإسكافي حفنة جديدة من الشتائم ، فتراجع الرجل خطوة .

قال الرجل : « لا أستطيع أن أعمل أي شيء . أردت مساعدتك أقصى مساعدة ممكنة » .

قال الإسكافي: « ساعد قفا أمك . من يلزمه أي مساعدة ش .. ة منك ؟ » .

الحشد هادىء . كلامهم الوحيد هو السؤال عما يجري وعن هوية الرجل الغريب . الكلاب تواصل النباح .

قال الرجل : « ستتورط في المشاكل . سأعقّد الأمور لك إن لم تظهر الاحترام » .

صاح الإسكافي : « الاحترام لمن ؟ عندي الاحترام في الوقت اللازم يكون عندي الاحترام . لكن لك أنت ، واحد مثلك مزيّف كذاب رائحته خراء وله لونان ، أنت تحكي عن الاحترام . وإن ما رحت من هنا ، من هذه الأرض الملعونة قبل ما أعد إلى العشرة ، إذا لمّا أعدّ إلى العشرة ما رحت من هذه القطعة من الأرض ، فإنهم سيشنقونني ، القانون سيشنقني » .

قال الرجل غاضباً : « قطعة الأرض هذه ملكي . أروح وقتما يعجبني » .

قال الإسكافي : « وكيف صارت ملكك ، وحياة جهنم الحمراء ، قل لي في وجهي ، كيف صارت لك ؟ » .

قال الرجل : « سبق وقلت لك . ما عندي نَفَس أضيعه » .

قال الإسكافي : « قل لي ، قل لي أي نوع من القصص الخيالية تحكي لي ، عن أنك اشتريت هذه الأرض ، وكيف ، وحياة جهنم الحمراء ، قدرت تشتريها ، من باعك إياها ، من أين أخذت النقود ، ومنذ متى أنت والمالك الأبيض أصحاب حتى يدعوك في السر ويبيعك قطعة أرض أنا عايش عليها مدة طويلة ، الله وحده يعلم طولها . هذه الدكان القديمة عمرها هنا أكثر من عشرين سنة ، والآن تجيء أنت في صباح عظيم مشرق مثل هذا الصباح حتى تحكي لي قصة خرائية عن أن هذه القطعة ملكك أنت ، وأن علي أن أرحل عنها بعد كم يوم قلت لي ؟ » .

قال الرجل : « ثلاثة أسابيع » .

قال الإسكافي : « تطلَّع ، الله يعميك ، المالك ، مهما كان يكون ، ما جاء ولا مرة أبداً أبداً إطلاقاً يطلب من أي شخص أن يترك هذه الأرض . ما سمع أي شخص في كل قرية « كريتون » بمثل هذا الشيء أبداً . سمعنا بأشياء كثيرة ، لكنني ما سمعت طول سنوات عمري عن وجوب الرحيل من هذه الأرض ، وحتى لو انت اشتريت هذه القطعة هنا من المالك ، فلماذا تريدني أن أتركها ؟ والمالك طول هذه السنين الطويلة ، ما قال ولا مرَّة ، لأي شخص أبداً أبداً إطلاقاً أن يرحل ويترك » .

قال الرجل : « لأني أنا أريدها » .

قال الإسكافي : « يا يسوع المسيح ، أنت تريني الآن كيف يكون المالك الأسود . لو كان عندنا مالك أسود هنا كل هذه السنين الطويلة الماضية ، لكان صار تعزيل ش . . . ط كبير بين هنا وهناك ، تعزيل ونقل أكثر بكثير مما قرأ « جون » عنه » .

قال الرجل : « أنا ذاهب . سأجعل محامي يكلمك بدلاً مني » .

قال الإسكافي : « تقدر أن تنادي يسوع المسيح نفسه حتى يحاكيني . إبعث من تحب أن تبعث ، أنت يا ملوَّن رائحته خراء يا ابن الكذَّاب . لكن أنا أفضل

أن تجيء أنت نفسك في المرة القادمة . سأحضِّر هدية لك . سأضعها في قنينة لك ، تعال أنت نفسك مرة ثانية . ما كنت أتوقع زيارتك هذا الصباح المشرق ، وإلا لكانت الأشياء غير شكل . لكن ، المرَّة الثانية ، لما تجيء المرة الثانية ، قسماً بالمسيح في السَّماء سأخلِّيك تشرب الذي رائحتك طالعة منه طول عمرك كل هذه السنين الملعونة » .

ترك الرجل الدكان وسلك إحدى الطرق المتقاطعة . راقبه الناس الجالسون حول المكان يذهب ثم استداروا لمواجهة الإسكافي . ما يزال بعضهم يسأل عن هوية الرجل . ورغم أنهم سمعوا الإسكافي يتكلم عن الأرض فإنهم لم يفهموا القضية . كان أخو المراقب يجلس بين الجمهور . قال إن الرجل هو رئيس التفتيش الصحي ويسكن في إحدى المناطق السكنية الخاصة بالأكابر في الجزيرة . إما أنها « فونتابِل » أو « وِرْثِنْغ » . تطلَّعوا إلى الإسكافي الذي كان يرتاح مستندا إلى الباب ويحملق في الأرض . اتجه أخو المراقب وأبو « بوب » نحوه ووضعا أيديهما على كتفه ، أبقى رأسه خفيضا مصوَّبا نحو الأرض ، وكان يطرف بعينيه كأنما يضايقهما الغبار . استدار أخو المراقب وطلب من الناس أن يتفرقوا . تريَّثوا مدة يسألون عن القضية . لا تفاسير ؛ وسرعان ما تفرقوا في مختلف الاتجاهات . نزل « سافوري » عن قمة عربته واتجه نحو أسفل الطريق منتظراً بقية زبائنه . تكتلت النساء معاً محاوِلات اكتشاف ما جرى .

لقد قال الرجل إنها أرضه ، فبدأن يلملمن شتات الإشاعات . سرت إشاعات كثيرة حول الأرض ، في المدة الأخيرة ، لكن لم يبال بها أحد . بدأت النساء نسج روايات متنوعة . لا يعرفن شيئاً عن الرجل الغريب سوى ما قاله أخو المراقب . إنه رئيس التفتيش الصحي ، وكان فيما مضى رياضياً مشهوراً . وهو ممن يسمونهم الأكابر الملوَّنين ؛ وهن لا يصدقن قصته عن شراء الأرض . نسجن قصصهن الخاصة ، وهن يتساءلن ، طول الوقت ، إن لم يكن الرجل الغريب قد اشترى الأرض حقاً .

جلس الإسكافي برفقة أبو « بوب » وأخي المراقب في الدكان . حاول الرجلان التسرية عنه . قالا إن كل شيء سيكون على ما يرام ، لكنه جلس يرتجف في مقعده . تحمل أبو « بوب » عبء معظم الكلام في حين جلس أخو

المراقب قرب الإسكافي وقد وضع يده على ركبته . ذكَّرهما أبو « بوب » بالإضراب وبالحديث الذي خاضوه قبل حضور السيد « سلايم » ليخبرهم بما ينبغي أن يعملوه . ومهما حصل ، فقد عاد كل شيء إلى ما يرام . كانت أيام الانتفاضة أسوأ ما مرَّ بهم ، لكن منذ ذلك الحين عاد كل شيء كما كان . والإسكافي نفسه هو الذي غرس فيهم الشجاعة لاتباع السيد « سلايم » أثناء الاضطرابات المدنيَّة ، وقد كان على حق . حاولا التَّسرية عنه بإخباره كم كان على صواب . لم يتكلم أخو المراقب كثيراً . سأله أبو « بوب » إن كان يعرف أي قصص عن الأرض ، فقال لا . إنه لم يلتق أخاه منذ أسابيع باستثناء حين ذهب لدفع أجرة البيت . جلسا صامتين يبحثان عما يقولان ، وفجأة لم يصدقا ما يريان . الإسكافي يبكي . تنهمر الدموع نقاطاً كبيرة على وجهه وقميصه . سحب أخو المراقب يده ونظر إلى أبو « بوب » . أغلقا الباب واقتربا أكثر من الإسكافي . لم يعرفا ما يقولان ولم يرغبا أن يزيدا شعوره سوءاً إن هما قالا الشيء الخطأ . نشيج الإسكافي يزداد علواً ، والرجلان يجلسان قربه يفكِّران فيما يعملان . انحنى والتقط الحذاء ووضعه على ركبته . تقهقر الرجلان وبحثا عمّا ينشغلان به . ثقب الإسكافي ثقباً في الحذاء وغرز قطبة . سقطت الدموع على يده وسالت على جلد الحذاء . دخل النور من الشباك مبيِّناً وجهه الأسود اللامع مع الأخاديد الرقيقة التي حفرتها الدموع في خديه . وكان بين الحين والحين يمسح وجهه بكمِّه .

قال دون أن يرفع رأسه المحني عن الحذاء : « ولا يوم أقل من عشرين سنة على الأقل . ويخبرني أن علي أن أنتقل . ليس معنى هذا أني أهتم بما يقول ، لكن الفكرة ، فكرة النقل . هذه الفكرة هي التي توجعني » . رفع رأسه وهو يقول الجملة الأخيرة . أومأ الرجلان برأسيهما موافقين ، لكنهما لم ينطقا .

قال الإسكافي : « عشرين سنة ، ليست مثل لو كانت عشرين يوما . قضيت عشرين سنة هنا في هذه الدكان نفسها ذاتها بدون أن نعد السنين التي عاشها أهلي في هذه القطعة نفسها . أمي العجوز ـ الله يريحها في قبرها ـ كانت دائماً تترجَّى أن أدفع الأجرة ، إن لم أعمل أي شيء آخر ، حتى يكون بالي مرتاحاً ، وأنا سمعت كلمتها وعملت مثل ما قالت ، مدَّة عشرين سنة عملت هذا ، ليس أقل . كل أسبوع خلقه الله ، أمشي هناك إلى الغابة وأدفع الأجرة

وأستلم الوصل ، وتقولون لي بعد هذا إن غريباً لا أعرفه أكثر مما أعرف الرجل على القمر ، تقولون لي انه يقدر أن يجيء حتى يخبرني أن أعزِّل من هنا في ثلاثة أسابيع . أين ، وحياة السَّلام ، أفتح هذه الدكان القديمة ؟ من ينقلها ؟ وماذا أدفع حتى أنقلها ، وحتى لو كنت قادرا على الدفع ، فأين أروح مع هذه الدكان وأنا في هذا العمر ؟ ليس معنى هذا أني أهتم بما يقول ، لكن التفكير بكل شيء هو ما يوجع قلبي . مجرد التفكير به » .

قال أبو « بوب » : « لا تزعج بالك . نحن معك دايما » .

فتحا الأبواب وتطلعا إلى تقاطع الطرق حيث يتحرك الناس جيئة وذهابا بين الدكاكين .

قال أخو المراقب : « عليّ أن أذهب » .

قال أبو « بوب » : « ولا تزعج بالك بأي شيء أبداً . الصالح للواحد منا يصلح لنا كلنا ، وإن أنت غرقت فنحن كلنا لازم نغرق معك » .

عبرا القناة وذهبا معاً ، واستدار الإسكافي ليغرز قطبة جديدة في النعل ، وهو يتمتم لنفسه : « ليس معنى هذا أني أهتم بما يقول ، لكن التفكير به ، مجرد التفكير به يوجع قلبي » .

***

ظهراً

قال السيد « فوستر » : « أكيد يمكنك أن تقعد ، أنا لست ضد أنك تقعد » .

خلع الرجل قبعته وجلس على الكرسي الذي دلَّه السيد « فوستر » إليه . تسلَّل شعاع الشمس عبر شقوق السَّقف ، فالتمع وجهه بالعرق الرطب الذي يرقِّعه . انتزع منديلا من جيبه وشدّ به ماسحاً وجهه ، لكن العرق كان يتدفق بسرعة حول الصدغين وفي الخدين . سرعان ما ابتل المنديل ، فأعاده إلى جيبه ، وقد أعياه ووتَّره سيلان العرق على وجهه . يتلهَّى السيد « فوستر » بأشياء حوله ، وهو يراقبه من طرف عينه ويتظاهر أنه لا يلاحظ وجهه . كان تصرفه حاداً قليلا ،

ولكنه يبدو ودوداً بشكل عام ، وقد حاول السيد « فوستر » الذي ربما ارتاب في زائر غريب في مثل هذه الساعة ، أن يكون وديًا هو الآخر .

قال السيد « فوستر » : « أنت لست السيد الذي زار الإسكافي هذا الصباح ، لأني ما كنت في البيت ؟ » .

قال الرجل : « لا ، لكني سمعت بما جرى » .

قال السيد « فوستر » : « حتى الآن مليح كثير ، لكني لا أفهم . مليح كثير لك انك تقول إن الأرض ملكك ، لكن أي نوع من الشهادات عندك حتى أفهم ما يجري حقيقة » .

قال الرجل : « لقيت نفس المشكلة هذا الصباح ، ليس مع الإسكافي لكن في منطقة أخرى . الفرق هو أنك أكثر احتراماً » . .

قال السيد « فوستر » : « القضية ليست قضية احترام . هي قضية فهم معانيك بوضوح » .

قال الرجل : « لا أقدر أن أوضح أكثر . خبَّرتك أن هذه القطعة من الأرض هي ملكي » .

قال السيد « فوستر » : « إذن قل لي ، قل لي كلام رجل لرجل ، كيف دخل في راس المالك أن يبيع الأرض ، ولأي سبب باعها من فوق روسنا بدون أن يقول أي كلمة مباركة للناس الذين عاشوا فيها مدة طويلة الله وحده يعلم طولها ؟ » .

قال الرجل : « المالك لا دخل له » .

سأله السيد « فوستر » : « ماذا تقصد تماماً » ؟

قال الرجل : « الأرض ليست أرض المالك من مدَّة » .

جلس السيد « فوستر » منتصبا وقد تفاجأ . نادى السيدة « فوستر » التي كانت تقف وراء الباب تسترق السمع . كانت تجلس في البيت حتى وصول الرجل الغريب ، ولمَّا دعاه السيد « فوستر » للجلوس خرجت . دخلت البيت وحيّت

الرجل الغريب تحية مهذبة قبل أن تجلس قرب السيد « فوستر » . تطلعا إلى بعضهما محتارين ، ثم إلى الرجل الغريب . جلس جامداً في كرسيه راجياً أن ينتهي من هذه القضية بسرعة . لم يكن السيد « فوستر » متأكداً أنه سمع جيداً ، وتطلع إلى الرجل مرة ثانية قبل أن يتكلم. السيدة « فوستر » في غاية القلق .

قال السيد « فوستر » : « إنه يقول إن الأرض ليست للسيد « كريتون » من مدَّة » .

فتحت السيدة « فوستر » عينيها على وسعهما كأنها قد رأت الشمس تهوي من السماء .

قالت : « أنا لا أفهم مليح ما تعنيه إنها لا تخص السيد « كريتون » من مدَّة » .

كبت الرجل الغريب كشرته . يكاد صبره ينفد .

قال السيد « فوستر » : « هذا مثل ما أنا قلت ، لكنه لا يفهم » .

قال الرجل : « أنا فاهم كل الفهم تماماً » ، رفع صوته : « تريدان أن تقولا إن من المستحيل علي أن أشتري الأرض التي تعيشان عليها من مدة سنين طويلة ، وبعد ذلك أطلب أن تنقلا منها لأن هذه رغبتي . لكن هذا هو الواقع . كل شيء شرعي تماما ، وهذا هو كل ما يهم : القانون » .

قال السيد « فوستر » : « القضية ليست قضية ما يقول القانون إنه صح أو غلط . القضية شيء مستحيل » .

قالت السيدة « فوستر » : « هذه الأرض ليست من نوع الأرض الممكن عرضها للبيع والشراء . هي أرض لنا نحن الناس حتى نعيش عليها ، هكذا حالها دائما في الماضي ، وهكذا حالها سيبقى دائماً » .

خيم السكوت ، في حين كان الرجل الغريب يتريث حتى يتغلب على نفاد صبره . كان يفرقع مفاصل أصابعه ويتفحص البيت بسرعة . ظهر له أنه لا يستطيع أن يواصل الجدال طويلا . لقد تحدث مطوَّلاً مع السيد « فوستر » وهما

يقفان في الطريق ، وحين لبّى دعوة السيد « فوستر » فدخل البيت ، كان ذلك ، ببساطة ، تحاشيا لتجمع الحشد الذي قد يتكون لو رآه الناس يشرح الوضع للسيد « فوستر » . أما الآن فصبره يكاد ينفد سريعاً .

قال : « دعني أشرح من جديد . لنفرض أن عندي جراج وعندك سيّارة » .

قاطعه السيد « فوستر » : « بدون مزاح وتنكيت ، يا رجل » . جمد الرجل .

قالت السيدة « فوستر » : « إنه فقط يفرض من أجل الفرض والجدل » .

قال الرجل : « هذا صحيح . فقط من أجل شرح وتوضيح كل شيء . لنفرض أن ما فرضناه الآن هو صحيح . أنت سيارة ، وأنا جراج . أنت استأجرت الجراج مني ، وبعد ذلك أنا بعت الجراج لشخص آخر . فمن هو الشخص الذي تسمع كلامه حين يخبرك أين وأين تضع سيارتك ؟ بغض النظر عن طول المدّة التي أنت تضع سيارتك في هذا الجراج فيها ، فمن هو الشخص الذي يحق له أن يخبرك بما تعمل وما لا تعمل في هذا الجراج ؟ » .

قالت السيدة « فوستر » : « الحقيقة هذه قصة غريبة عجيبة » .

قال السيد « فوستر » : « قصة غريبة . طز » . جفل الرجل .

قال السيد « فوستر » مبتسماً : « أرجُو معذرتك ، يا سيدي . لكن ما أفهمه أنا هو أنك تقدر أن توقف سيارتك في أي محل . لكنك لا تقدر أن تعمل هذا مع بيت قديم » .

قال الرجل : « القضية هي قضية من يملك ماذا ، ومهما كان لا فرق : سيارة ، بيت ، مهما كان » .

أمسكت السيدة « فوستر » ذراع السيد « فوستر » ، وتطلع الثلاثة في بعضهم بعضا .

قال الرجل : « لو أحببتم ، لو كنتم غير قادرين على تعزيل البيت ونقله

مثلما قلت لكم لازم يصير ، فأنا مستعد أن أشتريه منكم . وهكذا أريحكم من مشكلة حمل بيتكم على ظهركم » .

يدا السيد « فوستر » ترتعشان ، والرجل يحكي ، والسيدة « فوستر » تبحث عن قطعة قماش تمسح بها عينيها . لم تكن تبكي ، غير أنها لم تكن واثقة من أنها لن تبكي سريعاً .

قال السيد « فوستر » ، وقد قرّب وجهه كثيراً من وجه الرجل : « سأخبرك بشيء . لو كان عندنا كلنا في هذه الأرض أي قانون ذهبي فهو هذا : إن أعطاك الله العظيم الصحة والقوة ، فاشتغل حتى تحصل على مأوى يأويك في النهار وركن ترتاح فيه عظامك في الليل . ولمّا تقدر تحصل عليه اشكر الله العظيم . وإياك أنك تتركه أبداً » .

لم يعرف الرجل بما يجيب ، ولكنه كان يحترق بالكلمات .

قالت السيدة « فوستر » : « هذا صحيح . تطلع حولك في كل محل ، ورغم أننا فقراء ومظهرنا يدل على الفقر ، فإنك لن تلقى أي واحد لا يملك الكوخ الصغير الذي يعيش فيه . يمكن الحال مختلف مع بقية الناس ، لكن هنا في هذه الأرض نفسها ، هنا هذا هو القانون الذهبي » .

قال السيد « فوستر » : « بيتك ملكك ، ملكك ، ملكك . الرجل ليس رجلاً حتى يقدر يقول عن البيت الذي يسكنه إنه يملكه . ولا يهم كم هو صغير لمّا تقدر تقول عنه : هذا بيتي ، ملكي ، ملكي » .

كان الرجل يصغي وقد أسند رأسه على يديه ، وكان يرتعش غضباً والآخران يتكلمان . غار غضبه قليلا وهما يتكلمان ، ولكن ما أن استعد السيد « فوستر » للتكلم من جديد حتى تحرك في كرسيه ساخطا .

قال السيد « فوستر » : « وأقول لك شيئاً لا تعرفه . في يوم من الأيام ، تحرك بيتي في هذه القطعة . كان هناك فيضان ما شفنا مثله من قبل أبداً أبداً ، وأنا مثل القبطان الصالح ما قبلت أتركه حتى أجبروني . بقيت فوق السطح وسبح البيت بي منحدراً في النهر ، وناس بكت وناس ضحكت . أنت حر تعمل ما تحب ،

لكن أنا خبَّرتك حتى تعرف قيمة البيت بالنسبة للناس في هذه المنطقة من دنيا الله » .

خفض الرجل رأسه . يبدو أنه لا يستطيع توفير أي شروح إضافية ، كما يبدو أنه يتحين الفرصة المناسبة للرحيل . كان يرجو أن يسوّوا المشكلة بينهم بدون صعوبة كبيرة ، لكن هذا هو الوضع في كل مكان . لقد قابل ، قبل أن يأتي هنا ، امرأة تسكن على بعد عدة شوارع من هنا ، فوجد الصعوبة نفسها . يعاملونه كأنه مختل العقل . لقد هيّجت الكلاب عليه ، ولم يقدر أن يجد وسيلة لتحقيق غايته ، بسبب التهديد والوعيد الذي لقيه ، إلّا بالاستعانة بالشرطة . كان يأمل أن يجد السيد « فوستر » أكثر ذكاء بالنسبة لهذه القضية . جاءه شارحاً . هذا بحد ذاته تنازل ، لكنه قام بهذا التنازل ، لأنه ظن أن جهل القرويين وفقرهم يستدعيانه . والآن يرى نفسه في مواجهة صعوبة مرعبة . بإمكانه تسوية القضية باعتماد خطوات قانونية ، لكن هذا هو ما حاول أن يتجنبه منذ البداية . ففي هذه الأيام على المتعلمين أكثر أن يتساهلوا مع الفقراء ، لأن إرادة الفقراء أصبحت محسوسة ملموسة الآن ، ولايمكن لأحد أن يتكهن إن كان سينتخب هو ذات يوم لتمثيل هذه الإرادة . واللجوء إلى القانون ، في مثل هذه الظروف ، مدمِّر مخرِّب . لذلك اختار أهون الشرين . لكن لماذا لا يفهمون ما قاله . هم يعرفون أن الأرض ليست ملكهم ، وكان يتوقع منهم أن يعترفوا ، بما أن الأمر كذلك ، بأن من الجائز بيعها وشراءها بدون موافقتهم . لقد تلقوا الأوامر من الملّاك وأطاعوها على مدى أجيال كثيرة ، لذلك فمن العسير أن يفهم لماذا لا يسمعون ويطيعون الشخص الذي أصبح المالك الشرعي لقطعة من الأرض كما كانوا يطيعون الملّاك السابقين . صحيح أنه لم يشتر المقاطعة بأكملها ، لكن كل الناس ذوي المكانة المهمة يعرفون أن الأرض قد بيعت . المالك لم يخبرهم ، لكنه تصرف ضمن حقوقه . وفي أية حال ، لا يملك أي منهم النقود الكافية حتى يشتري قطعة أرض . كان من اللياقة أو الإنسانية ، أو ما شئت أن تقول ، لو انهم أخبروا وعرضت عليهم فرصة شراء هذه القطع . لكن لم يكن ذلك ضرورياً . فهم فقراء . ربما استطاعوا شراء بيوت كالبيوت التي لهم هنا ؛ فهم يعيشون في صناديق كبيرة الحجم ، هذا شأن معظمهم . لكن قضية الأرض قضية أصعب وأعقد وأضخم من ذلك بكثير . قلة

قليلة تستطيع أن تشتري الأرض . البيوت تبنى والبيوت تباع في كل وقت في كل مناطق الجزيرة . لكن الأمر مختلف دائما بالنسبة للأرض . فهذا الشيء الذي يمتد عالياً واطئاً وعارياً تحت العين والقدم والريح والمطر ، قد ظهر ، على الدوام ، أنه يحمل سراً مدفوناً في مكان ما تحت سطحه الأسود . لماذا يحترم الناس الأرض مثل هذا الاحترام ؟ لا يفهم . لكنها نوع من الثواب أو العقاب ، بل وباء متفشٍ تُلزِم النقود الأغنياء على أن يرثوه . أما الفقراء فيفهمون المسألة نفسها بطريقة مختلفة ، وبما أنهم لا يقدرون على امتلاكها ، فهم يتجذّرون فيها . الوسخ رخيص ، كما يقول القرويون دائما ، والرمل مجاناً ؛ ولكن الأرض هي الأرض ، لا تقدّر بثمن ، خالدة ، وهي رمز لقوّة لا يمكن تفسيرها .

وها قد حانت فرصته ليملك الأرض . كان يفهم تعلّق السيد « فوستر » بالبيت ، لأنه يفهم شهوته للأرض . أصابه التوتر والارتباك ، وأخيراً الغضب الشديد . لقد سكن في بيت على أرض لا يملكها ،فكان عليه أن ينتقل من مسكن إلى آخر بين وقت وآخر . وهذه عادة من العادات السَّارية بين الطبقات الأرقى في الجزيرة . كانوا يسكنون في أحد البيوت عدَّة أشهر ، ثم ينتقلون إلى غيره وغيره ، وكل همّهم هو المكانة الاجتماعية للمنطقة التي يسكنون . وكانت هذه البيوت إسراف وتبذير يفوق احتمال الطبقات المهنيَّة الأقل نجاحاً أو ذوي المراكز الأدنى في سلك الخدمة المدنية ، فكانت مشكلة الطعام الملائم مضافة إلى المظهر المناسب والمأوى ذي المستوى تشكِّل صعوبة فوق الطاقة . وكان في هؤلاء شيء من البداوة ، فهم رحّالون دائمون ينتقلون دائماً في حدود أرض معلومة . هو يعيش مثل هذه الحياة ، ولذلك لا يفهم لماذا يرفض السيد « فوستر » الانتقال إلى مكان آخر . لكن القرويين لا يفهمون ذلك . لقد تشكلت عاداتهم ؛ وتعرف حياتهم ، كما موتهم الأكيد ، جذورها . التزم السيد « فوستر » بالصبر الجزيل . وقد أصابته الصَّدمة ، حيناً ، من إمكانية صحَّة ما سمعه ، ولكنه كان ، أحياناً ، يبتسم . لقد كان وديا، بشكل عام. فهو لم يعامل الرجل الغريب كليا كأنه نكتةكبيرة ؛لكن كان شيء في كل ما قاله يتصف بصفة غير المألوف . في هذه الأخبار شيء هزلي . أما السيدة « فوستر » فأقل ارتياحاً . يبدو أنها أحست بنذر الشر ، فلم تبتسم . كانت تتكلم جادة ، في كل حين ، وإن حاول السيد « فوستر » أن يمزح ويسخر

كانت تسارع لتقويمه . الرجل الغريب مرهق . وضع حداً للشرح والتفسير . بدأ يستعد للرحيل . بقي السيد « فوستر » جالساً يراقبه .

قال الرجل : « اعتقد أنك ستعرف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً . لكن لازم يكون هذا عاجلا ، لأن أنا عندي خطّتي لهذه الأرض » .

قال السيد « فوستر » : « وماذا تعرف أنت عن هذه الأرض » ؟ تملّكه الغضب . تصرُّف الرجل قد أثاره .

قال الرجل : « لا أريد أن أعرف أكثر مما أعرف » .

قال السيد « فوستر » : « لا تتواقح معي في بيتي » . تغيَّرت المواقف . أدركت السيدة « فوستر » ذلك فوقفت وضغطت ساعدها في جانب السيد « فوستر » . لقد ضاق الرجل الغريب ذرعا بتصرفات هذا القروي .

قال : « أتواقح مع من ؟ بدون سخافة » .

قال السيد « فوستر » : « للمرة الثانية والأخيرة ، للمرة الثانية والأخيرة أقول لك : لا تتواقح معي في بيتي » .

صرخ الرجل : « ما هذا ؟ »

قال السيد « فوستر » : « سأعلِّق قفاك في الشارع » ، وقد انتصب واقفاً وكانت الحماسة تهزّه أثناء كلامه . حملق في الرجل الذي وقع في كرسيه من هول المفاجأة . السيدة « فوستر » ترتجف . الرجل الغريب مندهش للتغير المفاجىء في تصرف السيد « فوستر » . لقد فهم الصوت العالي ، والصراخ الفاضح ، لكنه لم ير من قبل الموت الكامن في نظرة القروي القوية المستقيمة وفي ارتعاش أطرافه . أصبح ما حدث واضحاً للجميع . انتهى دور أسلوب الإقناع . لقد بدأت الحرب ، والسيد « فوستر » ، في ثراء تدفقه العاطفي ، ندّ عنيد للرجل الغريب .

قال : « لا تتغابى معي . لا يهمني أبداً من أنت ، لكن لازم تلزم حدودك معي . ماذا تعتبرني : رجلاً أم فأراً ؟ إسمع : أنا رجل حتى أصبع قدمي » .

ضرب فخذه بيديه ، وفتح صدر قميصه . بان جلده تحت شعره القصير

الكثيف . وقف الرجل حتى يذهب . السيدة « فوستر » بقيت في البيت حتى لا يحاول السيد « فوستر » القيام بأي تصرُّف متهور . وقف الرجل الغريب ينتظر من السيد « فوستر » أن يقوده في طريق الخروج . قرع الباب ففتحه السيد « فوستر » . دخل المراقب . تراجعت السيدة « فوستر » وخرجت . أذهلها ظهور المراقب المفاجىء يحمل بيده ورقة كبيرة مطوية . ليست هذه الزيارة الأولى التي يقوم بها المراقب للسيد « فوستر » ، غير أنه كان ، في هذه المناسبة ، أكثر صرامة من مألوف عادته . تطلع السيد « فوستر » ، إلى الورقة المطويَّة في يد الآخر . كانت ملفوفة برباط مطَّاط فذكَّرته بالمناشير والبيانات التي كان السيد « سلايم » يلصقها على عواميد الإنارة بين الحين والحين . جلس الرجل الغريب في مقعده من جديد ، وجلس السيد « فوستر » والمراقب أيضا . اتخذت السيدة «فوستر» موقعها خلف الباب تماماً كما فعلت لمَّا دخل الرجل الغريب . السيد « فوستر » هادىء من جديد . لا يكنّ كبير احترام للمراقب ، وهو ، بالتأكيد ، لا يثق به . فالمراقب هو العدو الذي تراقبه وتلاعبه كما تلاعب القطة الفأر . استراح السيد « فوستر » في جلسته ، وانتظر الرجل الغريب ليرى أيهما يبدأ الكلام .

قال السيد « فوستر » : « ماذا تعرف عن كل هذه القصة : بيع الأرض ؟ » كانت لهجته مرحة وديّة ، كأنه يدعو المراقب لمشاركته في المزاح والنكتة .

قال المراقب : « أنا لا أعرف شيئاً » . كانت لهجته حادَّة ، فتغير أسلوب السيد « فوستر » مرة أخرى . فعواطفه تتبدل حسب موقف الشخص الآخر . والقضية ، مع المراقب ، هي قضية مبارزة جدلية مع شخصين : الشخص الذي أمامه والشخص الذي خَبِره .

سأله السيد « فوستر » : « ما تعني بقولك إنك لا تعرف ؟ » .

قال المراقب : « أعني ما أقول » . خفض بصره ، وجعل عينيه تتحركان من طرف الورقة إلى طرفها الآخر . تيبَّس السيد « فوستر » .

قال الرجل الغريب : « سبق وشرحت لك » .

احتدّ السيد « فوستر » : « إقفل فمك اللعين ، وإلاَّ خلّيتك تحسبني مجنوناً مثل القطة المتوحشة » .

رفع المراقب عينيه الى السيد « فوستر » ، وقد بان عليه الرعب ، قال: « أنا أحذِّرك من التصرف بهذه الطريقة مع ناس معيَّنين » . كان صوته ثاقباً رزينا . هدأ السيد « فوستر » من جديد . عاطفة أخرى قد سُجِّلت . كان أسلوبه يتغير بسرعة ، وكل تغيُّر يمليه تفسيره لما قد سمعه . لا يمكن أن يخيفه المراقب أو الرجل الغريب ، لكن مشاعره أسبغت قيمة خاصّة على أسلوب الآخر . وقد تابع مشاعره مطيعاً حتى نفد صبره وأثار أسلوب الآخر حنقه وتمرده . لم يفهم ماهية دور المراقب في هذه اللّعبة ، لكنه هو والرجل الغريب في صف واحد، كما يبدو . وهذا زاد الوضع تعقيداً وإرباكاً لأن المراقب ، ومعرفته الوثيقة بالأرض ، ليس بعيداً عن المالك نفسه . فلو قال المراقب إن الأرض قد بيعت ، لوجب أن يسبغ على الوضع معنى جديداً . وستزول منه عناصره الهزلية . سيكون البيع حقيقة واقعة .

سأل السيد « فوستر » وهو يتطلع إلى المراقب : « قصدك أن تقول لي إنّي لازم أعزِّل فعلا ؟ » صمت المراقب لحظة .

قال : «أنا لا يخصني . الأرض ليست أرضي » .

قال السيد « فوستر » : « أعرف مثل كل العالم أنها ليست أرضك ، لكن إن كنت أنت لا تعرف ، فكيف تتوقع مني أن أعرف أنا ؟ »

قال المراقب : « أنا لا أعرف . شغلي هو تلقِّي الأوامر » .

قال السيد « فوستر» : « وما هي أوامرك؟ ما هي آخر الأوامر التي عندك؟»

قال المراقب : « يقول السيد إنه شرح لك . ماذا تريد أكثر ؟ »

سأل السيد « فوستر » : « هل هذه حيلة أو ماذا ؟ كلكم تمزحون أو ماذا ؟ شفتم ما صار في هذه الجزيرة من مدة ، شفتم الدم الذي سال في كل محلّ ، والسبب كله هو أنكم تغامرون مغامرات غبيّة مع النّاس » . صمت الرجال ودخلت السيدة « فوستر » إلى البيت . إنها تعرف متى يكون بعدها خطراً .

قال السيد « فوستر » : « لمّا يفقد الرجل الفقير سيطرته على أحسن شيء فيه فهذا ليس غلطته أبداً . الغلطة غلطتكم أنتم الذين تنشغلون بتحويل الناس الفقراء إلى دمى » .

قال المراقب : « القضية هي ما سيفعله القانون » . السيد « فوستر » يتجه تدريجاً نحو المرحلة التي يسيطر فيه الوحش الكامن فيه على تصرفه . راقبهما بشيء من اليأس ، ولم يكن واثقاً مما يزعجه أكثر : ما قاله الرجل الغريب ، أو الدور الذي يلعبه المراقب ؟ أو لعلّ ذلك مردُّه إلى فكرة أن هذا الكلام عن الأرض قد يكون صحيحاً .

قال الرجل الغريب : « أنا ذاهب . لكن مثلما خبّرتكم ، لازم أن تعزّلوا في مهلة ثلاثة أسابيع » .

هذه أول مرة يتكلم فيها منذ أخبره السيد « فوستر » أن يغلق فمه . وقف يدير قبعته في يده . تغيّر أسلوب السيد « فوستر » من جديد .

قال السيد « فوستر » مبتسماً : « سأجيء وأنزل ضيفاً عندك » . توتَّر المراقب . من الواضح أنه يشارك الآخر معرفته بل خيبة أمله أيضا ، وهذا ما لم يستطع السيد « فوستر » أن يفهمه .

قال وهو يعبس في وجه السيد « فوستر » : « أنا ذاهب أيضاً » .

قال السيد « فوستر » وقد وسَّع ابتسامته : « من حسن الحظ أن النظرات لا تقتل » .

قالت السيدة « فوستر » : « الله معكم » . هي قلقة تريدهما أن ينصرفا .

قال المراقب : « والله معكم أنتم أيضا . ستحتاجونه لَمّا تشوفوا ما في هذه الورقة » .

قال السيد « فوستر » : « إمسح قفاك بها » . لقد تغيَّر أسلوبه . حسب أن المراقب يحاول أن يهزأ بالسيدة « فوستر » .

قال المراقب بسخرية : « نهارك سعيد يا « فوستر » » . وخرج والرجل الغريب يتبعه .

قال السيد « فوستر » مبتسماً : « باي باي ، يا سيدي » .

تركا البيت ووقفا في الطريق بضع دقائق . أغلق السيد « فوستر » الباب

وواجه السيدة « فوستر » . إنها مستاءة من هذه الحادثة . طلب منها السيد « فوستر » ألاَّ تقلق ، غير أنها أحسَّت نذر الشَّر فيما وقع . إن لها حدساً لا يخطىء فيما قد يحدث ، والسيد « فوستر » يعرف ذلك . تصاب بالهستيريا ، أحيانا ، ولا يستطيع ضبطها إلا بشتمها ، لكن تعبيراتها تتَّسم ، في أحيان أخرى، بالحزن والجدية ، فيعرف عندها أن شيئاً أكبر يتفاعل في داخلها . لم يكن يحب أن ينظر إليها حين تتسم بهذه التعبيرات . أقفل أزرار قميصه واتجه نحو النافذة . سيريح أعصاب السيدة « فوستر » باختراع نكتة عن المراقب والرجل الغريب . جلست السيدة « فوستر » على السرير تفرد أصابعها على الشرشف . مدّ رأسه من النافذة فرأى المراقب والرجل الغريب واقفين عند المنعطف ؛ وقد تجمهر بعض الناس هناك محاولين أن يفهموا ما يقولانه . حاول المراقب أن يطردهم ، إذ كان معظمهم من النساء والأولاد . تفرقوا ثم تجمعوا بسرعة في مجموعة صغيرة . خرج السيد « فوستر » إلى عتبة بيته وصاح في المراقب : « قل لي كم من النقود لازم أدفع للمالك الجديد » . جلس على العتبة يقهقه بالضحك .

قال المراقب : « هذه تقول لك » ، وفتح الورقة ورفعها فوق رأسه منتفخاً كالطاووس .

صرخ السيد « فوستر » : « أبيض وأسود ، وحياة الله ، قلم وحبر ، هذه هي طريقة العظماء في عمل الأشياء . هذا هو ما أسمِّيه الأعمال المهمة » .

ازداد الحشد عدداً . لقد دعاهم صوت السيد « فوستر » ، وفي غضون دقيقة ، ظهر كأن هناك جمهوراً غفيراً يجتمع عند المنعطف . خرجت السيدة « فوستر » إلى العتبة وراقبت المراقب والرجل الغريب . سار المراقب إلى عمود الإنارة ووضع الورقة عليه . قام بعدة محاولات لاكتشاف الوضع الأنسب للقراءة . غادر الناس بيوتهم ودكاكينهم وذهبوا يكتشفون ما تقوله . لقد شاهد الكثيرون منهم الحادثة في دكان الإسكافي كما سمع بعضِهم صوت السيد « فوستر » وهو يصيح في الرجل الغريب . مشى الرجل الغريب مبتعداً في حين ألصق المراقب الورقة على العمود . جاء الناس من كل الجهات . كانوا يثرثرون ملهوفين وهم يتراكضون ، ولمّا وصلوا إلى العمِود صمتوا . تأكد المراقب من أن

الورقة ملتصقة جيداً ثم ركض نحو الرجل الغريب . سارا معاً متجهين إلى الحدود الفاصلة بين « بلفيل » والقرية . هجرت الدكاكين فخرج أصحابها إلى عتباتها لسماع ما تضمنته الورقة . نفض السيد « فوستر » الغبار عن بنطاله واتجه إلى عمود الإنارة . تبعته السيدة « فوستر » . صدمه سكوت الناس . كانوا يقرأون ، ويلتفت ، أحيانا ، واحد منهم مدهوشاً ، أو يسأل عن تفسير لإحدى الكلمات . لكنهم هادئون ، بشكل عام . شق السيد « فوستر » طريقه عبر الحشد وقرأ الكلمات المطبوعة على الورقة :

« هذه الأرض (أو العزبة) المملوكة سابقاً من قبل السيد « جون ناثانيل كريتون » قد تم بيعها . يواصل المستأجرون دفع الأجور حسب العادة في مكاتب « كريتون » ، رغم أن بعض الأراضي المعيّنة المسماة « القطع » قد صار بيعها . كل المعلومات المتعلقة ببيع مثل هذه القطع تطلب من المدير الإداري لبنك البنس ، أو من الأمين العام لجمعية الصداقة .

التوقيع :

واطسن وبيترز

محاميا مكاتب كريتون » .

سألت السيدة « فوستر » : « ماذا تقول ؟ » استدار السيد « فوستر » دون أن ينطق . ابتعد عن الحشد واتّجه إلى عتبة بيته . تبعته السيدة « فوستر » . سيطر الضياع على الآخرين وهم يثرثرون بهدوء مردّدين الكلمات .

سألت السيدة « فوستر » مرة ثانية : « ماذا تقول ؟ »

قال أحد الرجال : « تقول لازم نشوف السيد « سلايم » » .

لم يفهموا معنى ذلك . لقد رأوا رجلاً غريباً في دكان الإسكافي ، وآخر ، فيما بعد ، أمام بيت « فوستر » . بقي بعضهم واقفاً عند عمود الإنارة يقرأ البيان ويعيد قراءته ، في حين رجع غيرهم إلى دكاكينهم . دوّخهم جميعاً صدى الكلمات

يتردد في خواطرهم . تقول لازم نشوف السيد « سلايم » . نشوف السيد سلايم . السيد سلايم . السيد سلايم . السيد سلايم .

* * *

ليلاً

استلقى الرجل العجوز على الكرسي الذي كانت المرأة العجوز تجلس عليه دائماً حين كانت في قيد الحياة . مدَّ رجليه أمامه على المقعد الخشبي الصغير ومصَّ غليونه الطيني . القنديل يضيء خفيضاً على الطاولة قرب السرير . أشعل المدير عود كبريت وأشعل سيجارته . تطلع الرجل العجوز وقال شيئاً عن الكرسي . كان وجهه متغضنا مليئاً بالتجاعيد وقد تحوّل لون أسنانه التي يحمل الغليون بينها إلى البني الداكن . كان ينظر من طرف عينه إلى الكرسي الذي يجلس المدير عليه . هذا كرسيه ، الكرسي الذي كان يستعمله حين كانت المرأة العجوز في قيد الحياة . كان قد خطر له أن يتخلص منه إذ لا حاجة به لأكثر من كرسي ، وهو يذكِّره دائما أن هناك شخصاً غائباً . حين يجلس لتناول الإفطار في الصباح وحين ينام في الليل في فراشه لا يستطيع الهرب من هذا التذكار . كان قد وضع معظم أشياء المرأة العجوز معها في تابوتها ؛ الأشياء الصغيرة مثل الدبابيس ، وشارة أول قربان مقدس تناولته ، وقطعة أو قطعتين من الثياب . ولم يتوقف عن التفكير أبداً بكيف يتخلص من بقية الأشياء . رغم أن التخلص من الأشياء لا يزوِّدك بكبير عزاء . وهو يدرك ذلك . فلو أنت وضعت أشياء جديدة مكانها ، فأنت تتذكر دائما سبب وجود هذه الأشياء الجديدة ، ولو أنت تركت مكانها فارغا لما استطعت أن تنسى أن هناك شيئاً غائباً . وهذا هو ما حدث مع العصافير المرسومة على لوح الباب الزجاجي . فبعد موت المرأة العجوز ، دهن ألواح الزجاج باللون الأسود ، فضاعت صورة العصافير الواقفة على الأغصان تحت هذا الحداد . لكن دون جدوى . فاللطخ السوداء في أعلى الباب لا هي سوداء ولا هي لطخ ؛ فكلما نظر إليها في ضوء الشمس الصباحي يرى بوضوح ما يختبىء تحتها . إذن عبثاً . لا طريقة لنسيان ما لا تريد أن تتذكره . فما دمت حياً فلا موت للأشياء الأخرى حتى تموت أنت نفسك . فكأن ذاكرة الإنسان هي عقاب وجوده . تذكَّر الحلم فحوّل أفكاره بسرعة إلى وجهة أخرى . يدخن المدير سيجارته كأنه مستجدّ في التدخين .

قال الرجل العجوز : « من حسن الحظ أني ما تخلصت من الكرسي العتيق ، لأنك ما كنت لقيت شيئاً حتى تقعد عليه . كان في بالي أن أتخلص منه » .

سحب المدير نفساً آخر من سيجارته وتطلع إليه . كان ينظر نظرة ممتدة أمامه ، وهو يتكلم ، كأن السامع يقف في مكان ما في الباحة . كان المدير ينقل نظره أحيانا إلى القاطع المواجه للباحة . وكان ذلك يبعث فيه ارتياحاً أكبر .

قال الرجل العجوز : « ولطف كبير منك بعد قول كل شيء وعمل كل شيء ، لطف كبير منك أنك جئت . وهذا يحيّرني حتى أسأل عن السبب الذي خلّاك تعمل ما عملته » . سكت الرجل العجوز ، لكن المدير لم يتكلم ، لذلك سرعان ما تابع الرجل العجوز كلامه : « الناس لا تتذكر أن العجائز أحياء . يعني أنت وجودك مثل الأشياء كأنك كرسي ما عاد صالحا للاستعمال ، وموضوع في الزاوية حتى لا يتعثر أحد به . وإن كنت صرت عجوزاً كبيراً مثلي أنا ، فأنت ، مهما حدث ، تحس بشعور أنك خارج حدودك ، يعني موجوداً في محل لا حقّ لك أن تكون فيه ، وأنك لا تنتمي إلى الدنيا بعد » . ضحك ضحكة خافتة حين أنهى نطق الكلمات الأخيرة ، فهدأ بال المدير . كان قد بدأ يحس بالغرابة ، لكن الرجل العجوز غير قلق ، كما يبدو ، وكل شيء على ما يرام .

قال المدير : « لا أظن أن أي شخص في هذه القرية ينساك ، يا أبي ، لا أنت ولا أمي ، ولن ينساك أحد أبداً إطلاقاً » .

قال الرجل العجوز مبتسماً : « هذا أحسن من ربح جائزة اليانصيب الكبرى ، أن تعرف أنك في ذاكرة الناس حتى لمّا ما تشوفك عينهم ، هذا شعور مليح كثير » .

تململ المدير في الكرسي وتذكر قصتين أو ثلاث سمع الأولاد يروونها عن الرجل العجوز . يحكي بعض الصبيان الكبار عن حوادث مع الماعز . كان عنده ثلاث أو أربع منها قبل الفيضان ، وغالبا ما كان الصبيان يذهبون في الأمسيات لمرافقتها للرعي . وما يحدث للماعز أثناء ذلك لا ينشغل الرجل العجوز به . فهو يعرف أنها ترعى جيداً ، وأنها في حالة صحيَّة جيدة دائما . وحصل أنها أنتجت

صغاراً ، في أكثر من مناسبة ، قبل أن يحسبها الرجل العجوز قادرة على الإنجاب بوقت طويل . وهؤلاء الصبيان الذين مكثوا في القرية يتذكرون كل ما كان يحدث في الأمسيات حين يأخذون الماعز للرعي . أنهى المدير سيجارته وأشعل غيرها .

قال الرجل العجوز : « يمكن يكون ما تقوله صحيحا ، ومع هذا ، لطف كبير منك أنك جئت . عدد قليل من الناس يكلف خاطره ويجيء عندي ، وأحيانا ، أنتظر حتى تنطفىء كل الأنوار ، وبعدها أروح أمشي حول المنعطف . نكتة كبيرة لو سمعت صوت عظامي القديمة وهي تطقطق ، لكن العصا تساعدني فلا أقع » .

قال المدير : « لازم تنتبه . أظن أنك لازم لا تخرج في العتمة » . ضحك الرجل العجوز ضحكة خافتة ، وراقب الدخان يخرج من جرن الغليون .

قال الرجل العجوز : « الحمد لله ، الحمد لله ما عندي أي سبب حتى أخرج الليلة ، لأنك أنت جئت ، وهذا لطف كبير منك » .

قال المدير : « لا أعرف إن كنت ستحب ما عملته » . هذه عقبة مؤقتة في حديثهما ، لم تبدُ على الرجل العجوز أية دلالة على التوتر ، لكن المدير شعر بتغيير في نوعية شعور الآخر .

قال الرجل العجوز : « ماذا عملت يا ابني ؟ » ظهر كأنه لم يتأثر بأي شك أبداً . بل ظهر أنه لا يشك بشيء عدا زيارة المدير . ولم تكن الزيارة شكاً حقاً . بل مفاجأة ، غير أنها بدت طبيعية ، بعد أن جلسا وتحادثا . جلس الرجل العجوز هادئاً ، ينفث دخانه ويراقب الدخان يتجعد صعوداً . كان ينتظر أن يقول المدير شيئا . بدا المدير الآن غير متأكد . تلاعب بالسيجارة على حافة شفتيه ، ثم فجأة قرّب رأسه من رأس الرجل العجوز . كانا صامتين . ثم أراح يده على كرسي الرجل العجوز وانتظر.

قال : « قابلت المالك هذا الصباح من أجلك » . ثم انتظر كأنه يتوقع رد فعل خاص من الرجل العجوز .

سأل الرجل العجوز : « أي مالك ؟ فهّموني أن هناك ملاّكا جداً ، أكثر

من مالك واحد » . لقد سمع بالحادثة في دكان الإسكافي ، كما أنه رافق معظم ما حدث عند الظهر عند المنعطف . لكن لم يزره أي شخص بعد لتزويده بالتفاصيل . ففكر أن المدير قد أخذ هذه المسؤولية على عاتقه .

قال المدير : « أعني المالك القديم . أعني السيد كريتون » . توقف عن الكلام ، ولأول مرَّة أحس الرجل العجوز أنه غير متأكد مما سيتلو . كل شيء ممكن الحدوث الآن ، غير أنه لم يحاول أن يحزر .

قال الرجل العجوز : « استمر . ماذا عن السيد كريتون ؟ » .

قال المدير : « رتَّبنا إجراءات رحيلك » .

سأل الرجل العجوز : « إلى أين ؟ » ازداد قلقه الآن ، لكن لهجته بقيت حيادية ورزينة . تلهى المدير بالسيجارة ، فاستحثه الرجل العجوز .

سأل الرجل العجوز ثانية : « إلى أين ؟ » .

قال المدير : « إلى المأوى » . سحب يده عن الكرسي واستقام في جلسته . واصل الرجل العجوز النفث في الغليون ، مراقبا الدخان يتساقط عبر الضوء فوق السرير .

سأل : « اشترى شخص قطعتي أنا.أيضا ؟ » كان الصوت ثابتا . سحب الغليون من فمه فيما راقبه المدير . مراقبة أشد دقة من أي مرة .

قال المدير : « نعم . بيعت قطعتك » .

وصلا المرحلة التي يأخذ كل منهما فيها تخمين ما يدور في رأس الثاني . الكلمات تقال والحركات يشار بها ، لكنها لا تحمل أي دليل ، وكل منهما يعرف أن الشخص الآخر يختبىء في مكان ما . أما الجسد بأطرافه الغبيَّة المشعَّثة وأصواته التي لا تحمل أي معنى فما هو غير استجابة ذات علاقة بوضع معلوم . لكن لم تورد أية دلائل . ارتاح الرجل العجوز في جلسته ، ثم استدار ليواجه المدير .

قال : « وبيتي ؟ » ثم أدار رأسه ثانية ليواجه الباحة : « ماذا عن بيتي ؟ »

قال المدير : « قلت لنفسي يمكن ترغب في بيعه ، لا تقدر أن تنقله ، يا

أبي ؛ أنا متأكد أنك لا تقدر ، ولهذا السبب رحت وقابلت المالك من أجلك » .

سكتا . أغلق المدير النافذة ووضع العصا في الزاوية حيث يلتقي القاطعان . كانت الريح تثير اللهب في المدفأة صعوداً هبوطاً . والدخان المنبعث من غليون الرجل العجوز ينبسط ويتساقط فوق القنديل وعلى السرير . أشعل المدير سيجارة أخرى . راقب الرجل العجوز يعتدل في جلسته من جديد . كان ينظر في أرجاء البيت كما لو انه سيعقد الصفقة أو كمن لن يفترق عن أغلى ما لديه . تحركت عيناه من ركن إلى ركن ، وراقبه المدير وهو يسائل نفسه عما يفكر به . كان ، بين الحين والحين ، يخفض رأسه ، وكان تعبير ملامحه يتغير إشارة إلى تغيّر أحاسيسه . نفث في الغليون ثم تنحنح وتابع النفث بحدَّة متزايدة متسارعة . راقبه المدير حين رفع رأسه فتوقع منه أن يتكلم .

قال الرجل العجوز : « المأوى ! » ولم يكن من السهل إدراك ما قصده بهذا الاستغراب . سحب الغليون من فمه وفرك عنقه بذقنه . قال ناقلا بصره من ركن إلى ركن في السقف : « هذا البيت العتيق لا عمر له ، وأمي الغالية ـ الله يريحها في قبرها ـ كانت تقول لي دائما : إن كان هناك أي شيء في دنيا الله هذه لازم أن لا أعمله لا في حياتها ولا بعد موتها ، فهو التخلص من البيت العتيق . ما كانت متعلقة بالأشياء الدنيوية ، لكن كان هناك شيء يقول لها دائماً : إلصقي في بيتك » .

مدّ نظره إلى الأمام وهو يتكلم كأن المستمع في الباحة . لم يكن المدير يدري أيهما يقلقه أكثر ، بيع الأرض أم فكرة المأوى . حاول أن ينسى ما يعنيه المأوى . عندها بدا له أن البيت العتيق هو ما يقلق الرجل العجوز . كان يتكلم بطلاقة ومنطق إنما دون أي مراعاة لوجود أي مستمع ، ثم وضع إبهامه في جرن الغليون وسوَّى الرَّماد وملأه بالتبغ . ارتفع الدخان لولبيا مرَّة أخرى ، والتزم هو صمتا طويلاً .

جلس المدير هادئاً في الكرسي متسائلاً عمّا يفكر به . كان مستعداً لدفع أي شيء مقابل الدخول إلى تلك الجمجمة الصلعاء البنية اللون لو كان هذا يعينه على فهم ما يدور في رأس الرجل العجوز . واصل الرجل العجوز النفث في الغليون ومراقبة الدخان ينتشر في الغرفة . لم تبدر منه أية بادرة تنم عن شعوره نحو

المأوى . كان المدير يرغب في اكتشاف شعوره نحوه ، ولكن حتى حين قال مستغرباً : « المأوى ! » لم يكن من الممكن معرفة ما قصده . لقد انتقل بسرعة إلى فكرة البيت العتيق وما قالته المرأة العجوز . المدير يدرك معنى ذلك . فهو قروي من القرويين الذين نجحوا ، ورغم أنه قد اكتسب عادات مختلفة ، فإنه ما يزال يعرف أي الأمور أبعد أثراً فيهم . ولمّا سمع بقصة ما حصل مع الرجلين الغريبين في الصباح وعند الظهر ، تفهَّم الموقف تماماً . فهم المدير ما لم يستطع أن يفهمه الرجلان الغريبان كما فهم ما اعتقد الإسكافي والسيد « فوستر » أنه بدون معنى . فقد شارك في العالمين كليهما ، وهذا الفهم المزدوج هو ما حدا به إلى زيارة الرجل العجوز . لقد أراد أن يعدَّه لاستقبال الصَّدمة ، كما أراد أن يساعده بمشاركته بالإحساس بها . غير أنه كان من الصعب عليه أن يكتشف مشاعر الرجل العجوز . فهو لم ينفجر ثائراً كما فعل الإسكافي والسيد « فوستر » ، ولم يكن كبر سنه هو سبب عدم ثورته ، كما يبدو . بل إنه يشعر بأحاسيس من مستوى مختلف كلياً .

استعاد المدير تذكُّر ما يعرفه عن الرجل العجوز . كان في وضع مادي مريح ، قبل عدّة سنوات ، ورغم أنه قد صرف معظم ما كسبه في بنما ، فإنه لم يبلغ أبداً حدَّ الفاقة . ولا يبدو عليه الندم على أي شيء أبداً ، ولا حتَّى فقره الحالي الذي يبدو محتملاً . ومظهره مرتب على الدوام وتصرفه لائق يذكِّر الناس بأن أيامه الماضية كانت أحسن حالاً . كل الناس تلاحظ مظهره المرتّب اللائق ، وكان القرويون يقولون إن الرجل العجوز كان رجلاً عظيماً في الماضي . كان عنده نقود كما كان مظهره كريما لائقاً ممّا يجعلهم يعدّونه من الأكابر العظماء . وكان للرجل العجوز عقل ، والعقل هو الرجل . واستعاد المدير تذكّر ما يعرفه عن المأوى ، وحاول أن يجمع بين كل ما تذكّره . ما رأي الرجل العجوز بالذهاب إلى المأوى ؟ هذا هو السؤال الذي يسبب له أشد القلق . وكان سيطمئن بالاً لو استطاع أن يعرف أكيداً رأي الرجل العجوز في هذا الاقتراح . لكنه لم يناقش القضية . لقد ذكر الكلمة ببساطة ثم نقل اهتمامه ، بسرعة ، إلى بيته وإلى كل ما قالته المرأة العجوز .

كان المدير على علم بما يمثله المأوى . الجميع يعرفون ما يمثله المأوى ، رغم

أن الواقع هو أنهم كلهم قد يجهلون ما هو المأوى حقيقة. المأوى مؤسسة خيرية . لكنها أعمال خير من نوع خاص . أعمال الخير هذه لا علاقة لها البتّة بالمحبّة أو العطف ، أو بالدوافع الانسانية لتوفير المساعدة حيث تلبي حاجة ملموسة . المأوى هو نوع من العبء الثقيل على كتف الحكومة . إنه المهمة الممجوجة لمنع الكبر في السن والفقر والمرض من الانتشار بحيث تسبب إزعاجا لا مناص منه إن لم يلتفت للعناية بأناس معينين . الجميع يعرفون هذا . من يخدم في المأوى ، والضحايا التي تتلقى هذه الخدمات . سواء بسواء . وغالباً ما كان المقيمون فيه يختزلون إلى حزم عديدة من العظام يمسكها الى بعضها بعضا ويغطيها شيء لعله كان ،ذات يوم، لحماً . تذكر المدير زياراته إلى أكثر من مأوى واستعاد حالة تلك الأشياء التي رآها ممدَّدة على الفراش ؛ فمن كان يملك بعض القوّة يتمشى في الباحة ، وأما المشلولون والمسلولون فيبقون في الداخل محجورون في عجزهم . ففي المأوى أقسام خاصّة تلتجىء إليها تلك الحالات المصابة بالسل التي ترفض المستشفيات قبولها . فالسل هو المرض الذي يحمل أكبر وصمة اجتماعية . لقد رأى الكثير من هذه الحالات إبان زياراته . وكان هناك أيضا الصمّ والبكم والمكفوفون ، والمنتفخون وذوو القروح المتقيحة ، بل حتى بعض المصابين بالبرص . وحين يسمعون وقع خطاك يحاولون أن يمدوا يداً لتلقي البنس المعتادين على شحذته . ولو كانت الممرضات على مقربة فإنهم يحاولون أن يشحذوا منك بالإشارات . ففي مثل هذه المناسبات ، تصبح الممرضات ألدّ الأعداء ، وكثيراً ما عجب من سبب إنكار الممرضات الحاقد لهذه الصدقة الزهيدة . كما كان يستغرب ، أحياناً ، اهتمامهم بشحذة النقود . فهم لا يقوون على مغادرة الفراش ، ولكن الشحذة قد أصبحت ، على ما يبدو ، عادة بديلة يستعيضون بها عن غيرها من أنواع النشاط . لقد رآهم مراراً وفي مراحل مختلفة من مراحل الاحتضار ، وكثيراً ما تساءل عن سبب عدم توفير المساعدة للبعض منهم فيما يبذله من جهد للخلاص من الألم . كان منظرهم صدمة لا توصف أو تصدّق . فهم ليسوا رجالا ، بل هم أشياء تقدر على إتيان إيماءات معينة ، وعلى البكاء والصراخ ، ولهم أجهزة تستطيع تسجيل أقصى درجات الألم حدَّة .

هذا هو المأوى . ليس سجناً ، فالسجن قد يصبح بعضا من معاناة

الرجل ؛ بل هو المرحلة النهائية من الانحطاط الانساني ، مقبرة أولئك الذين سمح لهم ، رغم موتهم ، بالبقاء في قيد الحياة ، وهو النقطة الأخيرة التي لا يستطيع أي ضحية ، وقد وصلها ، أن يدَّعي أية صفة إنسانية كريمة . الرجل العجوز لم يتكلم ، كما أنه لم يأت بأية اشارة تدل على الخوف أو القلق أو الغضب . جلس يدخن غليونه ويراقب الدخان يطفو في كل الاتجاهات عبر البيت ، وكان المدير يتساءل عن ماهية شعوره . لقد انسحب كل منهما بعيداً عن الآخر ، على ما يبدو . أشعل المدير سيجارة أخرى . تساءل عما إن كانت فكرة المأوى قد أشعرت الرجل العجوز بالذل والهوان . لعل الوضع يختلف مع أبي لأن له ماضياً يستنجد به ، وهو ليس فقيراً معدماً كحال بقية نزلاء المأوى . ولو التحق بالمأوى فالسبب بسيط وهو عدم وجود من يعنى به . وفي مثل هذه الظروف سيلاقي معاملة أفضل . فلو التحق بالمأوى وهو يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة فسيلاقي معاملة مختلفة ، على الأرجح . قد تدلّله الممرضات . تململ الرجل العجوز في كرسيه فوضع المدير حدا لفرضياته . تلاعب بسيجارته وراقب الرجل العجوز . أنهى تدخين سيجارته وراقب الرجل العجوز يسحب الغليون من فمه . سرعان ما صفا الهواء من الدخان فسقط ضوء القنديل نقيا واضحاً على الجمجمة العارية . استدار الرجل العجوز وتطلع في المدير . حاول أن يتكلم ، فلم تخرج الكلمات في البداية ، فتنحنح . المدير ملهوف لمعرفة ما فكر به .

قال : « أشياء قليلة يمكن أن تفاجئني الآن ، أشياء قليلة جداً ، لكني أحب أن أعرف شيئاً واحداً ، فقط شيئاً واحداً أو اثنين » . أصبح صوته الآن سوياً وشديد الانضباط .

قال المدير : « قل لي » ، وقد ظهر كأنه يغريه .

قال الرجل العجوز : « هذا هو ، أول كل شيء ما هو سبب ترك السيد « سلايم » للتعليم ، وكيف ولماذا اشترى هذه الأرض مع أن الحب والانسجام مفقود بينه وبين السيد كريتون ؟ » .

المدير غير واثق مما عليه أن يقول . فقد استقال السيد « سلايم » من المدرسة لأسباب جديرة بالثناء والمديح ، كما يشيع بين الناس . وقد تابع معظم

الناس وصوله إلى السلطة باهتمام بالغ . كما أنه أنشأ أشياء معينة مثل بنك البنس، وجمعية الصداقة . وهما كل ما احتاجه الناس ليمنحوه رضاهم عن أعماله . وهاتان المؤسستان قد ساعدتا معظم الناس . فهم يودعون بنساتهم فيهما ، ويقبضون ، مقابل ذلك ، مبالغ متواضعة تسعدهم . هذه بدعة جديدة ، ولكنها مفيدة بالنسبة للكثيرين منهم . تعلموا الاقتصاد . الرجل العجوز ينتظر تفسير المدير ، لكن المدير غير واثق مما يجب عليه أن يقوله . قال ببساطة إن السيد « سلايم » قد استقال ، وحين نطق الكلمة ظهرت كأنما تحمل معنى خاصاً . فهي لا تعني تَرَكَ فحسب ولا تعني استَقَال فحسب . لكن الرجل العجوز لم يكترث كثيرا بذلك إذ أن لديه أفكاره الخاصّة بشأن السيد « سلايم » ؛ فهو يؤمن بما كان يقوله عن السيد « سلايم » للمرأة العجوز . قال : « أنا دائما أقول لنفسي إنه ترك التعليم في المدرسة لأنه يريد أن يعلِّم تعليما من نوع أكبر . وكان شعوري هو أن التعليم الذي يعلمه للناس الأكبر في العمر هو تعليم أكبر من التعليم الذي كان يعلمه في المدرسة . وبطريقة من الطرق هذان النوعان من التعليم غير منسجمين مع بعضهما . التربية التي كان يعطيها للأولاد ودرس الكتب معهم لا تتمشى بانسجام مع التربية التي كان يعطيها للناس الكبار في العمر عن المنبر كل ليلة . كان لازم يختار واحدة منهما ، ويظهر لي أنه اختار المهمّة » .

قال المدير : « المدرسة مهمة جداً » . وكان سعيداً لأن الرجل العجوز لم ينبش أكثر حول استقالة السيد « سلايم » وفكّر بضرورة إبعاد هذا السؤال عن الموضوع .

قال الرجل العجوز : « صحيح ، هذا أيضا صحيح ، لكنه كان يضرب ضربة أكبر ؛ يمكن كان يقول إنك تقدر أن تترك الأولاد حتى يكبروا أكثر فيصير للتربية معنى أكبر ، لكنه أراد تعليم الدرس للكبار في العمر » .

قال المدير : « لا أعلم بالضبط كيف ولماذا اشترى الأرض » . راقبه الرجل العجوز بثبات كأنه سيكتشف ، عاجلا أم آجلا ، جواب سؤاله في عيني الآخر . تزداد عدم ثقة المدير فيما يتعين عليه أن يقوله . فجلّ مبتغاه هو أن يحوّل اهتمام الرجل العجوز عن استقالة السيد « سلايم » .

قال مرة ثانية : « الحقيقة أنني لا أعرف كيف ولماذا اشترى الأرض » .

قال الرجل العجوز : « هناك من يقول إنه يعرف كيف ؛ لأن الورقة على العمود خبّرتهم . الورقة تقول أشياء عن البنك والجمعية . فهو اشتراها بنقود هذين الاثنين » .

قال المدير : « جائز . لكنني أظن أن الكثيرين وضعوا نقودهم فيهما » . إنه يحاول الآن ، كما يبدو ، أن يتهرب من قضية الأرض ، شأنها شأن استقالة المعلم . لو كان غريبا لاختلف الأمر . لكنه يدرك شعور الرجل العجوز ، بل إنه يشترك معه في بعض هذا الشعور ، سواء رغب في ذلك أم لم يرغب .

قال الرجل العجوز : « كان يقول دايما من زمان ، من زمان في أول أيامه ، إنه سيجعلنا ملاّكين » . أشاح برأسه عن المدير . « وما لا أفهمه هو كيف سمح للرجال الغرباء بالدخول في القضية » .

قال المدير : « الغرباء الذين سمعت بهم وضعوا نقوداً في البنك والجمعية . إنهم ما تسمّيه شركاء . السيد « سلايم » هو الزعيم بكل تأكيد ، لكن هناك غيره وضعوا نقودهم معه ، ولهم الحق الأول في اختيار أي قطعة يفضلون ، وشرائها » .

سأل الرجل العجوز : « ما هو عدد الذين وضعوا هذه النقود ؟» .

قال المدير : « لا أعرف » .

قال الرجل العجوز : « أنا أظن أن عدد من لهم الحق الأول في الاختيار هو نفس عدد سكان هذه القرية » .

قال المدير : « لا أظن هذا » . كانت أسئلة الرجل العجوز تزيده ارتباكاً وتوترا . لقد قال الرجل العجوز إنه يريد أن يطرح سؤالاً ، أو ربما سؤالين ، غير أنه قد طرح ألوف الأسئلة ، كما يبدو . ولم يستطع المدير أن يدرك بما يفكر . كان تعبير ملامحه غريباً . كان ، أحياناً ، ينظر إلى جهة أخرى كأنه لا يريد أشياء معينة . وكان ذلك مربكا جداً بالنسبة للمدير . لم يكن قادراً على قمع الأسئلة لأنه يفهم الوضع . فكأنه يدفع ضريبة تفهمه . كان يدرك شعور الرجل العجوز ،

رغم أنه لم يدرك تماماً ماهية أفكاره . كان الرجل العجوز في غاية الانضباط وتمالك الأعصاب ، وإن بدا انه تمكّن من ذلك بجهد وصعوبة . وحين كان يشيح برأسه أحيانا ، فما ذلك إلا لأنه لا يطيق احتمال ما يعتقد أنه يراه . تململ في كرسيه وتطلع الى المدير مرة ثانية .

قال الرجل العجوز : « ولماذا باعها المالك بدون أن يخبرنا ؟ لماذا عمل هذا ؟ » . تغيَّرت لهجته ، وتسرّب إلى صوته شيء من اليأس . كاد المدير أن يتكلم ، غير أن الرجل العجوز قاطعه . بدا أنه غاضب .

قال : « أنا وأمي ، بالطبع كنا نعرف أنه سيبيعها . لكن لا يجوز له أبداً أن يتركنا مثل الكلاب الشاردة بدون مالك . كان يقول دائما إنه مسؤول عن أهل القرية . هذا هو ما يقوله دائما ، عنده مسؤولية قد نفهمها تماماً . والآن ، انظر انظر إلى ما عمله » .

يبحث المدير عن قول مناسب يقوله . لقد أحسّ بالتغيير الذي انتاب الرجل العجوز فجعله ذلك غير واثق بأي قول قد يقوله . كما أنه زوّده بالشعور بالذنب . فهو ما يزال راغبا في معرفة ما يدور في ذهن الرجل العجوز بالنسبة للمأوى ، لكنه لم يقل أي شيء حول ذلك . فالرجل العجوز التزم بموضوع الأرض . لقد رغب في توضيح بعض المبادىء المعينة المتعلقة بالأرض . لقد أزعجه بيع الأرض ، وتسبَّب كل ما يمكن أن يكون قد حصل ، في شعوره بالقلق الشديد . لقد تذكر الوعود التي قطعها السيد « سلايم » . سيساعد القرويين لشراء الأرض . لقد أعاد وكرر على مسامعهم ضرورة أن يمتلكوها ، وأنهم لا بد أن يمتلكوها إن هو نجح . لم يقلقه بيع الأرض في البداية . لقد قال في نفسه إن ذلك يتيح الفرصة للسيد « سلايم » أن يحقِّق ما رغب في تحقيقه دوماً . فلو ان السيد « سلايم » قد نصَّب نفسه المالك الجديد ، فلن يقوم من يمنعه من إعطاء الأرض للقرويين . فبيع الأرض هو الخطوة الأولى على طريق الوصول إلى الأرض الموعودة . غير أنه لم يستطع أن يفهم سبب اختيار المالك للسيد « سلايم » ليبيعه الأرض . فمن المؤكد أن مرّد ذلك لا يعود إلى حبه أو صداقته للسيد « سلايم » ، إذ أن هذا الأخير قد نصب نفسه عدواً للمالك . فهو المسؤول عن الإضراب الأول ، كما أنه لعب دوراً كبيراً في الاضطرابات . وتذكر ما حلّ بالسيد « كريتون » إبان

الاضطرابات . لقد اقترب من حافة الموت وهرب منها . هذا يقلقه . لماذا باع السيد « كريتون » الأرض للمعلم ؟ ليس هناك ما يجبره على ذلك ، إذ أن من حق مالك الأرض ان يتخلص منها كما يحلو له . وهو يرغب من المدير ان يساعده في حل هذه المعضلة . بالإمكان التريث بشأن غير ذلك من القضايا ، أما هذه فملحّة . هذه العلاقة الغريبة بين السيد « سلايم » والمالك . تلاعب المدير بالسيجارة بين شفتيه ، في انتظار ان يتكلم الرجل العجوز . كان يجاهد لاستيعاب الأمور .

قال : « لعل المالك، لعل المالك قال لنفسه إن السيد « سلايم » هو واحد منّا ، وباعتبار النجاح الذي ناله البنك والجمعية ـ لأن المالك يحترم هذا النجاح ـ باعتبار كل هذا، لعله قال لنفسه إن السيد « سلايم » هو الرجل المناسب ؛ وإن كان هذا صحيحاً ، فما سبب تدخل الرجال الأغراب ، لأنني لا أظن ان السيد « كريتون » توقّع حصول ما يجري الآن ؟ » .

قال المدير : « لا أعرف ، لا أعرف » .

كان يتكلم بمنتهى الصعوبة . فالرجل العجوز فوق طاقته على التواصل والضّبط .

قال الرجل العجوز : « لكن لعلك تقدر ان تكتشف السبب ، فأنت في مركز يتيح لك الاكتشاف ، وأنا كبير في العمر كثيراً حتى أكتشف ، أنا كبير كثيراً على مثل هذا » .

أراح المدير يديه على ركبتيه . لا يقدر على مبادلة الرجل العجوز نظرته ، كما أنه لا يطيق احتمال الرجفة في صوت الرجل العجوز . جلس الرجل العجوز في كرسيه يرتعش . أمر لا يطاق ، فشله في الاستيعاب ، وخيبة أمله ، وتوجّسه من الكارثة المحتملة الآتية .

قال الرجل العجوز : « أنا لست أبكي . أنا كبير في العمر كثيراً على البكاء » .

كان وجهه مبتلاً . أطفأ المدير سيجارته ، وتساءل إن كان عليه أن يذهب .

الوقت متأخر ، وهو لا يطيق احتمال منظر الدموع على وجه الرجل العجوز . كانت تنهمر غزيرة داخل فمه . لكنه استمر يمص غليونه ، ويراقب ـ من خلال الضباب الغاشي عينيه ـ الدخان ينتشر في الغرفة . أمسك المدير يده فترة . حاول الرجل العجوز ان يقول شيئاً ، لكن حزناً عميقاً ، أعمق من كل ما عاناه قبلاً ، خنق صوته . ما أشبهه بطفل في ارتجاف أطرافه ودموعه المنهمرة على وجهه ! وقف المدير ، لكن الرجل العجوز لم ينتبه . نظر الى القاطع نحو الباحة .

قال المدير : « عليَّ ان أذهب ، لكن لا تتعب رأسك بأي شيء ، فأنا لن أستعجلك ، وسأشتري البيت إن كنت تريد أن تبيعه . يجب ألّا تقلق » . لم يدر إن كان ما قاله هو القول المناسب ، لكنه كان متأكداً من أنه لا يريد البقاء بعد . لا يطيق الاحتمال . بدا كأن الرجل العجوز لم يسمع ، فما أجاب . ربَّت المدير على كتفه وسار عبر الباب وأغلقه خلفه بهدوء . الغرفة ملأى بالدخان ، وضوء القنديل ينبعث خفيضاً فوق الطاولة قرب السرير .

١٤

لقد تسرَّب السَّمن عبر غلاف دفتر التمرينات تاركاً رقعة صفراء باهتة على الصفحات الأولى . لقد ضاعت رائحته ، غير أن اللون كان يحول بيني وبين الكلمات المكتوبة . قلبت الصفحات حتى وصلت صفحة غير ملطَّخة ، وقرأت .

كانون الثاني (يناير)

مع انتهاء سنة وبداية سنة جديدة أقطع على نفسي الوعود نفسها ، وأهمها كتابة المذكرات . أنشغل بها حتى شهر أيار (مايو) ثم يبدو كأن لا مبرر للكتابة فتكون نهاية المذكرات . أضع الملاحظات فوق الرف فلا يعود يسمع أحد بها إلاّ إن هو أنقذها من بين الزبالة . لكنني قطعت العهد هذه السنة ، وها أنا أبدأ المذكرات ، إذ أن ما حدث في السنوات الماضية لا قيمة له . لقد ختمنا موسم الاحتفالات بحفلة عيد الميلاد والمعرض الزراعي السنوي ، وقد تمتعت حقا بهذا العرض . ففي كل سنة يختار هؤلاء المزارعون والفلاّحون أفضل إنتاج محاصيلهم ويعرضونها في « منتزه الملكة » ، وهذا يتيح المجال للذين لا يعيشون في الريف أن يكوّنوا فكرة عن معنى الحياة والعمل في الأرض . ولقد اعتدنا على قصب السكر والخضروات ، غير أننا لم يسبق أن رأيناها أبداً في مثل هذا الحجم . وكل هذه المعروضات يفوق حجمها حجم ما عرفناه في المدينة بثلاثة أضعاف . وكذلك الحال بالنسبة للحيوانات . وهناك الآلاف من الحمائم ، من كل لون وشكل ، تنتظر في الأقفاص تحكيم الحكّام ، ويصطف قبالتها صفوف من الكلاب ، في بيوتها ، منتظرة التحكيم أيضاً . ولم أر أبداً منصَّة للقطط . وأنا لا أفهم سبب عدم اشتراك القطط في المعرض . وهناك النساء ، وهنَّ ـ بطريقة من الطرق ـ اكثر المعروضات

إثارة . وليس لهن ملّاك ، مثل الحيوانات ، غير أنهن قد أتين أيضا بهدف العرض والاستعراض . ولعلّ من العار أنهن ارتدين الثياب نفسها في الليلة الأخيرة ؛ إذ عندما حلّ الظلام رأيتهن يجلسن على الحشيش كالحرّاس . ثم دقّت الساعة فقال حرّاس الحديقة إن كل شيء قد انتهى ، لكن من افترشن الحشيش لم يذهبن ، وكنت أعرف أن ثيابهن لا بدّ قد تلطّخت . وحين عبرت الجسر في منتصف الليل ، وما تزال الفتاة التي تركتها لتوّي متشبثة في ذاكرتي ، فكّرت بضرورة القيام بعمل . يجب أن يكون هناك مكان نستطيع أن نبدّل فيه ملابسنا بأخرى أمتن منها تناسب الليل . وفي كل سنة أتساءل إن كان هذا هو آخر معرض أزوره ، ولذلك فأنا لا أضع أي خطط للمعرض التالي . غير أن الأرجح أن ينظم المعرض ثانية ، وسنعود لنرى إنتاج الأرض معروضاً ، ولعرض أنفسنا أيضاً .

* * *

أمي تنادي من المطبخ قائلة إنها ستكون جاهزة سريعاً . قطعت قراءتي منتظراً أن أسمع إن كانت ستتكلم مرة ثانية . فمن غير الحكمة ألّا أسمعها حين تتكلم . لم تتكلم ، فقلبت الصفحات وتابعت القراءة .

* * *

آذار (مارس)

الرجال جالسون حول الطاولة في نادي « ميامي » . أربعة رجال ، لا أعرف اثنين منهم . أحدهما المدير ، أما الآخر ، الأقرب إليّ في موضعه وقد أدار ظهره ، فهو السيد « سلايم » . يشربون الروم والصودا . أما أنا فأشرب ماء جوز الهند وأحاول أن أتحاشاهم . لا أرغب أن يراني السيد « سلايم » او المدير . وليس السبب خوفي ، لكنني حسبت التحدث معهما صعباً . كانوا يبحثون الأرض والظروف التي سيخلقونها للقرويين . فبعد بيع القطع الممتازة سيبيعون القطع الباقية للقرويِّين . قال أحدهم إن من غير المحتمل أن يتمكن القرويون من الشراء . فثمن كل قطعة هو ثلاثمائة دولار ، وقد نسيت قيمة الفائدة التي على المشتري أن يدفعها إن لم يتمكن من الدفع نقداً . قال أحدهم إنهم سينالون حوالي الخمسمائة دولار من كل قطعة إن هم حصلوا على الفائدة التي يتوقعون . وكان الرجل واثقاً من أن الفائدة ستزداد لأن القرويين لا يقدرون أن يدفعوا أكثر من

ثلاثة أو أربعة شلنات كل أسبوع . وستأتي أسابيع لن يستطيعوا خلالها دفع أي مبلغ . السيد « سلايم » لم يتكلم ، ولم يتكلم المدير أيضا . طلبوا الروم والصودا ثانية ، وحين مرّ النادل قربي طلبت منه كأساً مضاعفة من جوز الهند . قال أحدهم إن من الضروري أن تقدِّم العرض ، على الأقل ، حتى لو كنت واثقا أن القرويين لا يستطيعون استغلاله . تساءل المدير عما يمكن أن يفكر القرويون به ، فقال أحدهم مازحاً إن المدير يفكر ، على الأرجح ، في أن يصبح سياسياً . ووافق السيد « سلايم » على ضرورة التفكير بما قد يحلّ بالقرويين ، غير أن ليس في الإمكان الإتيان بأي مساعدة مباشرة . سوف يقدِّم العرض لهم . كأن المدير يريد أن يطرح سؤالا على السيد « سلايم » ، لكن الشجاعة خانته . حاول مرّتين أن يتكلم ، ثم قال فجأة ألّا أهمية للأمر . أنهوا شرب كأس جديدة من الروم والصودا ثم جمعوا أغراضهم . أبقيت رأسي خفيضا . ثم سأل السيد « سلايم » المدير إن كان قد وجد شخصا ينقل بيت الرجل العجوز أم أنه قد قرر شراءه . تساءلت إن كانوا يفكِّرون بأبي . أبطأ المدير في الإجابة . احتار السيد « سلايم » . يبدو أنه لا يفهم سبب قلق المدير . قالوا شيئا عن المأوى فتملكني الفزع . يبدو أن أحد الرجلين اللذين لا أعرفهما يعرف عما يتكلم المدير . قال شيئاً عن الرجل العجوز ، ثم قال ألّا أهمية لذلك إذ لديه من يقوم بالمهمَّة . طلبت من النادل كأساً من الروم والصودا ثم هرولت خارجاً من النادي . هذا يشبه جريمة القتل .

* * *

نادت أمي لتقول إنها ستكون جاهزة سريعاً . انتظرت لأسمع إن كانت ستتكلم ثانية ، فلم تفعل ، فقرأت الجمل الأخيرة في الصفحة . كانت أمي تحرِّك الطعام بعنف في المطبخ ، وكنت أرغب في الانتهاء من الملاحظات قبل حضورها . بدا لي هذا متعذراً لذلك قلبت الصفحات الأخيرة وقرأت ما كتبته قبل يوم واحد. نادت قائلة إنها قادمة ، لكنني ما أجبت . سأغلق المذكرات عند وصولها .

* * *

نيسان (أبريل)

كلا ، من غير المحتمل أن أزور المعرض ثانية . وأنا واثق الآن أنني أشاهد معظم الأشياء هنا للمرة الأخيرة . لقد وصلت بطاقات السفر هذا الصباح ، وسأركب الطائرة في الصباح الباكر من يوم الأربعاء . وحتى وصول البطاقات كنت

أعتقد أن هناك احتمالاً للبقاء . أما الآن فلن أبقى إلّا إن أضعت البطاقات . لكنني لا أريد أن أبقى . ليس هذا صحيحاً تماماً . بل إن الأصح هو أن أقول إنني أريد أن أرحل . وكنت أتساءل عن ماهية المكان الآخر . وحسبما أعرف لا يعرفني أحد هناك ، وعليه فبإمكاني أن أبدأ بصحيفة بيضاء نظيفة وأحاول أن أترك انطباعاً حسناً . ولو لم تكن من أهل البلد فإن حظك في الانتماء الى طبقة الأكابر فيه هو حظ ممتاز . أمي تحزم المتاع منذ حوالي الأسبوع ، ممّا قد يجعلك تحسب أنها راحلة ايضا . والليلة سأكون الديك الفصيح في حفلة الوداع ، وبعد يومين أكون قد رأيتهم جميعا لآخر مرّة .

لا أتذكر أي شيء سوى الغناء . صاحوا منشدين : « هو رفيق طيِّب » ، وهذا ما لم أكنه أبداً بالطبع . وحين أراجع هذه العلاقات تبدو لي في غاية الغرابة . فأنا دائما هنا في هذه الجهة والآخر هناك في تلك الجهة ، ونحن كلانا نحاول دائماً أن نجعل الجهتين تبدوان متماثلتين في الحاجة والرغبة والطموح . لكن هذا غير صحيح . ولم يكن صحيحاً أبداً . وحين أصل ترينداد حيث لا يعرفني أحد قد أستطيع أن أوحِّد هويّتي مع الآخر . لكن هذا كان متعذراً هنا دائماً . وأنا أخاف ، على الدوام من أن أكون معروفا ، لا لأنهم يعرفونني حقاً ، بل ببساطة لأن ادعاءهم هذه المعرفة هو محاولة مضمرة لتحطيمك . هذا هو معنى المعرفة . حالما يعرفونك سيقتلونك ، واشكر ربك أن هذا هو سبب عدم قدرتهم على قتلك . فهم غير قادرين على معرفتك أبداً . وأحسب ، أحياناً ، أن الأمر نفسه سيصحّ في ترينداد . ستلتقي المتشابهات وتمرح ، لكنهم لن يعرفوك . لن يعرفوا الأنت تلك المختبئة في مكان ما في قلعة جلدك .

في طريقي إلى البيت تحرّشت المومس بي . كانت في ثياب أنيقة وعطرها فوّاح إلى السماء . ذهبنا إلى البيت وحين غازلتني بأصابعها تجشّأت . ضحكت مثل مهرج السيرك وقالت إنه لم يسبق لها أن جعلت أحداً يفعل هذا . جلست في السرير عارية وكان جلدها سميكاً متغضّناً . لم أدرِ إن كان قبيحاً أم جميلا ، غير أنه لم يسبق لي أن رأيت هذا النوع من السّواد من قبل . لامع مبتلّ . تجشأت ثانية فصرخت أن بإمكاني الرحيل إن لم أكن راغبا في فعله . قلت إنني لا أرغب في فعله ، لكنني سأدفع لها مع ذلك وأحكي لها قصة . لبست وسمعت . حين كنت

صبياً صغيراً عرفت صبياً صغيراً آخر كان من عادته أن يجمع خراء العصافير . وحين يجمع الكمية اللازمة كان يقطع عصاً ويدهنها بخراء العصافير . كان يخبىء العصا حتى يحل الظلام ، ثم يخرج بدون أن يراه أحد وهو بالكاد يرى ، ويتحدث مع صبي آخر . ثم يطلب من الصبي أن يمسك بالعصا ، وما أن يمسك الصبي بها حتى يشدها من بين قبضة أصابعه ، فينحل الدّهان في كومة صلبة صغيرة في يد الصبي الآخر . قالت إنها مضحكة جداً جداً ، لكنها لا تفهم سبب إخبارها بها . لم أستطع الانتظار لأشرح لها .

موعدي الأخير كان ليلة البارحة . لن أكتب في هذا الدفتر ثانية ، لأنني أعيد وأكرر الأشياء نفسها . إني راحل غداً . ستلتقي المتشابهات وتمرح ، لكنهم لن يعرفوك ، الأنت المختبئة في مكان ما في قلعة جلدك .

* * *

قالت أمي وهي تطرطق الأطباق فوق الطاولة : « حدث شيئان » . كنت أقرأ الجملة الأخيرة في المذكرات . طرطقت بالجاط قبل أن تضع قربه طبقين كبيرين لونهما أبيض . النور يسطع في الغرفة. أعادت قولها : « حدث شيئان » ، فرفعت بصري عن الدفتر وسألتها عما حدث . اعتقدت أن ما حدث غير ذي أهمية ولم أكن مباليا به . مصمصت أسنانها وانسلت خارجة من الغرفة . واصلت مراجعة ما قرأت من مذكرات . عادت بعد لحظة تحمل جاطاً آخر وطبقاً آخر . الغرفة ملأى بالبخار . ساد السكوت وهي ترتب الأشياء على الطاولة ثم ضربت بيدها الطاولة وصاحت : « إن اعتقدت أنك تقدر أن تعاملني كما يحلو لك ، فإنك تغلط غلطة محزنة » . تركت الدفتر ورفعت بصري سائلا عما حدث . لقد انسلّت من الغرفة مرة ثانية . كنت أرغب في مواصلة قراءة المذكرات ، لكن الاستمرار في إثارتها غير آمن العواقب ، ثم إنني لا أعرف سبب كلامها بهذه الطريقة . عادت إلى الغرفة تحمل إبريق ماء وكأسين . حملت الإبريق متّزنا في إحدى راحتيها بينما كان الكأسان يتراقصان بين أصابع يدها الأخرى . ما أشبه منظرها ببهلوان بارع في السيرك . وضعت الإبريق والكأسين على الطاولة واستدارت نحو الباب .

قالت : « لن أقبل هذا أبداً ، أنا أحذرك ، لأنك ما صرت رجلا بعد . أنت فوق السابعة عشرة بقليل ، لكنك ما شفت أي شيء من هذه الدنيا بعد » .

كنت قد وضعت الدفتر تحت الكرسي ، فاستثارني حافز شديد لاسترجاعه ومواصلة القراءة . لا رغبة لي في مشاكستها ، لكن أثناء مثل هذه العظات التطهيرية كنت أشعر بغاية الارتباك إن لم يكن معي شيء يستحوذ على بعض انتباهي . ما أصعب الجلوس والحملقة عبر البخار المتصاعد أثناء توبيخها . كان الضباب يتصاعد من الطاولة وينتشر فوق ظهرها الذي أدارته لي واقفة بالباب تنظر إلى البعيد . عندي رغبة في أن أسألها عما حدث ، لكن الكلام عسير جداً . غادرت الغرفة وبقيت في كرسيّ أتساءل إن كان من الضروري أن أسألها عما حدث . عادت تحمل طبقاً صغيراً فيه ملح وقنينة فيها فلفل أسود منقوع في الخل . الوجبة جاهزة ، ففكرت أن عليّ أن أبدأ الأكل . وضعت الأشياء على الطاولة وتراجعت خطوة نحو الباب . كانت غيمة البخار ترقّ وهي تتسرب خارج الغرفة . ألقيت نظرة على الطعام ، وأخرى على أمي .

« أنت بالكاد فقست من البيضة ، ومع هذا تعاملني كأنّي خادمة في البيت » ، كان صوتها هادئا لكنه مفعم بالعدوانيّة . « ماذا تحسبني ؟» سألت ، ثم كررت السؤال وقد استدارت لتواجهني . « ماذا تحسبني ؟ » سألت ثانية وقد ظهر عليها أنها تنتظر جوابي . الآن أريد أن أتكلم ، غير أنه لم يتضح لي كيف أهنتها ، وكان من شأن الإهانة أن تبدو أعظم لو أنا سألت عمّا فعلته . تساءلت كيف أواجه سؤالها دون أن أسبب المزيد من الانزعاج . سحبت كرسياً وجلست في الجهة المقابلة من الطاولة ، ولم ترفع بصرها عن الأرض . كان الضوء يتكثف في بواكير ظلام ليل القرية . ورأيت ، عبر الباب ، الغيوم تتجمع في كوم أثقل وشعاع الشمس يتضاءل ويرق فوق صفائح الزينكو على أسطح البيوت . الغرفة مضاءة نصف إضاءة والبخار يتصاعد من الجاط والأطباق . ذكّرني جو الغرفة بالضباب المتكسر فوق التلال في الصباح الباكر ، فأنت تتوقع أن تغطس الشمس فيه في أي لحظة . أو أن يخنقها حلول مفاجىء للظلام . كنت سعيداً بوجود ضباب البخار في الغرفة ، لكنه كان يتسرب إلى الخارج وكانت الغرفة تزداد إضاءة وصفاء .

أبقت أميّ رأسها خفيضا تحملق في الأرض ، وكنت أتحيّن اللحظة المناسبة حتّى أعقد صلحاً معها . وكان من الصعب أن أكتشف اللحظة المناسبة. ليست هذه خبرة جديدة ، فأنا معتاد على انفجارات غضبها المفاجئة . وكنت أحسب ألا

داعي لهذه الانفجارات ، غير أنها أصبحت كثيرة متكررة في الآونة الأخيرة بحيث اعتقدت ألاّ حيلة لأمي بشأنها وهي ليست مشاكسة بطبعها ، لكنها أصبحت في غاية القلق واللهفة بشأن كل شيء في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة . فكانت التقارير الفصلية التي ترسلها المدرسة الثانوية تشغل اهتمامها أسبوعا كاملا . لم تكن تفهم لماذا يقول الاساتذة ما يقولون ؛ فهي لم تكن تعتقد أنني على هذه الدرجة من السُّوء ، كما أنها لا تعتقد أن الاساتذة يكذبون . كانت أحيانا تبكي وهي تندب ضياع كل شيء ؛ وكانت أحيانا أخرى تقابل الاستاذ الذي قسا عليّ في تقريره أشد القسوة . أصبحت أعصابها متوترة جداً . وكل ذلك بسببي أنا ، كما يبدو . راقبتها تحملق في الأرض وقد قبضت على ذقنها بإحدى يديها . بدت كأنما تشاهد حزنا جديدا . قررت أن أقول شيئا ، ثم تريثت حتى تسربت آخر غيمة ضبابية عبر الباب . الغرفة استعادت صفاءها تقريبا . نظرت إلى الطعام والطاولة ، ثم أخيراً إلى أمي . لم يكن الكلام ، في مثل هذه المناسبات ، عسيراً فحسب ، وإنما كان ضرباً من غير الحكمة ، ولم أكن أعرف كيف أعتذر . حتى حين كنت أشعر بالذنب حقاً لفعل اقترفته ، لم أكن أعرف كيف أعتذر . كنت أتوقع من الشخص الآخر أن يحكم على شعوري بناء على نوعية استجابتي . أنا على وشك أن أتكلم . أراحت يدها اليسرى بأن رفعت اليمنى إلى ذقنها . كانت الغرفة صافية بلا ضباب ، وتلاشى السكون حين تكلمت :

« أنت لا تعرف قيمة الماء إلاّ لمّا ينشف النبع ؛ ولن تعرف قيمة الأم إلاّ لمّا تغمض عينيها » .

هذا لا يطاق . لم توجّه الكلمات إليّ ، لكنها كانت تتكلم كأن هذه الكلمات تنطبق على وضعي لو كانت لدي الحساسية الملائمة لأدرك ذلك . تملكني الغضب والارتباك فسألت مباشرة ماذا فعلت هذه المرة . كان هذا خطأ جديداً أرتكبه . هذه المرّة ! تشبَّثت بهاتين الكلمتين كمن كان ينتظر مني قول الشيء الخطأ . هذه المرّة معناها أنني لم أعمل أي شيء في أي وقت آخر . أنا لم أفعل أي شيء إطلاقاً أبداً : أما حين يسمع الناس صوتها الصَّائح فذلك سببه ببساطة أنها غبيّة ولا شغل يشغلها غير إزعاج كل الجيران . لديّ رغبة في تشويه سمعتها . من سوء الحظ أني قلت « هذه المرَّة » . لم أكن أتوقع أن تسبغ على هاتين الكلمتين

مثل هذا المعنى . سقطت يدها عن ذقنها وقد اصطبغ وجهها بالحمرة . ليست هذه المرة الأولى التي أندم فيها على ما أقول . عليّ أن أتوقع الأسوأ . قالت : « بالطبع أنت تظن ألّا حق لي بالكلام معك بهذه الطريقة » ، كان صوتها عاليا بحيث يستطيع الجيران سماعه . « أنت رجل الآن ، لكن عليك أن تتذكر ما يقوله العجائز دائما . ما يُحَلّي فم الماعز يحرق ذنبه . تقدر أن تلعب دور الرجل لمّا تقطع البحر غداً ، لكن ليس الآن . أنت ابني الآن ، ولا يهمني كم سنة عمرك ، فطالما أنا حيّة عليك أن تقدم الاحترام اللائق والمناسب لي . حتى لو صار عمرك مائة سنة فأنت ما تزال ابني ، لهذا ضع ما أقول حشوة في غليونك ودخّنه ، ولما تشوف الآخرين يلعبون دور الرجل ويعملون ما يحلو لهم ، فقط قل لهم إنك آسف ، وإن الوضع يختلف معك ، لأن أمك ليست من هذا النوع من النساء . خلّيهم يعرفوا أني لا أمزح ، وأن الابن هو ابن بالنسبة لي . لا أكثر ولا أقل » .

الآن تقذفني بقنابل كلماتها . جلست ساكتاً في انتظار أن يحل السكوت الآخر ، غير أنها لن تختصر الكلام ، كما يبدو . كانت تتكلم بطلاقة وسرعة مذهلتين . فلا وقف بين الجمل ، وكنت أحيانا أدرك ما تقول بسبب أنني سمعته عدة مرّات من قبل ، فقط . ورغم أن التهم التي تتهمني بها كانت تتغير ، غير أنني لا أعتقد أن هناك كبير تغيير في ما كانت تقوله دائما . لم تتوقف عن الكلام . كان كل سكوت عبارة عن فسحة لاسترداد الأنفاس قبل أن تجدّد ما سبق أن قالته عدّة مرّات . الغرفة في غاية الصفاء ويملأ نصف الضوء زواياها . لا بخار ينطلق من الجاط والأطباق . راقبت الطعام وتساءلت عما إن كان عليّ أن أبدأ الأكل . كان مثل هذا القرار صعباً دائماً . فمن المحتمل أن يزداد توتر أمي واضطرابها إن هي حسبت أنني أهتم بالطعام لأنني لا أرغب في سماع المزيد من أقوالها . أما إن برد الطعام فإنها تتهمني باللامبالاة مع أنها صرفت طول النهار تطبخ . لم أكن أعرف ماذا علي أن أعمل ، وليس من المحتمل أنها ستبدأ الأكل قبلي . انتظرت فما لبثت أن واصلت الكلام ، إنما لهجتها قد تغيرت . لم تكن اعتذارية ، بل كل ما في الأمر أنها تريد توضيح موقفها . كانت تفعل ذلك دائما . فبعد أن تتعب من توبيخك تنتقل لتوضيح سبب فعلها ما فعلت . حينها تصبح في غاية اللطف والجاذبية فتنسى أنت كل ما سبق أن قالته .

قالت : « أنا لا أقول ، أنا لا أقول أبداً إن الوقت لن يأتي حين تتخذ كل قراراتك وحدك ، وعندها يجب علي ألاّ أقول أي شيء . لكن حتى لما يجيء هذا الوقت عليك أن تحترمني . هذا كل ما أطلبه منك : أن تظهر لي الاحترام اللائق والمناسب الذي من واجب الابن أن يظهره للأم ، وخصوصاً أنت لي . لم تكن تربيتك سهلة أبداً . هذا كل ما أطلبه منك . تذكّرني ، وعندها فإنك لن تنسى أبداً احترامك لكل الناس » . كانت قد غيّرت جلستها في الكرسي ، وكنت أعلم أنها تنظر إلي ، لكنني لا أريد أن أبادلها النظر . أعتقد أنني اكتفيت . فسواء كانت توبّخ أم تشرح ، قلت لنفسي ، لقد اكتفيت من هذا وإني أرغب في الفرار . توقفت عن الكلام فترة ، ثم واصلته باللهجة نفسها. روت قصة شخص تسبّب في حزن عظيم لوالديه . وقالت إن الغلطة هي غلطة الوالدين ، لكنها لن تدع الشيء نفسه يتكرر معها . وحين أرحل ، ومهما يصبح شأني ، لن يقول أحد من الناس إنها لم تحاول وتبذل جهدها . هذا هو سبب كلامها الكثير مطوّلاً وبهذا الأسلوب . انحنيت وتناولت الملعقة . كانت ما تزال تتكلم ، لكنني لم أصغ . غمست الملعقة في الطعام فتطاير البخار كرذاذ الماء . توقفت عن الكلام . ثم همهمت بقول لم أسمعه . تناولت الشوكة وكدت أبدأ بالأكل . تصاعد البخار وسمعتها تهمهم من جديد ، لكنني لم أرفع بصري لأنني لم أشأ أن تلتقي عيناي بعينيها . لقد قامت عن الكرسي وانسحبت نحو الباب . راقبتها بطرف عيني ، ولم أكن أريدها أن تعرف أنني لاحظت ما قامت به ؛ إذ من الواضح أنها لا تريدني أن أرى سبب قيامها عن الكرسي . بحثت في الزاوية بإحدى يديها ، ولما استدارت رأيتها تنتصب فوقي وقد رفعت العصا بيدها . رفعتها كالسياج وهي تهدِّد . دفعت الكرسي إلى الخلف وتراجعت . تقدمت وهي على أهبة الاستعداد للضرب . قالت « تعتقد أني خائفة منك ، أم تعتقد أني أمزح » . قلت : « أنا أعرف أنك لا تمزحين » ، ولم أدر ما أقول بعد ذلك . لكن الأمر بدا لي هزلياً . أمتعني الموقف ، غير أني ما قدرت على الضحك . رفعت العصا عالياً . « بأي حق لا تستمع إلي وأنا أحكي معك ، دائماً أقول الشيء نفسه لك . ماذا تحسبني ، قل لي ؟ » .

قلت : « الطعام يبرد » .

قالت : « خلّه يبرد. حين أحكي معك فمن واجبك أن تنتبه لما أقول » . حاولت أن تضرب فأتقيت الضربة هارباً . أمسكتُ بالعصا وشددت قبضتي عليها ، فحاولت استعادتها مني . ما أشبهها بلاعب الفروسيّة الذي يقف الحظ ضده . فأنا أطول منها وقوتي تفوق قوتها كثيراً . تخلّت عن العصا واستدارت تبحث عن سلاح آخر . الموقف في غاية الهزل الممتع . انبثق الضحك من حلقي فاستدارت لاستعادة العصا . تركت العصا تقع على الطاولة فتناولتها ورفعتها متقدمة نحوي .

قالت : « أنا لا أضحك . أنا لا أضحك أبداً أبداً إطلاقاً » .

قلت : « ولا أنا أضحك أيضا . أقصد أنا لا أضحك عليك » .

قالت : « ماذا تقصد أنك لا تضحك ؟» أبقت العصا مرفوعة . « على أي شيء إذن أنت تضحك إن ما كنت تضحك عليّ ؟ » كانت تلحّ في السؤال . « تظن أن عندك الحيل » . لقد كسبت موقعاً صغيراً جديداً . وقفت نصف وقفة . « أنا لم أضربك من زمان ، لكنني سأضربك قتلة كبيرة مليحة هذا المساء إن أعطيتني السبب لهذا » .

لقد استرخت . باشرت الجلوس وتراجعت هي خطوة . أدارت ظهرها فضحكت . لم تسمع ضحكي وحاولت أنا التزام الجدية . فلو ظهرت بدون أي دفاع فإنها ستصرف النظر عن الضرب . وضعت العصا في الزاوية وعادت إلى الطاولة . بدا عليها الإرهاق الشديد ، لكنني لاحظت أنها توشك أن تضحك . تظاهرت أنني لم ألاحظ ، ثم انفجر ضحكي فجأة فرفعت إلي نظرها . كانت تضحك هي الأخرى . بدأت بالأكل ، وتصاعد البخار من الطبق . إنها لم تهددني بالضرب منذ زمن بعيد ، مما جعل منظرها وهي تقترب مني تحمل العصا في غاية الطرافة والهزلية . لقد ظننت في البداية أنها تمزح ، ثم أدركت أنها جادّة ، وفي النهاية تساءلت أي الموقفين هو موقفها الصحيح . كانت تضحك بهدوء وهي تأكل . البخار يتصاعد من الطبق ، والغرفة في شبه ظلام . كنت ما أزال أضحك ، لكنها أصبحت جادّة ثانية . أبقيت رأسي خفيضا متحاشيا نظرتها . قالت : « أنا لا أضحك أبداً ، تظن أني أضحك ، لكنني لا أضحك أبداً أبداً

إطلاقا . وإن كنت تحسب أني أمـزح وأنكت فسأريك أنك لم تكبر كفاية بعد عليّ حتى لا أنزع بنطالك وأشوي ذنبك » .

توقفت عن الضحك لأنني لم أكن متأكداً من أنها لن تحاول تحقيق ما قالته . جعلت الطعام في مستوى واحد في طبقها . أبقيت رأسي خفيضا في انتظار مرور العاصفة . استمر البخار يتصاعد من الطعام مع كل لقمة نقتطعها منه ، وكانت الظلمة تشتد . سرعان ما نحتاج إلى الإضاءة . كانت تقطع طعامها وتأكله ، وكنت أراقب فكيها الصغيرين تتحركان صعوداً وهبوطاً بسرعة . كانت تأكل في غاية السرعة كأنها تريد الانتهاء السريع والانتقال إلى شيء أكثر أهمية . كنا كلانا نأكل مرتاحين هادئين .

قالت وقد رفعت نظرها عن الطبق : « المشكلة هي ، المشكلة هي أنني أرخيت لك الحبل كثيراً ، وهو الحبل نفسه إياه الذي ستشنق نفسك به . لكنني أنا غير مسؤولة . الله في السماء يعلم أني غير مسؤولة . فهي حياتك أنت وعليك أن تعيشها وتعمل فيها ما يحلو لك . وأنا لن أزعج نفسي وأهتم بعد الآن ، صدِّقني » . ساد الهدوء بعد أن تكلمت . لم نعد نسمع أي صوت سوى صوت طرطقة الملاعق في الأطباق أحيانا ، وصوت المضغ الخفيف في الأفواه . وفي السكون فكّرت في طريقة لمراضاتها . كانت تأكل بسرعة ، دون أن ترفع بصرها ، بينما كنت آكل ببطء ، مشكِّلا بالملعقة أشكالاً صغيرة من الطعام في قعر الطبق . كنت أكدِّس قطعا صغيرة من الطعام في كوم صغير ثم أسحقها بقفا الشوكة . كانت تبدو كطعام نصف ممضوغ في الفم . كانت ترفع بصرها أحيانا لتكتشف أين وصلت في أكل طعامي . وفجأة رمت شوكتها ورجعت في كرسيها إلى الخلف . أبقت نظرها مصوبا إلى طبقها . ظننت أن عليّ أن أقول شيئا .

قلت : « قلت إن شيئا حدث » . طرطقت بالشوكة على الطبق أثناء كلامي . رفعت نظرها عن طبقها كأنما قد فاجأتها . وضعت كوعيها على الطاولة وأسندت رأسها على يديها . لم أرفع نظري لأنني لم أرد لعيوننا أن نلتقي .

قالت : « الآن تذكرت أن تسأل عما حدث . طيِّب ، هذا هو ما أرفضه . لمّا أحكي معك ، من واجبك أن توقف كل شيء تعمله وتسمع . هذا حقي » .

يبدو كأنها ستكرر كل ما سبق أن قالته ، لكن الفارق هو أنها أكثر ارتياحاً الآن بعد أن تكلمت . فهي تشعر أنني قد أدركت ما الخطأ ، وأنني أبذل جهدي للاعتذار . وكنت آمل ألّا تسترسل طويلا في تعداد حقوقها .

« قلت شيئاً » ، خاطبتها ثانية ، وأعتقد أن صوتي كان يحمل نغمة شديدة من الإلحاح ، وإن كان يبدو أنها لم تلاحظ ذلك .

قالت : « هذا لا يهمّ الآن . لكن لو ما رجعت إلى المطبخ في الوقت المناسب ، لما وجدت أي أكل حتى تأكله » . وضعت لقمة جديدة في فمها ، وغيَّرت جلستها في الكرسي . بدأت تغضب . « إنه القط الأسود الملعون نفسه . يجيء من حيث يجيء ، والله وحده يعلم من صاحبه . لكن لمّا رجعت إلى المطبخ من الباحة ، كان القط هناك يتسلق فوق طاولة المطبخ ليسرق السمك الذي أنهيت قليه . هذا السمك الغالي الثمن » .

ضحكت بهدوء وانتظرت أن تواصل الكلام . ما أجمل أن أكتشف أنني لست هدف غضبها . أخذت لقمة أخرى . « هذا شيء غير مضحك » ، قالت ، « لأنني قررت بجد أن أكسر ظهره ، وليكن صاحبه من يكون . فقط يد الرب أوقفتني ، صدقني ، وإلاَّ كنت كسرت ظهره بالخيزرانة. من العيب العظيم أن الناس لا تلاقي أي شيء تأكله في هذه الأيام . ولمّا يحاولون ويلاقون ، يجيء هذا اللص الملعون ، من حيثما يجيء حتى يسرق الأكل ويهرب » .

هذا القط الأسود الذي يبدو ألاَّ صاحب له هو الطاعون الذي يروّع القرية منذ أسابيع عدّة . ولم نكن نراه في النهار ، غير أن كل صباح يحمل معه شكوى جديدة منه . فالدجاج قد سرق ، بالإضافة إلى أي طعام تبقّى من اليوم السابق . اعتقد بعض الناس أنهم يعرفون من هو صاحبه ، لكنهم لم يصرحوا بذلك علانية أبداً . وكان الاعتقاد السائد هو أن صاحبه يخجل من الاعتراف بذلك وأنه لا يرغب في التخلص منه . وذات يوم نصب بعض الصبيان شركا وقع القط فيه ، غير أنه هرب لمَّا ظهر من رآهم . كانوا قد وضعوه في كيس وأخذوه إلى تحت إحدى الأشجار التي أوشكوا أن يعلقوه عليها بربطه من خصيتيه إليها ، لكن «أبي» ظهر ورآهم . هربوا وهرب القط إلى جهة أخرى . ولما سمع القرويون القصة لم يقدروا

أن يقرروا من يؤ يدون . ففكرة أن يموت القط بهذه الطريقة فكرة مروعة شنيعة ، لكن التفكر بخسائرهم لم يكن يطاق أيضا . وأمي لم تكن تطيق منظر ذلك القط الأسود .

قالت : « ولما فكّرت في نفسي ، أن هذه الوجبة ربما تكون آخر وجبة لذيذة أقدمها لك في هذه الحياة ، وجعني قلبي كثيراً وأنا أفكّر أن هذا اللص المتشرد كاد يسرق سمكي . لأن الله وحده يعلم متى تحصل على وجبة مثل هذه مرّة ثانية » . اعتدلت في جلستها في كرسيها وتفقدت الغرفة بنظرها .

قلت : « أظن أنهم يطبخون في ترينداد » . لم أكن واثقا من النتيجة ، غير أن التوتر بيننا قد زال ، فخاطرت بالتحدث الصريح . قالت : « إنهم يطبخون في كل العالم ، لكن القضية هي ماذا يطبخون وكيف يطبخون . لو كنت تظن أن الطبخ هو وضع الطنجرة على النار وانتظار أن تناديك لتعود إليها ، فإنك تغلط غلطة تعيسة . هناك ناس تأكل كل شيء خليطاً مليطاً وتسمّي هذا الشيء طبخاً أيضا . طالما عندهم ثقب في وجوههم يحشونه ، فهم لا يهتمون أبداً بأي شيء يحشونه . لكن إن كنت أنت تظن أن هذا هو الطبخ ، فإنك غلطان غلطة تعيسة » .

قلت : « أظن عندهم طبخهم الخاص بهم . فمن قابلته منهم يبدو في صحة جيدة . ولمّا يجيئون هنا للعب الكريكت ، فإنهم يربحون أحيانا » .

قالت أمي : « هذا شيء مختلف . مثل ما أنا فهمت ، هم يأكلون خارج بيوتهم في المطاعم والفنادق والله وحده يعلم أين أيضا . لكن لمّا يتعلق الأمر بطبخ طبخة مليحة مناسبة في بيوتهم فإنهم لا يعرفون كيف يبدأون . وفوق كل هذا ، يسمّون هذا : العصر الحديث . هذا هو ما يقولونه . يقولون إنهم يعيشون الحياة العصرية الحديثة أكثر من كل الناس في كل الجزر الثانية » .

« كيف عرفت هذا ؟ » أعتقد أن أسئلتي قد أصبحت مازحة .

قالت : « إسأل « ديف » . هل نسيت أن « ديف » رجع لتوه من هناك . خلِّ « ديف » يخبرك ماذا وماذا يجري في ذلك المكان . هو يقول إنهم ناس طيبون

وكل هذا ، ولكن هناك أشياء معيّنة لا يقدر أن يفهمها أبدا أبدا . معظمهم ، وخصوصاً الشباب منهم ، لا يعرفون معنى البيت وقيمته . فلو أرادوا أن يكرموك ويبالغوا في إكرامك فإنهم لا يدعونك إلى البيت أبداً ، يقول « ديف » . بل هم يدعونك إلى المطعم الصيني ، أو هذا الفندق أو ذلك ، وهناك يأكلون ويأكلون حتّى يحشوا معدهم . لكنك لا تجد أي واحد منهم يدعوك بقوله تعال معي إلى بيتي حتى تحضر لك أمي أو زوجتي أكلة لذيذة . أبداً أبداً ، يقول « ديف » . وأنت تعلم مليح أن العادة عندنا هنا هي العكس . هنا أول شيء نعمله من أجل الغريب هو أن ندعوه لأكل شيء في البيت ، ومهما كان شكل البيت شنيعاً ، فانك ترغب أن تطعمه أكلا طبخته أنت بنفسك. لكن عندهم العكس عن هذا، وكل السبب هو وجود جيل جديد ملعون من النساء الشباب الكسالى لا يقدرن على عمل شيء واحد مليح يرضي الله ، غير عرض أنفسهم أمام المرآة والخروج مثل القطط التي تلاحق الفئران . ولا واحدة منهن تعرف منظر المطبخ الحقيقي . كل ما تعمله كل واحدة منهن هو الجلوس على قفاها طول النهار ، سواء كان عندها شغل أو ما عندها ، ولّما يجيء الليل تشغل كعبيها وتبدأ الخروج . ولّما ترجع في آخر الليل ، تكثر من طلباتها ، تريد هذا وذاك وغيره ، كأنها عملت أي شغل . هذا ما يقوله « ديف » وهو يعرف لأنه عاش هناك أربع سنين ويعرف من هو من ، وما هو كل شيء » .

اعتدلت أمي في جلستها إلى الأمام وتنفست نفساً عميقاً . هذه فرصتها الأخيرة لتروي لي كل ما سمعته عن ترينداد ، وهي تنوي تحذيري من المزالق . وهذا أمر طبيعي جداً ، لكنني لا أعلم من أين استقت كل هذه المعلومات . أعرف « ديف » معرفة سطحية . لقد التحق بالجيش وكان مركزه في ترينداد عدة سنوات . ونحن لم نتبادل أي حديث طويل منذ عودته ، لكن أمي أخبرتني ، ذات مساء ، أنها قد تحادثت مع « ديف » . يبدو أنها حصلت حينها على المعلومات عن ترينداد . قالت إن « ديف » ثقة ، وإنه يعرف المكان معرفة وثيقة لأنه كان في الجيش وتنقل في كل الأنحاء .

قالت أمي : « الشيء الذي لا أفهمه ، هو كيف أننا على هذا الاختلاف ، مع أننا على هذا القرب . يقول « ديف » مثلا إنهم يمدحون كثيراً الأشياء التي لا

نطيق السماع بها . فلو كان أي رجل لصاً ، سواء كان سياسياً أو قسيساً ، نحن لا ننسى أن نعبر عن رأينا فيه ، ورأينا لن يكون حسنا ، لكن « ديف » يقول إن العكس عندهم . فهم يعتبرون اللِّص الأكبر بطلاً أكبر ، ويقول « ديف » إنك تسمعهم يقولون ويعيدون دائما : « يا إلهي ، هذا الرجل يعرف كيف يسحب الفلوس بدون فضيحة » ، وهم يشربون في صحّته ؛ ويعتبرون الموضوع صالحاً للتنكيت والمزاح » .

قلت : « لا أصدق هذا » . لم تجبني ، بل واصلت حديثها : « أنا أقول لنفسي إن مثل هذه الطريقة في العيش غير معقولة وغير صحيحة . لكن « ديف » يقول إنها حاصلة في كل الطبقات ، لا بين الفقراء فقط الذين ربما كان عندهم سبب وجيه للسَّرقة ـ مع أني أنا أعتقد أن السرقة خطأ مهما كانت الظروف ـ « ديف » يقول إنها تحصل في أرقى المجتمعات حيث تتوقع انتشار الاحترام والأمانة على الأقل ، لأن الجمهور يراقبك » .

سألتها : « هل قال «ديف» أي شيء عن المكتبات ؟ » كان حب الاستطلاع يحفزني لمعرفة إن كانت مكتباتهم جيدة كمكتباتنا .

قالت : « هذا ما يحيّرني أكثر من أي شيء . يقول إنه في يوم من الأيام كان واقفاً في مكتبة معينة ، فدخل رجل وامرأة إنجليزيان ، وقالت المرأة للرجل : ما ألطف الجو هنا ؛ فأجاب الرجل : نعم ، فهذه مكتبة من مكتبات العالم القليلة التي فيها كل شيء ما عدا الكتب التي نريدها ! وفي هذه المكتبة نفسها تحصل أشياء ، هو يقول ، وهو متأكد من حصولها ، لا يمكن أن تحصل هنا أبداً حتى في خمَّارة كيرتون » .

قلت : « ديف يكره تريندداد » ، مما أثار أمي .

قالت : « بالعكس . هو يحبها . هو يقول إنه يحبها أكثر من جزيرتنا هذه بعشر مرّات ، لكن فيها فساداً ما قدر يتحمله ، وهذا هو سبب رجوعه هنا . لكنه يحب أصحابه . هو يقول إن كان هناك محلّ في العالم تعيش الناس فيه وتخلّي غيرها يعيش فهذا المحل هو تريندداد . لكن الفساد النَّتن في بعض المحلات هو الذي ما قدر أن يتحمله » .

سألتها : « ماذا عن الكرنفال ؟ » فبالإضافة إلى المكتبة ، كان الكرنفال يثير حب استطلاعي بشدَّة .

قالت أمي : « كنت سأحكي لك عنه . يقول « ديف » إنك لو شفت الناس وهي تقفز في الشارع مثل القطط يومين كاملين ، لحسبت أن حصان الشيطان رفسك . هم لا يهتمّون بأي شيء في دنيا الله هذه ، وهذا النوع من المرح واللعب يستمر طول يومين كاملين من أيام الله المباركة . يقفزون في الشارع طولاً وعرضاً كأنما شيطان انطلق من داخلهم ، والأشياء التي يعملونها طول هذين اليومين ، يقول « ديف » ، ما سبق أن حصلت أبداً أبداً » .

قلت : « أموت شوقاً لحضور هذا الكرنفال » . كنت سعيداً لأنها تحادثت مع « ديف » .

قالت : « تموت شوقا لحضوره . إسمع ما أقوله لك ، إن جاء اليوم الذي أسمع فيه أنك تقفز في الشارع مثل البهلوان الشقي ، في هذا اليوم ـ ها أنا أقول لك ، يا ولد ، إني سألحق بك حتى لو اضطررت للمشي فوق البحر . بمساعدة الله سألحق بك » .

قلت : « لكن القانون يسمح بهذا » .

قالت : « لا يهمني القانون . القانون مثل الناس التي تعمله . أنا ربيتك تخاف الله وتحب الناس . وإن كان بعد كل هذا تجيء لتخبرني أنك ذاهب إلى ترينداد حتى تقفز في الطرق مثل المجانين ، فإذن أنا أخبرك الآن أني عرفت أين ذهب كل عمري وكل فلوسي : في البالوعة » .

قلت : « لكن أريد أن يكون عندي أصحاب » . كانت قد أصبحت في غاية الجديّة .

قالت : « وهذا يذكرني بشيء جديد . قضيّة العِشْرة . انتبه لمعشرك . يقول « ديف » إنه منذ وصول الأمريكان إلى هناك ما عدت تعرف من هو من . الأمريكان لخبطوا كل شيء . وحوَّلوا الشريف إلى غير شريف ، وغير الشريف إلى شريف ، وما عدت تعرف السِّت المحترمة من غيرها ، بسبب كل القصص التي

تُحكى . وصار الحَكَم الوحيد على الأخلاق هو الدولار الأمريكاني ، والشيء الذي ما عملته بعض هؤلاء النساء اللآتي يتظاهرن بأن أقدامهن لا تطأ الأرض كبرياء ، يقول ديف إن الشيء الذي ما عملته بعض هؤلاء هو الشيء الذي لا يعرفنه فقط . لهذا السبب انتبه واحذر . فليس كل ما يحشو التنّورة نظيفاً . وأنت تعلم أنني أنبهك دائما بخصوص صحتك . ولا يخوِّفني شيء أكثر مما قد يحصل لشاب صغير لا يدرك أين يقوده حماسه ؛ ولمَّا تكون في بلاد الغربة فأنت لا تعرف من هو من حتى تكتشف هذا . عليك أن تفكر بصحتك ، هذا كل ما عندي حتى أقوله لك . ربّما تقول عني إني إزعاج كبير لك ، لكن حسب كل علمي يمكن ما تشوفك عيناي مرة ثانية ، لهذا السبب أغتنم هذه الفرصة وأذكّرك بشيء أو شيئين . ولمّا تشعر بالإغراء يتجه إليك ، تذكّر كل ما قلته لك عن صحتك وغيره . أنا لن أضلّلك » .

سألتها : « لا تعرفين سبب عودة ديف ؟ »

قالت : « لا أعرف . لكن مهما حصل مع « ديف » فهو ليس الشخص الوحيد الذي سمعته يقول :

ترينداد بلد جذاب كله جمال
لكن النار ، النار فيه كلها اشتعال .

هذا مع أني عارفة أن لا بد يكون هناك ناس طيبون مثل ما هو الحال في كل العالم » .

خفضت رأسها كأن ما قالته لا يحتلّ الأهمية نفسها التي تحتلها الحقائق المؤسفة . وكنت ملهوفاً لمعرفة من هم الناس الشرفاء ، إذ كما يبدو ، لم يوفّر « ديف » أحداً . مع ذلك تجدها تقول إنه يحب ترينداد . دهشت حين قالت ذلك ، وانتابني الشعور أن بعض ما قاله قد يكون صحيحاً . ولكنني كنت منحازاً إلى المكتبة . ولم أكن أحسب تشبيه المكتبة بخمارة « كيرتون » تشبيها عادلاً . لكنها أصرت على أن « ديف » قد قال أشياء لا تريد هي إعادة قولها . ولم تكن تعلم اسم المكتبة لأن « ديف » لم يذكره . فكنت في حيرة بالنسبة للمكتبة التي يجب أن أتحاشاها ، وقد قال « ديف » بوجود عدة مكتبات . ولم أستطع أن أكتشف إن

كانت مكتبة عامّة ، ولم يكن عند « ديف » وقت حتى يشرح بالتفصيل .

قالت : « أنا نفسي أعرف بعض الناس من ترينداد . وهم ناس فوق كل الشبهات . هم ناس لائقون ومحترمون ولكني أحذرك وأنبهك لأني أعرفك مليح . وأنت قادر على التصرف كأن ما عندك عقل . الإزعاج الجهنمي الذي سببته لي في المدرسة الثانوية لن أنساه أبدا إطلاقاً ، وأنا أقول لك إني أعرفك مليح كثير أحسن من الأول . فلو تركت وحدك فالشيطان نفسه في جهنم لا يقدر أن يجاريك ؛ لأن كل ما تحتاجه هو القليل من التشجيع ، وغير مهم أبداً التشجيع لعمل أي شيء . فلو قالوا لك مشجعين إعمل مليح فإنك تعمل أحسن منهم كلهم مع بعض ، ولو قالوا لك إعمل عاطل فإنك تعمل أعطل منهم كلهم مع بعض ، لأنك ، كما يظهر لي ، نوع من الآلة التي لا فرامل فيها ، ولمّا تبدأ فإنك لا تعرف كيف أو متى تتوقف . ولهذا السبب أنا أغتنم هذه الفرصة الأخيرة التي منحني الله إياها حتى أجرب أن أردك إلى وعيك وعقلك ، لأن الوقت لا يضيع أبداً لخلاص الروح » .

قلت : « هذا الأكل لذيذ جداً » ، وقد أنهيت طعامي . مصمصت شفتي وابتسمت .

قالت : « لو سألوك ماذا تأكل في البيت فأخبرهم » . أرادت أن تبتسم ، لكنها لم تفعل . وقفت وأغلقت الباب . ماذا أخبرهم ، تساءلت . لقد رأيت آخر قطعة من الطعام تتلاشى في ثقب وجهي . جلست هادئاً متفكراً فيما قالت .

قالت : « يجب ألاّ تقول إني قلت . يجب ألا تقول إن أمك قالت أي شيء ضد ترينداد ، لأن مثل ما قلت لك أنا التقيت بالكثيرين منهم هنا وهم ناس لائقون محترمون لا يقدر أحد أن يشوه سمعتهم . وأنا أعرف أن هذا صحيح بالتأكيد » .

قلت : « كان الطعام لذيذاً جداً » . سرها سماع ذلك كثيراً .

قالت : « تظنهم يعرفون أن يطبخوا اللّوف هناك ؟ » .

وما كادت تنهي كلامها حتى بدأت تنظيف الطاولة وانسحبت من الغرفة . كانت الأطباق مصطفة واحداً فوق الآخر . وضعت الكأسين واحداً داخل

الآخر ، ثم وضعتها فوق الأطباق ، وحملت الإبريق بيدها الثانية . الغرفة صافية بلا بخار لكن الظلام يحتلها . في الغرفة أربع قطع من الأثاث ، منها نَمْلِيَّة كبيرة عليها سلك مشبك يملأ الفسحات بين الخشب ؛ وقد وضعت في إحدى الزوايا ووضعت فوقها الأطباق وغيرها من الأدوات المنزلية . وهناك الأشياء التي لا نستعملها أبداً في غير المناسبات الخاصَّة جداً . الأدوات التي حملتها أمي لتوِّها عن الطاولة قد أنزلت من أعلى النَّملية ، لأن هذه هي الوجبة المهمة الأخيرة التي تقدِّمها لي حتى يمرَّ وقت كبير . لذلك اعتبرتها مناسبة خاصة . هذه الأدوات سوف تُجلى الآن ثم ترفع مكانها حتى عيد الميلاد أو عيد الفصح أو إن حضر صديق قديم على غير توقّع . ويوجد فوق النَّملية فناجين وأطباق لا أتذكر أن أمي قد استعملتها أبداً . كانت هذه الوجبة مناسبة خاصة . واستناداً إلى ما قالته ، لا يحتمل أن أنعم بمثل هذا الطعام في ترينداد . وأنا لا أعرف شيئاً عن ما يأكلون باستثناء خليط من الخضروات اسمه « كالالو » يطبخونه مع السرطان . كنت أحب اصطياد السَّراطين ، أما أكلها فليس من متع الحياة بالنسبة لي . وربما كان معنى هذا أن لديّ فرصة سانحة لإدخال طبخة جديدة إلى تلك الجزيرة . فحتى لو هم يعرفون اللّوف ، فالأرجح أنهم ، استناداً إلى كل أقوال أمي ، لا يعرفون كيف يطبخونه .

في المقام الأول لا تحتوي بحارهم على السمك الطائر ، ولن يكون اللوف لوفاً إن لم يطبخ مع السمك الطائر . وهذا أحد الأسئلة الشائعة في القرية ؛ فلو سأل أحدهم صاحبه إن كان يطبخ اللوف ، لكان جوابه : « وآكله مع أي شيء ؟ » وهذا هو الجواب المتوقَّع في غير موسم السمك الطائر . أما في موسم السمك الطائر ، فالسؤال الشائع هو : « هل عندك طحين الذُّرة ؟ أعرني قليلاً منه » . لكننا قد أكلنا اللوف مع أنواع أخرى من اللحوم غير السمك الطائر ، ولا أرى أي مانع يحول دون محاولتي طبخ هذه الأكلة مع نوع آخر من أنواع السمك .

وتذكَّرت ما رأيتها تقوم به قبل إنجاز هذه الطبخة . لا رغبة لديّ في الاستفسار منها ، فالتزمت الصمت في بواكير الظَّلام ورحت أستعيد مراحل إعداد هذه الأكلة . لقد رأيتها تنخل طحين الذرة ، وهي مهمّة شاقة كما يبدو لي . كان الطحين دقيقاً أصفر اللون شديد الدقة والنعومة فكأنه رذاذ غبار . وكان يختلط ، قبل أن يمرّ في المنخل ، بكتل يابسة صلبة من خيوط كيس الخيش الذي أخذه البائع

من داخله . لكن أمي نخلته بحيث كان الدقيق يسقط فوق الطبق ناعماً وتبقى الكتل في قعر المنخل . وكان يشكِّل كوماً مدبَّب الرأس في الطبق ينحدر من الأعلى إلى الأسفل . وفي هذه الأثناء كانت قد وضعت الطنجرة فيها الماء فوق النار . يغلي الماء فتضيف إليه قرون اللوف والبامياء بعد أن تكون قد قطعتها قطعاً صغيرة رقيقة مستديرة . وتقطيع اللوف والبامياء يكاد يوازي نخل الطحين في صعوبته . فسطحها شبه الشوكي يثير جلد اليد ، والقطع تسقط على اليد مخاطية مربكة .

وسرعان ما يصير الماء ، بعد أن ترمى قطع البامياء واللوف فيه مزيجاً لزجاً يغلي . الطحين ما يزال في الطبق على الطاولة . في هذه الأثناء تنقع قطعة الخشب التي نسمِّيها خشبة اللُّوف في جاط من الماء . تترك الطنجرة مكشوفة دون غطاء والمزيج اللزج يغلي فيها . ثم تأخذ منها نصف ما فيها ، وتبدأ وضع الطحين فيها تدريجياً . المزيج يتكثف فتستخدم قطعة الخشب . من الآن فصاعداً يصبح الطبخ عمليّة تحريك شاقة . بين الحين والآخر تضيف بعض الماء الذي أخذته من الطنجرة لتمييع المزيج . سرعان ما يتكثف الطَّحين ويشتدّ في مزيج خشن ما يلبث أن يرقّ وينعم حين تضيف إليه السائل الذي سبق أن أخذته من الطنجرة . يستمر التحريك حتى يصير المزيج في الطنجرة ناعماً غير شديد لا يقاوم قطع الخشبة فيه . عندها ترفع الخشبة وتمسح عنها بأصابعها ما علق بها من المزيج من أعلاها إلى أسفلها ، فإن انحدر خليط اللوف بسلاسة ويسر من أصابعها إلى الطنجرة فهذا أفضل برهان على أن الطبخة قد تمّ تحريكها كما يجب . عندها تضيف إلى المزيج ما تبقى من السائل وتترك الطبخة في الطنجرة على النار حتى تغلي . وتضع غطاء الطنجرة فوقها تاركة فسحة لا بأس بها تتيح المجال لتصاعد البخار منها . يغلي المزيج وتنصرف هي إلى إعداد السمك . وعلى الطاولة كانت قد وضعت طبقين . ترفع غطاء الطنجرة وتتناول نصف قرعة كالاباش من القاطع . تغسل القرعة في جاط الماء وتمسحها ثم تستعملها لغرف اللوف من الطنجرة الحديدية .

ما أمتع مراقبتها وهي تغرف الأكل وتضعه في الأطباق ! كانت تملأ نصف قرعة الكالاباش ثم تهزها جانبياً قبل أن تقلب محتواها في الطبق . كان البخار يتصاعد في كوم كثيف من هذه القرعة ، ثم تقلبها وتفرغ محتواها في الطبق . وكان منظر هذه الطبخة بعد قلبها من القرعة في الصحن يشبه فاكهة نزع عنها قشرها ولم

تلمسها يد . لقد أسبغت القرعة عليها استدارة رقيقة ناعمة مستوية في كل نواحيها . ما أشبهها بضيف ينتظر الدعوة للدخول . بعد ذلك تدهنها بطبقة رقيقة من الزبدة ، ما تلبث الحرارة أن تذيبها فتبدو الأكلة لامعة تشعّ . حبوب الباميا وردية اللون معتمته ، وكنت تراها تنبثق على سطح هذا المزيج كأنها بقع تزيّن الطعام . وكنت ترى هنا وهناك قطعاً خضراء اللون تحيط بالحبوب الورديَّة ، وهي من اللوف والباميا . وسواء أحببت تناول هذا الطعام أم لم تحبّه ، فإن مجرد النظر إليه متعة تزوِّدك بالرضا والقناعة والهدوء . طحين الذرة الأصفر ، والحبوب الوردية ، وخضرة اللوف والباميا المقطعة قطعا رقيقة . وحين تقطع من طبقك لقمة يتصاعد البخار فتختلط الألوان . يتصاعد البخار كغيمة بيضاء تخيِّم على كل شيء ، وأنت تنتظر زوالها حتى تتمتع بألوان هذا الطبق ثانية .

أما السمك الطائر فأكلة ثانية . وعليك أن تخلطه مع اللوف بعد طبخ كل منهما على حدة . وضعت السمك في طبق وحده ، ووضعت في الصحن الصغير الأزرق المرق الذي نقعت السمك فيه ، وهو مرق غنيّ بالبهار والتوابل . وكان السمك يبدو أصغر كثيراً من حجمه المألوف بعد أن نزعت منه أجنحته ورؤ وسه . وكانت الأجنحة والرؤ وس وعظام الظهر والجوانب تُغلى وتؤ كل في وجبة أخرى . فلم يكن أي جزء يضيع سدى . كانت أحيانا تترك في الليل في المطبخ ، فيجد القط الأسود طريقه إليها ، ونجد نحن الأطباق فارغة في الصَّباح . كانت أمي تطلب من الله أن ينزل حكمه في القط . كانت الجارة قد طلبت منها أن تسمِّم العظام فيرتاح الجميع بهذه الطريقة من القط . فكّرت في الاقتراح ثم قررت أنها لا تستطيع . فالله وحده يعرف الأفضل .

قالت أمي وهي تدخل الغرفة : « يمكن يعرفون كيف يعملون هذه . لكني أظن أنهم لا يعرفون كيف يطبخون اللوف هناك . لا أعتقد ذلك أبداً أبداً أبداً » .

كانت تضحك كمن أحضر مفاجأة لضيفه . نزعت شرشف الطاولة ووضعت كوب البوظة أمامي . أدركت سبب ضحكها . . . كنت أعرف أنها تطبخ اللوف ، ولم يكن عندي أدنى فكرة عن صنعها البوظة . كانت قد صنعتها

من كريما جوز الهند الوردية اللّون تتربّع فوقها حبات كبيرة من العنب الأسود البرّي . وقد أضافت إليها نكهة الفانيلا . غمست الملعقة الصغيرة في سطحها وراقبت الكريما وهي تذوب . لم أكن أحب أكل البوظة صلبة شديدة كما أعرف غيري يأكلها . كنت أقطعها بالملعقة وأحرّكها وأخلطها حتى تتحول إلى بركة هادئة باردة . وكانت حبات العنب البري تطفو على سطحها كقطع من الخشب المحروق . ثم أشربها ببطء متلمظا في شربها . مثل هذه الأكلة احتفال حقاً .

أضيء النور فأضاءت الغرفة . بان الأثاث ، وطرحت النمليَّة ظلها على الطاولة . كان ظل سلك النملية المشبك على الطاولة شبيها بقعر المنخل . تناولت كوباً ثانياً من البوظة وقد أذبته سائلاً كسابقه . الهدوء يخيم في الخارج والظلام المتسرب عبر شقوق الباب ، كثيف . جلست أمي في الجهة المقابلة من الطاولة وأمامها ورقة وقلم . تبدو عليها السعادة الآن وهي تنحني فوق الطاولة تقرأ الورقة . لم أكن أعرف محتواها ، ولم أشأ أن أقاطعها بالسؤال . تساءلت عما أفعله قبل أن أنام . لقد أنهيت كل مواعيدي في الليلة الماضية ، وأشعر ببعض الإرهاق . وكان تحذير أمي هو ضرورة النوم الباكر بسبب الحاجة إلى مقاومة خاصَّة للسفر في الطائرة . هذا هو ما قاله « ديف » . أنهيت البوظة ونظرت إليها مرة ثانية . لقد رفعت رأسها عن الورقة .

قالت : « هذه هي القائمة . يمكنك أن ترى بنفسك أي ثياب عندك وأين هي وأين يمكنك أن تجدها . ولّما تصل إلى ترينداد ، إن ما كان عندك أي شخص ليساعدك ، يمكنك أنت أن تخرجها وتعلّقها على العلاّقات . وانتبه حتى لا تجعلكها ، بل أخرجها كما هي مرتبة . وأهم شيء ، وحياة الله ، هو أن تنتبه وتتأكد من وجود كل ما في هذه القائمة » .

فهمت معنى الورقة . بقيت جالسة تراجع القائمة. لقد أعدَّتها بنفسها ، كما أعدَّت إرشادات موجزة تدلّني كيف أعثر على كل شيء . القمصان في الجوانب . . . البذلات . . . في الخلف . المناديل والثياب الداخلية . . . في الأسفل . في غاية البساطة . لكنها نسيت ذكر بعض الأمور وها هي تغتنم الفرصة لإضافتها . كانت تقرأ القائمة بدقة وأنا أراقبها . أخذت ألعب بالكوب على

الطاولة كشيء أتلهى به فيما لو رفعت بصرها فجأة . ما يزال دفتر المذكرات على الأرض تحت الكرسي ، وخطر لي ، لحظة ، أن أعيد قراءة هذه المذكرات . ربما كنت أضيف ملاحظة عن القائمة التي أعدتها . فقد كان إعجابي كبيراً بدقة تنظيمها . لا بد أن يكون كل شيء منظماً ، وكانت تيسِّر لك سبل اتباع النظام .
وقد أتيح لي أن أراها بوضوح وهي تنحني فوق القائمة في النور . شعرها طويل غزير ، يتدلّى في تجعيدات سوداء حول وجهها ، وتبدو كناسك في ثبات تركيزها وتوحّدها . هذا هو الموقف الذي أفضلها فيه . أما حين توبّخ فقد كان وجهها يحمر ويتطاير شعرها كالأوراق في الريح . أما الآن فهي هادئة جداً . تطرف عيناها الصغيرتان بسرعة وإيجاز ، وترتجف يداها الصغيرتان القويتان حين تستند بكل ثقلها إلى كوعيها . حاولت أن أتذكر شكلها قبل أن أترك مدرسة القرية ، لكن لم يتضح أمامي أي شيء . تذكرت أن وزنها قد نقص بعد أن التحقت بالمدرسة الثانوية . كان عنقها صغيراً ، وكانت عظام رقبتها بارزة مما شكّل فسحة مثل الطبق المسطَّح بين العظام والكتفين . كان تعبير فمها حاداً ، وقد قست ملامحها في تعبير تأنيب لمدير المدرسة أما حين تضحك ، فإن قسوتها تزول وتتلاشى كقناع . كانت ضحكتها صافية عالية طويلة مثل زقزقة الطيور ، وتضيء كل وجهها . وكان لون وجهها يتغير بأقصى سرعة من شحوبه شبه المصفر المعتاد حين لا يثيرها شيء إلى اللون الأحمر الملتهب حين تغضب أو تثور أو تتحمس . ولم تفقد أبداً النمش البني الدقيق الذي تصعب رؤ يته . أمّا أنفها فكأنه الإصبع السبَّابة وقد أشارت إلى الأسفل ، حاداً ومستقيماً وقوياً . وتذكرت أنها أخذتني إلى الطبيب بُعيد عيـد ميلادي التاسع . لقد توفي نجار من نجاري القرية بتسمّم الدم بسبب جرح في قدمه أحدثه مسمار . وقد أخبرتنا المرأة التي نقلت هذا النبأ بحادثة وفاة رجل آخر لأسباب مماثلة . ومن أغرب المصادفات أن يجرحني مسمار بعيد ذلك . كنت أسير فوق ركام من أشياء متكسرة حين وقع الحادث ، فأقسمت بالآلهة جميعاً أن دمي قد تسمَّم ؛ وظهرت علي الأعراض كلها التي ذكرتها المرأة ، لذلك أخذت إلى الطبيب . قال إن دمي لم يتسمم فتلاشت الأعراض ، وبينما نوشك أن نغادر عيادته سألني ماذا سأصبح حين أكبر . لم أكن أعرف . راقبته بشعره الخشن القصير كشعر الخنزير ووجهه الأملس الأسود ، فبدا لي أن من المناسب أن أقول إني أرغب في أن أصبح طبيباً . قال لأمي أن تدخر نقودها ثم

أردف أن من المؤسف أن جلدي ليس كجلدها ؛ إذ بوجود شعري وجلدها لا بدّ أن تكون الأمور على ما يرام . أستطيع أن أحصل على وظيفة ثابتة في بنك « باركلي » . كان سرورنا بالغا . ولم يخطر لي أن أتساءل أبداً عن كيف حصلت أمي على جلدها . فقد كانت ما يسمُّونه خلاسياً فاتح اللون جداً ؛ وأما أنا فبنيّ اللون .

رفعت رأسها عن الطاولة فخفضت عينيّ إلى الكوب . القائمة أطول مما توقعت . قالت شيئاً لم أسمعه ، ونهضت من مكاني لأكتشف ما شكل الليل . أغلقت الباب وعدت إلى كرسيِّي . الغرفة أكثر ألفة ونوراً ، وعاودت مراقبتها بدقة كأني أنظر لآخر مرَّة إلى شيء لا أستطيع الاستغناء عنه . عاودني ذلك الإحساس ، ثم رأيت صورة الصدفة تحت ورقة الدّوالي . لا رغبة لي في الاستزادة من هذا ، غير أن الفرار منه بدا مستحيلاً . عاودت الانحناء فوق القائمة ، وكان الضوء يسقط عليها مباشرة . وجهها جميل في تركيزه الهادىء . تمنيت ألّا تتكلم حتى تقتضي الضرورة ذلك . دوّنت ملاحظة بالقلم ، ثم رفعت بصرها .

قالت : « تذكر أن تنتبه لأغراضك وتحرص عليها كل الوقت ، لأنك لا تعرف أبداً ما يمكن أن يحصل في هذه الأماكن ، وأنت لا تقدر أن تضيع أي شيء مهما كان . يقول « ديف » إنك لا تعرف أبداً ما يحصل في الجمارك . كان عنده أصحاب ، مفوضون في الجمارك ، وهو يقول إنهم أمناء ، لكن لا يمكنك أن تعرف ما يصير ويحصل » .

وكما سبق أن قالت إن الكلام حق من حقوقها ؛ لكنني كنت أفضل أن أراقبها تطالع الورقة هادئة . غير أنني وجدت أنّ تركها وشأنها أوفر سلامة . عادت إلى الورقة .

قالت : « أريد أن أخبرك بشيئين ، إياك أن تشرب الروم . فهذا عمل شرير يضيع النقود ، والأهم من هذا أنه خطر أيضا ؛ ولمّا تكون في بلاد الغربة فأنت لا تعرف من هو من . وليس السبب أنني خائفة أن يخطر في بال بعضهم أن يؤذوك ، لكن هذا شيء غير لائق أو مناسب أبداً . فكل شيء خلقه الله يحتمل الصَّح ، ويحتمل الغلط » . دوّنت ملاحظة جديدة في الورقة ثم رفعت بصرها

ثانية . خفضت رأسي ونظرت إلى الكوب . أدرتها بحيث طقطقت الملعقة في قعرها . « وفوق كل شيء » ، قالت ، « يجب أن تنفض ثياب النوم كل ليلة . قبل أن تلبسها انفضها نفضتين قويتين . إياك أن تلبسها قبل أن تنفضها نفضاً جيداً لأن « ديف » يقول إن عندهم كل أنواع الحيَّات والثعابين في تلك البلاد » .

ضحكتُ ، فأردفت مسرعة أنها لا تمزح . عادت في منتهى الجدية وبدأت تسرد ماذا وماذا سيحلّ بي إن لم أسمع كلامها . وبعدها حكت قصة رجل لم يكترث أبداً بما يلبسه ، ومرَّة في إحدى الحفلات الفخمة شعر بأم أربع وأربعين تتسلّق داخل بنطاله ، على غير توقّع منه أبداً .

« بعدها لم يعد فيه أي نفع »، قالت ذلك وخفضت رأسها . كان الليل في الخارج قد أصبح أسود حالكاً ، فلم يعد من الممكن أن نرى أي شيء خارج الشبَّاك . واصلت تفحص القائمة ، وكنت أراقبها . لقد عاودني ذلك الإحساس . الإحساس بأنك ترى الأشياء للمرة الأخيرة . وقد شعرت بهذا الإحساس ، لحظة ، أكثف من كل مرَّة سابقة ، وأشد حدَّة . وكنت قد توقَّعت هذا عند البحر في ذلك الصباح ، بل حتى فيما تلا ذلك الصباح من أيام . وكنت أحاول أن أنفضه عني لأنَّه عبء يصعب حمله طويلا ، لكن الأشياء البديلة التي كنت أقوم بها كانت تنعش ذاكرتي بقوة بما أودّ نسيانه . ومن أعراض هذا الإحساس غصَّة في الحلق وتصلّب عضلي غريب في العنق . أنهيت البوظة ، ولم يعد هناك ما يشغل انتباهي . لا أقدر على العودة إلى الدفتر . زوّدتني بنصيحة أخرى وتحذير آخر ، ثم أخذت تعاود قراءة القائمة . ويبدو أنها قد نسيت تضمين القائمة أحد الأغراض التي وضعتها في الحقيبة . قرأتها بطيئاً . وقاطعت قراءتها بتحذير جديد . منحنية فوق الطاولة وعيناها الصغيرتان اللامعتان في حركة جانبية ، ما أشبهها بدجاجة تلملم صيصانها إلى السلامة والأمان ! تراءت الصدفة لي والرمل المنحدر تحت ورقة الدَّوالي . والقرية « والورقة الرابحة » والمساعد الأول . لكن هذا الإحساس يبدو مختلفا بعض الاختلاف الآن . لم يكن أقل حميمية ومباشرة بالنسبة للآخرين ، لكنه مختلف الآن . وأنا أنظر إليها وتتراءى الصدفة لي ينتابني ما يشبه الشعور بأنّي سنّ اقتلع من جذوره المخلخلة ، وقد ترك في اللثة فراغاً ينشغل به اللسان المنقِّب . كنت آمل في أن يقاطعني شيء . بقيت

منحنية فوق الطاولة تراجع القائمة . لا أعلم كم مرَّة قرأتها . وضعت القلم على الطاولة ورفعت القائمة في الضوء . على جانبي الورقة علامات . ثم استدارت للتكلم ، وقد أبقت عينيها على الورقة . راقبت الكوب وأنا أصغي إليها .

قالت : « ووضعت ، فوق كل الأشياء ، الكتاب الصغير . ما وضعته مع غيره من الكتب في صندوقك ، لأني قلت لنفسي إنك قد ترغب أن تقرأه في الطائرة ، وعندها يصعب عليك أن تلاقيه . لعلك تريد أن تضعه في جيبك . هذا أضمن محلّ في رأيي » .

سألتها : « أيّ كتاب ؟ » لم ترفع بصرها عن القائمة . لم أكن قد قرأت أي كتب صغيرة ، باستثناء كتاب واحد ما زال في مكانه على أحد الرفوف .

قالت : « الإنجيل . الكتاب الصغير الأزرق غير المجلّد المحتوي على الأناجيل . وضعته لأني أسمعك دائما تقرأ الأصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا . أنا سمعتك البارحة تقرأ هذا الأصحاح وحدك بصوت عالٍ » . توقفت ورفعت بصرها عن القائمة . أبقيت بصري على الكوب . قالت : « يفرح قلبي لو سمعتك تقرأه . لأني مع كل شيء أسمع الآخرين يقولونه عنك : إنك لا تؤمن ولا بكلمة مما ترمز إليه الكنيسة ؛ أنا أقول لنفسي انه إن كنت ما تزال تجد الوقت لقراءة هذا الأصحاح كما أسمعك تقرأه فأنت ما صرت ملحداً بعد . بل الأرجح أنه ما يزال في قلبك محلّ صغير للأشياء ذات القيمة » .

كنت أرجو ألّا تطيل الكلام في هذا الموضوع . كانت قد أصبحت متجدِّدة تنتمي إلى إحدى الطوائف الإنجيلية ، وهي تعتبر خلاص أحد الأقرباء المقرَّبين مهمتها الخاصَّة . غير أنها كانت متفهِّمة جداً ولم تضغط عليّ إطلاقا للانتماء إلى الكنيسة أو حضور الاجتماعات . كانت تقول رأيها فيما تعتبره صوابا وخطأ وتطلب مني أن أختار . ويبدو أن اختياري لم يحقق رغباتها ، ولكنني لم أعلمها أبداً بموقفي من اختيارها . وهي لم تسألني أبداً .

قالت : « أنت لم تخبرني أبداً أبداً عن الأشياء التي تؤمن بها . لكنني سمعت ما يقوله أعزّ أصحابك. وهي أقوال لا تفرحني أبداً أبداً . وهذا هو سبب عدم محبّة مدير المدرسة الثانوية لك . جاء « هاينز » هنا منذ أيام ، وكان يحكي

للصبي الثاني عما حصل بينك وبين المدير ، وكم أتمنى لو كنت هناك حتى أحطّك في محلّك . لمّا سأل المدير الصف إن كانوا يؤمنون باللّه ، قمت برجولة وتحدّ وقلت : يا رجال ، لا تفيقوا الكلاب النايمة » . توقفت ، وكنت أفكر فيما قد يقود كلامها إليه .

قالت : « لو كنت عارفة من قبل ، كنت قطعت لك ذنبك ، صدقني » .

لم أبد أي مقاومة . فالعاصفة ستمرّ إن أنا لم أقدم أي دفاع عن موقفي . التزمت الهدوء . وبقيت هي ساكنة تتطلع إلى القائمة . ثم طوتها ووضعتها على الطاولة أمامي .

قلت : « سأحتفظ بالكتاب الصغير في جيبي » . لم ترفع رأسها ، لكن أسلوبها تغيّر . تبدو أكثر طمأنينة .

قالت : « إنه أصحاح جيد . الرابع عشر من إنجيل يوحنا : لا تضطرب قلوبكم » ، تناولت القلم عن الطاولة . في السكون وقع من يدها . ثم تكلمت ، وكان من أثر النوعيَّة الجديدة التي اكتسبها صوتها أن أعاد إليّ ذلك الإحساس بكثافة شعورية لم أعهدها من قبل . أبقيت عيني على الكوب .

« « لا تضطرب قلوبكم : أنتم تؤمنون باللّه ، فآمنوا بي . في بيت أبي منازل كثيرة . وإلاَّ فإنِّي كنت قد قلت لكم . وأنا أمضي لأعدَّ لكم مكانا ؛ وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً » » .

انهمرت الدموع فوق شفتيها وانحدرت إلى الورقة . هناك من يدقّ الباب . مسحت وجهها وخرجت

صاحت أمي : « يا للمفاجأة ! » ثم نادتني . سمعت ضحكة صغيرة مثل النحنحة الرجّالية ، ثم ساد سكوت فجائي ، ثم صاحت أمي : « بارك يا رب عيني ! » ، ثم نادتني ثانية . ثم تكلم الصوت الآخر فأسرعت خارجاً لأتأكد من تعرُّفي إليه . إنه « الورقة الرابحة » . ساد صمت فجائي كأننا نرى الأفضل أو الأسوأ . ثم رنّ الضحك في البيت . تكاد أمي لا تتمالك نفسها من اللهفة

والحماسة . بقي في الخارج صبي أو صبيَّان يبحلقان ، من الصبيان الذين تبعوا « الورقة الرابحة » إلى بيتنا . هم لا يدركون سبب الضجّة . مسحت أمي وجهها وبحلقت فينا . « الورقة الرابحة » يبتسم . هي ابتسامة كبيرة كلها اعتزاز وثقة بالنفس . حيرَّتني ثقته .

سألته : « متى عدت إلى هنا ؟ » أرجع رأسه إلى الخلف كأنه غير متأكد من الساعة . لاحظت ثيابه فازدادت حيرتي .

قال : « هذا الصباح ، حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف » . صوته أكثر عمقاً ، وهو يتكلم ببطء أكبر وعناية أكثر . لكن لهجته لم تتغير . قلت : « في الوقت المناسب » . لا أعلم إن كان قد علم أنني راحل قريباً . أمي توشك أن تتكلم . أنا واثق أنها ستخبره . قال « الورقة الرابحة » : « أنا عارف . أنت مسافر غداً » . لا أعلم بما يشعر به ، لكنه يعتبر هذا الأمر حدثاً طبيعياً جداً ، على ما يبدو . فكأن الناس ترحل كل يوم ، كل أسبوع ، كل سنة . لم يبدِ أي استغراب . قالت أمي : « من سوء الحظ أنك ما جئت منذ لحظة ، كنت أكلت لقمة معنا » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا يهم . في هذه الأيام الأخيرة أكلت كثيراً كثيراً » .

رغبت في الضحك . لا أستطيع أن أتصور أن « الورقة الرابحة » قد أكل كثيراً جداً ؛ وأن أسمعه يرفض الطعام هو أشبه بالاكتشاف والتَّجلي . وقد أصابت أمي الحيرة والدهشة أيضا ، وإن كانت تعلم ألاّ طعام لدينا نقدمه له . فنحن لم نألف الرفض الحقيقي ، رغم أننا قد تعلَّمنا أن نقول لا دائما . ضحكت أمي وواصل « الورقة الرابحة » ابتسامه . ابتسامة كبيرة مليئة بالثقة والرضا الذاتي .

قالت أمي : « يلَّلا ، أقعد وخبِّرنا . كيف أمضيت وقتك . ماذا عملت ، وكل شيء . لا بد عندك أخبار كثيرة » . تقذفه بقنابل أسئلتها ، فتتَّسع ابتسامته . ناولها قبعته وجلس في أحسن كرسي في البيت . جلست قبالته وبقيت

أمي واقفة قرب المصطبة . راقبته بدقة يجلس في الكرسي مرتاحاً ومبتسماً . يبدو سعيداً وثرياً . أغلقت أمي نافذتين ، فأصبحت الغرفة أشد إنارة وأكثر ألفة وحميمية . عادت إلى النافذة وبقيت واقفة .

قال « الورقة الرابحة » : « لاحظت بعض التغييرات في هذه المنطقة » . أصبح جادّاً ، كأن التغيير لا يعجبه . ما أغرب سرعة تغيّر التعبيرات في القرية ! آبتسم ثانية حين تكلمت أمي .

قالت : « أي منطقة ؟ » لم تفهم معنى منطقة . ضحك « الورقة الرابحة » .

قال : « أقصد القرية » . ابتسمنا ، وفهم « الورقة الرابحة » . لقد اكتسب كلمة أو كلمتين مختلفتين ، وكنت تلاحظ التغيُّر الذي طرأ على طريقة كلامه حين يستعمل هذه الكلمات فقط . ضحكت أمي وكررت كلمة منطقة . يبدو أنها معجبة بكلمة منطقة كبديل للقرية . تساءلنا عن عدد الكلمات الجديدة التي سيستخدمها « الورقة الرابحة » .

قالت أمي : « يلَّلا ، خبِّرنا أخبار أمريكا » . بقيت واقفة مكانها قرب المصطبة تراقب « الورقة الرابحة » المبتسم . وكلما تكلمت كانت ابتسامته تتسع ، ويبدو أنها تطرح سؤالاً كلما أوشك أن يتكلم . كانت تلح وكان « الورقة الرابحة » يتمتع بذلك ، كما يبدو .

قالت : « نسمع كثيراً عن أمريكا » ، وسحبت كرسيا . أصبحنا كلنا جالسين . رفع « الورقة الرابحة » ساقيه ووضع يديه على ظهر الكرسي . لم يتوقف عن الابتسام أبداً . وكانت أمي ، أحياناً ، تضحك بصوت عالٍ .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أخبار كثيرة أحكيها ، غير أن الولايات المتحدة هي مكان يقدر الرجل أن يحصل فيه على طناجر من النقود » . اتسعت الابتسامة واستراح في جلسته ومدَّ ساقيه . انتظرت أمي بشوق حتى تسمع كيف يحصلون على النقود . فهي تشك دائماً بمن يجمعون الأموال الكثيرة .

قال « الورقة الرابحة » : « هذه هي حياة الأكابر ، كما يسمّونها . كأنها

العالم الآخر . ولمّا أقول لكم إنه كان عندي تليفونان وثلاث مراوح كهربائية في بيتي الصغير هناك ، يمكن أن تفهموا ما أقصد بوضوح » .

انحنت أمي إلى الأمام وقد فغرت فاها . نحن ، في القرية ، نصنِّف الناس حسب ما يملكون . فلو كان عند أحد الصبيان درّاجة ، فهذا دليل على أي نوع من الوالدين عنده ، أما الناس الذين عندهم تلفون ومراوح كهربائية فهم يسمون ، تلقائياً ، « العظماء » . ربّما كان للمالك مثل هذه الأشياء . انتظرت أمي أن يتابع « الورقة الرابحة » كلامه . وكان هو يتمتع بالجلسة . قال « الورقة الرابحة » : « الأشياء تحصل كل الوقت فوق راسك وتحت رجليك . ولمّا تكون آتياً من مكان صغير مثل هنا ، فإنك لا تعرف أحيانا أين أنت . لا شيء صغير أبداً في الولايات المتحدة » . توقف عن الكلام ورفع رجليه . بقي فم أمي فاغراً . قال « الورقة الرابحة » : « يمكن يكون هذا هو المحلّ الوحيد في دنيا الله حيث لا ليل ولا نهار . في الولايات المتحدة لا تعرف إن كان الوقت هو الليل أو هو النهار » .

سألته :. « هل أنت راجع هناك ؟ » بدا السؤال سخيفاً . لكنني كنت أجد صعوبة في تشكيل الأسئلة بسبب الثقة التي تملأ « الورقة الرابحة » وتخرسني . لكنه لم يجد السؤال سخيفاً ، كما يبدو .

قال : « أريد أن أرجع إلى الولايات المتحدة . لكني أريد أن أرجع في ظروف وشروط مختلفة ، إن كنت فاهما قصدي . أريد أن أذهب حراً على حسابي الخاص » .

كلما تكلم عن الولايات المتحدة يتسارع كلامه ، وتتتابع الكلمات دون وقف كأن الجملة كلها عبارة عن كلمة واحدة . لكن المقاطع واضحة ، وقد فهمناها . أمي تتملكها الجدية الآن . لا تحب ذكر أمريكا ، كما يبدو . كنت أتوقع أن تطلب من « الورقة الرابحة » أن يرضي الله ويستقر وينعم بحياة هادئة في القرية . تابع كلامه عن أمريكا وعن الذين تعرف بهم هناك . أنا وأمي تطلعنا إلى ثيابه ، وكان يعرف أننا نتطلع إليه . واصل ابتسامه . كان يلبس بذلة بنيّة خفيفة ورباط عنق صارخ اللون وينتعل حذاء من « الشباموه » . السترة طويلة واسعة ،

أما البنطال فضيق جداً في أسفله وواسع أكثر من المألوف عند ركبتيه . تساءلت كيف يدخل قدميه في أسفل البنطال الضيق . وفي معصمه سوار فضي . وفي عروة سترته شارة عليها أشرطة ونجوم . نظرنا إليه جيداً .

قالت أمي : « منظرك لطيف بالفعل » ، فضحك . جلس في الكرسي مطمئناً ، يكاد يكون في غاية الاسترخاء، وكان يبدو لي أحياناً أن لديه كل الأجوبة لأي سؤال يطرح عليه . كان ما يزال يبتسم ابتسامة كسلى راغدة . كان تعبيره يكتسي بالجدية أحيانا ولكن الابتسامة ترجع فجأة ، فتكاد لا تشعر بالتغيير . حدث ذلك مرتين ، وأنا استهجنته . تساءلت عما إذا كان يدور في باله خاطر غير مُسر . كان يبتسم .

سألته أمي : « لا تعرف متى ترجع ؟ » .

قال : « لا أعرف . لكني أرغب أن أرجع بطريقة مختلفة . يمكن يكون نظام الهجرة مناسباً لبعض الناس ، لكنه لا يعطيك الحرية التي تريد » .

لم تفهم أمي ما قد يريده « الورقة الرابحة » أكثر مما اكتسبه . يبدو في صحة أفضل من أي وقت آخر .

قال : « وأحب أن أعمل ما يحلو لي وقتما يحلو لي . أحب أن أكون حراً » . لم تلح أمي في طلب التوضيح ، لكنني أدركت أنها في حيرة . رغبت في طرح سؤال ، لكنني لم أتأكد مما أريد أن أسأل عنه . كان من الصعب علي التحادث أحيانا . يبدو « الورقة الرابحة » مختلفاً اختلافاً كبيراً عن الشخص الذي عرفت . وأنا أرغب في اكتشاف ماهية هذا الشخص الجديد . استرخى في الكرسي وانزلقت ساقاه أمامه . بإمكاننا رؤية قَصَّة البنطال . لا أدري كيف يدخل ساقيه في المساحة الضيِّقة في أسفل البنطال . ما أشبهه بالأغنياء الذين نراهم في المعرض السنوي . استمرّت أمي تردِّد : كم كل شيء جميل لطيف . علَّقت على المنديل الذي في جيبه ، وأعجبتها طريقته في ترتيب قبّته . فلا يسرها شيء أكثر من قبَّة مرتبة نظيفة .

سألت : « كيف كان شعورك لمّا شفت المكان أول مرَّة ؟ »

قال « الورقة الرابحة » : « بقيت يومين مصاباً بدوار البحر ، لهذا السبب ما شفت المكان من البحر ، لكني سمعت بقية الركاب يحكون عن تماثيل الحرية وغيرها . ومثلما تعرفون ، المهم بالنسبة للتماثيل أنها تجعل المكان يظهر كأن الناس العايشة فيه تنتمي إليه بالفعل . هذه التماثيل تملأني بشعور غريب » . رفع رجليه وابتسم . قال « الورقة الرابحة » : « لكن أول ليلة مشيت في برودواي . هذه دنيا غير دنيا حقيقة . أنا لا أتذكر تماما شعوري بالضبط ، لكن ظهر لي كأن لا شيء حقيقي هناك . هذا شيء أساسي تشعر به بالنسبة لأمريكا دائماً . فمع أن كل شيء يحدث حولك حتى تشوفه بعينك ، مع هذا يظهر كأن لا شيء حقيقي . كان هناك نور ونور وأنوار أكثر وأكثر . بدأ رأسي يوجعني لما كانت الأنوار تضيء وتنطفىء بحيث يظهر كل شيء كأنه لا شيء غير نظام واحد من النور . والضّجة ! ولمّا أقول ضجّة ، أقصد ضجّة ، والله . لو كانت أمريكا أي شيء في هذا العالم فهي بلاد الضّجة ، الناس ، السيارات ، الطيارات ، الباصات ، القطارات ، كل شيء ، صبحاً وظهراً وليلاً ، تظهر كأنها تحكي وتحكي وإن كان هناك نوع من آلات الحكي غير الممكن ضبطها ، فهذه الآلة هي المرأة الأمريكانية . فلمّا تبدأ المرأة الأمريكانية في الحكي ، حتى الأموات لا يسلمون من شرها . في تلك الليلة الأولى مشيت ومشيت ولمّا ما عدت أقدر أن أتحمل الضجّة أكثر ركبت سيّارة ورجعت إلى مخيّمي . ولمّا وقفت السيارة كنت بعيداً عن المخيّم مائتي ميل . ما لقيوني إلّا بعد يومين » .

ضحكت أمي ومسحت عينيها . يتمتع « الورقة الرابحة » بذكرى ليلته الأولى . استراح في جلسته في الكرسي أكثر وتابع .

قال : « امريكا تخلّيك تشعر ، تخلّيك تشعر بأن المكان الذي كنت تعيش فيه من قبل هو قفص . وهناك الكثير من الحياة الفالتة ، والبنات حسب الطلب . أحياناً ما عليك غير أنك تفرقع أصابعك فقط ، هكذا ، فرقع ، فتحضر أمامك حسناء حلوة تدعوك للدخول . لا مشكلة أبداً أبداً » .

سألته أمي : « الدخول أين ؟ » لم تعجبها هذه الناحية في أمريكا .

قال « الورقة الرابحة » : « الدخول في سيارتها . كل امرأة في أمريكا

عندها سيارة ، مثلما كل موظف في الدولة هنا ، عنده درّاجة . ولمّا تدخل في السيارة ، لا يمكنك أن تحزر ما سيحصل . لأنك تفيق صباح ثاني يوم ، الله يعلم أين ، وعيناك جاحظتان من وجهك . وكل شيء ما كلفك أي شيء . صدق أو لا تصدق. الناس تحكي عن العطاء . خليني أخبرك. الأمريكان ناس تعطي كأن ما عندها عقل . إن أحب أمريكاني أن يوفر لك وقتاً كله سعادة ومرح ، فإن أكبر إهانة كبيرة يمكنك أن تهينه بها هي وضع يدك في جيبك وقولك إنك ستشترك معه في الدَّفع . يرفضون هذا إطلاقاً . هم يصرفون الأموال مثل الصبيان الصغار الذين لا يعرفون معنى الحرمان منها . هذه عادة من عاداتهم العاطلة جداً » .

سألت أمي : « من أين لهم كل هذه الأموال ؟ » يتملكها حب الاستطلاع .

قال « الورقة الرابحة » : « من الشغل . في أمريكا كل الناس تشتغل . الرجال والنساء والأولاد . فلو ما كانت أمريكا أي شيء آخر فهي بلاد الشغل وبلاد الضَّجة » .

قالت أمي : « لعلك تشعر بالضياع هنا . القرية صغيرة جداً » . تلاشت الابتسامة واعتدل « الورقة الرابحة » في جلسته واكتسى تعبيره بالجدية . كنت أشعر أنه يريد أن يقول أشياء أخرى مختلفة . فكأن الحديث عن الضجة والأنوار إن هو إلّا محاولة للتعتيم على قضية أخرى . لا أعرف رأيه في القرية . فلقد انتابها تغير كبير منذ رحيله . الغابة ، خط سكّة القطار : كلها زالت من الوجود منذ رحيل « الورقة الرابحة » ، وكان شعوري أنه متأثر من ذلك . ولا أعلم إن كان قد سمع ببيع الأرض . كما لا أعلم ما هو رأيه في ذلك . إنه الآن في غاية الهدوء . ويكاد أن يكون متجهماً . حينذاك حاولت أن أتكلم .

قلت : « حصل كل شيء فجأة » . كنت أشير إلى القرية . « ذهبت سكة القطار أولاً ، ثم الغابة ، والآن كل الحديث يدور حول الأرض » .

تخلَّت أمي عن صمتها . لا طاقة لها على الصمت عند ذكر الأرض . فما أشبه هذا ، بالنسبة لها ، بالقَسَم الحرام باسم الله . قالت : « ما صدّقنا آذاننا .

وحتى الناس الذين يقرأون الجريدة لا يفهمون الأشياء التي تجري . مثل الزلزال بالفعل » .

قلت : « أظنك قادراً على شراء قطعة ؟ » كنت مبتسماً وكان متجهماً .

قال : « أقدر لو أردت . لكني لا أريد . أنا ضد هذا الشراء . فلو انك اشتريت قطعة فأنت تجعل الناس الذين يبيعونها يشعرون أنهم يعملون الشيء الصحيح ، وحياة الله ، أنا عارف أنهم لا يعملون الشيء الصحيح . لهذا السبب أنا أقول لنفسي : ولا سنت واحد أعمى من نقودي » .

تجهمت أمي في البداية ، غير أنها ضحكت ضحكة مدويّة لما ختم « الورقة الرابحة » كلامه . بقيَ « الورقة الرابحة » متجهماً . مشاعره نحو الأرض قوية متحمسة . لم أعثر على ما أقوله لأن مشاعري ما تزال مرتبكة . حين سمعت أن الأرض قد بيعت اعترى تفكيري خلل ما ، ولا أعتقد أني قد شفيت تمام الشفاء . لكنني أدرك شعور « الورقة الرابحة » .

قلت : « مع هذا القضية هي : آشتروا أو ارحلوا » . كنت أريده أن يواصل بحث القضية . وكانت أمي في غاية اللهفة لسماع أقواله .

سأل : « هل تحسبونهم يجرؤون على نقل كل هذه البيوت ؟ لو رفض كل واحد منكم دفع أي سنت ثمناً للأرض ، ولو قررتم كلكم أن تناموا في الشارع أو تجعلوا الحكومة توسع لكم مكاناً في السجن ، هل تحسبونهم يجرؤون على مواصلة هذه الشغلة والاستمرار ببيع الأرض ؟ » تملكه الغضب الآن ، وأعتقد أني سمعته يشتم شتيمة بذيئة . أبقت أمي رأسها خفيضاً وهي تصغي . لم تحدِّد رأيها في السيد « سلايم » ، لكنها تجد كلام « الورقة الرابحة » معقولاً ومنطقياً .

« وفوق كل شيء ، يريدون أن يبعثوا الرجل العجوز ، أبي ، إلى المأوى » .

« ماذا ؟ » صاحت أمي متأثرة . رفعت رأسها بسرعة وحملقت في « الورقة الرابحة » . ثم قالت في ما يشبه اليأس ، إن ذلك غير صحيح .

قال « الورقة الرابحة » : « المأوى . هذا مكان لا يذهب هو إليه أبداً أبداً

بإرادته الحرَّة في هذه الحياة . عند أبي كل الكرامة والعنفوان . ولا يقدر « سلايم » أن يرفع عينه إلى وجه أبي إن كنا نحكي عن العزَّة والكرامة . لكن هذه هي الحياة . وهذه هي سُنَّة العالم . وفي عالم ملآن بالذين من شكل « سلايم » ، لا يوجد أي منفذ للناس الذين ما تعلّموا الاحتيال » .

قالت أمي : « الحقيقة القضية صعبة جداً » . وأبقت بصرها مصوّبا نحو الأرض .

قال « الورقة الرابحة » : « صعبة كلمة غير مناسبة . يظهر لي ، في أوقات كثيرة ، إنها نوع من الجريمة . لا أقل ولا أسوأ من جريمة شنيعة » .

قالت : « لا تقل هذا . هذا ما قاله أيّوب أيضا ، لكنه كان غلطان . دائماً هناك منفذ لو انتظرت وصلَّيت » .

قال « الورقة الرابحة » : « أنا أقول لكم . أنا راجع لتوِّي من الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنا أعرف . هناك يوجد ناس عددهم مئات الألوف يدفعون أي شيء حتى ما ننشر غسيلهم الوسخ » .

تغيّرت طريقته كليا . لم تناقضه أمي ، وإن كانت تعرف أنه على خطأ ، وأدركت أنها قد أحسَّت بالتغيرّ الذي اعتراه . صمتنا فترة نتفكّر في الأرض . ففي الأيام القليلة الأخيرة أوشك ألّا يكون أي حديث ذا قيمة باستثناء موضوع الأرض . هذه هي قضية كل زمان وفي كل مكان . استخدمها القسيس في اجتماع الهواء الطلق أساساً لموعظته . وفي الكنيسة الكبيرة أقاموا الصلوات من أجل من يسيء التغيير إليهم . يلتقي القرويّون في زوايا الطرقات وفي الدكاكين ، ودائماً السؤال هو إياه . كيف ستتدبَّر أمورك ، يا بنيَّ ؟ لو كنت أقدر على نقل البيت القديم لنقلته ، لكنني أعرف أنه ليس متيناً المتانة المطلوبة . الأمر ليس مأموناً بالنسبة لي أيضا . فلان وفلان يقترحون عليَّ أن أبيع وأحصل على السنتات القليلة وأذهب لأسكن في مكان آخر . لكن أين تذهب وأنت في هذا العمر الكبير ؟ منذ متى تقيم هنا ؟ الله وحده في السماء يعلم . أنا ولدت فلقيت البيت العتيق في مكانه ، وعمري الآن تقريباً ستّون سنة . كنت أحاول نقل بيتي وإن كنت لا أدري كيف سأقيمه من جديد . لكن لماذا باعوها وهم يعرفون ما

سيحلّ بنا ؟ أربعمائة دولار ، كما يقولون . ومع الفائدة ، قد تصبح خمسمائة . هل تعتقد سيستطيع أي منا دفع هذا المبلغ ؟ لا أعرف . ترى ماذا ستكون النهاية ؟ لا أعرف . بدأ « بويسي » يسكر لأنه لا يطيق احتمال هذه الفكرة ، كما يقول . وانظر كيف تغيَّر الإسكافي . ومن تعتقد المسؤول عن كل هذا ؟ لا أعرف . الوداع ، يا بنيّ ، حاول الحصول على المزيد من الأخبار . الأرض وجع راس ، يا بنيّ . هذا هو حال الدنيا من أيام الخليقة . الله عمل غلطته الكبيرة حين التفت إلى الأرض . هذا هو العيب الوحيد في كل ما خلقه . أنت تقصد الأرض ؟ نعم ، الأرض . آه الآرض !

قال « الورقة الرابحة » : « إذن أنت راحل غداً . سيكون التغيير مفيداً » .

تركت أمي الغرفة . كانت قد روت قصتين عن الأرض ، فضحكنا ضحكاً كثيراً ، لكن أسلوب « الورقة الرابحة » لم يتغير . بقي كما هو . نحن جميعاً متورطون في بيع الأرض ، لكن « الورقة الرابحة » هو أول من زرع في نفسي هذا الشعور بالظلم الهائل في هذه الصفقة . لا عواطف خاصّة عندي تجاه السيد « سلايم » . لقد علمني في مدرسة القرية ، وكنت أعتقد ، حسب كل ذكرياتي عنه ، أنه لا غبار على أخلاقه . ولم أكن على علم بما حدث منذ ترك المدرسة . لعلَّه قد تغيّر . لكن « الورقة الرابحة » يتحدث بما ينم عن احتقاره شبه التجريمي للسيد « سلايم » ، مما يحيِّر أمي . فلقد عرفت السيد « سلايم » هي أيضا ، وهي لا توافق على هذا الرأي . امتلأت بالشك . لقد قام « الورقة الرابحة » بلفت انتباهنا إلى زاوية جديدة في قضية بيع الأرض . كان القلق يملأنا بالنسبة لما قد يحلّ بقطعتنا ، لدرجة أننا ناقشنا احتمالات شرائها . لقد تغيّر شعوري ، وصارت أمي أقل ثقة بموقفها . أصبح السيد « سلايم » مشبوهاً . لا شكّ عند « الورقة الرابحة » أبداً . فهو يحتقر حتى الاسم نفسه . وكان يرتسم على وجهه القرف الذي يثيره مجرَّد ذكر هذا الاسم. قال: «أنا لا أعرف الكثير عن ترينداد»، وأخذ يستعيد تمالك أعصابه ، « لكن قد تسافر أبعد منها في يوم من الأيام ، وهناك أشياء كثيرة لازم تتعلمها . الأشياء الواجب عليك أن تتعلمها في الحياة ما شفتها أبداً ولا ستشوفها أبداً في الكتب التي قرأتها في المدرسة الثانوية . يمكن هذا هو ما يسمِّيه العجائز التجربة والخبرة ، لكن خذها مني ، ما عدا تعلُّم العدّ وكتابة اسمك ،

فلا شيء في هذه المدارس حتى يساعدك حتى لا تلخبط حياتك لمّا تخرج من المدرسة إلى الحياة في هذا العالم . صدِّقني هذه هي الحقيقة » .

سألته : « ما هو رأيك في السيد « سلايم »؟ » أريد أن أسمع منه المزيد حول موضوع الأرض . لعلّي أنا أيضا أرغب في تكوين رأيي الخاص .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أضيع الوقت في التفكير فيه وتكوين الرأي عنه . ولا يدهشني أبداً ما عمله . هذا هو ما تعلمته في الولايات المتحدة ، وأنا قادر على التعامل مع كل أمثال « سلايم » إن اعترضوا طريقي . من زمان أعطى الوعد أن الناس هنا سيصيرون ملاّك الأرض . قال لهم أن ليس هناك ما يمنعهم من شراء هذه الأرض ، وكان معه حق ، لأني أنا متأكد أن النقود نفسها التي وضعت في البنك والجمعية هي التي اشترت الأرض ، وبعد هذا سجّلها باسمه . هذا هو ما أعرفه . فلا شيء يعمله يدهشني » .

قلت له : « هناك غيره متورطون معه . أنا أعرف بعضهم » .

قال « الورقة الرابحة » : « أكيد هناك غيره . دائما هناك أكثر من شخص متورط في مثل هذه الصفقة . وأنا غير مندهش . أما الرجل الذي يثير تفكيري فهو المالك . فأنا لا أفهم مليح سبب مغامرته هذه المغامرة . الحقيقة إنها مغامرة كبيرة » .

« أي مغامرة ؟» فلم أكن أرى أية مغامرة في بيع الأرض.

قال « الورقة الرابحة : « المغامرة التي عملها ، فلا سبب هناك أبداً تحت الشمس يخلّيه يبيع «سلايم » هذه الأرض» .

قلت : « لا أفهم ما تقصده بمغامرة . فأنا لا أرى أية مغامرة » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا أعرف . يمكن أنا استعملت الكلمة الغلط . سمِّها ما يحلو لك ، لكنّنا سنكتشف ، في يوم من الأيام ، سبب بيع المالك لسلايم هذه الأرض . لكن تذكّر هذا : هذا العالم هو عالم معسكرات ، وعليك أن تكتشف محلّك في أي معسكر هو . وفوق كل شيء عليك أن تحافظ على نظافة هذا المعسكر » .

هذا كلام كله ألغاز . لم أفهم المغامرة . لكن « الورقة الرابحة » واثق من صحة فرضيّته . لكنه لم يشرحها ، وقررت أنا عدم الخوض بعد . وقف قرب الكرسي يقلب يديه في جيبيه . عادت أمي إلى الغرفة وأغلقت شبّاكا آخر . الليل كثيف .

قال « الورقة الرابحة » : « سنذهب في مشوار قصير . قصدي ، إن ما كان عندك مانع » . سلَّمت أمي عليه مودِّعة . سبقته خارجاً من الباب نازلاً الدرجات ، وتبعني قريباً مني .

لم تكن مصابيح الغاز في تقاطع الطرق قد أضيئت بعد ، لكن الضوء ينبعث من إحدى الدكاكين ، ويتراقص في شبابيك بيتين أو ثلاثة . والسماء كخيمة كبيرة سوداء تخيّم فوق كل شيء . القمر تحت الغيوم وقد احتجبت النجوم . لقد حل الظلام باكراً وتكثّف بسرعة . سرنا سوياً جنباً إلى جنب صامتين . اقتراح هذا المشوار هو اقتراح « الورقة الرابحة » ، فانتظرت منه أن يقول شيئا . ينبعث من بعض البيوت صوت الكلام الخفيض ، ويسمع من البعد صوت غناء تشترك فيه أصوات عديدة . لا أطفال في الشارع ، ولعلّ الغناء مرده إلى أن جوقة القرية تتدرب على الإنشاد قبل مباراة عيد الفصح . لقد نقلت الجوقة مقرها من دكان الإسكافي إلى إحدى الغرف الخالية تحت دكان البقال في الشارع الرئيسي . كانوا يلتقون ، حتى عهد قريب ، في دكان الإسكافي في القسم المخصّص من البناء لسكناه . لكنه يكاد لا يظهر أو يبين منذ انتشار أخبار الأرض وخصوصا منذ أن استلم الإنذار بالإخلاء . ولا يعرف أحد إن كان سينقل الدكان ، أو أنه يخطط لشراء قطعة من الأرض في موضع آخر في القرية . لكن الجوقة اتخذت لنفسها مركز تدريب جديد . توقفت الأصوات فجأة ثم ارتفعت فجأة من جديد . كان السَّواد عارياً خلف البيوت وعند البيت في رأس التلّة . وفيما مضى كنت ترى أشكال الأشجار لتدلك على الطرق ، لكننا نعرف القرية فلا خطر هناك من سيرنا في الطريق الخطأ .

لا أعرف أين ينوي « الورقة الرابحة » أن نتجه ، لكنني خمنت أننا سنسير في الطرقات حتى ننتهي أخيراً إلى شرب كأس عند « كيرتون » ؛ فليس من المحتمل أن نقوم بمشوار مماثل قبل رحيلي . كان حذاء « الورقة الرابحة » يصدر

صوتاً كأنه حذاء جديد . وكنا نتعثر ، أحياناً ، بقناة قليلة العمق ، حيث اهترأ سطح الطريق ؛ لكن المطر لم ينهمر فلم تتشكل أية بركة . هناك عدد من هذه القنوات ، وقد حفرها الأولاد بعصيِّهم أو مضاربهم للإفادة منها في لعبة الكريكت . انطفأ الضوء في الدكان ، فبدا الليل أشد كثافة . الشوارع خالية إلا من الحيوانات الشاردة ، ومعظمها من القطط التي تنبش وتقفز بين الأسوار على جانبي الطريق . تساءلت إن كان القط الأسود بينها ، وانتابني إحساس أن أقنع « الورقة الرابحة » أن يتعاون معي لاصطياده . أردت أن أدلي بهذا الاقتراح ، لكن « الورقة الرابحة » لم يكن قد نطق بكلمة فكنت مرتبكا . ولقد حيّرني موقفه وتصرفه منذ أن ذكرنا الأرض . اعتقدت أنني وضعت يدي على مفتاح رسالته ، رغم أني لم أكن أعرف ما هو هذا المفتاح . مررنا ببيت السيد « فوستر » وبيت أبي ، ولم نسمع أي حركة تصدر منهما . وفي بيت أبي كان القنديل يضيء خفيضا ، وكان الشباك حيث يجلس عادة ما يزال مفتوحاً ، لكننا ما رأينا أحداً . انتابني الشعور بأن النوم قد غلبه . وصلنا إلى الطريق حيث كان خط سكة القطار يمتد فيما مضى ، فرفع « الورقة الرابحة » رجليه استعداداً واتقاءً . ثم أنزل إحدى قدميه بشدّة وعنف ، فضحكنا . ولا أدري إن كان قد نسي أن خط السِّكة قد اقتلع ، أو إن كان يحاول المزاح والتنكيت . هذا أول صوت يصدر عنه منذ تركنا البيت . لم أكن أدري بما يفكر « الورقة الرابحة » ، غير أنه يحمل هذا التغيير في القرية على محمل الجدّ البالغ . نحن نشعر به أيضا ، غير أنّ أحداً منا لم يبد مثل هذا القلق والاهتمام . لم يعرف معظم القرويين ما يقولونه . كانوا يتكلمون بدون أي منطق أو اتزان ، مرقّعين آلاف الإشاعات بعضها إلى بعضها . فهناك من لا يصدق أن السيد « سلايم » قد اشترى الأرض . وقد تم اختراع سيد « سلايم » جديد ، وسرت هذه الإشاعة وسادت أياماً عديدة . ليس السياسي هو المالك الجديد . لكن هذه الإشاعة لم تعمِّر طويلا . قابل بعضهم السيد « سلايم » غير أنه لم يتأت عن ذلك أية نتيجة . نظَّم عقد اجتماع عام يخطب فيه عن مصير القرية . يبدو أن الخطط ما تزال توضع من أجل سلامتهم وأمنهم . لكن الشعور السائد عموما هو خيبة الأمل والحيرة . ولم أكن متأكداً من أن المرارة التي تسيطر على « الورقة الرابحة » لم تكن قد بدأت قبل أن نفتح حديث الأرض . فلقد كان شديد النّقد ، رغم أنه قد أفاد كثيراً مِن العيش في أمريكا . ولم تقدر أمي أن

تكتشف إن كان يرغب لنا أن نعتقد أن أمريكا مكان صالح ، أم هي مكان طالح . لكنّا كنّا ، ببساطة ، سعيدين جداً برؤيته ثانية .

مرّت قطة بنا مسرعة نحو الشجيرات . ثم انبعث الصراخ مما يدل على أن القطط تلهو من جديد . صدر صوت عن « الورقة الرابحة » هو أشبه بالشخير منه بالصوت . قال شيئا عن القطط والضفادع وعن تلك الليلة التي تسلّلنا فيها إلى ساحة المالك . سررت لأنه بدأ يتكلم . وصلنا إلى الطريق الذي يؤدي إلى بيت المالك ، فعاوده الهدوء من جديد ، ففكّرت أنه يستعيد الذكريات الماضية . كانت هنا ، حيث نسير ، تقوم الغابة الكثيفة ذات النسيم العليل بعد الظهر . وكانت أشجارها تحجب عنك رؤ ية أي شيء خلف بيت المالك . أما الآن فلم تبق أية شجرة . المكان خلاء أسود بلقع . وفي التلة انبعث ضوء من بيت المالك ، لكن لا ضوء في الساحة . الوقت متأخر أكثر ممّا حسبت . تساءلت عما تراها تكون أفكار المالك حول الأرض ؛ إذ لم يسمع أحد الكثير عنه . ولم يكن أحد يعرف ماهية شعوره باستثناء الرجل العجوز ، أبي . كان قد أخبر الآخرين أن المرأة العجوز التقته قبل موتها وأنهما تحادثا معاً . كانا يعرفان أنه سيبيع الأرض ، لكنهما لم يتوقعا حصول ذلك بمثل هذه السرعة المفاجئة . ولم يمهل الموت المرأة العجوز لشهادة هذا . لم يتكلم « الورقة الرابحة » . فيما مضى كنّا نسير سوياً في مثل هذا المشوار ، بدون كلام ، ولكننا كنا ندرك استجاباتنا الجسدية كلاً منا تجاه الآخر . لكن ذاك زمن مختلف . هذا هو إنجاز المدرسة الثانوية . غير أن القرية قد أعادت تعمير ما سبق للمدرسة الثانوية أن دمّرته . هذا الصمت مختلف أشد الاختلاف . لا علاقة له بالمدرسة الثانوية .

وصلنا إلى الطريق التي تشكّل حدود القرية ، فوقفنا نتفكر في أي طريق نسير . المكان هنا أكثر حيويّة . أنوار الشارع مضاءة والباصات غادية رائحة . هذا هو الشارع الرئيسي الذي تمتد القرية منه حتى تلتقي « بلفيل » في الجانب الآخر . إنه فعلاً حدود القرية ، غير أنه قد أصبح جزءاً من القرية ، شأنه شأن غيره من الكلمات التي تخص المالك وتعتبر من ضمن أملاكه . كان الناس يملأون دلاءهم بالماء في أحد المواقف العامّة . تجمهروا حول الأنبوب يتدافعون ويتصايحون . كان أحدهم يصرخ أحياناً أن من الأفضل الوقوف في صف منتظم إذ

حينها يملأون الدِّلاء بسرعة أكبر . كانوا يوافقون ويزيدون من عنف تدافعهم . فلا أحد يعلم لمن الدور . تشابكت الدِّلاء في هذه الفوضى والتزاحم ، وتصايحت الأصوات وسمع صوت تلاطم المياه بالأرض ، فحين يضعون الدلاء تحت الأنبوب ، ثلاثة أو أربعة معاً ، ينزلق الماء على جوانبها ويتطاير رذاذاً كثيفا فوق رؤوسهم . منظر قبيح لكنه طريف يسلِّي . وقفنا في الجهة المقابلة مراقبين . لم يتكلم « الورقة الرابحة » . وصل الشرطي فحلَّ السكوت في اللحظة نفسها . توقف التزاحم ، واصطفوا بانتظام ، الواحد وراء الآخر . ثم سمعت همهمة خفيضة وعلا فوقها صوت نزول الماء في الدَّلو . ها هم ينجزون الأشياء . استدار الشرطي ودخل الدكان فارتفع الصراخ من جديد . عاد إلى المشهد ، فساد الصمت التام .

تابعنا سيرنا نحو دكّان الرُّوم . قال « الورقة الرابحة » كلاماً عن « كيرتون » وازدهار أعماله . صعدنا الدرجات ودخلنا الدكان . تكاد تكون مهجورة . سحب « الورقة الرابحة » كرسيا ودعاني للجلوس . جلسنا في الغرفة الصغيرة التي كنا نراقب ، ونحن صبيان صغار ، معلم القرية يدخلها . هذا المكان هو امتياز لمن يشترون الصِّنف الأجود من الروم ، أو لمن لا يرغبون أن يراهم أحد في الجانب الآخر من القرية . أعتقد أن « الورقة الرابحة » لم يكن يكترث في أية جهة من الحانة نجلس ، لكن لا كراسي في الجهة الثانية . فالرجال الذين يدخلون تلك الجهة لا يجلسون لشرب الروم أبداً . كانوا يطلبونه في قدح صغير ويميلون رؤوسهم إلى الخلف ويقذفون بالخمرة في حلوقهم . ثم قد يأكل البعض منهم فلفلة ، وتكتسي وجوههم بتعبير شنيع كثير الالتواء بسبب طعم الفلفل الحارق ، ثم يطلبون قدحاً ثانياً من الروم . لا وقت لديهم للجلوس . جلسنا متقابلين ، وخلع « الورقة الرابحة » قبعته ووضعها على الكرسي . أحضر الرجل الروم ، فقرعنا قدحينا ببعضهما . هذا هو نخب الوداع . شرب « الورقة الرابحة » الروم ووضع قدحه على الطاولة . يوشك أن يتكلم . رشفت رشفة من قدحي وانتظرت .

سألني : « أنت لا تعرف الكثير عن السياسة ؟ » رمقني بنظرة مباشرة كأنه غير واثق أنني سأجيبه بصدق . يا له من سؤال غريب !

سألته : « ما تقصد ؟ » انتابته الحيرة كما انتابتني .

قال : « ما تقصد ما أقصد ؟ أنت تعلّمت تعليما أحسن مني » .

قلت : « أعرف معنى السياسة . لكنني لا أفهم ما تقصده أنت » .

قال : « أقصد ما أقصده . هذه لعبة كبيرة ملعوبة أمام الناس في العلن » .

قلت : « أنا لا أعرف أنها لعبة . لهذا السبب سألتك ماذا تقصد . أنا أعتبرها مسؤولية كبيرة أكره أن أحملها أنا نفسي » .

قال : « فعلا تكره هذا حقيقة ؟»

قلت : « أكيد . لا أحب فكرة أن أكون مسؤولا تجاه المئات من الناس . تخوّفني كثيراً فكرة أن يطلب مني كل فلان وعلتان وفليتان أن أشرح لهم سبب عملي أي شيء أعمله »

رشف من قدحه ، ثم وضعه على الطاولة . إنطفأ أحد الأنوار فاكتست الغرفة بنصف ظلام .

قال « الورقة الرابحة » : « من واجبك أن تتعلم أشياء كثيرة . في يوم من الأيام الماضية كان عندي الاحترام اللازم واللائق لأشخاص معينين . لكن اليوم راسي تدوّخه فوضى كبيرة . هناك شيء واحد فقط تحت الشمس أنا متأكد منه ، وسأخبرك به بعد دقيقة أو دقيقتيّن . من واجبك أن تتعلم أشياء كثيرة » . ويزداد التماع عينيه . رشفت رشفة جديدة من مشروبي .

قال : « هناك ناس يتأذّون دائما ، لأن عندهم كل أنواع الأفكار عن هذه الحياة ، ما عدا الأفكار الصحيحة . والغلطة ليست غلطتهم . قسم من هذه الناس لا يقدر على العيش والكفاح والنجاح في ما نسمِّيه الحياة . هذا ما حاولت أن أقوله لك في رسالتي . لأني أعرف أنك واحد من هذه الناس . هذه الفكرة التي تؤمن أنت بها ، فكرة أن الأشياء هي كما تعملها أنت وتعتقد أنها هي كذلك . هذا كلام مليح ومناسب لروضة الأطفال. لكنه غير صالح لما نسمِّيه الحياة » . رشف مشروبه ومسح وجهه . بدأ المشروب يفعل فعله . قال : « أعرف رجلاً في

الولايات المتحدة كان من هذا النوع . كانت عنده نظرية مضحكة حول السياسة . قال يجب أن تترك السياسة لأشخاص معينين ، لأن عندك غيرها من الهموم حتى تنشغل بها . كانت نظريته تقول إن السياسة تصلح لمكان واحد فقط وإن السياسيين لا يقدرون أن يعملوا أي شيء للرجل العادي في الحياة الواقعية . كان يستعمل تعبيراً لن أنساه أبداً أبداً . يقول إن السياسة تختصّ بالعلاقات الخارجية . هذا هو تعبيره : العلاقات الخارجية . أشياء مثل التسوّق وشراء هذا ودفع ثمن ذلك . السياسة هي هذه الأشياء ، نوع من أنواع التدبير المنزلي الراقي المستوى . وفي داخل كل سياسي ، هو يقول ، يوجد شيء من المدبِّر المنزلي . لكن هذه الأشياء كلها هي علاقات خارجية ، كما يقول . وهم ، أهل السياسة ، لا علاقة لهم بالناس ، مثلي ومثلك ومثله ومثلها . وبعد هذا أعطاني أمثلة . هناك الإسكافي والخياط والبقال وغيرهم من الناس الذين يقدمون لي الخدمات ، لكن هؤلاء لا يعرفون أي شيء عني أكثر من وزني ومقاسي وذوقي في الأكل . والحال نفسه بالنسبة للسياسة . كأن السياسي هو ، بطريقة من الطرق ، إسكافي وخياط ومدبر منزلي مختلطين مع بعض في واحد . هذه هي خارجية » .

أنهى شرب كل ما في قدحه وأشار إلى الساقي بإحضار المزيد . ما قاله أثار جلّ اهتمامي . مسح وجهه مرة ثانية .

قال « الورقة الرابحة » : « آخر شيء سمعته عنه ، هو أنه في مصح للسكِّيرين للعلاج من الإدمان . صار سكيراً ، وهو الآن ميؤوس منه » .

سألته : « لأي سبب صار سكِّيراً ؟» .

قال « الورقة الرابحة » : « لأن الأشياء تختلف عن رأيه هو فيها ، وهذا سبَّب له الأذى . أصيب بصدمة كبيرة وما شفي منها أبداً . كان مثل الرّاهب المعطوب القضيب ، وهو لا يدري كيف حلّت به هذه العاهة المعطِّلة » .

انطفأ نور جديد في الدكان فأصبحت الغرفة مظلمة . لقد ملأ الساقي قدحينا . قرعناهما معاً ووضعناهما على الطاولة . جاءنا الساقي قائلا إن الوقت قد حان لإغلاق المكان ، لكن إن نحن رغبنا فإنه يغلق الأبواب ويدعنا نبقى عدة دقائق أخرى .

قال « الورقة الرابحة » : « سنشرب هذه القدح ، وقدحاً أخرى » .

شربت قدحي بسرعة ، وأتانا الساقي بزجاجة صبّ منها الروم في قدحينا . أشعل أحد الأنوار في الغرفة . كان « الورقة الرابحة » يبحث في جيب سترته .

قال : « سأريك شيئاً قبل أن تذهب . إنه علبتي الصغيرة » .

تناول العلبة الصغيرة من جيبه ووضعها على الطاولة . هي في حجم كاميرة جيب صغيرة ولها مَسْكَتان في جهتها الأمامية ويمتد سلك من الخلف إلى امام مطوِّقاً كل جهاتها . لمس « الورقة الرابحة » قطعة من السلك فأشعل نور في العلبة . نظرت في داخلها إلى هذه الآلة الصغيرة الدقيقة من الأسلاك واللّمبات والمحرِّكات . أدار « الورقة الرابحة » المحرِّك فصدر صوت طقّة خفيفة منفردة ثم همهمة أزيز أسلاك تلتف خفيضة ، وأخيراً الموسيقى . جلسنا صامتين نستمع إلى الموسيقى . كان نشيداً روحياً زنجياً تشترك عدَّة أصوات في إنشاده . كنت أعرف اللَّحن لكنني لم أستطع أن أتذكر عنوان الكلمات . استمر الغناء ثلاث أو أربع دقائق ، ثم سمعت طقّة جديدة وتكرّرت همهمة أزيز الأسلاك . وكان الضوء في أحد الجوانب قد سجّل الرقم «١» ، فأدار « الورقة الرابحة » محركاً آخر وسجَّل الضوء الرقم «٢» . انطلق نشيد روحي زنجي جديد . كان الغناء منفرداً والصوت نسائياً . لم يتكلم « الورقة الرابحة » ولم يخطر لي أن أقاطع الغناء . قررت أن أسأله عن هذه الأناشيد فيما بعد . استمر هذا الغناء المنفرد حوالي الخمس دقائق ، ثم سمعنا الطقّة وأزيز التفاف الأسلاك ، وسجّل الضوء الرقم «٣» . ما أروع هذا ! رشفنا رشفة أخرى من المشروب ، وجاء الساقي إلينا ليستمع إلى الموسيقى .

كانت حماسته شديدة فرغب في نداء السيد « كيرتون ، صاحب المحل ، لكن « الورقة الرابحة » استوقفه . بقي الرجل مكانه يراقب العلبة الصغيرة . أدار « الورقة الرابحة » المحرِّك من جديد ، واستعددنا لسماع المقطوعة الثالثة . امتد أزيز التفاف الأسلاك فترة أطول مما سبق مع النشيدين الروحيين الأوّلين . رشف « الورقة الرابحة » من مشروبه ، ثم وضع قدحه بقوّة على الطاولة وقال : « هذه مقطوعتي المفضّلة . والمغنِّي هو الأفضل عندي » .

توقّف أزيز الأسلاك وعزفت الموسيقى خفيضة حزينة ابتداء ، ولكنها أخذت ترتفع تدريجاً حتى النشوة . ثم خفتت وانطلق صوت عميق وجميل في ضبط إيقاعه ورنينه . جلس « الورقة الرابحة » ثابتاً وقد أحنى رأسه قريباً من العلبة . لم يسبق لي أن سمعت أي شيء يشبه هذا الغناء . أنا لا أتذكر هذا النشيد الروحي الزنجي ، لكن ما أهتم به هو الصوت . حاولت متابعة الكلمات ، لكنني لم أستطع ذلك ، غير أن « الورقة الرابحة » أخذ ينطق بها خلال الغناء . إنها أكثر جمالاً بهذه الطريقة . صدرت الطقّة ، وانطفأ الضوء الجانبي الذي يسجّل الارقام . انتهى الغناء ، لكن « الورقة الرابحة » واصل ترديد الكلمات بصوت خفيض رزين . حاولت أن أحفظها وهو ينشدها :

« دعــوا شعبــــي حـــرّاً »

قلت : « أحب هذه الأغنية . ما أروع كل هذا ! » .

سألني « الورقة الرابحة » : « هل تعرف هذا الصوت ؟ » كان الآن في منتهى الجدّية .

حاولت أن أتذكر إن كان قد سبق لي سماعه . لم أستطع .

قال : « هو « بول روبسون » ، واحد من أعظم عظماء شعبي » .

سألته : « أي شعب ؟» كنت محتاراً قليلا .

قال « الورقة الرابحة » : « شعبي » . لهجته مفعمة إصراراً . لكن ملامحه رقّت حين ابتسم . ولم أدرك إن كان يبتسم من جهلي ، أو هي ابتسامة الرضا من العلبة والصّوت وفوق كل ذلك ، من « بول روبسون » .

سألته : « من هم شعبك ؟ » كأن ذلك نكتة كبيرة .

قال « الورقة الرابحة » : « الجنس الزنجي » . تلاشت الابتسامة من وجهه ، وعاد إليه الوقار والرزانة . أنهيت مشروبي ونظرت إليه . أدرك حيرتي . هذه الحيرة بشأن شعب « الورقة الرابحة » حقيقة واقعة. لقد ظننته ، في البداية ، يقصد القرية . لكن هذا الولاء أكبر وأبعد . رغبت في أن أفهمه . شرب كل ما في قدحه ووضعه على الطاولة .

قال : « لم أفهم ذلك حتى وصلت إلى الولايات المتحدة » .

ألححت في سؤاله : « لم تفهم أي شيء ؟ » أنا أفهم الجنس الزنجي فهماً تاماً ، لكنني لم أدرك علاقتي بذلك . لم يتكلم .

ألححت مجدداً : « تفهم أي شيء ؟ ماذا فهمت هناك ؟ » .

كرر قوله : « شعبي ، أو أحسن ، جنسي . في الولايات المتحدة اكتشفت هذا ، وسأحافظ عليه حتى يأتي ملكوت الله ؟ » .

فترة من الصمت ؛ ثم طلبنا المشروب من جديد ، فملأ الساقي قدحينا وتركنا .

قال « الورقة الرابحة » : « هذا هو ما قصدته لمّا قلت إنّك لا تفهم الحياة . وأنا نفسي ما كنت فاهمها حتى وصلت إلى الولايات المتحدة . فلو كان هناك شيء واحد فقط أشكر أمريكا عليه فهو أنها علّمتني من هو جنسي . والآن لن أفقد هذا أبداً . أبداً أبداً إطلاقاً » .

قلت : « عندنا هنا ناس سود اللون أيضاً » . ذلك أني لم أدرك قصده تماماً .

قال « الورقة الرابحة » : « أنا عارف ، لكن هناك فرق . فرق كبير كبير . هذا شيء مختلف كل الاختلاف . الناس السود الذين هنا هم شعبي أيضا بكل تأكيد ، لكنهم لا يدركون هذا بعد . وأنت نفسك غير مدرك بعد . ولا واحد منكم كلكم هنا في هذه الجزيرة يدرك معنى أن يجد الجنس . والناس البيض الواجب التعامل معهم لن يسمحوا لك أن تكتشف هذا أبداً . وهذا شيء عظيم في صفات الإنجليز العارفين كيف يسيّرون الأمور . فلو كان هناك أمّة في الخليقة تعرف كيف تعمل الشيء وتخلّي غيرها يعمله فهي أمة الإنجليز . كان صاحبي في الولايات المتحدة يسمّيهم الإداريين العظماء . وأنا شفت في أمريكا الرجال يُضربون ويُرفسون بسبب أنهم سألوا سؤالاً ، مجرد سؤال بسيط . الوضع هنا مختلف . لا يمكن أن يحدث هذا هنا أبداً . نقدر أن نمشي هنا أينما نريد ، إن كان المكان من الأمكنة العامّة ، وعندنا معلمون بيض ، ونحن نحكي مع الناس

البيض في كل وقت وفي كل مكان . شعبي هنا يزورون بيوت البيض وكل هذه الأشياء . وتطلَّع إلى النوادي مثلا . هناك بعض النوادي التي لا نقدر أنا وأنت أن نذهب إليها ، ولا أي شخص غيرنا من شعبي هنا ، بغض النظر عن من هم ، لكنهم لا يقولون لنا إننا لا نقدر أن نذهب . هم فقط يرفعون لافتة تقول : « الأعضاء فقط » ، وهم يعلمون كل العلم أنك لن تقدر أبداً أبداً أن تصير من الأعضاء . ومع أننا نعلم من البداية سبب عدم إمكان ذهابنا هناك، فإننا نتعزّى بأننا لا نقدر لأننا لسنا أعضاء . أمّا في أمريكا فإنهم لا يهتمون بمثل هذه المواربة والمداورة » .

سألته : « ما الفرق بيننا وبين الناس السُّود هناك ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « الفرق كبير وضخم . فهم يتعذبون عذابا لا نعرفه نحن هنا . لا نقدر أن نفهمه هنا ولن نقدر أبداً . لكن عذابهم علّمهم أشياء لن نعرفها نحن هنا أبداً . الجنس ، شعبنا » .

رشفت رشفة من قدحي وحاولت توضيح الأمر لنفسي . تذكرت الرسالة التي كتبها إليّ وأدركت سبب عدم اتضاح معناها . كأن هذه هي فرصتي الأخيرة للاكتشاف والتوضيح . أنا أفهم القرية ، والمدرسة الثانوية ، وأمي والمساعد الأول . وبطريقة منطقية مقبولة ، أستطيع أن أقول إن كل هذه الأشياء هي لي وتخصّني . وأنا أفهم جزيرتي ، وإن تكن أقل ذاتية وأقل مباشرة لكنّها ليست خارج نطاق آدِّعاءاتي . فأنا أحكي عن جزيرتي . لكن هذا الكيان الجديد مختلف . الجنس . الشعب . وكان « الورقة الرابحة » على حقٍّ في قوله إن أشياء معيّنة لا يؤتى على ذكرها في المدرسة ، لكنني لا أدري ماذا كان بإمكان المدرسة الثانوية أن تقول عن هذه الأشياء . فهم لا يقدرون أن يعلّموني كيف أنتمي لهذا الشيء الذي يدعوه « الورقة الرابحة » الجنس والشعب . وعليه فلا مدعاة لغضبي منهم ، من هذا المنطلق . الجنس . شعبي .

« هل أنا واحد من شعبك ، يا الورقة الرابحة ؟» كان سؤالي يشارف اليأس . كنت قد بدأت أعتقد أن عالماً آخر أوسع كثيراً وإلى درجة لا متناهية من المدرسة الثانوية قد بدأ يفصل مباعداً بيننا .

قال « الورقة الرابحة » : « أنت ، بالتأكيد ، واحد من شعبي ، لكنك لا تقدر أن تفهم وأنت هنا . مستحيل هنا . لكن لمّا تسافر ، وإذا سافرت أبعد من تريندداد فإنك ستتعلَّم » .

قلت : « أنا سمعت بقصص كثيرة عن المعاملة القاسية التي يتعرض لها الناس السود في أمريكا ، لكنني لا أفهم معنى قولك إنها مختلفة » .

قال « الورقة الرابحة » : « لا يوجد مثل هؤلاء الناس أبداً . والحقيقة أنه لن يوجد مثلهم أبداً إطلاقاً » .

« ما السبب ؟ » .

تريَّث ، ورشف رشفة من مشروبه .

قال « الورقة الرابحة » : « أنت تعرف نحن نقول عن الرجل هنا إنه رجل زنجي . أحياناً ، لمّا تغضب ، تقول إن فلاناً الفلاني هو رجل زنجي ملعون . وأحياناً هنا يتحدث البيض عن الشعب الزنجي . لكن الوضع مختلف في الولايات المتحدة » .

«ماذا يقولون؟» كانت لهفتي للسماع أكبر من لهفته للشرح.

قال « الورقة الرابحة » : « هناك ، هم يقولون ببساطة : الزنوج . وأحيانا : هذا الزنجي أو ذاك الزنجي وأشياء مثل هذا ».

« وما الفرق ؟ » .

قال « الورقة الرابحة » : « الفرق هائل . كلمة واحدة مفردة تعمل هذا الفرق الهائل . لهذا السبب لا تقدر أبداً أن تتأكد مما تقدر الكلمة على عمله . أنا زنجي ، وكلنا مجتمعين مع بعض ، زنوج . ليس هناك « رجل » وليس هناك « شعب » . فقط زنجي وزنوج . ومع أن الفرق يظهر كأنه بسيط ، لكنه في الحقيقة هائل . هو فرق هائل ليس بالنسبة للبيض بل للسُّود . السود هم الذين يتأثرون من عدم ذكر كلمة « رجل » أو « ناس » أو « شعب » . وهكذا نحن نتعلم « الجنس » . هذا هو ما تقدر الكلمة أن تعمله . والآن لا يوجد في كل

أمريكا أي رجل أسود لا يصرخ على رؤوس الأشهاد : أنا زنجي وأنا فخور بهذا . نحن كلنا نفتخر بهذا . أنا سأقاتل من أجل حقوق الزنوج ، وسأموت وأنا أقاتل . هذا ما يقوله لك كل رجل أسود في الولايات المتحدة . ولا وقت عنده للتفكير بحقوق الانسان أو البشرية أو الشعوب أو ما يخطر في بالك أن تسمِّيها . إنها حقوق الزنجي ، لأننا استمررنا نستعمل الكلمة التي يستعملها الآخرون عنّا ، وصرنا ، الآن ، نوعا مختلفا من المخلوقات ، لكن علينا أن نهتم أولاً وقبل كل شيء بحقوق الزِّنجي ، لأنه ، مثل كل أنواع المخلوقات الثانية ، يجب أن يهتم بنفسه أولاً . ولو كانت حقوق الإنسان وحقوق الزنجي هي الشيء الواحد نفسه ، لاختلف الوضع ، لكنها مختلفة ، لأننا نحن نوع مختلف من المخلوقات . هذا هو ما تقدر أن تعمله كلمة صغيرة بسيطة ، وهذا هو ما ستتعلّمه أنت عاجلاً أو آجلاً . ستسمع عن الرجل الإنجليزي والرجل الفرنسي ، والأمريكاني وهذا معناه الرجل الأمريكي . وكل واحد منهم يحمل هذا الاسم لأنه ولد هناك في هذا البلد المعيّن . لكنك ستصير زنجيا مثلي ومثل كل البقيّة في الولايات المتحدة وفي كل العالم ، لأن لا علاقة لهذا بالبلد الذي ولدت فيه . هذا هو ما أنت : نوع مختلف من المخلوقات . ولمّا تكتشف هذه الحقيقة التي خبّرتك بها وتصير زنجيا ، فتصرّف كما يجب عليك أنِ تتصرف ، وإيّاك أن تسأل التاريخ لماذا أنت هو ما تعتقد أنك هو في ذلك الوقت ، لأن التاريخ ما عنده أي جواب . أنت لن تكون أي شيء حتى تدرك أنت ذلك ، ولهذا السبب لا أنت ولا أي واحد غيرك في هذه الجزيرة قد صار زنجيا بعد ، لكن إن كانوا هم غير عارفين ، فأنت ستعرف وتدرك لأنه إن كان عقلي يخبرني بالحقيقة ، فأنت ستذهب إلى أبعد من ترينداد بكثير ، ولهذا السبب أحضرتك معي إلى هنا لنتحدث هذا الحديث ، لأنِّي أخاف عليك حتى الموت لمّا أفكر فيما سيحدث . والآن لا تقدر أن تقول : « الورقة الرابحة ما خبّرني » . خلّينا نشرب آخر قدح » .

ملىء قدحانا ، وتناول « الورقة الرابحة » قبعته ووقف قرب الطاولة . بقيت جالساً لحظة . لم يكن عندي ما أقوله إذ لم أكن مستعداً لما حدث . لقد جعل « الورقة الرابحة » من المعاناة التي خبرها ، اكتشاف الجنس ، الناس ، الشعب ، ما يشبه الرؤيا . وهذا غير كل ما عرفته ، ويبدو أنني لن أعرفه حتى أعيشه .

وضع قبعته على الطاولة ، ووقفنا متقابلين صامتين وقد مددنا يدينا . تلامس قدحانا .

« أتمنى لك من أعماق قلبي ، الأفضل من كل شيء » . كان صوته ثابتا واثقا ، وفي غاية الرقة مع ذلك . تجرعت المشروب بدون كلام . الغصّة في حلقي ، وتلاها ذلك الشعور . هذا هو القدح الأخير .

غادرنا الدكان وسرنا في الطريق المؤدِّي إلى « بلفيل » في الناحية الأخرى من القرية . ولزمنا الصمت من جديد . كل الدكاكين مغلقة . لقد زاد الليل كثافة ، وظننت أن المطر سرعان ما ينهمر . فأنا لم أر مثل هذا الليل في حلكته منذ زمن طويل . الشوارع مهجورة . لم يتكلم « الورقة الرابحة » ، ورغم أنني رغبت في قول بعض الأشياء ، فإنني لم أحاول قولها لأنني أدركت أنه سيتعذر علي أن أسبغ على الكلمات صوتاً . لقد فهم والتزم الصمت . مهما تكن معاناته ، فإن ثقته مذهلة . لقد وجد ما يحتاجه ، فلا مشاكل بحاجة إلى حلول ، بعد . ومن الآن فصاعداً ستكون حياته مستوية مستقيمة بدون أي تعقيد . فهو يعرف الجنس ويعرف ناسه وشعبه ، كما يعرف ما تعنيه هذه المعرفة . هنا في هذه القرية ، بل في كل أنحاء الجزيرة ، نحن نعرف الفروق بين السُّود الأغنياء وبين غيرهم من البسطاء الأقل حظاً ومالاً . وأنا عرفت كليهما . فهناك فرق بين مدرسة القرية والمدرسة الثانوية. وهناك فرق بين « الورقة الرابحة « و« بوب » ، وبين الأصدقاء الذين عرفتهم في المدرسة الثانوية فيما بعد . . لكن الفرق الذي اكتشفه « الورقة الرابحة » هو من نوعية مختلفة كليا . هذا شيء هائل كالبحر والسماء وقد اتّحدا معاً : أن تكون نوعاً مختلفا من المخلوقات . هذا خارج نطاق كل خبراتي . الحيل التي يعتمدها البيض للاحتفاظ بالنوادي لهم وحدهم ، واضحة بالنسبة لي ، لكنني أعرف أيضا أن بعض السود يعتمدون حيلاً مماثلة لاستثناء غيرهم من السود الذين لا يستوفون الشروط التي يطلبون . ولم أكن أعرف سبب ذلك . يقوم نوع من التحامل التملُّكي بين البيض والسود ، وبين السود والسود ، لكن لا يمكن أن يكون ذلك ناتجا عن الأسباب التي أوردها « الورقة الرابحة». فمهما تكن الأشياء التي عانيناها ، فنحن لم نعرف هذا الاختلاف : أن تكون نوعاً مختلفا من المخلوقات . ما أصعب التفكير ! أن تكون جزءاً من شيء لا تعرفه ؛ لكن عليّ

واجب اكتشافه ، إن كان « الورقة الرابحة » على حق . الوقت متأخر جداً مما يحول دون طرحي أي سؤال ، وعلى أية حال ، فأنا أعتقد أنني أعرف كيف سيجيبني « الورقة الرابحة » . لست قلقا بالنسبة لواجبي . فعندي الوقت الوافر لاكتشاف ما قد اكتشفه « الورقة الرابحة » واختبره ، لكن فكرة جديدة قد طرأت لي . لنفترض أنني لم أكتشف ، هذا هو الأسوأ : **فكرة أن تكون جزءاً مما لا تقدر أن تكونه وتصيره** . ولم يقلّل من رعب هذه الفكرة غير ثقة « الورقة الرابحة » وتوكيده . كم أحسد هذه الثقة ! لقد وجد شيئا يحتضن أعمق غرائزه وعواطفه . هو زنجي وهو فخور بذلك . ويستطيع الآن أن يمشي تحت الشمس أو أن يصعد إلى أعلى تلة ويصرِّح بأنه الدَّليل الأكثر سواداً على انعدام الضمير عند الرجل الأبيض . ولو كان الله موجوداً في السماء أو لو كان هناك أي إمكانية للعدالة على هذه الأرض ، فإن تجلّي هذا الاختلاف الجديد يشكِّل مبرراً لهذا الوجود . أن تكون نوعاً مختلفاً من المخلوقات .

استدرنا حول السور وتابعنا سيرنا قدماً . وفي البعد ظهر ضوء كأنه ضوء شمعة أو هو فتيلة محترقة ملتصقة بعلبة تنك فيها زيت . قال « الورقة الرابحة » شيئا عن الضوء ، لكني لم أسمعه . هناك أصوات عديدة عالية تردد أوامر وتوبيخات . اقتربنا فازدادت الأصوات وضوحاً . الضوء ينبعث من علبة تنك فيها زيت مربوطة بحبل إلى إحدى العربات . إنها عربة كبيرة من عربات الجرّ باليد التي تتطلب جهود عدة رجال في وقت واحد لسحبها . العربة واقفة عند حافة الطريق والرجال يقفون كل اثنين أو ثلاثة معاً حول البيت . هذا دكّان الإسكافي . لم نسمعه ، لكنني أعتقد أنني أعرف ما يجري . يجهل « الورقة الرابحة » ما جرى مؤخَّراً بين الإسكافي والرجل الغريب . لم أتكلم . ارتفعت الأصوات من جديد ، وسمع دوي سقوط ألواح الخشب . ثم ضاع كل شيء في الصراخ .

قال صوت : « جاهزون » ، فأجابته جوقة أصوات : « الآن ، الآن » .

صاح صوت آخر : « إرفعوا » ، فأجابته الجوقة : « إلى فوق ، إلى فوق » .

الضَّجيج مخيف . فتح شباك أو شباكان ، لكن لم ينبعث أي نور منهما . ثم

ارتفعت الأصوات كلها معاً ، كأن هذا الجهد سيكون الجهد الأخير . الصياح مخيف . رفعوا بهدوء ، دون أن ينطقوا بكلمة واحدة ، بينما ارتفع البيت عن الأرض التي يقوم عليها . ثم سمع فجأة صوت ارتطام في الداخل وصوت أقدام تتراكض بجنون . لقد انهارت القواطع والسقف . لقد تحوّلت دكان الإسكافي إلى ركام من الخشب يتكوَّم فوق الحجارة . تراكض الرجال من كل النواحي والجهات ، ووقفنا قبالة المشهد صامتين بل شبه ذليلين . لا شيء يمكن لنا أن نفعله .

قال أحد الرجال : « تماماً مثلما قلت . لا يمكن نقل الدكان . فهي تقوم في مكانها منذ أكثر من ثلاثين سنة » .

قال صوت آخر : « كان من الممكن نقل رقعة من هنا ورقعة من هناك ، أما نقل الدكان كاملة ، فهذا شيء خطر ، أنا قلت لنفسي » .

قال آخر : « ما كان ممكنا أن يعمل أي شيء آخر . كان عليه أن ينقل » .

قال غيره : « لن يكون الإسكافي نفسه ، بعد » .

وقال آخر : « ولن يكون أي إسكافي مثله أبداً أبداً » .

جلسوا على العربة بلا أمل . قيلت بضع تعليقات أخرى عن الإسكافي ، ثم ساد الهدوء .

انسحبنا بدون كلام . هذا أول بيت يحاولون نقله ، لكنه لن يكون الأخير . فالإشاعة الرَّائجة هي أن السيد « فوستر » سينقل سريعاً . لقد وجد قطعة أرض في مكان آخر من الجزيرة ، ويقال إنه سيعمل في الأرض لقاء السماح له بإقامة بيته فوقها ؛ والناتج من نصيب مالكها . من الصعبَ أن نفكر فيما سيحدث لبيت السيد « فوستر » . وهناك أربعة أو خمسة بيوت غيره . وسيتوجب عليهم جميعا الرحيل ، عاجلاً أو آجلاً . ماذا بإمكان « الورقة الرابحة » أن يعمل ؟ ماذا أستطيع أنا أن أعمل ؟ وماذا بإمكان كل واحد منَّا أن يعمل ، نحن الذين نعرف القرية ونعيش فيها ونحبُّها ؟ ماذا يستطيع كل واحد منا أن يعلمْ ؟ لا شيء أقدر أنا أن أعمله .

« يا الورقة الرابحة ـ » ، قلت هذا ، وقد نسيت ما أريد أن أقوله . لم أكن متأكداً أنني سأراه في الصباح . كان يصغي . لم أقدر ، لحظة ، أن أتذكر ما أريد قوله . أعتقد أنها كانت محاولة للهرب من التفكير بالقرية . سألني عما أريد .

قلت : « هل تتذكر ذلك اليوم الذي صرفناه على الشاطىء ، من زمان ؟ أنا وأنت و« بوب » و« الصبي الأزرق » » .

أجاب بالإيجاب ، لكن صوته كان يحمل نوعاً غريباً من اللاّعلاقة ؛ فتساءلت إن لم يكن هو ، أيضا ، يفكر بالقرية .

قلت : « هل تذكر حديثك عن شعور ، شعور كبير عاطل في قاع المعدة . شعور هو أنك وحيد وحدك في العالم ، ومع أن هناك المئات من الناس يتحركون حولك ، فهذا لا يعمل أي فرق . يدوخك . وقال « الصبي الأزرق » إنه يدوخ من مجرّد التفكير بهذا » .

سألني : « هل تشعر بمثل هذا الشعور الآن ؟ » وآعتقدت ، مرة ثانية ، بوجود نوع من اللاعلاقة في صوته . كأنما هو يعرف ما أريد أن أقوله ، ولا يكترث به ، لأنه يعرف ما الخطأ . هذه هي الثقة التي لا أستطيع الغور فيها ، لكنني رغبت في أن أشرح ما أشعر به .

قال « الورقة الرابحة » : « الرجل الذي يعرف ناسه وشعبه ، لن يشعر بهذا الشعور أبداً . إطلاقاً » . أمسك بيدي وهزَّها بعنف وهو يكرّر الأمنية التي تمنَّاها لي في الدكّان . تواعدنا على اللقاء في الصباح التالي ومشينا في اتجاهين مختلفين .

* * *

بقي الرجال في العربة يهمهمون . معظم البيوت مغلقة بإحكام . لا بدَّ أن يكون صوت ارتطام حطام دكّان الإسكافي قد أوقظ بعض الجيران . فتحت نوافذ قليلة ، غير أنه ما انبعث أي نور من أيٍّ منها ولم يتكلم أحد . استمر الرجال في همهمتهم . لم يسمع أحد الإسكافي ولم يره . ولا يدري أحد إن كان في الجوار لأنه لم يتكلم . يسيطر الهدوء إلاَّ حين تعلو أو تخفت أصوات الرجال ، بين الآونة والأخرى . لا يعرفون ماذا يعملون . لقد تحطَّم البيت ، وتكمن مشكلتهم في

إيجاد مكان يجمعون فيه ألواح الخشب المتكسّرة . ولا يعرف أحد كيف سينظر مالك الأرض الجديد إلى سوء حظ الإسكافي . فلا البيت يمكن نقله إلى قطعة أخرى ، ولا هم يقدرون على التفكير في إعادة إقامته حيث تحطَّم . فلا شيء يمكن إعادة تركيبه وتصليحه . قال أحد الرجال إنه أنذرهم ألَّا يلمسوا البيت . كان عليهم ألَّا يحاولوا نقله . حصلت مشاحنة حادثة . كان من الواجب نقل البيت وقد دفعت لهم أجرة العمل. قال رجل آخر إن عليهم القيام بمهمتين أخريين في الشارع نفسه . عليهم أن ينقلوا بيتين آخرين في الليلة التالية . تجادلوا بهدوء إن كان من واجبهم أن يحاولوا القيام بذلك . لم أكن أعرف عدد البيوت اللازم نقلها . حاولت ألَّا أفكر في ذلك ، إذ لم يكن في مقدوري أن أعمل أي شيء . تركت الرجال خلفي وأسرعت خطواتي . لم أعِ أنني كنت قد وقفت أصغي لمشاحنتهم . استدرت يساراً حيث تتقاطع طرق أربع . كان بيت السيد « فوستر » مغلقاً بإحكام . لا ضوء إطلاقاً هنا ، فبان الليل أشد وطأة وكثافة . هذا آخر ما رأيت من دكان الإسكافي ، والطريق ، والرجال المزمجرين باضطراب وارتباك . ثم سمعت صوتاً كأنه انبثق كشيء من خلال الظلام . كان أمامي ، لكنني لم أتمكن من الرؤية . تقدَّمت على رؤوس أصابعي وأصغيت .

قال الصوت : « ما الذي أصدر هذا الصوت ؟ » علمت أن هذا هو السؤال الذي لم أسمعه في البداية . اقتربت وحين تكلم الصوت ثانية تعرَّفت إليه . إنه صوت الرجل العجوز ، أبي .

قلت : « ماذا تعمل في الخارج ؟ » كنت مندهشاً جداً لرؤيته في هذه الساعة . ظهر كأنه لم يسمع ما قلته . وهو ، بالتأكيد ، لم يعرف من المتكلم

قال : « هذه الساعة في الليل غير مناسبة أبداً لعمل مثل هذا الصوت » . اقتربت أكثر وسألته ثانية ماذا يعمل في الخارج في هذا الوقت المتأخر أظنه ، على الأرجح ، قد أضاع طريقه ؛ فأنا لا أذكر مثل هذا الظلام الحالك ، إلَّا نادراً .

سأل : « من المتكلم ؟ » وانتابني الشعور أنه قد استدار ليواجهني . كنَّا قريبين جداً الآن .

سألت ثانية : « ماذا تعمل في الخارج في هذا الوقت المتأخر ؟ » فتعرف إلى الصوت . كان قد لمسني بعصاه .

قال : « ألقي النظرة الأخيرة على المكان » .

فاتتني الملاحظة . ظننته يمزح وينكّت لانه يعرف أنني مسافر في اليوم التالي .

سألته : « لماذا النظرة الأخيرة ؟ » كنت على استعداد لمجاراته في النكتة .

قال : « لأنني راحل غدا » . وكانت لهجته كلها تصميم .

قال : « وأنا أعرف في أعماق قلبي أنني لن أدعس هنا مرة ثانية » . لقد أراح إحدى يديه على كتفي ، ثم رفعها ، وأعادها بالسرعة نفسها إلى كتفي . خطرت في بالي فكرة ما يمكن أن يكون قد حدث لكنني لم أكن متأكداً من أنه يودّ الحديث عن ذلك . فالمأوى ليس بالمسكن الذي يعترف به الإنسان . أعرف ذلك . أردت أن أعرف رأيه في الذهاب إليه ، لكنني رأيت أن من السخافة سؤاله . بماذا يمكن أن يشعر؟ بالإضافة إلى ذلك ، لا رغبة لي في إثارة أية عواطف يستحيل تحمُّلها . أنا لا أعلم طول المدَّة التي عاشها في القرية ، لكن من المؤكد أنها أطول من المدة التي صرفها هنا كل القرويِّين الذين أعرفهم . لقد عرف الإسكافي منذ كان صبيّاً .

قال : « كلانا راحل غداً . أنا إلى آخر مقرّ أرتاح فيه قبل القبر ، وأنت إلى العالم الواسع الواسع » .

قرَّرت ألاَّ أسأله عن المأوى . لكنني رغبت في قول شيء يحمل بعض الفرح . وقفنا خارج بيته ننتظر أن يودّع واحدنا الآخر .

قال : « كانت ليلة مثل هٰذه الليلة ، من تسع سنين ، لمّا تدحرجت المياه بدون نهاية فوق المكان كله . كان الفيضان هائلاً لدرجة أنني لا أريد أن أشعر بأي شيء مثله مهما أعطاني هذا العالم » .

توقف وطرق الأرض بعصاه .

قال : « يمكن أنك لا تتذكر أي شيء عن الفيضان ، لأنك بالكاد كنت فقست من البيضة » .

قلت إنني أتذكره .

قال : « كنت صغيراً في وقته ؛ صغير جداً حتَّى تهتم بالمصيبة التي حلَّت . لكنها كانت البداية لأشياء كثيرة في هذا المكان . جاء الإضراب وجاءت الانتفاضة والتمرُّد ، وإشاعة من هنا تلحقها إشاعة ثانية ، والآن مشكلة الأرض . شفنا بنك البنس والجمعية ، والآن هذه هي النهاية » .

سألته : « ما رأيك بالسيد سلايم ؟ » كنت أود أن أستجيب بشكل ما إلى كل ما قاله .

قال : « لا أعرف . رجل قطع وعداً ، ورجل تغيَّر ، والرجل الذي قطع الوعد ليس هو الرجل نفسه الذي تغيَّر ، وأنا لا أعرف ، لا أعرف من له الحق حتى يحكم لماذا تغيَّر أو إن كان من الضروري أن يتغيَّر في الأساس . لا أعرف » .

توقف ، ثم قفزت قطة في الشارع . كانت تركض من ناحية إلى أخرى ، كما يبدو ، غير أننا لم نتمكن من رؤ ية أي شيء . اقتربنا من البيت . وتحسس بعصاه باحثا عن الدرجات .

قال : « خذ بالك من نفسك ! » .

مسح بيده على رأسي ثم انحنى وقبلني على جبيني .

قال : « هذا آخر شيء يقدر الرجل العجوز أن يعطيه ، قبلة البركة . لعلك ستتذكر أبي لأنك لن تراه مرة ثانية أبداً » .

كنت على وشك الكلام .

قال : « لن تراني مرة ثانية ، يا بني » . وتحسس طريقه صاعداً الدرجات . أغلق الباب برفق وراءه .

مكثت لحظة لأرى إن كان سيشعل النور . لقد تملّكني ذلك الشعور من جديد . لقد رأيت شيئاً ما لآخر مرَّة .

« في ليلة مثل هذه الليلة من تسع سنين تدحرجت المياه » . القرية / أمي/ صبي بين الصبيان/ الرجل الذي يعرف ناسه وشعبه لن يشعر بالوحدة/ أن تكون نوعاً مختلفاً من المخلوقات . كلمات وأصوات تتساقط كالمطر الغزير ، ويعود الرجل العجوز مع الصَّدفة تحت ورقة الدَّوالي فوق الرمل : لن تراني مرة ثانية ، يا بنيَّ .

كان التراب الذي أسير فوقه كتلة من السَّواد ، وكنت أعرف بحسّ أعمق من مجرد الرحيل البسيط أنني قد ودَّعت، ودَّعت الأرض .

* * *

